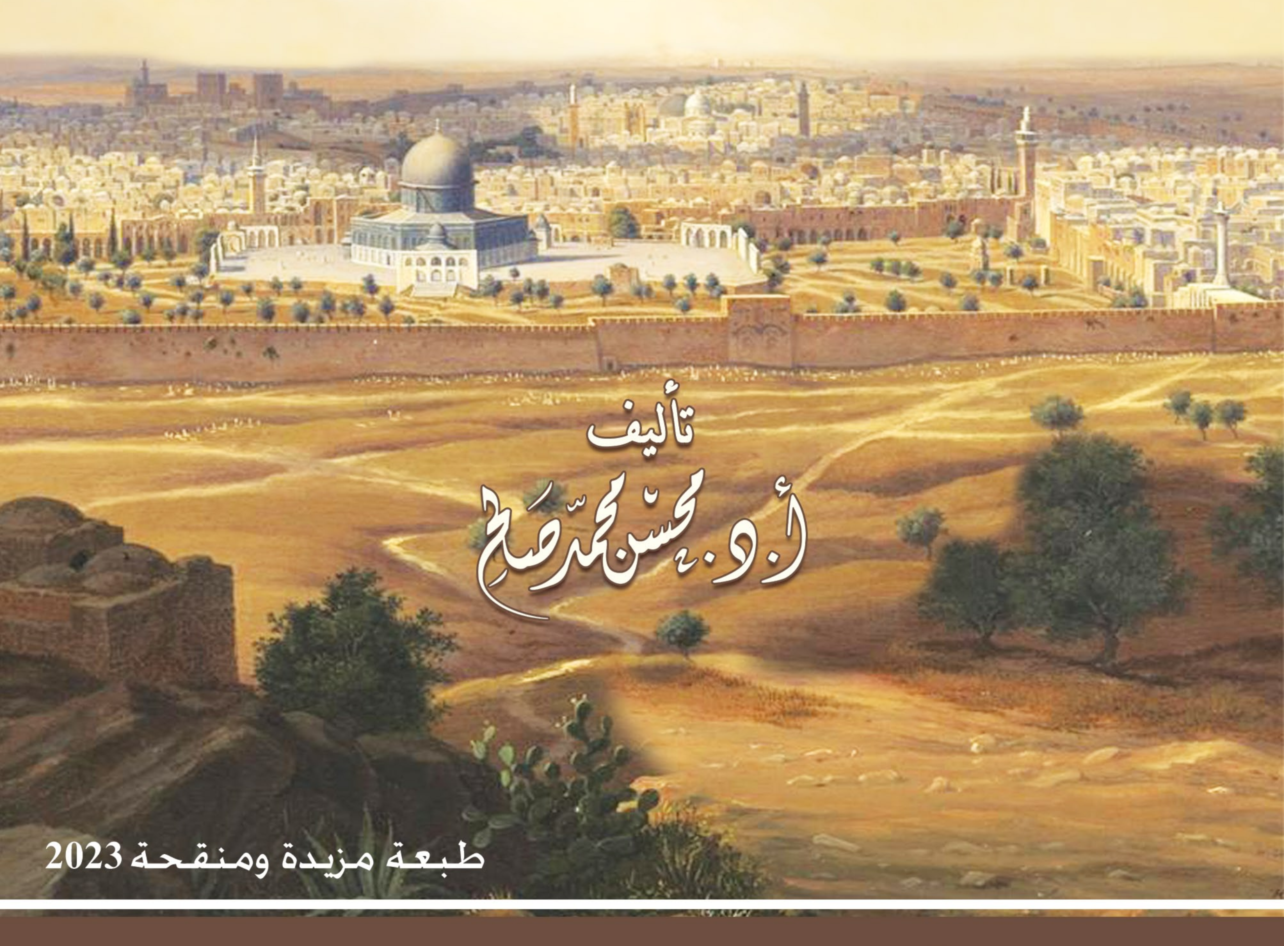
الطريق إلى القدس

دراسة تاريخية

في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
منذ عصور الأنبياء وحتى القرن الحادي والعشرين



تأليف

أ.د. محسن محمد صالح

طبعة مزيدة ومنقحة 2023

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت



الطريق إلى القدس

دراسة تاريخية

في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى القرن الحادي والعشرين

تأليف
أ. د. محسن محمد صالح

تقديم
أ. د. عماد الدين خليل

طبعة مزيدة ومنقحة 2023



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

بيروت – لبنان

The Road to Jerusalem

A Historical Study of the Islamic Experience in the Land of Palestine From the Time of the Prophets to the Twenty First Century

By:

Prof. Dr. Mohsen Mohammad Saleh

الطبعة السادسة

2023م — 1444هـ

بيروت — لبنان

ISBN 978-614-494-036-5

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

تلفون: 44 36 80 1 961 +

تلفاكس: 43 36 80 1 961 +

ص.ب.: 14-5034، بيروت – لبنان

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net **الموقع:** www.alzaytouna.net

يمكنكم التواصل معنا والاطلاع على صفحات المركز عبر الضغط على التطبيقات أدناه:











تصميم وإخراج

ربيع معروف مراد

فهرس المحتويات

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

حظيت قضية فلسطين بأعداد هائلة من الدراسات والكتب والمصنفات في شتى المجالات، وما تزال محوراً لاهتمام الكُتَّاب من عرب، ويهود، وأوروبيين، وأمريكان وغيرهم. غير أن إعداد الأبحاث والكتب في قضية فلسطين من وجهة نظر إسلامية هو مما ما تزال تفتقر إليه المكتبة الفلسطينية، بالرغم من أن عدداً من هذه الدراسات أخذت في الصدور خصوصاً منذ الثمانينيات من هذا القرن.

لقد كان الدافع الرئيسي من إعداد هذا الكتاب هو محاولة تسليط الضوء على التجربة الإسلامية التاريخية على أرض فلسطين، وفق رؤية إسلامية علمية موضوعية، ووفق تصور ينبع من فهم المسلمين لهذه القضية المقدسة وبما يتوافق مع تراثهم وهويتهم الحضارية. وهي رؤية تستفيد من إسلامية المعرفة ومن النظر في سنن الله سبحانه في الكون والحياة والاعتبار منها.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب كتاب أكاديمي موثق من الناحية العلمية، إلا أن مؤلفه سعى ألا يحصر قرّاءه في المثقفين والأكاديميين فقط، فحرص على أن يكون أسلوبه سهلاً، وابتعد عن الجفاف والجمود قدر الإمكان، بحيث يطلع عليه، ويستفيد منه أكبر عدد من القراء، وهو مع ذلك حافل بالمعلومات بعيد عن الخطابة العاطفية والإنشاء.

ويأمل المؤلف أن يستجيب هذا الكتاب لرغبة الكثير من القراء الذي يودون التعرف على تاريخ فلسطين وقضيتها، من وجهة نظر إسلامية، في كتاب واحد مُركَّز يجمع بين دفتيه مجمل الصورة المرادة. ولعله بذلك يكون مدخلاً مهماً لكل مبتدئ، وأساساً ينطلق منه كل من يرغب، بعد ذلك، في التخصص والتوسع. كما يرجو المؤلف أن يقدم هذا الكتاب تعريفاً شاملاً بقضية فلسطين وتاريخها وتجربتها الإسلامية، دونما حاجة إلى أن يقرأ كتباً كثيرة للوصول إلى الصورة المرجوة. ونحسبه، بذلك، مصدراً للمسلمين الذين لا يعايشون قضية فلسطين دائماً، ولا تشكل محور اهتمامهم الأساس اليومي.

لقد حاولنا في هذا الكتاب انتقاء المعلومات واختصارها والتركيز على مواطن العبرة والعظة، والشرح والتفصيل حيثما اقتضت المصلحة، والاختصار والإجمال، في مواطن أخرى، دون إخلال بالصورة العامة. ودار الكتاب حول محور أساس هو التجربة الإسلامية على أرض فلسطين ساعياً إلى إثبات عمقها وعراقتها وأصالتها، مبيناً أن الراية الإسلامية هي الراية التي نجح المسلمون تحت ظلّها في الحفاظ على مقدساتهم وتحريرها من كل غاصب.

وبعد، فنسأل الله سبحانه أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، والصدر مفتوح لكل اقتراح ونقد بنَّاء.

والحمد لله رب العالمين

د. محسن محمد صالح

1995

مقدمة الطبعة السادسة

صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة 1995، حيث لقيت بفضل الله قبولاً واسعاً، فتبعتها طبعة ثانية ما لبثت نسخهما أن نفذت في بضعة أشهر. وبناء على رغبة العديد من الزملاء والقراء في التوسع في طرح التجربة المعاصرة وخصوصاً فترة الانتفاضة المباركة وما بعدها، فقد جاءت الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة حيث غطت بشيء من التفصيل الأحداث حتى شهر آب/ أغسطس 1996.

وقد قام مركز الإعلام العربي في القاهرة بإعادة طباعة هذا الكتاب سنة 2002. ثم أعيدت طباعته سنة 2012، بعد تدقيق النص؛ حيث تم توفيره للتحميل المجاني.

في هذه الطبعة تم إدخال تعديلات كبيرة على المادة المتعلقة بالتاريخ الحديث والمعاصر؛ إذ تم التوسع فيها لتغطي الفترة التاريخية حتى أواخر سنة 2022؛ كما تم إعادة صياغتها لتركّز بشكل أكبر على المسار العام للتيار الإسلامي، وعلى الدروس المستفادة. وبسبب ازدياد حجمها، فقد تم تقسيم الفصل الرابع سابقاً إلى فصلين؛ رابع يغطي الفترة حتى نكبة 1948، وخامس يغطي الفترة 1949–2022. وفي نهاية الكتاب أضيفت "خلاصات في الطريق إلى القدس" لتخدم الغرض الأساسي الذي من أجله أُلّف الكتاب.

نسأل الله سبحانه أن يمثل هذا الكتاب شُعلة تُسهم في إضاءة الطريق لتحرير القدس وفلسطين، وفق المنظور الإسلامي.

الشكر الجزيل لكل من أسهم باقتراح أو نقد أو توجيه، وما زال الصدر مفتوحاً للمزيد.

والحمد لله رب العالمين

أ. د. محسن محمد صالح

تقديم*

بقلم: أ. د. عماد الدين خليل

عندما قرأت كتاب "الطريق إلى القدس" للدكتور محسن محمد صالح في طبعته الثانية الصادرة في لندن سنة 1995 ضمن منشورات "فلسطين المسلمة" لفتت انتباهي تلك التغطية الشاملة والمتوازنة للتاريخ الفلسطيني منذ عصور الأنبياء عليهم السلام وحتى أواخر قرننا العشرين هذا، والقدرة على الإمساك المنهجي بالبُعد الإسلامي الأصيل عبر هذه المسيرة الطويلة، مما لا يكاد المرء يلحظه في معظم ما كتب في الموضوع.

إن الأخ المؤلف عبر كتابه هذا يضع الأمور في نصابها، سواء وهو يتحدث عن مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي أم المراحل التي تلته، بعد أن عبثت بتاريخ هذه الأرض المباركة رياح التشريق والتغريب.

ومنذ الفصل الأول يجد المرء نفسه قبالة ما يمكن تسميته بالمنهج الإسلامي في التعامل مع التاريخ بحثاً ودراسة وتأليفاً، فهو يحيل المعطيات التاريخية بمروياتها وآثارها على الشاهد القرآني، ويجعله حاكماً عليه، وليس العكس، كما يفعل أنصاف المؤرخين والآثاريين ممن لا يملكون من الحقيقة التاريخية عشر معشارها، بينما تغيب الأعشار الأخرى عن الأنظار فلا يعلم بها إلا الله سبحانه.

ها هنا نحن بأمسّ الحاجة إلى هذا الأسلوب في التعامل مع التاريخ القديم، من أجل ألا نجعل الظن والهوى والعلم النسبي، الحكم الفصل في الواقعة التاريخية، ويكفي أن نتذكر، قبالة كل ادعاءات المؤرخين والآثاريين التقليديين تلك المحاولة القيمة التي نفذها العالم الفرنسي موريس بوكاي Maurice Bucaille في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة La Bible, le Coran et la science: Les Écritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes"، والتي قارن فيها بين معطيات هذه الكتب المقدسة الثلاثة، وبين الكشوف المعرفية الحديثة في سياقات شتى من بينها التاريخ والآثار وبدايات الخلق.

* كتب أ.د. عماد الدين خليل مشكوراً هذا التقديم للطبعة الثالثة المزيدة والمنقحة التي صدرت في سنة 1998.



وكانت النتيجة ارتطام العهدَيْن القديم والجديد بهذه الكشوف، وتوافق مدهش بينهما وبين آيات الله البيّنات.

يمضي المؤلف في الفصول التالية لكي يتابع: الفتح الإسلامي لفلسطين، والمسلمين في مواجهة الصليبيين والتتار، وصولاً إلى التجربة الإسلامية الحديثة والمعاصرة في فلسطين، وهو في طبعته الجديدة للكتاب يعيد صياغة الفصل الأخير، ويضيف إليه صفحات قيمة، تبلغ الستين، عن دور حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الانتفاضة والجهاد، وهو بهذا يظلّ صادقاً مع نفسه، ومع المنهج الذي اعتمده في متابعة المعطيات التاريخية ذات الثقل الحقيقي في تاريخ فلسطين... .

لقد تلقّى الأخ المؤلف من إحدى المؤسسات العلمية الجائزة الأولى على كتابه هذا، ولكن ما هو أهم وأعمق دلالة في ظنّي هو أن يصدر الكتاب في طبعة ثالثة، ولم يمضِ على الطبعة الأولى سوى أقل من سنتين... ومعنى ذلك أنه قُبل لدى جماهير القراء والمهتمين بالقضية... .

وتلك هي الجائزة الحقيقية التي يتلقاها، ويطمح إليها أي مؤلف في كل مكان.

الفصل الأول

صراع الحق والباطل
على أرض فلسطين قبل الفتح الإسلامي

صراع الحق والباطل
على أرض فلسطين قبل الفتح الإسلامي

أولاً: شرعية ميراث الأنبياء:

قدّر الله سبحانه وتعالى أن تكون فلسطين أرضاً للرسل والأنبياء الذين حملوا راية التوحيد، ودعوا أقوامهم إلى الالتزام بها. وقد شهدت فلسطين في تاريخها القديم نماذج من قيادة الأنبياء وحكمهم لأقوامهم، وخاضوا عليهم السلام صراعات عنيفة في سبيل تثبيت راية الحق على الأرض المباركة.

وقبل أن نخوض في التفاصيل، يجب أن نثبت حقيقة مهمة، وهي أن المسلمين يؤمنون بكل الأنبياء، ويعدّون تراث الأنبياء تراثهم، ويعدّون رسالتهم الإسلامية امتداداً لرسالات الأنبياء الذين جاؤوا من قبلهم، وأن الدعوة التي دعا إليها الأنبياء هي الدعوة نفسها التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن رصيد تجربة الأنبياء في دعوتهم للحق، وعبادة الله وحده لا تنفصم عن دعوة المسلمين، ورصيد تجربتهم.

وانظر إلى قوله سبحانه ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾،[1] فهي رسالة التوحيد التي يدعو إليها كل رسول. وعندما كان يكذّب أي قوم رسولهم، فقد كان ذلك تكذيباً لجميع المرسلين، وتأمل قوله تعالى في ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.[2]

ويغرق العديد من المؤرخين عند مواجهتهم لادعاءات اليهود المعاصرين بحقهم في فلسطين في الانشغال بعلوم الآثار، وذكر الشعوب التي استوطنت أو حكمت أو مرّت على فلسطين، وكم حكم كل منها هذه الأرض، ليخرجوا في النهاية بنتيجة مؤداها ضآلة الفترة والمساحة التي حكم فيها اليهود عبر التاريخ مقارنة بالعرب والمسلمين. وبالرغم من أن هذا الجانب مفيد في ردّ ادعاءات اليهود من النواحي التاريخية والعقلية والمنطقية، إلا أن كثيراً من هؤلاء الكتّاب والمؤرخين يقعون في خطأين كبيرين حسبما يظهر لنا:

الأول: اعتبار تراث الأنبياء الذي أرسلوا إلى بني إسرائيل أو قادوهم تراثاً خاصاً باليهود فقط، وهذا ما يريده اليهود!!

الثاني: الإساءة إلى سيرة عدد من أنبياء بني إسرائيل باستخدام الاستدلالات المستندة إلى توراة اليهود المحرفة نفسها...، وهم عندما يستخدمونها فإنما يقصدون الإشارة إلى "السلوك المشين" لمن كفر وفسق من بني إسرائيل وقادتهم عندما حلُّوا في فلسطين، ليضعفوا من قيمة دولتهم ويبينوا انحطاط مستواهم الحضاري...، ويُدخلون في الاستدلالات ما ذكرته الإسرائيليات من اتهام للأنبياء بالغش والكذب والزنى واغتصاب الحقوق وقتل الأبرياء، في محاولات لتشويههم وتشويه صورة حكمهم ودولتهم في ذلك الزمان.

لقد كفانا القرآن الكريم مؤونة التعرف على أخلاق من كفر وفسق من اليهود وفسادهم وإفسادهم، غير أن أنبياءهم وصالحيهم أمر آخر، فالأنبياء خير البشر، ولا ينبغي الإساءة إليهم، والانجرار خلف الروايات الإسرائيلية المحرفة، التي لا تسيء للأنبياء فقط، وإنما إلى الله تبارك وتعالى*. وعلى سبيل المثال تذكر التوراة المحرفة والتلمود أن الله (تعالى عما يقولون علواً كبيراً) يلعب مع الحوت والأسماك كل يوم ثلاث ساعات، وأنه بكى على هدم الهيكل حتى صغر حجمه من سبع سموات إلى أربع سموات، وأن الزلازل والأعاصير تحدث نتيجة نزول دمع الله على البحر ندماً على خراب الهيكل...[3] هذا بالإضافة إلى ما ذكره القرآن من ادعاءاتهم ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾،[4] ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾،[5] ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾... .[6]

كما ينسب من حرَّف التوراة من اليهود إلى سيدنا يعقوب عليه السلام سرقة صنم ذهبي من أبيه، وأنه صارع الله!! قرب نابلس وسمي لذلك بإسرائيل، كما تنسب له رشوة أخيه وخدعة أبيه، وأنه سكت عن زنا ابنتيه، وأنه أشرك بربه...!! وقِسْ على ذلك ما ذكروا عن باقي الأنبياء عليهم السلام.[7]

* نحن هنا نعرض الفهم الإسلامي لليهود وسلوكهم، وإنَّ طرح أي من المسلكيات الخاطئة لا يعني إطلاقاً عداءً لليهود لمجرد كونهم يهوداً، أو ما يعرف بالمصطلحات المعاصرة "العداء للسامية"؛ لأن الفهم الإسلامي يميز بين أنبياء اليهود وصالحيهم وبين من فسد وكفر وانحرف منهم؛ ولأنه يتعامل معهم كبشر، يصيبون ويخطئون، ويؤمنون ويكفرون، وينجحون ويفشلون...؛ ويتعامل معهم بحسب أوضاعهم كأهل ذمة أو كمعاهدين أو كمحاربين؛ ولكلٍّ أحكامه التي يبنيها الإسلام على أسس العدل والتسامح وحرية الاعتقاد، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقه، بغضِّ النظر عن دينه أو لونه أو جنسه.

إن أولئك الذين حرَّفوا التوراة من اليهود، قد ساروا على نهجها المحرف في أخلاقهم وفسادهم وإفسادهم، محتجين بما نسبوه إلى أنبيائهم كذباً وزوراً. ومن الواجب على المؤرخين وخصوصاً المسلمين ألا يندفعوا في استقرائهم لتاريخ فلسطين إلى اتهام أنبياء الله ورسله بما افتراه عليهم هؤلاء اليهود، وذلك في سبيل إثبات حقّ الأقوام الأخرى في فلسطين.

وإذا كانت رابطة العقيدة والإيمان هي الأساس الذي يجتمع عليه المسلمون مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، فإن المسلمين هم أحق الناس بميراث الأنبياء، بما فيهم أنبياء بني إسرائيل، لأن المسلمين هم الذين ما يزالون يرفعون الراية التي رفعها الأنبياء، وهم السائرون على دربهم وطريقهم، وهؤلاء الأنبياء هم مسلمون موحدون حسب الفهم القرآني.

وانظر إلى قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾،[8] وقوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾،[9] وقوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.[10] هذه الآيات من الوضوح بما لا يحتاج معه إلى الشرح. وفي المقابل فإن الإسلام يعدّ الإيمان بالأنبياء والرسل أحد أركان الإيمان، تأمل قوله تعالى ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.[11]

وبشكل عام فأمة التوحيد هي أمة واحدة من لدن آدم عليه السلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأنبياء الله ورسله وأتباعهم هم جزء من أمة التوحيد، ودعوة الإسلام هي امتداد لدعوتهم، والمسلمون هم أحق الناس بأنبياء الله ورسله وميراثهم.

فرصيد الأنبياء هو رصيدنا، وتجربتهم هي تجربتنا، وتاريخهم هو تاريخنا، والشرعية التي أعطاها الله للأنبياء وأتباعهم في حكم الأرض المباركة المقدسة، هي دلالة على شرعيتنا وحقنا في هذه الأرض وحكمها.

نعم، لقد أعطى الله سبحانه هذه الأرض لبني إسرائيل عندما كانوا مستقيمين على أمر الله، وعندما كانوا يمثلون أمة التوحيد في الأزمان الغابرة. ولسنا نخجل أو نتردد في ذكر هذه الحقيقة، وإلا خالفنا صريح القرآن، ومن ذلك قول موسى عليه السلام لقومه ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.[12] غير أن هذه الشرعية ارتبطت بمدى التزامهم بالتوحيد، والالتزام بمنهج الله، فلما كفروا بالله وعَصوا رسله وقتلوا الأنبياء ونقضوا عهودهم وميثاقهم، ورفضوا اتّباع الرسالة الإسلامية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وهو النبي الذي بشَّر به أنبياء بني إسرائيل قومهم ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[13] وقوله تعالى ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾،[14] فلما فعلوا ذلك حلَّت عليهم لعنة الله وغضبه ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾[15] وقال تعالى ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.[16]

وبذلك تحولت شرعية حكم الأرض المقدسة إلى الأمة التي سارت على منهج الأنبياء، وحملت رايتهم وهي أمة الإسلام. فالمسألة في فهمنا ليست متعلقة بالجنس والنسل والقوم، وإنما باتباع المنهج.

واستطراداً في مناقشة الادعاءات اليهودية بحقهم في فلسطين وفق نصوص التوراة، نشير إلى ما يذكرونه في التوراة المحرفة من إعطاء هذه الأرض لإبراهيم عليه السلام ونسله. ومما جاء فيها "وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك... فذهب إبراهيم كما قال الرب... فأتوا إلى أرض كنعان... وظهر الرب لإبراهيم، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض".[17] وجاء في التوراة المحرفة أيضاً "وسكن [إبراهيم عليه السلام] في أرض كنعان، فقال له الرب: ارفع عينيك، وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً؛ لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد".[18] وجاء فيها أيضاً "قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض. من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات".[19]

وللرد على ذلك، بالإضافة إلى فهمنا للمسألة في أصلها الشرعي، نقول:

1. إذا كان هناك عهد، فقد أعطي لإبراهيم عليه السلام ولنسله، وليس بنو إسرائيل وحدهم نسل إبراهيم، فالعرب المستعربة هم من نسله أيضاً (أبناء إسماعيل عليه السلام) ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم.

2. إذا كانت المسألة مرتبطة بالنسل والتناسل، فالدلائل تشير إلى أن الأغلبية الساحقة لليهود في عصرنا ليست من نسل إبراهيم عليه السلام، وذلك أن معظم يهود اليوم هم من يهود الخزر Khazars، الذين دخلوا هذا الدين في القرنين: التاسع والعاشر الميلاديين!!

3. إن القرآن الكريم يوضح مسألة إمامة سيدنا إبراهيم وذريته في شكل لا لبس فيه، وتأمل قوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.[20]

فعندما سأل إبراهيم الله تعالى أن تكون الإمامة في ذريته بيَّن الله له أن عهده لذريته بالإمامة لا يستحقه، ولا يناله الظالمون، وأي ظلم وكفر وصدٍّ عن سبيل الله، أكبر مما فعله بنو إسرائيل بحسب ما تشير مصادرهم نفسها، وبحسب ما يشير القرآن الكريم؟!

أما ما يتعلق بادعاءات اليهود التاريخية، فقد كفانا الكثير من المؤرخين مؤونة الرد عليها، ففترة حكم فلسطين تحت راية الإسلام هي أطول الفترات التاريخية، والشعوب التي استوطنت فلسطين قبل مجيء اليهود بأكثر من ألف عام ظلّت مستقرة فيها حتى الآن، وقد اندمجت بها الهجرات العربية قبل وبعد الفتح الإسلامي، وهي التي يتشكل منها شعب فلسطين الحالي بدينه الإسلامي ولغته وسماته العربية.[21]

ثانياً: نظرة تاريخية:

تشوب دراسة التاريخ القديم الكثير من الصعوبات، وعادة ما يلجأ المؤرخون إلى دراسة الآثار، وفكِّ رموز اللغات القديمة التي تمت الكتابة بها على بعض الآثار، كما يستفيدون مما يكتشفونه من لفائف وأوراق وجلود وعظام عليها بعض الكتابات، وكذلك مما يستحصلونه من مخطوطات وكتب التاريخ والتراث القديمة. وفي دراستهم لتاريخ فلسطين القديم كانوا كثيراً ما يلجأون إلى ما كتبته التوراة، وما تناقله اليهود، غير أن

الاعتماد تزايد في هذا العصر على الآثار... . ونحن في دراستنا سنحاول الاستفادة مما ذكره القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم نحاول استكمال الصورة بما لدينا من أخبار وآثار، لا تتعارض مع صحيح ما نعتقده. وسنلتزم هنا بالاختصار غير المخل بالمعنى المراد، وفي حدود دراستنا للتجربة الإسلامية على أرض فلسطين.

سكن الإنسان أرض فلسطين منذ العصور الموغلة في القدم، وهناك آثار تعود إلى العصر الحجري القديم (500 ألف – 14 ألف ق.م) والعصر الحجري الوسيط (14 ألف – 8 آلاف ق.م) حيث يطلق على هذا العصر في فلسطين الحضارة النطوفية نسبة إلى مغائر النطوف شمال القدس، وأصل النطوفيين غير معروف حتى الآن، تركزت حضارتهم على الساحل وعاشوا في المغائر والكهوف كمغائر جبل الكرمل.

وفي العصر الحجري الحديث (8000–4500 ق.م) انتقلت حياة الإنسان في فلسطين إلى الاستقرار، وتحول من جمع الغذاء إلى إنتاجه، وفي أريحا ظهرت أول الدلائل على حياة الاستقرار، وهي تعدّ، حتى الآن، أقدم مدن العالم؛ حيث أنشئت نحو 8000 ق.م.

وامتد العصر الحجري النحاسي من 4500–3300 ق.م، وقد كشف عن مواقع حضارية أثرية تعود إلى تلك الفترة في منطقة بئر السبع، وبين جبال الخليل والبحر الميت، والخضيرة على السهل الساحلي.

وتميزت بداية الألف الثالث ق.م بظهور الإمبراطوريات القديمة في الشرق، وقد رافق ذلك التوصل إلى الكتابة والبدء بتدوين التاريخ، ومن هنا تبدأ العصور التاريخية في فلسطين.

ويطلق على الفترة الممتدة من 3200–2000 ق.م اسم العصر البرونزي القديم، وقد تميزت هذه الفترة بظهور المدن التحصينية الدفاعية التي قامت على هضاب مرتفعة، وانتشرت بأعداد كبيرة، وكانت غالبيتها في وسط وشمال فلسطين، ومن أهم المواقع بيسان ومجدُّو والعفولة ورأس الناقورة وتلّ الفارعة غربي نابلس، وفي الألف الثالث ق.م زاد عدد سكان فلسطين، ونمت المدن، وأصبح لها قوة سياسية واقتصادية مما يمكن تسميته عصر "دويلات المدن".

أبرز المواقع الأثرية في فلسطين



وخلال الألف الثالث ق.م هاجر إلى فلسطين العموريون "الأموريون" والكنعانيون، وكذلك اليبوسيون والفينيقيون (وهما يُعدان من البطون الكنعانية)، وعلى ما يظهر فقد كانت هجرتهم إلى فلسطين نحو 2500 ق.م، حيث استقر الكنعانيون في سهول فلسطين، وتركز العموريون في الجبال، واستقر اليبوسيون في القدس وما حولها، وهم الذين أنشأوا مدينة القدس وأسموها "يبوس" ثم "أورسالم"، أما الفينيقيون فاستقروا في الساحل الشمالي لفلسطين وفي لبنان.

ويرى ثقات المؤرخين أن العموريين والكنعانيين واليبوسيين والفينيقيين قد خرجوا من جزيرة العرب، وأن سواد أهل فلسطين الحاليين، وخصوصاً القرويين هم أنسال تلك القبائل والشعوب القديمة أو من العرب والمسلمين الذين استقروا في البلاد إثر الفتح الإسلامي لها.

لقد كانت هجرة الكنعانيين واسعة في تلك الفترة بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، واسم أرض كنعان هو أقدم اسم عرفت به أرض فلسطين، وقد أنشأ الكنعانيون معظم مدن فلسطين، وكان عددها، حسب حدود فلسطين الحالية، لا يقل عن 200 مدينة خلال الألف الثاني ق.م وقبل قدوم العبرانيين اليهود بمئات السنين، ومن المدن القديمة بالإضافة إلى أريحا والقدس مدن شكيم "بلاطة، نابلس" وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وعاقر وبئر السبع وبيت لحم....

فلسطين في عهد الكنعانيين

ثم جاء العصر البرونزي الوسيط (2000–1550 ق.م) حيث شهد النصف الأول من الألف الثاني ق.م حكم الهكسوس الذين سيطروا على فلسطين خلال القرون 18–16 ق.م.

وبدأ العصر البرونزي المتأخر (1550–1200 ق.م) بانزواء حكم الهكسوس ودخول فلسطين تحت سيطرة الحكم المصري المطلق، أما العصر الحديدي (1200–330 ق.م) فيظهر أنه في بدايته (1200 ق.م تقريباً) استقبلت فلسطين مجموعات مهاجرة من مناطق مختلفة أبرزها هجرات "شعوب البحر" التي يظهر أنها جاءت من غرب آسيا ومن جزر بحر إيجه (كريت وغيرها) وقد هاجمت هذه الشعوب في البداية سواحل الشام ومصر، ولكن فرعون مصر، رعمسيس الثالث، صدها عن بلاده في معركة بلوزيون "قرب بور سعيد" وأذن لها أن تستقر في الجزء الجنوبي من فلسطين، وورد في النقوش الأثرية اسمها "ب ل س ت"، ومنها جاءت تسميتهم "فلسطيون" ثم زيدت النون إلى اسمهم (ربما على اعتبار الجمع) فأصبحوا فلسطينيين، وقد أقام الفلسطيون خمس ممالك هي مدن غزة، وأسدود، وجت، وعقرون، وعسقلان، وهي مدن المرجح أنها كنعانية قديمة، غير أنهم وسعوها ونظموها، ثم أنشأوا مدينتين جديدتين هما اللد وصقلغ، واستولوا على بقية الساحل حتى جبل الكرمل، كما استولوا على مرج ابن عامر...، وسرعان ما اندمج الفلسطيون بالكنعانيين، واستعملوا لغتهم وعبدوا آلهتهم "داجون وبعل وعشتار". وبالرغم من أن الفلسطيين ذابوا في السكان إلا أنهم أعطوا هذه الأرض اسمهم فأصبحت تعرف بفلسطين.[22]

ويظهر من الدلائل التاريخية المقارنة أن موسى عليه السلام قاد بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة في النصف الأخير من القرن 13 ق.م، أي أواخر العصر البرونزي المتأخر، الذي شهد هو وبداية العصر الحديدي بداية الدخول اليهودي إلى فلسطين، ثم قيام مملكة داود وسليمان عليهما السلام (1004–923 ق.م)، التي انقسمت إلى مملكة إسرائيل (923–722 ق.م)، ومملكة يهودا (923–586 ق.م)، والتي حكمت كل منها جزءاً محدوداً من أرض فلسطين، ومنذ 730 ق.م دخلت فلسطين بشكل عام تحت النفوذ الآشوري القادم من العراق حتى 645 ق.م. ثم ورثهم البابليون في النفوذ حتى 539 ق.م، وكان الآشوريون والبابليون يتداولون النفوذ على فلسطين مع مصر. ثم إن الفرس غزوا فلسطين وحكموها خلال الفترة 539–332 ق.م.

ثم دخلت فلسطين في العصر الهلينستي اليوناني، حيث حكمها البطالمة حتى 198 ق.م، ثم ورثهم السلوقيون Seleucid حتى 64 ق.م. عندما جاء الرومان، وسيطروا على فلسطين، وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية، ظلّت فلسطين تتبع الإمبراطورية الرومانية الشرقية "دولة الروم" وعاصمتها القسطنطينية حتى جاء الفتح الإسلامي، وأعطاها صبغتها العربية الإسلامية سنة 636م.[23]

ثالثاً: دعوة الحق ومسيرة الأنبياء على الأرض المقدسة:

كان **إبراهيم** عليه السلام أول الأنبياء الذين نعلم أنهم عاشوا في فلسطين، وماتوا فيها، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، فمن نسله جاء الكثير من الأنبياء كإسحق ويعقوب ويوسف وإسماعيل ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ولد إبراهيم عليه السلام، حسبما ورد من آثار، في "أور" في العراق[24] وعاش هناك ردحاً من الزمن؛ حيث قام بتحطيم الأصنام، ودعا إلى التوحيد، وواجه النمرود، وألقمه الحجة، وألقي في النار عقاباً له على تحطيم الأصنام فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وهاجر إبراهيم ومعه ابن أخيه لوط في سبيل الله[25] ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.[26]

ويظهر أن إبراهيم عليه السلام في البداية هاجر ومن معه إلى حرَّان (الرُّها) وهي تقع الآن في جنوب تركيا إلى الشمال من سورية، ومن هناك هاجر ومعه ابن أخيه لوط إلى أرض كنعان "فلسطين" نحو 1900 ق.م،[27] قال تعالى ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.[28] وكان هذا التاريخ بالنسبة لتاريخ العراق القديم يمثل نهاية عهد "أور الثالثة" التي حكمها السومريون وبداية العصر البابلي القديم الذي سيطرت فيه العناصر السامية القادمة من جزيرة العرب "العموريون". وهناك في فلسطين ولد إسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام.

نزل إبراهيم عليه السلام في شكيم قرب نابلس، ومنها انتقل إلى جهات رام الله والقدس، ومرّ بالخليل ثم ببئر السبع؛ حيث استقر حولها زمناً، ثم ارتحل إلى مصر، وكان ذلك يوافق تقريباً عهد الأسرة الـ 11 أو الـ 12 لفراعنة مصر، وعاد من مصر ومعه "هاجر" التي أهداها الزعيم المصري له، وذكر في رواية أنها ابنة فرعون أو إحدى الأميرات، ثم عاد إلى فلسطين، فمرّ بجوار غزة؛ حيث التقى أبا مالك أمير غزة، ثم تجوّل بين بئر السبع والخليل، ثم صعد إلى القدس. ثم إن لوطاً عليه السلام انتقل إلى جنوب البحر الميت؛ حيث أُرسل لأهل تلك المنطقة، بينما مكث إبراهيم عليه السلام في جبال القدس والخليل. وقد ولد إسماعيل عليه السلام لإبراهيم من زوجته هاجر، ثم رزق بإسحق بعد ذلك بـ 13 عاماً من زوجته سارة.[29] ويبدو أن إبراهيم رزق بأبنائه وهو في سنٍّ كبيرة نستشف ذلك من قوله تعالى على لسان سارة ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.[30]

ويبدو أن إبراهيم عليه السلام تردد على الحجاز أكثر من مرة، فقد أحضر إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة، وقصة سعي هاجر بين الصفا والمروة، وتفجر ماء زمزم مشهورة، ثم إن

إبراهيم عاد فبنى مع إسماعيل الكعبة ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.[31] غير أن مركز استقرار إبراهيم كان في ظلّ فلسطين، وفيها توفي حيث دفن في مغارة المكفيلة قرب "الخليل"، وهي المدينة التي سميت باسمه عليه السلام وقيل إنه عمَّر 175 عاماً.[32]

عاصر إبراهيم عليه السلام حاكم القدس "ملكي صادق" وكان على ما يبدو موحَّداً، وكان صديقاً له،[33] وفي تلك الفترة كان المؤمنون بالله قلة نادرة، فقد ذكر رسول الله ﷺ أن إبراهيم قال لزوجته سارة عندما أتى على جبار من الجبابرة "ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك"،[34] ويظهر أن ذلك حدث عندما ذهبا لمصر. ولعلنا نستشف هذا المعنى من قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾.[35] وعلى كل حال فإن أبا الأنبياء إبراهيم الخليل كان رسولاً من أولي العزم من الرسل، وكان له دوره الدعوي في نشر رسالة التوحيد في فلسطين؛ حيث كان يؤسس المساجد، ويقيم المحاريب لعبادة الله في كل مكان ذهب إليه. ويظهر أنه لم يجِد عناء أو عنتاً من أهل فلسطين، ولم يضطر لتركها بسبب دينه ودعوته، فظل مستقراً يتنقل بحرية فيها حتى توفاه الله.

أما **لوط** عليه السلام فقد استقر جنوب البحر الميت؛ حيث أرسل إلى قرية "سدوم"، وهؤلاء كانوا يفعلون الفاحشة بالرجال "اللواط" وقد نهاهم لوط عن هذا، فأعرضوا واستكبروا، فانتقم الله منهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٨٤﴾،[36] ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾.[37]

ويشير القرآن الكريم إلى أن إبراهيم عليه السلام قد عاصر رسالة لوط وهلاك قومه. فقد جاءته الملائكة، وبشروه بإسحق، وأخبروه بأنهم مرسلون لتدمير قوم لوط، فقال لهم ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾.[38] وهكذا نَصَرَ الله سبحانه رسوله لوطاً، وطهّر أرضه المباركة من ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾،[39] وجاءت البشرى لإبراهيم بإسحق ليحمل راية التوحيد من بعده على الأرض المباركة، وليتواصل انتشار النور الإلهي فيها.

وعاش **إسحق** في أرض فلسطين، ورزقه الله سبحانه يعقوب عليه السلام (إسرائيل) والذي يعدّه اليهود أباهم، وكان إسحق ويعقوب منارات للهدى بعد إبراهيم عليه السلام، وانظر إلى البيان القرآني في إيجازه وروعته ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.[40]

وُلد **يعقوب** عليه السلام في القرن 18 ق.م (نحو 1750 ق.م) في فلسطين، غير أنه هاجر على ما يظهر إلى حرّان "الرها" وهناك تزوج وولد له 11 ابناً، منهم يوسف عليه السلام بينما ولد ابنه الـ 12 بنيامين في أرض كنعان "فلسطين". وقد رجع يعقوب عليه السلام وأبناؤه إلى فلسطين وسكن عند "سعّير" قرب الخليل،[41] وقصته وقصة ابنه **يوسف** مشهورة ومفصلة في سورة يوسف من القرآن الكريم. وهي التي تحكي تآمر إخوة يوسف على يوسف، وإلقاءه في البئر، واكتشاف قافلة له وبيعهم إياه في مصر، حيث شبّ هناك ودعا إلى الله، وصمد أمام فتنة النساء، وصبر في السجن حتى أكرمه الله بأن يوضع على خزائن مصر بعد تأويله الرؤيا وثبوت براءته. ثم إن يوسف استقدم أباه يعقوب وإخوته إلى مصر؛ حيث رد الله البصر إلى يعقوب بعد أن ابيضت عيناه على فراق يوسف، كما عفا يوسف عن إخوته. وتذكر بعض الروايات أن يعقوب عاش في مصر 17 عاماً غير أنه دفن عليه السلام إلى جوار جده وأبيه إبراهيم وإسحق في الخليل.[42]

ويبدو أن تلك الفترة التي عاش فيها يعقوب وأبناؤه في مصر كانت توافق حكم الهكسوس لمصر، وهم أصلاً من غير المصريين، ويمثل حكمهم الأسرتين الـ 15 و16 من الأسر التي حكمت مصر، واللتين امتد حكمهما لمصر خلال الفترة 1774–1567 ق.م.

وعلى كل حال، يظهر أن يوسف وإخوته أبناء يعقوب نعموا بحرية العمل والعبادة في مصر، وكان لهم دورهم في الدعوة إلى التوحيد، غير أن الأمر لم يستمر على حاله في أجيالهم المتعاقبة، فوقع بنو إسرائيل تحت الاضطهاد الفرعوني حتى أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون لإخراج بني إسرائيل منها إلى الأرض المقدسة.

لقد كان بنو إسرائيل في تلك الفترة هم أهل الحق وحملة راية التوحيد، وكان فرعون مصر ذلك الزمان متكبراً متعجرفاً يدّعي الألوهية ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[43] وكان مفسداً يضطهد بني إسرائيل، فيذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.[44] وقد ولد **موسى** عليه السلام في هذا الجو وتربى، في بيت فرعون في تدبير رباني محكم، وهو الذي كان يجب أن يُقتل، وقصة موسى ونشأته ودعوته لفرعون وخروجه ببني إسرائيل وهلاك فرعون أشهر من أن تروى، وهي من أكبر وأكثر قصص القرآن ذكراً وتكراراً لما فيها من الدروس والعبر، ومن التعريف ببني إسرائيل وطبائعهم....

قدّر الله سبحانه أن يعطي تلك الفئة المؤمنة في ذلك الزمان أرض فلسطين ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾.[45] وأرسل موسى عليه السلام إلى فرعون بهذا الأمر، يعاونه في ذلك أخوه هارون الذي بُعث رسولاً أيضاً ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾.[46] غير أن فرعون يأبى ويتكبر ولا يؤمن بالآيات والمعجزات التي جاء بها موسى. ويؤمن السحرة الذين حشدهم فرعون بدعوة موسى، ويُسْقَط في يد فرعون.[47] ويبدو أن الذين أظهروا إيمانهم، وانضموا إلى بني إسرائيل كانوا عدداً محدوداً من فتيان بني إسرائيل، وكان إيمانهم مقروناً بخوف من أن يفتنهم فرعون ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.[48] ثم إنّ موسى عليه السلام قاد من آمن من قومه شرقاً فاتّبعهم فرعون وجنوده، وحدثت قصة انشقاق البحر، وإنقاذ الله سبحانه لبني إسرائيل، وهلاك فرعون وجنوده ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦﴾.[49]

ونقف هنا عند بعض الآراء والروايات التاريخية التي يظهر منها أن عدد من خرج مع موسى من مصر كان قرابة 6 آلاف فقط أو 15 ألفاً على بعض الروايات. أما تلك الفترة من الناحية التاريخية فكانت على ما يبدو خلال القرن الـ 13 قبل الميلاد. وكان خروج بني إسرائيل من مصر تحديداً في نحو الثلث الأخير من ذلك القرن. وهي فترة توافق حكم "رعمسيس الثاني" المشهور في هذا العصر بـ"رمسيس الثاني"،[50] ومن تقدير الله أن جثة هذا الفرعون معروضة في أحد المتاحف المصرية الآن، وهذا يذكرنا بقوله سبحانه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.[51] بل وتؤخذ جثته بين فترة وأخرى لتعرض في متاحف البلاد الغربية،

والناس الذين يزورون جثته ينشغلون بالتأمل في علم التحنيط دون أن يذكروا آيات الله في هذا الفرعون!! فارجع لتقرأ مرة أخرى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.[52]

وبعد إنقاذ الله سبحانه لبني إسرائيل تبرز فصول معاناة موسى وهارون معهم، ويظهر من صفات هؤلاء ضعف الإيمان والجهل والجبن، فما كادوا يخرجون من البحر حتى أتَوا على قوم يعبدون أصناماً ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾!!،[53] ثم عندما يذهب موسى لميقات ربه، يعبد قومه العجل على الرغم من وجود هارون بينهم!! ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[54] ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾،[55] وكادوا يقتلون هارون عندما نهاهم عن كفرهم، وهو الذي قال لأخيه موسى ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾[56] وغيرها من المواقف.

ثم يقود موسى بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة، ويقول لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾،[57] ولكنهم يختارون الارتداد على أدبارهم!! ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾،[58] ولا ينفع فيهم النصح فيكررون ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾!!....[59]

ويُعلِّق سيد قطب، رحمه الله، على موقف بني إسرائيل هذا فيقول: "إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل...، إن الخطر ماثل قريب، ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب الأرض، وأن الله قد كتبها لهم. فهم يريدون نصراً رخيصاً، لا ثمن له، ولا جهد فيه، نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى".... "وهكذا يخرج الجبناء فيتوقحون، ويفزعون من الخطر أمامهم، هكذا في وقاحة العاجز لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مدّ اللسان... ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾! فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لا نريد ملكاً، ولا نريد عزاً، ولا نريد أرض ميعاد... ودونها لقاء الجبارين، هذه نهاية المطاف بموسى عليه السلام، نهاية الجهد الجهيد، والسفر الطويل، واحتمال الرذالات، والانحرافات، والالتواءات من بني إسرائيل!".[60]

ويتألم موسى عليه السلام ويلجأ إلى ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾،[61] ويستجيب الله لنبيه ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾[62] وهكذا يحكم عليهم بالتيه بعد أن كانوا على أبواب الأرض المقدسة، ويظهر أن الله سبحانه قد حرمها على هذا الجيل من بني إسرائيل حتى ينشأ جيل غيره يصلب عوده في جوٍّ من خشونة الصحراء، فهذا الجيل "أفسده الذل، والاستعباد، والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل".[63]

وتوفي موسى عليه السلام قبل أن يستطيع دخول الأرض المقدسة، وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن موسى عندما حان أجله قال: "رب أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر" قال رسول الله ﷺ "والله لو أني عنده لأريتكم مكان قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر".[64]

وبعد أن نشأ جيل صلب جديد، وبعد سنوات التيه قاد بني إسرائيل نبي لهم هو **يوشع بن نون** عليه السلام Joshua son of Nun ويسميه اليهود "يشوع" وهو الذي عبر بهم نهر الأردن، وانتصر على أعدائه، واحتل مدينة أريحا، وكان عبوره نهر الأردن نحو 1190 ق.م، ثم غزا "عاي" بجوار رام الله، وحاول فتح القدس، ولكنه لم يستطع، وكان عدد اليهود قليلاً بحيث يصعب عليهم الانتشار، واحتلال كافة المناطق، والسيطرة عليها.[65] ومما نعلمه عن يوشع من حديث رسول الله ﷺ أن يوشع التقى أعداءه في معركة طالت، حتى كادت الشمس أن تغيب، فدعا الله ألا تغيب الشمس حتى تنتهي المعركة، وينتصر، فاستجاب الله لدعوته، فأخَّر غروب الشمس حتى انتصر يوشع.[66]

وبعد يوشع عليه السلام تولى قيادة اليهود زعماء عرفوا بـ"القضاة" وعرف عصرهم بـ"عصر القضاة". وعلى الرغم من محاولاتهم إصلاح قومهم فقد ساد عصرهم الذي دام نحو 150 عاماً الفوضى والنكبات والخلافات والانحلال الخُلُقي والديني بين بني إسرائيل. وقد استوطنوا في تلك الفترة في الأراضي المرتفعة المحيطة بالقدس وفي السهول الشمالية في فلسطين.[67]

ولما شعر بنو إسرائيل بحالهم المتردي طلب الملأ منهم من نبيّ لهم، يقال أن اسمه "صموئيل"، أن يبعث عليهم ملكاً يقاتلون تحت رايته في سبيل الله، ولكن نبيهم الذي يعرف طباعهم قال لهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ

﴿تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾[68] وأخبرهم نبيهم أن الله قد بعث عليهم طالوت ملكاً فاعترضوا بأنهم ﴿أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾[69] وأنه ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾[70] فقال لهم نبيهم إن الله اصطفاه عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم.

وتولى القائد المؤمن طالوت المُلك على بني إسرائيل، وكان ذلك نحو 1025 ق.م، وتسميه الروايات الإسرائيلية "شاؤول"، وتساقط أتباعه في الاختبار عندما ابتلاهم الله بنهر، ومنعهم من الشرب منه ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾[71] ثم تساقط الكثير من القليل الذي بقي في الاختبار التالي عندما رأوا جالوت وجنوده فقالوا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾[72] ولم تثبت في النهاية إلا ثلة قليلة مؤمنة، أعطاها الله سبحانه النصر، وقتل داود عليه السلام، وكان فتى في هذه المعركة، جالوت بالمقلاع.[73]

ولا نعرف بعد ذلك ما حصل يقيناً لطالوت، غير أن الروايات الإسرائيلية تذكر أنه في 1004 ق.م تقريباً استطاع الفلسطيون الانتصار على طالوت "شاؤول" في معركة جلبوع، وأنهم قتلوا ثلاثة من أبنائه، وأكرهوه على الانتحار وقطعوا رأسه، وسمّروا جسده وأجساد أولاده على سور مدينة بيت شان "بيسان".[74]

وبتولي **داود** عليه السلام الحُكم بعد طالوت 1004 ق.م، ينفتح فصل جديد في تاريخ بني إسرائيل وفي انتشار وسيطرة دعوة التوحيد على الأرض المباركة. إذ يُعدّ داود عليه السلام المؤسس الحقيقي لمملكة بني إسرائيل في فلسطين، فقد قضى اليهود الفترة التي سبقت داود دون أن يملكوا سوى سلطان ضئيل في أجزاء محدودة من فلسطين، ودون أن يستطيعوا أن يكونوا سادتها...، ومضى جميع عصر القضاة في القتال الجزئي بجماعات صغيرة، حيث تُدافع كل جماعة (قبيلة) بمشقة عن قطعة الأرض التي استولت عليها.[75]

ولد داود عليه السلام في بيت لحم، واستمر حكمه أربعين عاماً تقريباً (1004–963 ق.م) وكانت عاصمة حكمه في البداية مدينة الخليل حيث مكث فيها سبع أعوام، ثم إنه فتح القدس نحو 995 ق.م فنقل عاصمته إليها، وواصل حربه ضدّ الأقوام الكافرة في الأرض المقدسة حتى تمكن من إخضاعها 990 ق.م تقريباً، وأجبر دمشق على دفع الخراج، وأخضع المؤابيين والأيدوميين والعمونيين.[76] وهكذا سيطر أتباع التوحيد، في ذلك الزمان، على معظم أنحاء فلسطين. غير أن حدود مملكة داود عليه السلام في أغلب الظن لم تلامس البحر إلا من مكان قريب من يوبا "يافا"، ويبدو أن حدود المملكة الإسرائيلية في

أوْجِها كانت 120 ميلاً (191 كم) في أطول أطوالها و60 ميلاً (97 كم) في أعرض عرضها، وأقل من ذلك بكثير في أغلب الأحيان، أي أن مساحتها لم تزد عن 7,200 ميل مربع أي نحو 19 ألف كم^2، وهذا أقل من مساحة فلسطين الحالية بنحو 8 آلاف كم^2. لقد سيطر اليهود على المناطق المرتفعة لكنهم أخفقوا في السيطرة على السهول وخصوصاً أجزاء كبيرة من الساحل الفلسطيني، وهي أجزاء لم تتم لدولتهم السيطرة عليها إطلاقاً طوال قيامها.[77]

وإذا كان يهود هذا الزمان يفاخرون بداود عليه السلام ويعدّون أنفسهم حاملي لوائه وميراثه، فإن المسلمين يعدّون أنفسهم أحق بداود من بني إسرائيل، وهم يؤمنون به نبياً من أنبياء الله، ويحبونه ويكرمونه، ويفاخرون به لأنه أنشأ دولة الإيمان القائمة على التوحيد في فلسطين، وهم السائرون على دربه الحاملون لرايته في هذا الزمان بعد أن نكص عنها بنو إسرائيل، وكفروا وأشركوا، ونقضوا عهودهم مع الله.

ونعلم من القرآن الكريم أن الله سبحانه قد رزق داود عليه السلام العلم والحكمة، وأنزل عليه الزبور، وأنه أوتي ملكاً قوياً، وأن الجبال والطيور كانت تسبح معه، وتذكر الله عندما كان يتلو مزاميره بصوته الخاشع المؤثر ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾،[78] ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾.[79] وألانَ الله سبحانه لداود الحديد فكان بين يديه كالشمع أو كالعجين يشكله كيف شاء دون حاجة لصهره في النار، وهذه معجزة أعطاها الله لداود. وكان داود، بالرغم مما أوتي من ملك، يعمل بالحدادة، ولا يأكل إلا من عمل يده. وقد طور داود صناعة الدروع في زمانه، فبعد أن كان الدرع صفيحة واحدة تثقل حاملها، وتعيق حركته هداه الله إلى أن تكون حلقاً متداخلة تسهل الحركة، ولا تنفذ منها السهام... ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾،[80] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.[81]

وورث **سليمان** عليه السلام أباه داود في العلم والحكم والنبوة، وتشير الروايات إلى أن سليمان كان واحداً من 19 ابناً لداود، وأن سليمان ولد في القدس، وأن حكمه في الأرض

المباركة استمر نحو أربعين عاماً (963–923 ق.م).[82] وقد وهب الله سبحانه سليمان ملكاً لا يحصل لأحد بعده، فقد سخّر الله له الجن لخدمته، كما سخّر له الريح تجري بأمره، واشتهر سليمان بحكمته وعدله وقوة سلطانه، كما علمه الله لغة الطير والحيوانات.

لقد كان ملك سليمان بحدِّ ذاته معجزة ربانية أعطاها الله له دلالة على نبوته، وقد نعمت فلسطين بهذا الحكم الإيماني المعجزة الذي تدعمه قوى الجن والإنس والطير والريح، وكرّم الله سليمان بمعجزة إسالة النحاس له حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض. وشهدت مملكة سليمان حركة بناء وعمران ضخمة، كما امتد نفوذه ليصل مملكة سبأ في اليمن.

ولقد جاء ذكر سليمان مرات عديدة في القرآن الكريم مشيراً إلى علمه وملكه ونبوَّته، قال تعالى متحدثاً عن سليمان ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.[83]

وقال تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾،[84] وقال تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾،[85] وقال تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.[86] وقد عرفنا من القرآن قصص سليمان مع النملة،[87] ومع الهدهد،[88] ومع بلقيس ملكة سبأ،[89] حيث انتهى الأمر بإسلامها ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،[90] وقصته في القضاء ببعض الأمور،[91] وقصته في حُبِّه للخيل ورعايته لها.[92]

أما في حديث رسول الله ﷺ فنستشف منه أن سليمان كان ذا قوة بدنية هائلة، وأنه كان محباً للجهاد في سبيل الله، وأنه كان له زوجات كثيرات، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن

رسول الله ﷺ قال: "قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين، وفي رواية: بمئة امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون".[93]

وكانت وفاة سليمان عليه السلام آية من آيات الله ودرساً من الدروس للإنس والجن، بأن الجن لا يعلمون الغيب؛ إذ إن سليمان عليه السلام وقف يصلي في المحراب وهو متكئ على عصاه فمات وهو كذلك، ومكث فترة طويلة والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة دون أن تدري بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فسقط على الأرض، قال تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.[94]

رابعاً: مملكتا إسرائيل ويهودا:

استمر حكم داود وسليمان قرابة ثمانين عاماً، وهو العصر الذهبي الذي حُكمت فيه فلسطين تحت راية التوحيد والإيمان قبل الفتح الإسلامي لها.

وبعد وفاة سليمان انقسمت مملكته إلى قسمين شكّلا دولتين منفصلتين متعاديتين في كثير من الأحيان، وعانتا من الفساد الداخلي والضعف العسكري والسياسي والنفوذ الخارجي، فعند وفاة سليمان اجتمع ممثلو قبائل بني إسرائيل الـ 12 في شكيم "قرب نابلس" لمبايعة رحبعام بن سليمان، ولكن ممثلي عشر قبائل اتفقوا على عدم مبايعته؛ لأنه لم يعدهم، حسب الروايات، بتخفيف الضرائب، وانتخبوا بدلاً منه "يربعام" من قبيلة أفرايم ملكاً، وأطلقوا اسم "إسرائيل" على مملكتهم، وعاصمتهم شكيم (ثم ترزة ثم السامرة). أما قبيلتا يهودا وبنيامين فقد حافظتا على ولائهما لرحبعام بن سليمان Rehoboam ben Solomon، وكوّنتا تحت حكمه مملكة "يهودا" وعاصمتها القدس.[95]

أما **مملكة "إسرائيل"** فقد استمرت خلال الفترة 923–721 ق.م، وقد سمَّتها دائرة المعارف البريطانية ازدراء "المملكة الذيلية"، وقد خسرت بسبب غزو الدمشقيين كل الأراضي الواقعة شرقي الأردن وشمال اليرموك. وكان "عمري" أشهر ملوك مملكة إسرائيل 885–874 ق.م بنى السامرة، وجعلها عاصمته، أما خليفته "آخاب"

874–852 ق.م، فقد سمح لزوجته "إيزابل" بنت ملك صيدا وصور بفرض عبادة الإله الفينيقي "بعل" مما أدى إلى ثورة قام بها أحد الضباط واسمه "ياهو" أطاحت بآخاب، وأعاد عبادة يهوه Yahweh.

وفي عهد "يربعام الثاني" 785–745 ق.م، وهو الثالث من سلالة ياهو، توسَّعت مملكته شمالاً على حساب الآراميين، لكن ذلك لم يستمر طويلاً؛ إذ أدى ظهور الملك الآشوري "تجلات بلسَّر الثالث" 745–727 ق.م إلى الحد من هذا التوسع، وقام خليفته "شلمنصر الخامس"، ومن بعده "سرجون الثاني" بتأديب "هوشع" آخر ملوك إسرائيل، وقضى على دولته سنة 721 ق.م. وقام الآشوريون بنقل سكان إسرائيل إلى حران والخابور وكردستان وفارس وأحلوا مكانهم جماعات من الآراميين. ويظهر أن المنفيين الإسرائيليين اندمجوا تماماً في الشعوب المجاورة لهم في المنفى، فلم يبقَ بعد ذلك أثر للأسباط العشرة من بني إسرائيل.[96]

أما **مملكة "يهودا"** 923–586 ق.م فحسب الروايات الإسرائيلية (وهي تؤخذ بتفحص وحذر؛ حيث لا يوجد بين أيدينا ما ينفي أو يثبت الكثير مما فيها) فقد انتشرت في حكم يربعام بن سليمان 923–916 ق.م العبادة الوثنية، وفسدت أخلاق القوم بشيوع اللواط، وعندما خلفه ابنه "أبيام" 915–913 ق.م بقيت الأخلاق فاسدة...، وعندما حكم يهورام بن يهوشفاط Jehoram ben Jehoshafat 849–842 ق.م قَتَل إخوته الستة مع جماعة من رؤساء القوم...، أما يوحاز بن يوتام 735–715 ق.م، فيُقال أنه علق قلبه بحب الأوثان حتى إنه ضحى بأولاده على مذابح الآلهة الوثنية، وأطلق لنفسه عنان الشهوات والشرور. وأما منسي بن حزقيا Manasseh ben Hezekiah الذي حكم 687–642 ق.م فيُقال أنه أضلّ قومه عن عبادة الله، وأقام معابد وثنية.[97]

ولسنا نستغرب هذا عن بني إسرائيل فتلك أخلاقهم مع موسى عليه السلام تشهد بذلك، كما أن القرآن الكريم يشير إلى أنهم غيروا وبدلوا وحرفوا كلام الله وقتلوا الأنبياء ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.[98] ويحدثنا التاريخ أنهم قتلوا النبي "حزقيال" حيث قتله قاضٍ من قضاتهم، لأنه نهاه عن منكرات فعلها؛ وأن الملك منسي بن حزقيا قتل النبي أشعيا بن أموص، إذ أمر بنشره على جذع شجرة، لأنه نصحه ووعظه؛ وأن اليهود قتلوا النبي إرميا رجماً بالحجارة، لأنه وبخهم على منكرات فعلوها.[99]

ويظهر أن مملكة يهودا قد اعترتها عوامل الضعف والوقوع تحت النفوذ الخارجي فترات طويلة، فقد هوجمت مرات عديدة وهزمت، ودخل المهاجمون القدس نفسها، كما فعل شيشق فرعون مصر عندما دخل القدس واستولى على ما فيها (أواخر القرن 10 ق.م)، وهاجم الفلسطينيون والعربُ القدسَ في عهد يهورام 849–842 ق.م فدخلوها واستولوا على قصر يهورام وسبوا بنيه ونساءه، أما الملك حزقيا 715–687 ق.م فقد اضطر لإعلان خضوعه التام لملك الآشوريين سرجون الثاني بعد أن أسقط مملكة إسرائيل.

ودفع منسي بن حزقيا الجزية لـ"أسرحدون" Esarhaddon و"آشور بانيبال" Ashurbanipal ملكي آشور...، وقد قيَّد الآشوريون هذا الملك بسلاسل من نحاس، وذهبوا به إلى بابل، ثم عاد للقدس ومات بها. وأيام حكم "يوشيا بن آمون" 640–609 ق.م تقدم فرعون مصر "نخاو" إلى فلسطين، حيث هزم يوشيا، وأرسله لمصر أسيراً؛ حيث مات هناك، ووضع مكانه "يهوياقيم بن يوشيا" 609–598 ق.م، وقد أَرْهَقَ هذا الحاكم الشعب بالضرائب ليدفع الجزية لسيده المصري، ورجع إلى عبادة الأوثان. وفي أيام يهوياقيم هزم نبوخذ نصر "بختنصر" Nebuchadnezzar البابلي "نخاو" المصري شمال سورية 605 ق.م، وزحف إلى أن وصل للقدس، وأخضع يهوياقيم وأذله، وأدخل البلد تحت نفوذه، ولما ثار يهوياقيم على بختنصر دخل الأخير وجيشه القدس، وقيَّد يهوياقيم بسلاسل من نحاس؛ حيث مات بعد مدة.[100]

وعندما حكم يهوياكين 598–597 ق.م حاصر بختنصر القدس، وأَخَذَ الملك يهوياكين مع عائلته ورؤساء اليهود وقرابة عشرة آلاف من سكانها (فيما يعرف بالسبي الأول) وبعض خزائن الهيكل إلى بابل، ثم إن بختنصر عيَّن صدقيا بن يوشيا Zedekiah son of Josiah 597–586 ق.م حيث أقسم له يمين الولاء، غير أن صدقيا ثار في آخر حكمه على البابليين، الذين ما لبثوا أن زحفوا للقدس وحاصروها 18 شهراً حتى أسقطوها، وأُخذ صدقيا أسيراً ورُبِط بسلاسل من نحاس وسيق إلى بابل؛ حيث يُذكر أنه قُتل أبناؤه أمامه وسُملت عيونه، وخرب نبوخذ نصر القدس، ودمر الهيكل ونهب الخزائن والثروات، وجمع نحو 40 ألفاً من اليهود وسباهم إلى بابل (السبي البابلي الثاني) وهاجر من بقي من يهود إلى مصر ومنهم النبي إرميا. وبذلك سقطت مملكة يهودا 586 ق.م.[101]

ويسجل التلمود أن سقوط دولة اليهود وتدميرها لم يكن إلا "عندما بلغت ذنوب بني إسرائيل مبلغها، وفاقت حدود ما يطيقه الإله العظيم، وعندما رفضوا أن ينصتوا

لكلمات وتحذيرات إرميا". وبعد تدمير الهيكل، وجه النبي إرميا كلامه إلى نبوخذ نصر قائلاً: "لا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الله المختار، إنها ذنوبهم الفاجرة التي ساقتهم إلى هذا العذاب".[102]

وتشير التوراة إلى آثام بني إسرائيل التي استحقوا بسببها سقوط مملكتهم، فتذكر على لسان أشعيا، وهو أحد أنبيائهم قوله "ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الآثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء"[103]، وتقول التوراة "والأرض تدنست تحت سكانها؛ لأنهم تعدوا الشرائع، غيروا الفريضة، نكثوا العهد الأبدي"[104].

خامساً: تداول الهيمنة الفارسية والإغريقية والرومانية على فلسطين:

عاش اليهود بعد سقوط ملكهم في فلسطين مرحلة "السبي البابلي" في العراق، وهي الفترة التي يظهر أنهم بدأوا فيها بتدوين التوراة، أي بعد ما لا يقل عن 700 عاماً من ظهور موسى عليه السلام، ولم ينتهوا من تدوينها إلا أواخر القرن الثاني ق.م (بعد أكثر من 400 عاماً)، وخلال هذه الفترة كان اليهود قد تركوا الالتزام بدينهم، وقلدوا الدول التي يعيشون فيها بعبادة الأوثان.

ولاحت الفرصة لليهود للعودة مرة أخرى إلى فلسطين عندما أسقط الإمبراطور الفارسي قورش الثاني Cyrus II الدولة البابلية الكلدانية 539 ق.م بمساعدة يهودية، وانتصر على ميديا، ومدَّ نفوذه إلى فلسطين التي دخلت في عصر السيطرة الفارسية 539–332 ق.م، فقد سمح قورش بعودة اليهود إلى فلسطين كما سمح لهم بإعادة بناء الهيكل في القدس، غير أن القليل من اليهود انتهزوا الفرصة؛ لأن الكثير من السبي أعجبتهم الأرض الجديدة، ولكن القلة المتشددة التي عارضت الاندماج حفظت بني إسرائيل من الاندثار.

ويذكر أحد المؤرخين أن عدد الراجعين كانوا 42 ألفاً وهم أقلية بالنسبة للعدد الحقيقي. وقام هؤلاء اليهود ببناء الهيكل؛ حيث اكتمل بناؤه في 515 ق.م، وفي منطقة القدس

تمتع اليهود بنوع من **الاستقلال الذاتي تحت الهيمنة الفارسية، وهو حكم لم يكن يتجاوز نصف قطره عشرين كيلو متراً** في أي اتجاه (أي ما لا يزيد عن 1,257 كم^2، وهو أقل من 5% من مساحة فلسطين).[105]

وفي 332 ق.م احتل الإسكندر المقدوني Alexander III of Macedon فلسطين في إطار حملته الشهيرة التي احتل خلالها بلاد الشام ومصر والعراق وإيران وأجزاء من الهند، وقد ترك الإسكندر اليهود دون أن يمسهم، ومنذ ذلك التاريخ دخلت فلسطين في عصر السيطرة **الهللينية الإغريقية** الذي استمر حتى 63 ق.م.

وبعد موت الإسكندر نشب نزاع بين قادته أدى إلى توزيع مملكته بينهم فكانت فلسطين (وباقي سورية المجوفة من جنوب اللاذقية ولبنان وأجزاء من سورية كدمشق)، ومصر، وبرقة (ليبيا)، وبعض جزر البحر الإيجي، من نصيب القائد بطليموس الأول Ptolemy I Soter، وسمي حكمه وحكم خلفائه من بعده بـ"عصر البطالمة" وقد استمر في فلسطين من 302–198 ق.م، وقد عطف البطالمة على اليهود الذين كان يدير شؤونهم "الكاهن الأكبر". ثم إن السلوقيين (الذين كان نصيبهم بعد وفاة الإسكندر سورية الشمالية، وآسيا الصغرى، والرافدين والهضبة الإيرانية) استطاعوا السيطرة على فلسطين إثر معركة بانيون Paneion التي حقق فيها الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث Antiochus III the Great نصراً كاملاً على البطالمة، وقد استمرت سيطرة السلوقيين على فلسطين حتى 63 ق.م.[106]

وقد حاول السلوقيون صبغ اليهود بالصبغة الهللينية الإغريقية، فحاول أنطيوخوس الرابع Antiochus IV Epiphanes صرف اليهود عن دينهم وأرسل في 167 ق.م أحد قادته وكلفه إلغاء الطقوس الدينية اليهودية والاستعاضة بالإله زيوس Zeus الأوليمبي عن الإله يهوه، وعيَّن لهم كاهناً إغريقياً وثنياً في القدس، وحرَّم الختان، واقتناء الأسفار المقدسة، وأوجب أكل لحم الخنزير، وبموجب هذه الأوامر انقسم اليهود إلى قسمين: قسم انصرف عن الشريعة مقتنعاً أو مكرهاً وهم "المتهلنون" أو "المتأغرقون" وأقاموا في القدس والمدن الإغريقية، وقسم آخر أقل عدداً هربوا من القدس، وأطلق عليهم اسم "حزب القديسين". وبشكل عام تأثر اليهود بالإغريقية فحلت الآرامية محل العبرية، وأصبحت اليونانية لغة الطبقة المثقفة، ونشأ في اليهود جماعة تناصر اليونانيين تمكنوا من الوصول للحكم بقيادة كبير الكهنة جيسون Jason.[107]

أما الذين هربوا من القدس "حزب القديسين" فقد اعتمدوا لقيادتهم متاثياس (متاييه) كبير عائلة الأشمونيين، والذي مات بعد فترة قصيرة، فخلفه ابنه يهوذا الملقب "المكابي" أي المطرقة، وقد ثار على السلوقيين وانتصر عليهم أكثر من مرة 166–165 ق.م، وانضم إليه قسم كبير من المترددين اليهود. وهذا دفع أنطيوخوس الرابع لإيقاف اضطهاد اليهود فسمح لهم بممارسة دينهم جنباً إلى جنب مع أنصار التأغرق. وعاد "المكابيون" إلى القدس في 164/1/25 ق.م، وما زال اليهود يحتفلون بهذه المناسبة تحت اسم عيد الأنوار "حانوكا Hanukkah".[108]

تأسس لليهود بعد ذلك **حكم ذاتي** في القدس أخذ يتسع أو يضيق وتزداد مظاهر استقلاله أو تضعف حسب صراع القوى الكبرى على فلسطين (الرومان، البطالمة، السلوقيين...). وأصبح الحكم وراثياً في ذرية يهودا المكابي، وقد حكم المكابيون كـ"كبار كهنة"، وسرعان ما سموا أنفسهم ملوكاً على الرغم من أنهم كانوا تابعين، ويدفعون الخراج للسلوقيين، وفي 143 ق.م أعفى الإمبراطور ديمتريوس الثاني Demetrius II اليهود من الضرائب، وأعطى لقب حاكم لـ"سيمون Simon"، واتفق اليهود على اعتباره ملكهم، وبذلك تأسس حكم ملكي اعترف به السلوقيون الذين "أعطوا سيمون أيضاً حق صك النقود".[109]

وفي عهد الملك اليهودي ألكسندر جانيوس Alexander Jannaeus 103–76 ق.م شمل حكمه شرق الأردن الذي سمّاه اليهود بيريا، وتوغل إلى الساحل أيضاً، وكادت حدود مملكته تلامس حدود مملكة سليمان. وقد حكمت بعده أرملته سالوم ألكسندرا Salome Alexandra حتى 67 ق.م، ثم تخاصم ابناها على الحكم، وتدخل العرب الأنباط في مساعدة هيركانوس الثاني Hyrcanus II ضدّ أخيه أريستوبولوس Aristobulus. وفي 63 ق.م قضى القائد الروماني الشهير بومبي Pompey على "الدويلة" اليهودية، ونصَّب هيركانوس الثاني كبيراً للكهنة، وحطَّم أسوار القدس، وبتر الأجزاء الأخرى من أيدي اليهود، وأبقى على استمرار الأسرة المكابية في ظلّ الرومان.[110]

وفي الفترة 47–40 ق.م دخلت "المستعمرة" اليهودية تحت سيطرة حاكم أيدومية "أنتي بيتر Antipater I the Idumaean". وفي 40 ق.م هاجم الفرس فلسطين ونصبوا "أنتي جونوس Antigonus" أخو "هيركانوس الثاني" حاكماً وكبيراً للكهنة، حيث استمر حكم "أنتي جونوس" ثلاث سنوات، وكان هو آخر حكام الأسرة المكابية.

وفي 37 ق.م انتصر الرومان على الفرس، واستعادوا السيطرة على فلسطين، ونصبوا هيرودس Herod بن أنتي بيتر حاكماً، وبالرغم من أن هيرودس قد تهوّد، وحاول استرضاء اليهود إلا أنه كان مبغوضاً من قبلهم، وكان هو بشكل عام طاغية ظالماً شديد الولاء للرومان، وقد قام بتجديد الهيكل فضاعف مساحته ورفع سطحه وجعله على جانب عظيم من الإتقان والهندسة.[111]

استمر حكم هيرودس حتى سنة 4 ق.م، وعاصره من الأنبياء زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، كما عاصرته مريم بنت عمران عليها السلام، وفي آخر أيامه ولد المسيح عليه السلام.

كان **زكريا** عليه السلام يعمل نجاراً، وقد تولى كفالة مريم بنت عمران، ورزقه الله سبحانه ولداً هو **يحيى** عليه السلام، بعد أن بلغ الكبر وكانت امرأته عاقراً. وكان لزكريا ويحيى جهود كبيرة في دعوة بني إسرائيل للهداية والحق. وقد جاءت البشارة بيحيى بأنه سيكون ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾،[112] أي يسود قومه ويفوقهم ويحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ويكون نبياً.[113] فلما ولد يحيى وبلغ السن الذي يؤمر فيه، قال له تعالى ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾،[114] أي خُذ ما في كتاب الله بجد واجتهاد، وآتاه الله الحكمة ورجاحة العقل منذ صغره ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.[115] وقام يحيى بواجبه في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اشتهر في الأدبيات المسيحية باسم "يوحنا المعمدان"؛ والمعمدان نسبة إلى ما ذُكر أنه كان يُعمِّد الناس (يغسلهم بالماء) لتطهيرهم من الخطايا، وكان يحيى يبشر بقدوم المسيح عليه السلام.

وقد دفع يحيى عليه السلام حياته ثمناً لموقفه الصلب من رغبة هيرودس بالزواج من ابنة أخيه (وقيل ابنة أخته) حين أنكر ذلك، وكانت هذه الفتاة واسمها "هيروديا" بارعة الجمال، فحقدت أم الفتاة والفتاة على يحيى، وتزينت البنت، ودخلت على هيرودس فرقصت أمامه حتى ملكت مشاعره، فطلب منها أن تتمنى فتمنت رأس يحيى، فاستجاب لها وقتل يحيى وقدم رأسه على طبق هدية لها[116] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.[117]

ولم يكتفِ هيرودس بجريمته هذه؛ إذ إنه قتل زكريا عليه السلام أيضاً؛ حيث نشره بالمنشار؛ لأنه دافع عن ابنه يحيى، وعارض صحة الزواج لمانع القرابة.[118]

أما **مريم**، سيدة نساء العالمين، فقد ولدت قبل يحيى عليه السلام، وكانت أمها قد نذرتها وهي جنين في بطنها في سبيل الله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا

زَكَرِيَّا﴾[119] واصطفى الله مريم ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[120]

وقدر الله سبحانه أن يجري معجزته العظيمة بأن تلد مريم ابنها المسيح من دون أب، وأن يتم ذلك بكلمة من الله "كن"، ونقف هنا لنقرأ النص القرآني الموجز المعجز حول قصة المسيح ورسالته ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.[121]

وُلِد **عيسى** بن مريم عليهما السلام نحو 4 ق.م في بيت لحم، وتذكر الروايات أن مريم هربت بعيسى مع يوسف "النجار" إلى مصر خوفاً على ابنها من ظلم هيرودس وبطشه، ثم ما لبثوا أن عادوا بسرعة إلى مدينة الناصرة؛ حيث عاش طفولته وشبّ على عوده هناك، ولذلك عرف باسم "يسوع الناصري" وسمي أتباعه "النصارى".[122]

لقد كان عيسى بن مريم عليهما السلام آية من آيات الله حسم حقيقة أمره أمام الناس وهو رضيع في مهده، فأكد أنه عبد الله وبشرهم بنبوته ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.[123]

وهناك في الأرض المباركة فلسطين قام عيسى عليه السلام بواجب الدعوة إلى الله، وبذل جهوداً كبيرة في هداية بني إسرائيل، وبشرهم بقدوم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.[124] وعلى الرغم من المعجزات التي أجراها الله على يديه وما تضمنته رسالته من حقّ ونور إلا أن بني إسرائيل جحدوا وأنكروا وناصبوه العداء، ولم يؤمن به إلا عدد ضئيل.

ويذكر التاريخ أنه لما جاء عيد الفصح في 30م ذهب المسيح إلى أورشليم (القدس) وزار الهيكل واستنكر وجود الصيارفة والباعة،[125] وفي إنجيل متى (12/21–13) "ودخل

يسوع إلى هيكل الله، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام، وقال لهم: مكتوب أن بيتي [هكذا النص] بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص".[126]

وقد حقد زعماء اليهود والوجهاء على المسيح، وفي إنجيل لوقا (47/19) "وكان يعلّم كل يوم في الهيكل وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه"،[127] وسارع مجلس اليهود الديني "السنهدرين Sanhedrin" إلى الاجتماع، وقرر القبض على المسيح، وأصدر في الحال حكماً بإعدامه بتهمة التجديف، والخروج عن الدين، ثم إنهم ساقوه إلى الوالي الروماني، في ذلك الوقت، بيلاطس البنطي Pontius Pilate، الذي يحق له وحده تنفيذ الإعدام، ولم يجد هذا جرماً من المسيح يوجب قتله، فقامت قيامة خصومه من اليهود، وأخذوا يصرخون بصوت واحد: اصلبه، اصلبه "دمه علينا وعلى أولادنا".[128]

وقد اضطر كارهاً إلى الموافقة على إعدامه، غير أن الله سبحانه أدركه برحمته، فرفعه إليه في الوقت الذي ظنّ فيه اليهود أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.[129]

وطويت هذه الصفحة من تاريخ الصراع بين الحق والباطل على الأرض المقدسة، فقد كذب بنو إسرائيل بآخر نبي أرسل إليهم، واتهموه بالسحر وتآمروا عليه.

وآمن بعيسى **الحواريون**، وأخذوا ينشرون دعوته من بعده، ويلاقون في سبيلها الاضطهاد والأذى، واستمر الحواريون في دعوة اليهود، وكانوا يخطبون في الهيكل، ولما تضاعف عدد النصارى بعد بضع سنوات خاف اليهود من انتشار الدعوة، وطلبوا القبض على بطرس Peter وغيره لمحاكمتهم أمام "السنهدرين"، إلا أن المجلس اكتفى بجلدهم وأطلق سراحهم، وهرب المهتدون الجدد إلى السامرة وقيسارية وأنطاكية فأنشأوا الجماعات المسيحية. ووصل بطرس إلى روما؛ حيث أنشأ جماعة مسيحية، وكان يركز في دعوته على اليهود، أمّا بولس Paul فكان يدعو الوثنيين كما يدعو اليهود، واستخدم في دعوته المصطلحات والمفاهيم الفلسفية لتفسير المسيحية بما يتلائم مع الثقافة الهلنستية السائدة آنذاك.

وانتهى الأمر ببولس وبطرس بأن حكم عليهما بالإعدام في عهد الإمبراطور الروماني نيرون Nerone في 64م، غير أن رسالة عيسى عليه السلام ما لبثت أن تعرضت للتشويه، وما لبث

الإنجيل الذي جاء به أن تعرض للتحريف، وتأثر أتباعه من بعده بالحضارة الهلنستية ونظام الحكم الروماني، واختلطت دعوتهم بالكثير من التقاليد والطقوس والتعاليم السائدة في البلدان التي انتشرت فيها، فأصبح من السهل على الشعوب اعتناقها، غير أن المسيحية لم تنطلق من إطارها المحدود إلا بعد أن آمن بها الإمبراطور قسطنطين Constantine في 325م وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية،[130] وقد اهتم قسطنطين بفلسطين، وبنى في القدس كنيسة الضريح المقدس التي أصبحت أعظم الكنائس المسيحية شأناً، وبنى فوق جبل الزيتون كنيسة الصعود، وأقام كنيسة الميلاد في بيت لحم، وعلى كل حال، فقد دخل أهل فلسطين في ذلك الوقت في النصرانية إلى أن جاء الفتح الإسلامي لها.[131]

سادساً: نهاية الوجود السياسي اليهودي في فلسطين:

ونعود مرة أخرى لنرى أحوال بني إسرائيل في فلسطين بعد صعود المسيح، فقد كان الرومان قد بدأوا حكماً مباشراً على القدس وباقي فلسطين منذ 6م، بعد أن خلعوا أرخيليوس الذي خلف أباه هيرودس لسوء حكمه، وفي عهد واليهم بيلاطس البنطي 26–36م حدثت وقائع السيد المسيح عليه السلام، وقد ثار اليهود على حكم الرومان في تشرين الثاني/ نوفمبر 66م في عهد الإمبراطور نيرون، واستطاع القائد العسكري الروماني تيتوس Titus إخماد هذه الثورة في أيلول/ سبتمبر 70م بعد أن استمرت أربعة أعوام فدخل القدس بعد حصار شديد، وأعمل القتل والنهب والحرق، ودمَّر الهيكل الذي بناه هيرودس حتى لم يبقَ حجر على حجر، وأصبحت مدينة القدس قاعاً صفصفاً، وبيع كثير من الأسرى عبيداً في أسواق الإمبراطورية الرومانية بأبخس الأثمان، وكانت أمنية اليهودي أن يشتريه من يرفق به، فلا يرسله إلى حلقة المصارعة مع الوحوش التي اعتاد الرومان التلذذ بمنظرها وهي تلتهم الناس، وبنى هذا القائد قوساً في روما بمناسبة نصره على اليهود، وهو ما يزال قائماً إلى الآن، وعليه نقوش ذكرى ذلك الانتصار، ويُرى فيه الشمعدان ذو الرؤوس السبعة المشهور عند اليهود، والذي أخذه من الهيكل.[132]

ثار اليهود مرة أخرى على الرومان بقيادة باركوخبا Bar Kokhba، واسمه الأصلي سيمون Simon، واستمرت ثورتهم ثلاث سنوات 132–135م، واجتمع تحت لوائه عدد كبير من اليهود، واستطاع احتلال القدس، غير أن الإمبراطور الروماني هادريان Hadrian أرسل جيشاً كبيراً بقيادة جوليوس سيفروس Julius Severus الذي احتل

القدس ثانية وهزم اليهود، الذين هربوا إلى بتّير؛ حيث ما تزال خرائب القلعة التي تحصن فيها اليهود، وهزموا، وسماها العرب "خربة اليهود". وقد نكّل هادريان بالثائرين أشد تنكيل، ودمر "أورشليم" وحرث موقعها الذي كانت قائمة عليه، وقتل وسبى أعداداً كبيرة من اليهود، ثم منع اليهود من دخول القدس والسكن فيها، بل والدنوّ منها، وسمح للمسيحيين بالإقامة فيها على ألا يكونوا من أصل يهودي. وأقام هادريان مدينة جديدة فوق خرائب "أورشليم" سماها إيليا كابيتولينا، حيث عرفت بعد ذلك بـ"إيلياء" وهو اسم هادريان الأول، وأقام هيكلاً وثنياً لإله الرومان جوبيتر Jupiter على مكان الهيكل القديم نفسه.[133]

واستمر حظر دخول القدس على اليهود نحو 200 عام تالية،[134] وندر دخولهم إليها وإقامتهم فيها طوال القرون التالية حتى القرن الـ 19. وتشرد بنو إسرائيل في الأرض، ولم يعد لهم في فلسطين سوى الذكريات التي أكثرها كفر وفسق وبغي وقتل للأنبياء، فكان جزاؤهم غضب الله عليهم ولعنته وحرمانهم من الأرض المقدسة وتشردهم في الأرض.

وفي الختام نذكر قول هيربرت جورج ولز H.G. Wells في كتاب "موجز تاريخ العالم A Short History of the World" حول تجربة بني إسرائيل في فلسطين بعد السبي البابلي: "كانت حياة العبرانيين [في فلسطين] تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن الأول إلى الآخر لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقية، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم".[135]

ويذكر المؤرخ المشهور جوستاف لوبون Gustave Le Bon أن بني إسرائيل عندما استقروا في فلسطين "لم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما في حضارتها، أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارة ودعارتها وخرافاتها، فقربوا لجميع آلهة آسيا، قربوا لعشتروت ولبعل ولمولوخ من القرابين ما هو أكثر جداً مما قربوه لإله قبيلتهم يهوه العبوس الحقود، الذي لم يثقوا به إلا قليلاً" ويقول: "اليهود عاشوا عيش الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً ولم يكن تاريخهم غير قصة لضروب المنكرات..." ... "إن تاريخ اليهود في ضروب الحضارة صفر... و(هم) لم يستحقوا أن يعدوا من الأمم المتمدنة بأي وجه"، ويقول جوستاف لوبون أيضاً "وبقي بنو إسرائيل حتى في عهد ملوكهم

بدواً أفّاقين مفاجئين مغيرين سفاكين... مندفعين في الخصام الوحشي"، ويقول: إن مزاج اليهود النفسي "ظلّ على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب ابتدائية فقد كان اليهود عُنُداً مندفعين غفلاً سذجاً جفاة كالوحوش والأطفال"... "ولا تجد شعباً عطل من الذوق الفني كما عطل اليهود".[136]

خلاصة:

- إن سكان فلسطين قد جاء معظمهم من جزيرة العرب، وإنهم ظلّوا سكان هذه البلاد حتى عصرنا هذا.
- إن الله قد وعد بني إسرائيل الأرض المقدسة عندما كانوا مستقيمين على أمر الله، وعندما كانت تسوسهم الأنبياء، فلما بدلوا وأعرضوا وكفروا ذهب هذا الحق من أيديهم.
- إن المسلمين هم أولى من بني إسرائيل بأنبيائهم، وهم الورثة الحقيقيون لتراثهم، ودعوة الإسلام هي استمرار لدعوة هؤلاء الأنبياء، وإن الحق الذي سعوا لتكريسه هو الحق الذي يسعى المسلمون لتكريسه.
- إن مُلك بني إسرائيل لم يشمل في أي يوم من الأيام كل فلسطين المعروفة بحدودها الحالية، وإن المدة التي حكموا فيها بشكل مستقل تماماً هي مدة ضئيلة قياساً إلى تاريخ فلسطين، وإنهم حتى عندما كانت لهم مملكتان كانوا في كثير من الأحيان خاضعين لنفوذ قوى أكبر منهم.
- إن الحكم الذاتي الذي تمتع به اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي كان ضعيفاً ومحدوداً بمنطقة القدس وضواحيها، ولم يتمتعوا بعد ذلك إلا باستقلال محدود في عهد المكابيين.
- إن اليهود بعد ذلك تشردوا في الأرض، ولم تعد لهم صلة بفلسطين لفترة استمرت نحو 1900 عام متصلة.

هوامش الفصل الأول

[1] **القرآن الكريم**، سورة النحل: 36.

[2] **القرآن الكريم**، سورة الشعراء: 105، 123، 141، 160، 176.

[3] انظر: عمر سليمان الأشقر، **العقيدة في الله**، ط 5 (الكويت: مكتبة الفلاح، 1984)، ص 256–261.

[4] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 64.

[5] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 181.

[6] **القرآن الكريم**، سورة التوبة: 30.

[7] انظر: محمد علي الزعبي، **دقائق النفسية اليهودية** (بيروت: د.ن، 1968)؛ وانظر أيضاً: بولس حنا مسعد، **همجية التعاليم الصهيونية** (بيروت: دار الكتاب العربي، 1969).

[8] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 67–68.

[9] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 127–128.

[10] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 130–133.

[11] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 136.

[12] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 21.

[13] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 157.

[14] **القرآن الكريم**، سورة الصف: 6.

[15] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 13.

[16] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 60.

[17] **سفر التكوين** (1/12) نقلاً عن: سمير أيوب، **وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني** (بيروت: دار الحداثة، 1984)، ج 1، ص 29.

[18] **سفر التكوين** 14/13، نقلاً عن: المرجع نفسه، ج 1، ص 31–32.

[19] **سفر التكوين** 15، نقلاً عن: المرجع نفسه، ج 1، ص 32.

[20] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 124.

[21] انظر مثلاً: محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ** (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1972).

[22] حول الفقرات التاريخية السابقة، انظر: المرجع نفسه، ص 16–17، و29، و64، و73–74، و84، و86، و96–97.

[23] سنشير بالتفصيل إلى هذا الموضوع لاحقاً.

[24] **الموسوعة الفلسطينية**، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984)، ج 1، ص 37.

[25] انظر في **القرآن الكريم** حول ما سبق من قصة إبراهيم عليه السلام: **سورة البقرة**: 258، و**سورة الأنبياء**: 51–71.

[26] **القرآن الكريم**، سورة الصافات: 99؛ وانظر قصة إبراهيم عليه السلام بالتفصيل في: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ط 5 (بيروت: مكتبة دار المعارف، 1983)، ج 1، ص 146–175.

[27] محمد العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**، ص 95؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 37.

[28] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 71.

[29] محمد العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**، ص 96–98؛ ومصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق 2 في بيت المقدس (1) (بيروت: دار الطليعة، 1975)، ص 96–97.

[30] **القرآن الكريم**، سورة هود: 72.

[31] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 127.

[32] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 37.

[33] المرجع نفسه؛ ومصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق 2 (1)، ص 25–26.

[34] حديث متفق عليه.

[35] **القرآن الكريم**، سورة النحل: 120.

[36] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 80–84.

[37] **القرآن الكريم**، سورة هود: 82–83.

[38] **القرآن الكريم**، سورة العنكبوت: 32.

[39] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 74.

[40] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 72–73.

[41] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 632–633.

[42] المرجع نفسه.

[43] **القرآن الكريم**، سورة القصص: 38.

[44] **القرآن الكريم**، سورة القصص: 4.

[45] **القرآن الكريم**، سورة القصص: 5–6.

[46] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 104–105؛ انظر قصة موسى عليه السلام بالتفصيل في: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 1، ص 237–319.

[47] انظر مثلاً في: **القرآن الكريم**، سورة طه: 42–76.

[48] **القرآن الكريم**، سورة يونس: 83.

[49] **القرآن الكريم**، سورة الشعراء: 63–66.

[50] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 390–391.

[51] **القرآن الكريم**، سورة يونس: 92.

[52] **القرآن الكريم**، سورة يونس: 92.

[53] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 138.

[54] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 148.

[55] **القرآن الكريم**، سورة طه: 88.

[56] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 150.

[57] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 21.

[58] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 22.

[59] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 24.

[60] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط 7 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1971)، ج 2، ص 695–697.

[61] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 25.

[62] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 26.

[63] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج 2، ص 698.

[64] نقلاً عن: محمد عبد الله الخطيب التبريزي، **مشكاة المصابيح**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (بيروت: المكتب الإسلامي، 1985)، ج 2، ص 159.

[65] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق 2 (1)، ص 121–122، و124، و138.

[66] حديث رواه أحمد على شرط البخاري، وبنفس معناه دون ذكر اسم يوشع حديث رواه مسلم وآخر رواه البزار، انظر: إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1969)، ج 1، ص 302–303.

[67] محمد العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**، ص 138.

[68] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 246.

[69] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 247.

[70] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 247.

[71] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 249.

[72] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 249.

[73] انظر: قصة بني إسرائيل مع نبيهم ومع طالوت في: **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 246–251.

[74] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 184.

[75] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم 1220 ق.م – 1359م: منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي** (بيروت: دار النفائس، 1984)، ص 35.

[76] المرجع نفسه، ص 43.

[77] انظر: المرجع نفسه، ص 48–49.

[78] **القرآن الكريم**، سورة ص: 17–20.

[79] **القرآن الكريم**، سورة ص: 26.

[80] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 80.

[81] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: 10–11.

[82] انظر: ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 45؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 184–185.

[83] **القرآن الكريم**، سورة ص: 35–40.

[84] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 16–17.

[85] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: 12–13.

[86] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 81–82.

[87] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 18.

[88] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 20–28.

[89] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 22–44.

[90] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 44.

[91] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 78–79.

[92] **القرآن الكريم**، سورة ص: 31–34.

[93] حديث متفق عليه.

[94] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: 14.

[95] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 185؛ وظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 46.

[96] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 238، وج 3، ص 185–186؛ وظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 55.

[97] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 41–51.

[98] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 70.

[99] انظر: محمد الزعبي، **دقائق النفسية اليهودية**، ص 75.

[100] انظر: مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 41–51.

[101] المرجع نفسه، ص 51–52؛ وظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 58–59.

[102] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 59.

[103] **سفر أشعيا**، الإصحاح الأول (4).

[104] **سفر أشعيا**، الإصحاح 24 (5).

[105] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 64–67.

[106] المرجع نفسه، ص 68، و74؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 266.

[107] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 75؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 266.

[108] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 77؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 267.

[109] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 78–79؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 267–268.

[110] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 80–84.

[111] المرجع نفسه، ص 86–87؛ ومصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 62.

[112] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 39.

[113] محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ط 3 (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981)، ج 1، ص 201.

[114] **القرآن الكريم**، سورة مريم: 12.

[115] **القرآن الكريم**، سورة مريم: 12؛ وانظر: محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج 2، ص 213.

[116] انظر: محمد الزعبي، **دقائق النفسية اليهودية**، ص 76.

[117] **القرآن الكريم**، سورة مريم: 15.

[118] ورد في الحديث أن زكريا نُشر بالمنشار. انظر قصة زكريا في: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 2، ص 47–55.

[119] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 37.

[120] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 42.

[121] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 45–49.

[122] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 214.

[123] **القرآن الكريم**، سورة مريم: 30–31.

[124] **القرآن الكريم**، سورة الصف: 6.

[125] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 216.

[126] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 66.

[127] نقلاً عن: المرجع نفسه.

[128] نقلاً عن: المرجع نفسه.

[129] **القرآن الكريم**، سورة النساء: 157–158.

[130] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 217.

[131] المرجع نفسه، ج 3، ص 573.

[132] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 68–70.

[133] المرجع نفسه، ص 71–72؛ وظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 91–93.

[134] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 93.

[135] المرجع نفسه، ص 98.

[136] انظر: المرجع نفسه، ص 117–124.

الفصل الثاني

الفتح الإسلامي لفلسطين

الفتح الإسلامي لفلسطين

أولاً: مكانة فلسطين الإسلامية:

تتمتع أرض فلسطين بمكانة خاصة في التصور الإسلامي، وهي المكانة التي جعلتها محط أنظار ومهوى أفئدة المسلمين، وسنشير هنا باختصار إلى أهم النقاط التي جعلتها تحظى بهذه المكانة:

- في أرض فلسطين المسجد الأقصى المبارك، وهو أول قبلة للمسلمين في صلاتهم، كما يعدّ ثالث المساجد مكانة ومنزلة في الإسلام بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي، ويُسنُّ شدّ الرحال إليه وزيارته، والصلاة فيه بـ 500 صلاة عما سواه في المساجد.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى".[1]

وقال ﷺ: "الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة".[2]

- أرض فلسطين أرض مباركة بنص القرآن الكريم ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾،[3] وقال تعالى ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾،[4] قال ابن كثير: بلاد الشام،[5] وقوله تعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾،[6] قال ابن كثير: بلاد الشام،[7] وقال تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾،[8] قال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها هي بيت المقدس.[9]

والبركة هنا حسية ومعنوية... لما فيها من ثمار وخيرات، ولما خُصت به من مكانة، ولكونها مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة الأطهار.[10]

- هي أرض مقدسة بنص القرآن الكريم، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.[11] قال الزجاج: المقدسة هي الطاهرة، وقيل سماها مقدسة لأنها طهرت من الشرك، وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين، قال الكلبي: الأرض المقدسة هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقال قتادة: هي الشام كلها.[12]

- فلسطين أرض الأنبياء ومبعثهم عليهم السلام فعلى أرضها عاش إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، ولوط، وداود، وسليمان، وصالح، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام، ممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم، كما عاش على أرضها الكثير من أنبياء بني إسرائيل الذين كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي جاءهم نبي، وممن ورد ذكرهم في الحديث الصحيح: نبي الله يوشع عليه السلام.

- عندما يقرأ المسلمون القرآن الكريم يشعرون بارتباط عظيم بينهم وبين هذه الأرض؛ لأن ميدان الصراع بين الحق والباطل تركز على هذه الأرض، ولأنهم يؤمنون بأنهم حاملو ميراث الأنبياء، ورافعو رايتهم.

- المسجد الأقصى هو مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه كان معراجه إلى السماء، وفي هذا المسجد جمع الله لرسوله الأنبياء من قبله، فأمّهم دلالة على انتقال الإمامة والريادة وأعباء الرسالة إلى الأمة الإسلامية.

- الملائكة تبسط أجنحتها على أرض فلسطين، التي هي جزء من الشام، ففي الحديث الصحيح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا طوبى للشام، يا طوبى للشام، قالوا: يا رسول الله وبمَ ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام".[13]

- هي أرض المحشر والمنشر، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال: "أرض المحشر والمنشر".[14]

- هي عقر دار الإسلام وقت اشتداد المحن والفتن، فعن سلمة بن نفيل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عقر دار الإسلام بالشام"،[15] وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام".[16]

- المقيم المحتسب فيها كالمجاهد والمرابط في سبيل الله، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أهل الشام وأزواجهم وذرياتهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله، فمن احتل مدينة من المدائن فهو في رباط، ومن احتل منها ثغراً من الثغور فهو في جهاد".[17]

- الطائفة المنصورة الثابتة على الحق تسكن الشام، وخصوصاً بيت المقدس وأكنافها، وذلك في أحاديث يفسر ويقوي بعضها بعضاً؛ فعن أبي أمامة مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قيل يا رسول الله أين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس".[18]

هذه مكانة فلسطين من الناحية الدينية، وهي مكانة جعلتها جزءاً من عقيدة المسلمين ووجدانهم. وقد تعمقت هذه المكانة بالفتح الإسلامي لفلسطين، ووقوع عدد من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي على أرضها كأجنادين، وفحل – بيسان، واليرموك، وحطين، وعين جالوت. وباختلاط دماء الصحابة والتابعين والمجاهدين بثراها المبارك، وبهجرة وإقامة الكثير من الصحابة والتابعين والعلماء وأنسالهم فيها، وببروز عدد من أبنائها كعلماء وقادة ورجال حكم.

وهذا يقودنا إلى الإشارة إلى أحد معالم الحل الإسلامي المنشود لتحرير الأرض المباركة، وهو توسيع دائرة الصراع لتشمل كافة المسلمين المؤمنين بحقهم فيها، وعدم التفريط بأي جزء منها باعتبارها أرضاً إسلامية مقدسة، وباعتبارها جزءاً من عقيدة المسلمين ووجدانهم. وإن استشعار المسلمين بواجبهم تجاه تحرير أرض الإسراء، وقيامهم بخطوات عملية في هذا الإطار هو ضمانة حقيقية للسير بخطوات جادة لتحقيق آمال المسلمين باستعادة أرضهم ومقدساتهم.

ثانياً: أنظار المسلمين تتجه إلى فلسطين:

استمرت الهيمنة الرومانية على فلسطين بعد أن رفع الله سبحانه المسيح إليه، وفي عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير (306–337م) تمّ الاعتراف رسمياً بالمسيحية في المرسوم الشهير بمرسوم ميلان Edict of Milan الصادر سنة 313م، وقد تنصر قسطنطين نفسه، وأقام في مدينة القدس "في المكان الذي يعتقد النصارى أن السيد المسيح دفن فيه" كنيسة الضريح المقدس، التي أصبحت أعظم الكنائس شأناً عند النصارى، وبنى فوق جبل الزيتون كنيسة الصعود، وأقام كنيسة الميلاد في بيت لحم، وقسطنطين نفسه هو الذي بنى مدينة القسطنطينية "إسطنبول" 330م.

وقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي، وذلك بعد موت الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I في 395م، فتكونت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية

الرومانية الغربية، وعاصمتها روما، وما لبثت الإمبراطورية الغربية أن سقطت في 476م لكن الإمبراطورية الشرقية التي عرفها العرب بدولة الروم حافظت على الهيمنة على فلسطين باستثناء فترات ضئيلة حتى جاء الفتح الإسلامي.[19]

ولد رسول الله ﷺ سنة 570م وبعد أربعين سنة نزل عليه الوحي، وتحمل أمانة الرسالة والدعوة، ولقي في الفترة المكية التي استمرت 13 سنة الكثير من العنت والإيذاء،[20] ومنذ هذه الفترة وقبل أن تتشكل دولة الإسلام في المدينة كانت أنظار المسلمين الأوائل ترنو إلى المسجد الأقصى في فلسطين فقد كان قبلتهم الأولى في الصلاة،[21] وجاءت معجزة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم المعراج إلى السماء في السنة العاشرة[22] للبعثة النبوية لتؤكد عمق الارتباط بين الإسلام وبين أرض فلسطين المقدسة؛ حيث يوجد المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

وبعد أن تشكلت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وعندما وقعت غزوة الخندق 5هـ، وفي غمرة الموقف العصيب من تآلب قوى الشرك على المسلمين وحصارهم ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾،[23] في هذا الموقف ضرب رسول الله ﷺ صخرة تطاير منها شرر، فبشر المؤمنين بفتح بلاد الروم، كما بشرهم بفتح اليمن وفارس،[24] وهكذا فإن نفوس المؤمنين لم تكن لتفارقها الآمال والثقة بالله في النصر وتحرير الأرض من كل سلطان غير سلطان الله حتى من تلك القوى الكبرى التي كان يبعث مجرد ذكرها الرعب في النفوس.

وبعد أن أخذت أركان الدولة الإسلامية تتوطد في جزيرة العرب أرسل رسول الله ﷺ رسائله إلى الحكام والملوك يدعوهم إلى الإسلام باعتباره رسولاً إلى كل البشرية، فكانت رسائله سنة 7هـ إلى كسرى فارس، وقيصر الروم هرقل Heraclius، وإلى المقوقس حاكم مصر، أما كسرى فمزق كتاب رسول الله، فدعا عليه الرسول ﷺ أن يمزق الله ملكه، وأما قيصر الروم فيظهر من الروايات أنه مال إلى الإسلام، ورغب في الدخول فيه، غير أنه خاف من الروم على نفسه وملكه،[25] وكان هرقل في تلك الفترة قد انتصر على الفرس، وأجلاهم عن الشام، ولعله عاد إلى القدس ليشكر الله على نصره،[26] وهو النصر الذي أشار إليه القرآن الكريم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾.[27]

وكان فتح خيبر وفدك 7هـ إلى الشمال من جزيرة العرب مقدمة للتطلع إلى الشام، فكانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة 7هـ – أيلول/ سبتمبر 628م والتي حدثت إثر قتل أحد زعماء الغساسنة "شرحبيل بن عمرو الغساني" لرسول رسول الله "الحارث بن عمير الأزدي" إلى ملك بصرى. كان جيش المسلمين مكوناً من 3 آلاف رجل واجهوا حسب الروايات 100 ألف رجل من جند الروم، و100 ألف أخرى من العرب المناصرين للروم بقيادة مالك بن رافلة.

وقد وقعت المعركة في شرق الأردن جنوب مدينة الكرك بنحو 11 كم، وفيها استشهد أمراء المسلمين الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وتمكّن خالد بن الوليد الذي تولى الزمام من تحقيق انسحاب كريم موفق، وقُتِل في المعركة مالك بن رافلة الزعيم العربي الموالي للروم.[28]

ثم كانت غزوة تبوك 9هـ التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه، وتحت قيادته 30 ألفاً بعد أن بلغه أن الروم ومن يواليهم أعدوا العدة ضدّه، ولكنه عندما وصل تبوك (شمال جزيرة العرب على مشارف الشام) استبان له أنه ليس للروم جموع هناك، غير أنه ﷺ وطَّد سلطة المسلمين في تلك المناطق، وأرسل خالد بن الوليد ففتح "دومة الجندل" وصالحه أهل أيلة (على خليج العقبة)، وأذرح وتيماء وجرباء على أداء الجزية.[29]

ومع نهاية العهد النبوي كانت بطون بعض القبائل في شرق الأردن قد أسلمت، ومن ذلك إسلام أهل تبالة وجرش وبطون من قضاعة، وقبيل وفاته ﷺ كان يعد العدة لخروج جيش أسامة؛ حيث أمره بالانطلاق إلى الجهاد؛ حيث قتل أبوه زيد بن حارثة، وعقد له اللواء آخر يوم من صفر 11هـ – 28 أيار/ مايو 632م، ولكن مرض رسول الله ﷺ ووفاته في 12 ربيع الأول أخّر خروج هذا الجيش حتى أمره الخليفة أبو بكر الصديق بذلك، فخرج في أول ربيع الثاني 11هـ – 27 حزيران/ يونيو 632م، وثبَّت جيش أسامة شوكة الإسلام على تخوم الشام، وعاد سريعاً إلى المدينة في وقت انشغل فيه المسلمون بحرب الردّة.[30]

وما نريد أن نخلص إليه هنا أن أنظار المسلمين وقلوبهم ظلّت سنوات طويلة معلقة ببيت المقدس والمسجد الأقصى حتى قبل أن يتم لهم فتح فلسطين. بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه، فإن كثيراً من سور القرآن وآياته التي كانت تتنزل تباعاً على رسول الله ﷺ كانت تتحدث عن قصص الأنبياء، وكان ميدان العديد منها هو أرض فلسطين (يعقوب، ولوط، وزكريا، ويحيى، وداود، وسليمان، وعيسى،... عليهم السلام)، مما عمّق الارتباط النفسي والإيماني بهذه الأرض.

ثالثاً: وقفات مع منهج الفتح ودوافعه:

قبل أن نستطرد في الحديث عن فتح الأرض المقدسة، لا بدّ من وقفات لاستجلاء المنهج الذي بنيت على أساسه فكرة الفتوحات، والدوافع التي دفعت إليها:

الوقفة الأولى: في الإشارة إلى حقيقة الجهاد؛ فلقد كان من الواضح، لأي باحث مُنصف، أن القيام بواجب الجهاد في سبيل الله، وتبليغ دعوة الإسلام إلى البشرية، والسعي إلى الفوز بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة، هي الأهداف الحقيقية التي دفعت المسلمين لتحقيق أعظم وأرحم حركة فتح لبقاع الأرض في التاريخ. ولم تكن حركة الفتوح هذه مبنية على المنافع المادية أو المصالح الشخصية أو بسبب جدب الأرض وضيق العيش، كما لم تكن هذه الفتوح عملاً عدوانياً أو إكراهاً للناس على اتباع الإسلام تحت تهديد السيوف... . بل كان الجهاد هو ضدّ تلك الأنظمة والسلطات التي تحول بين الإسلام وبين دعوته للناس، ونشر نوره في الأرض.

يقول سيد قطب "إن هذا الدين موضوعه الإنسان ومجاله الأرض وهو إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله، وهو إعلان حركي واقعي إيجابي يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله".... "إن الإسلام ليس مجرد عقيدة، فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر بحيث يكون النظام الذي يحكم البشر قاعدته العبودية لله وحده، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده، ثم ليعتنق كل فرد في ظلّ هذا النظام العام ما يعتنقه من عقيدة".... "إن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه أو أن تسالمه بجملتها، فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي أو قوة مادية، وأن تخلي بينه وبين كل فرد يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته، ولكن لا يقاومه ولا يحاربه فإن فعل ذلك كان على الإسلام أن يقاتله ...".[31]

ثم إن الجهاد في سبيل الله لا يكون جهاداً إلا إذا قصد به وجه الله، وأن يكون وفق ما شرع الله، يقول حسن البنا:

> فرض الله الجهاد على المسلمين لا أداة للعدوان ولا وسيلة للمطامع الشخصية، ولكن حماية للدعوة، وضماناً للسلم، وأداء للرسالة الكبرى التي حمل عبئها المسلمون، رسالة هداية الناس إلى الحق والعدل. والمسلم يخرج للقتال، وفي نفسه أمر واحد أن يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وقد فرض

> دينه عليه أن لا يخلط بهذا القصد غاية أخرى، فحب الجاه عليه حرام، وحب الظهور عليه حرام، وحب المال عليه حرام، والغلول من الغنيمة عليه حرام، وقصد الغلب بغير حق عليه حرام، والحلال أمر واحد أن يقدم دمه وروحه فداء لعقيدته، وهداية للناس.[32]

فالجهاد في الفهم الإسلامي مربوط بأنه "في سبيل الله"، أما ثمنه فهو "الجنة" وليس لحظّ النفس فيه في الدنيا نصيب، لأنه بذل للمال والنفس، وانظر إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾.[33]

الوقفة الثانية: في الإشارة إلى أن عملية فتح بلاد الشام، وغيرها، بُنيت وتمت على الرغبة الصادقة في الجهاد في سبيل الله، وعلى هذا الأساس انطلقت، وقام المسلمون بالتطبيق العملي لمعاني الجهاد في أثناء فتوحاتهم، فعندما يقلّب أي باحث مُنصف صفحات التاريخ والسِّير يجد التزاماً حقيقياً كاملاً لدى الصحابة والفاتحين بمعاني الجهاد الإسلامي وأهدافه وغاياته وضوابطه، وفي الإشارة إلى هذه الحقيقة سنقتصر على بعض ما ورد في فتوح الشام.

فعندما بعث أبو بكر أنس بن مالك في ربيع الثاني 12هـ – حزيران/ يونيو 633م لأهل اليمن لفتح الشام، كتب أبو بكر لهم:

> ... أما بعد: فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وقال: جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا، وحسنت في ذلك نيتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا –عباد الله– إلى فريضة ربكم، وإلى إحدى الحسنيين، إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، فإن الله لم يرضَ عن عباده القول دون العمل، ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق، ويقروا بحكم الكتاب، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون... .[34]

وأوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان عند خروجه بجيشه إلى الشام قائلاً: "عليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشهدهم تقرباً إليه بعمله..."،[35] وفي وصية أخرى من أبي بكر ليزيد قال له:

يا يزيد إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوف منه، وإذا لقيت العدو فأظفركم الله بهم فلا تغلل، ولا تمثِّل، ولا تغدر، ولا تجبن، ولا تقتلوا وليداً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تعرفون [تقشروه وتفسدوه]، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكلة، وستمرون بقوم في الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، فإذا لقيتم العدو من المشركين، فادعوهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوكم فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أبوا أن يدخلوا الإسلام فادعوهم إلى الجزية، فإن هم فعلوا، فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، فإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله، ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب.[36]

ومن وصية أبي بكر لخالد بن سعيد "... وقد خرجت في هذا الوجه العظيم الأجر، وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه **لحسبة ونية صادقة** إن شاء الله".[37]

وقال أبو بكر في وداعه لأبي عبيدة عندما خرج بجيش للشام "اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له، ثم يعمل بما أمر به، إنك تخرج في أشراف الناس وبيوتات العرب وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنية الحسنة، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً، اخرج من غد إن شاء الله".[38]

وفي اليوم التالي جاءه أبو بكر وقال له عند فراقه "يا أبا عبيدة، اعمل صالحاً، وعش مجاهداً، وتوفَّ شهيداً يعطك الله كتابك بيمينك، ولتقر عينك في دنياك وآخرتك، فوالله إني لأرجو أن تكون من التوابين الأوابين المخشعين الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة. إن الله قد صنع بك خيراً وساقه إليك؛ إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلى عدوه من المشركين تقاتل من كفر بالله، وأشرك به، وعبد معه غيره".[39]

وفي وداعه لعمرو بن العاص قال أبو بكر له: "اتقِ الله في سرك وعلانيتك، واستحيه في خلواتك، فإنه يراك في عملك، وأرد بعملك وجه الله، واتقِ الله إذا لقيت العدو".[40]

وعندما صرف الصديق خالداً إلى غزو الشام كان فيما كتب له: "وإن الجموع لم تشج بعون الله شجيك، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدلَّ بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء".[41]

هذه بعض المختارات المنتقاة في بدء مسيرة الفتوح، ولولا خشية الإطالة لخرج من الجعبة الكثير، ولن نُفصِّل في الشروح والتعليقات لوضوح النصوص وقوتها، ويكفي أنها أكدت على الأسس التي انطلقت من أجلها حركة الفتح والجهاد، أما كيف نفَّذ الصحابة هذه التوجيهات في معاركهم ودعوتهم وانتشارهم فهو ما سنتركه لذكر بعض أمثلته في حينه.

الوقفة الثالثة: ونركز فيها أيضاً على جانب مهمّ تضمنته وصايا أبي بكر لقادة الجيوش الإسلامية التي ذهبت لفتح الشام، ألا وهي فنّ قيادة الجيش المسلم، وبعض أساليب التعامل. ونذهب إلى أنها من أرقى وأروع ما ذكر في فنّ إدارة الجيوش، غير أنها تعطي للجيش المسلم بعداً رسالياً إيمانياً، يميزه في سلوكه الفردي والقيادي، وتجمع بين الانضباط والطاعة عن حبّ واقتناع، وتمنع تسلط القائد على الأفراد، وتوجب الشورى، والتعبئة المعنوية، وتراعي أصول السرية، وتؤكد على أن الجهاد عبادة وعمل خالص لله.

ففي وصية أبي بكر ليزيد عند خروجه إلى الشام:

وإذا قدمت على جندك، فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تُرينَّهم فيروا خللك، ويعلموا علمك، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرَّك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك. واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عنك الأستار، وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل من محرسه، فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَفْ من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مُدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء. واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرِّب الفقر ويدفع النصر... .[42]

وفي رواية أخرى مما ذكره أبو بكر ليزيد في وداعه: "وإذا وعدت فأنجز...، وإذا بلغك عن العدوّ عورة فاكتمها حتى تعاينها...، واصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك".[43]

ومن وصية أبي بكر لعمرو بن العاص: "... وكن والداً لمن معك، وارفق بهم في السير، فإن فيهم أهل ضعف....، وإياك أن تكون واهناً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن أن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به...." وأمره ببرّ المهاجرين والأنصار ثم قال:

> ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول إنما ولاني أبو بكر لأني خيرهم، وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من أمرك، والصلاة ثم الصلاة أذن بها إذا دخل وقتها....، وإذا وعظت فأوجز، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك....، وألزم أصحابك قراءة القرآن، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها، فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك.... .[44]

وعندما أوصى أبو بكر خالد بن سعيد كان مما ذكره:

> ... فثبِّت العالم، وعلّم الجاهل، وعاتب السفيه المترف، وانصح لعامة المسلمين، واخصص الوالي على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحق لله وللمسلمين عليك، واعمل لله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واعلم أنا عما قليل ميتون ثم مبعوثون ثم مساءلون ومحاسبون، جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين ولنقمه من الخائفين.[45]

رابعاً: الخطوات الأولى:

استمرت عمليات المسلمين في القضاء على الردة التي انتشرت في جزيرة العرب إثر وفاة رسول الله ﷺ حتى نهاية 11هـ، ومع بداية 12هـ زحف خالد بن الوليد ومعه جيش عدده 18 ألفاً على العراق، وأخذ يحقق انتصارات متوالية هناك (ذات السلاسل محرم 12هـ، والمذار صفر 12هـ، والولجة صفر 12هـ، وأُلَّيس صفر 12هـ، وأمغيشيا صفر 12هـ، وفتح الحيرة ربيع الأول 12هـ).[46] وجاء شرحبيل بن حسنة من العراق مبشراً أبا بكر بفتح الحيرة، ورأى شرحبيل رؤيا أولها بفتح الشام، وحدث بها أبا بكر الذي أخبره أن نفسه تحدثه أيضاً بفتح الشام.[47]

وفي 30 ربيع الأول 12هـ – 14 حزيران/ يونيو 633م جمع أبو بكر كبار الصحابة، واستشارهم في فتح الشام، فوافقوه على رأيه ثقة منهم بأنه ناصح للدين، حريص على المسلمين، ثم إن أبا بكر قام فدعا الناس للجهاد "فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم، وشدة شوكتهم"، وقام عمر بن الخطاب فحضهم على الجهاد، وتقدم خالد بن سعيد فأحسن الحديث فأمَّره أبو بكر، وأعلن خالد بن سعيد أنه وأهله حبساء في سبيل الله، وعقد أبو بكر لخالد بن سعيد لواء، فكان أول لواء عقد لغزو الشام، 2 ربيع الثاني 12هـ – 16 حزيران/ يونيو 633م، وأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بألا يولي خالد بن سعيد قيادة الجيش لعدم أهليته، فاكتفى أبو بكر بجعله على رأس قوة محدودة، وأمره أن ينزل تيماء كقوة احتياطية.[48]

ثم إن أبا بكر أرسل إلى يزيد بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة فأخبرهم أنه باعثهم ومؤمرهم على الجنود، فإذا اجتمعت قواتهم فأميرهم أبو عبيدة، وأرسل أبو بكر كتاباً إلى اليمن يستنفرهم للجهاد مع أنس بن مالك، وأخذت أفواج المسلمين تتجمع وتتجهز للجهاد من كل حدب وصوب.[49]

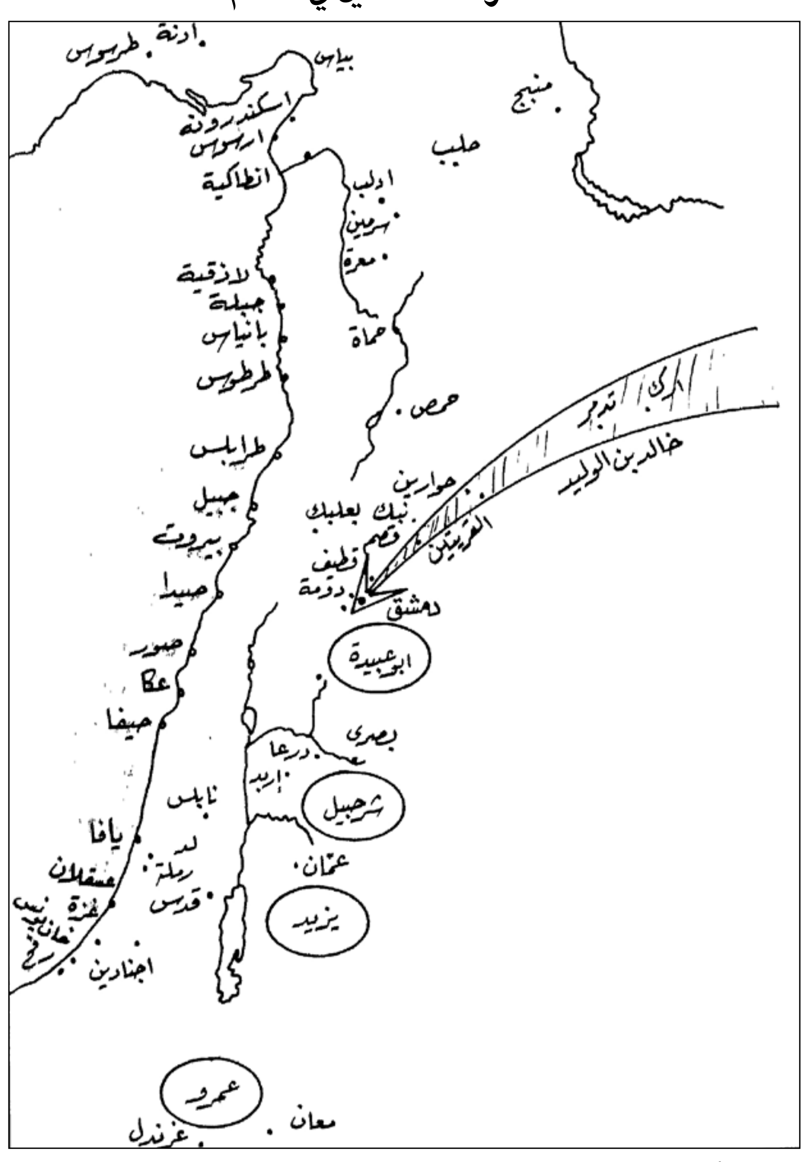
كان جيش يزيد بن أبي سفيان أول الجيوش خروجاً إلى الشام، وكان ذلك تقريباً في 23 رجب 12هـ – 3 تشرين الأول/ أكتوبر 633م، وكان مكوناً من نحو سبعة آلاف رجل، ثم تبعه جيش شرحبيل بعد ذلك بنحو أربعة أيام، ثم جيش أبي عبيدة بعد شرحبيل بنحو عشرة أيام، وكان معاذ بن جبل في جيش أبي عبيدة، كما ألحق أبو بكر خالد بن سعيد بجيش أبي عبيدة.[50]

خرج إمبراطور الروم هرقل من فلسطين بعد أن بلغته تحركات المسلمين نحو 23 شعبان 12هـ – 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 633م إلى دمشق، ثم إلى حمص، ثم إلى أنطاكية، فبلغها قرابة 633/11/18م واتخذها مقره، ومن هناك أخذ ينظم الجيوش، ويحشد الحشود لملاقاة المسلمين.[51]

نزل جيش يزيد منطقة البلقاء شرق الأردن، ونزل جيش شرحبيل نواحي بصرى، أما جيش أبي عبيدة فنزل الجابية، وأمّر أبو بكر عمرو بن العاص على جيش رابع من ألفين إلى ثلاثة آلاف، وقد التحق بهذا الجيش سادات قريش وأشرافها مثل عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وسلك عمرو طريق المعركة إلى أيلة متجهاً إلى فلسطين.[52]

وبعد أن بلغت أبا بكر حشود الروم الهائلة، وبعد أن بلغته انتصارات خالد بن الوليد الكبيرة في العراق، أرسل إلى خالد في 21 محرم 13هـ – 28 آذار/ مارس 634م تقريباً يطلب إليه الذهاب للشام غوثاً للمسلمين، وخرج خالد من العراق قرابة 8 صفر 13هـ – 14 نيسان/ أبريل 634م بمدد من تسعة آلاف رجل ليصبح مجموع عدد القوات الإسلامية في الشام 33 ألفاً.[53]

معسكرات المسلمين في الشام



المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)** (بيروت: دار النفائس، 1980)، ص 243.

استعداد للنزال:

في الوقت الذي أخذت فيه جيوش المسلمين بالزحف لفتح الشام، كان هرقل في أنطاكية يعد الجيوش والإمدادات لملاقاة المسلمين، وبلغ أبا عبيدة عظم الحشود الرومية، فأرسل إلى أبي بكر بذلك، فردَّ عليه برسالة في شوال 12هـ – كانون الأول/ ديسمبر 633م جاء فيها:

فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم ويخرجوا من ملكهم بغير قتال. وقد علمت والحمد لله قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم للحياة، ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم، وعقائل أموالهم، والرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين، فالقهم بجندك، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين فإن الله معك، وأنا مع ذلك ممدك بالرجال حتى تكتفي، ولا تريد أن تزداد إن شاء الله.[54]

أول المعارك:

كانت أولى المعارك على أرض الشام بعد سرية أسامة بن زيد هي موقعة العربة وداثنة (24 ذي الحجة 12هـ – آذار/ مارس 634م) فقد دفع الروم قوة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى مدينة غزة، ولعلها توجهت إلى وادي عربة جنوب البحر الميت، وهناك التقت بقوة من المسلمين، فهزمها المسلمون وقتلوا قائداً من قوادها، وانسحبت القوة فلاحقها المسلمون؛ حيث التقوا مرة أخرى عند الداثنة قرب غزة، وهزم الروم مرة أخرى.[55]

خالد بن الوليد يتولى القيادة العامة:

ويبدو أن موقعة العربة وداثنة كانت أقرب إلى اختبار القوة، ويظهر أن الروم قد أخذوا يشعرون بشكل أكبر بخطورة الموقف، فأخذوا يتجمعون ويحشدون، فأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد لينجد المسلمين بالشام، فوصل خالد على عجل في صفر 13هـ – نيسان/ أبريل 634م وتولى القيادة العامة للجيوش الإسلامية في بلاد الشام مكان أبي عبيدة.[56]

خامساً: معركة أجنادين:

كانت معركة أجنادين أولى المعارك البارزة المهمة في فتوح الشام، وقد وقعت على أرض فلسطين، وبالرغم من أن أجنادين لا يظهر لها ذكر في الخرائط، إلا أنها حسب استنتاج أحمد عادل كمال تبعد 11 كم إلى الشمال من بيت جبرين و39 كم إلى الجنوب من الرملة.[57]

التقت جيوش المسلمين الخمسة (أبو عبيدة، وخالد، ويزيد، وشرحبيل، وعمرو) في منطقة أجنادين تحت قيادة خالد بن الوليد، وكان عددهم يقدر بـ 33 ألف رجل، أما قوات الروم فوصل عددها إلى نحو 100 ألف رجل.[58]

وفي يوم المعركة نهار يوم السبت 27 جمادى الأولى 13هـ – 30 تموز/ يوليو 634م، أخذ معاذ بن جبل، قائد ميمنة المسلمين، يقول: "يا معشر المسلمين اشروا أنفسكم اليوم لله، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبداً مع رضوان الله والثواب العظيم من الله"،[59] وتحت هذه المعاني الإيمانية الربانية خاض المسلمون معركتهم على أرض فلسطين.

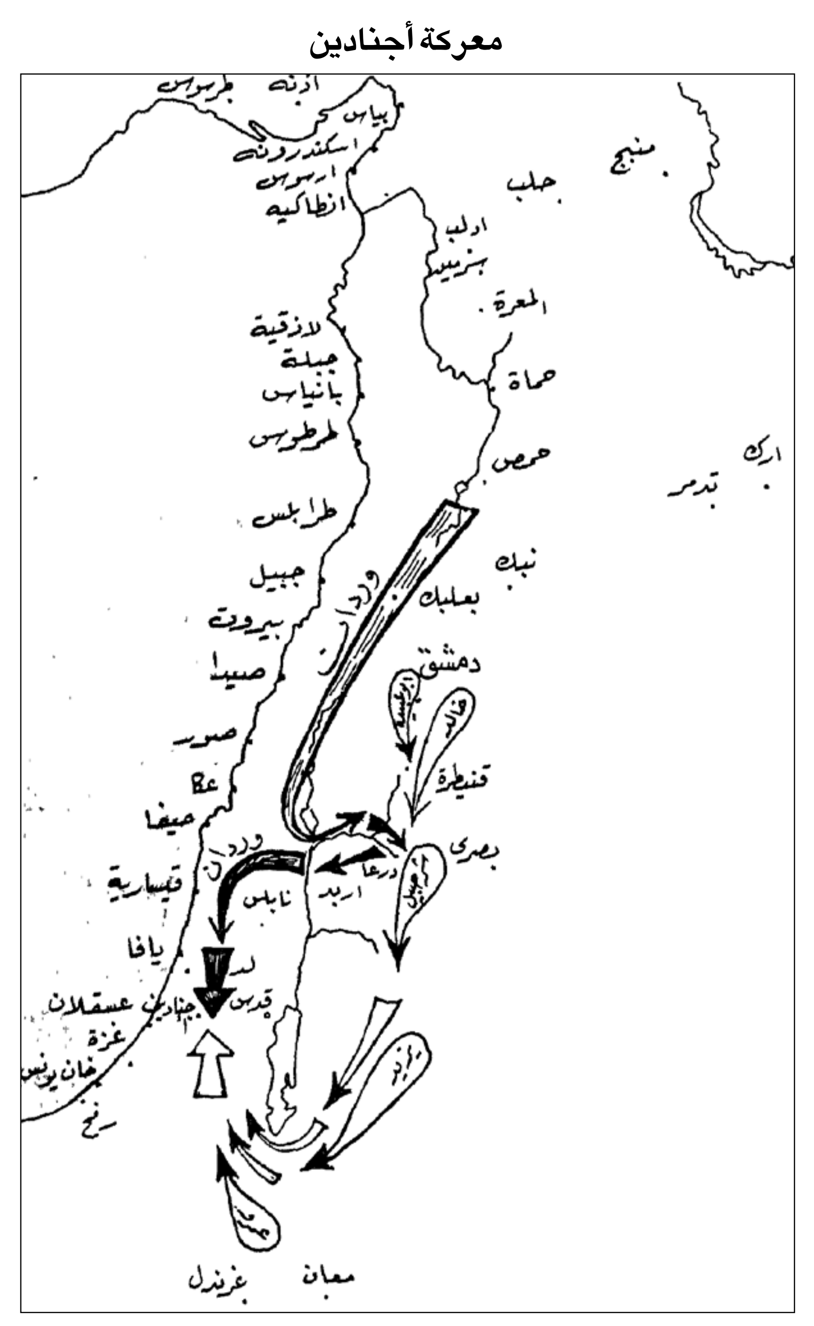
هاجم الروم ميمنة المسلمين ثم ميسرتهم، فصمد المسلمون، ثم رموا المسلمين بالنشاب...، ثم إن المسلمين هاجموهم فهزموهم بسرعة كبيرة، وروى الطبري عن ابن إسحق أن قائد الروم قال لهم: "لفوا رأسي بثوب، قالوا: ولم؟ قال: يوم بئيس لا أحب أن أراه!! ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا، فاحتز المسلمون رأسه، وإنه لَمُلَفَّف".[60]

وقتل من الروم في هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف، وتفرقت فلولهم إلى القدس وقيسارية ودمشق وحمص، واستشهد من المسلمين أبان بن سعيد بن العاص، وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص، وطليب بن عمير بن وهب وهو ابن أروى بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ.[61]

مثّلت هذه المعركة انتصاراً كبيراً للمسلمين، وتحطمت هيبة الروم، وشعر المسلمون عملياً بفضل الإيمان والصبر والاحتساب على الأعداد والعتاد التي يملكها عدوهم...، وانطلقوا لاستكمال فتوحهم بعزيمة وثبات صقلتها الخبرة والتجربة.

ويظهر أن المسلمين لم يستكملوا فتوحاتهم داخل فلسطين بعد هذه المعركة، فلم تتجه قواتهم شمالاً داخلها، وإنما توجهوا إلى دمشق ملتفين من جنوب البحر الميت مارِّين بشرق الأردن.

معركة أجنادين



المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)**، ص 271.

وفي **مرج الصُفَّر** إلى الجنوب من دمشق بنحو 38 كم التقى المسلمون بقوات الروم وهزموها في 17 جمادى الثانية 13هـ – 18 آب/ أغسطس 634م، وجاءت البشارة لأبي بكر الصديق بهذا النصر وهو في الرمق الأخير؛ إذ توفي رضي الله عنه مساء الثلاثاء 21 جمادى الثانية 13هـ – 23 آب/ أغسطس 634م.[62]

سادساً: عزل خالد:

تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأمر بعزل خالد عن قيادة جيوش الشام، وأرسل إلى أبي عبيدة قرابة 26 جمادى الثانية 13هـ – 28 آب/ أغسطس 634م يوليه مكان خالد، ولعل الخبر وصل إلى أبي عبيدة بعد نحو أسبوع، وجاء في كتاب عمر إلى أبي عبيدة:

> فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي، فإن الله لا يستحي من الحق، وإني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى، وقد استعملتك على جند خالد فاقبض جنده واعزله عن إمارته، ولا تقد المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنفذ سرية إلى جمع كثير، وغضّ عن الدنيا عينيك وألْهِ قلبك، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم، وإن بينك وبين الآخرة ستر الخمار وكأني بك منتظراً سفراً من دار قد مضت نضارتها، وذهبت زهرتها، وأحزم الناس من يكون زاده التقوى.... .[63]

هذه كتب التعيين في زمن الصحابة!! أمر واضح محدد، وحرص ورحمة بالجند المؤمنين، ودعوة إلى تعليق القلب بالآخرة والتزود بالتقوى، واتساق متوازن بين التكليف والعمل والعبادة.

ولسنا بصدد مناقشة عزل خالد، ولكننا نقف لحظة أمام مشهد لأولئك الصحابة العظام الذين فتحوا أرض فلسطين. فقد علم خالد بأمر عزله دون أن يخبره أبو عبيدة، وكان خالد ما يزال يتصرف كأمير، وأبو عبيدة يصلي خلفه...، فعاتبه خالد عتاباً رقيقاً لِمَ لم يخبره والسلطان سلطانه... فكان مما رد عليه أبو عبيدة:

> وما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل... وإنما نحن أخوان قوامان بأمر الله عز وجل، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناهما إلى الفتنة، وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم.[64]

إن من أهم مزايا التربية الإسلامية، التي تنعكس إيجابياً على نجاح الحل الجهادي الإسلامي، تجاوز المسائل المتعلقة بهوى وحظوظ النفس، وتعليق القلب والعمل بالآخرة، وبالتالي تضييق هامش التنازع والصراع على المناصب والألقاب، والتنافس في ميدان البذل والعطاء، وبهذا تتحقق بركة العمل، ويتم الإنجاز في أفضل الظروف النفسية. وأن أصحاب التجارب الإسلامية المعاصرة مطالبون، على مستوى القيادة قبل مستوى الأفراد، أن يكونوا النموذج والقدوة في هذا الإطار، ولو استرشد المجاهدون بصدق بمقولة أبي عبيدة لتجاوزوا مشاكلهم، وهزموا أعداءهم، ولأعادوا للإسلام عزته ودولته ونهضته.

سابعاً: معركة فحل - بيسان:

تعدّ معركة فحل – بيسان من أبرز المعارك التي خاضها المسلمون في فتحهم لبلاد الشام، وقد وقعت هذه المعركة على ضفاف نهر الأردن، فقد عسكر المسلمون في فحل شرقي نهر الأردن، وعسكر الروم عند بيسان غربي نهر الأردن (إلى الشمال الغربي من فحل)، غير أن ميدان المعركة كان في فلسطين المعروفة بحدودها الحالية إلى الجنوب من بيسان، وكان عدد الروم 50 ألفاً وقيل 80 ألفاً، أما المسلمون فكانوا 26 ألفاً تقريباً، ولا يصل عددهم إلى 30 ألفاً.[65]

وقبيل المعركة أرسل الروم إلى أبي عبيدة أن "اخرج أنت ومن معك من أصحابك وأهل دينك من بلادنا التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب والثمار، فلستم لها بأهل، وارجعوا إلى بلادكم، بلاد البؤس والشقاء، وإلا أتيناكم فيما لا قِبل لكم به، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف".[66]

فردّ عليهم أبو عبيدة:

> أما قولكم: اخرجوا من بلادنا فلستم لها ولما تنبت بأهل، فلعمري ما كنا لنخرج منه وقد أذلكم الله بما فيها وأورثناها، ونزعها من أيديكم وصيّرها لنا، وإنما البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، والله مالك الملك يؤتي ملكه من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء...، فلا تحسبونا تاركيها ولا منصرفين عنها حتى نفنيكم ونخرجكم عنها، فأقيموا فوالله لا نجشمكم إن أنتم لم تأتونا أن نأتيكم، وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبيد خضراءكم، ونستأصل شأفتكم إن شاء الله.[67]

هكذا كان جواب القيادة المسلمة: عزة وكرامة واستعلاء، مقرون بفهم عميق لطبيعة الرسالة الإسلامية وحركة التاريخ اختصر بخمس كلمات فقط "فلستم لها ولما تنبت بأهل"، وحرب نفسية ردّت على التهديد بتهديد أقوى، وأكدت الإصرار على الفتح ونشر الرسالة.

ثم إن الروم طلبوا رجلاً يفاوضونه فأرسل أبو عبيدة معاذ بن جبل إليهم، فأقبل عليهم فإذا هم على فرش ووسائد في أبهة وفخامة تغشي الأبصار، فأبى معاذ أن يجلس على البسط مع رؤسائهم... وجلس إلى جانبها على الأرض، فقالوا له: "لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك...، إن جلوسك على الأرض منتحياً صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك"، فقال معاذ لهم إن هذه المكرمة التي يدعونه إليها قد استأثروا بها على ضعفائهم... "ولا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها، ولا في شيء يباعدنا عن ربنا"، وردّ على قولهم إنه صنع صنيع العبد "أنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله، ولا أستأثر بشيء من الله على إخواني من أولياء الله...، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك...".

وحاول الروم إبراز قوتهم لمعاذ قائلين: "إن ملكنا حي، وإن جنودنا عظيمة كثيرة...، ونحن عدد نجوم السماء وحصى الأرض"، وسألوه عما يطلبه المسلمون، فدعاهم معاذ إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب، وردّ عليهم قائلاً: "وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا، وأميرنا رجل منا إن عمل فينا بكتاب الله وسنّة نبينا ﷺ أقررناه علينا، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا، وإن هو سرق قطعنا يده، وإن زنى جلدناه، وإن شتم رجلاً منا شتمه كما شتمه، وإن جرحه أقاده من نفسه، ولا يحتجب منا ولا يتكبر علينا، ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاءه الله علينا، وهو كرجل منا"... "وأما قولكم: جنودنا كثيرة فإنها إن عظمت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض، فإنا لا نثق بها ولا نتكل عليها ولا نرجو النصر على عدونا بها، ولكنا نتبرأ من الحول والقوة، ونتوكل على الله عز وجل ونثق بربنا...، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها".

فعرض الروم على معاذ أن يعطوا المسلمين البلقاء وما إلى أرض العرب من سواد الأردن، ودعوهم إلى قتال أهل فارس ووعدوهم بالمساعدة. فقال معاذ: "هذا الذي عرضتم

علينا وتعطونا كله في أيدينا، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وضعت لكم ما فعلنا"، فغضبوا منه وقالوا: "نتقرب إليك وتتباعد عنا؟ اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً"، فقال معاذ: "أما الجبال فلا، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون".[68]

معركة فحل – بيسان

المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)**، ص 338.

وإذا كان لنا من وقفة هنا مع هذا المشهد التفاوضي الزاخر، فلعلنا نختار الإشارة السريعة إلى النقاط التالية:

- يعاني الكثير من زعمائنا ومفاوضينا في هذا العصر من عقدة النقص تجاه الآخرين، ومن ضعف الثقة بأنفسهم أو قضيتهم، ويحاولون التعويض عن ذلك بتقليد الآخرين "الخصوم" في اللباس والوجاهة والمظاهر، فتكون هذه أول نقاط الانهزام لديهم.
- عندما حاول الروم أن يزروا بسلوك معاذ بن جبل الشخصي، استخدم ذلك في الردّ عليهم بتأكيد معاني الرسالة الإسلامية من عبودية الله، وعدم الاهتمام بزخرف الدنيا، وكذلك في كشف عيوب سلوكهم الاجتماعي – القيادي من ظلم وأنانية واستعلاء على الضعفاء، فكان رده الأقوى؛ لأنه استعلى عليهم بإيمانه وسلوكه ومنهجه.

- وعندما هددوه بملكهم وأعدادهم، ردّ الملك إلى الله سبحانه، ثم طعن في أسلوبهم القيادي واستعلاء ملوكهم بغير حق، مشيراً إلى منهجية وطبيعة القيادة الإسلامية، بحيث يتمنى الروم أن يعاملوا أميرهم كما يعامل المسلمون أمراءهم، كما ردّ على مسألة العدد بإرجاع الأمر إلى الله الذي بيده كل شيء.
- كل ذلك في قالب من العزة والقوة والتواضع، وإصرار على الدعوة إلى إحدى الخصال الثلاثة، ورد التهديد بما هو أقوى وأوقع في النفس.

ترى ما هو شعور المسلم عندما يقرأ هذا الموقف للصحابة الذين فتحوا فلسطين، وبين أولئك الذين يساومون عليها الآن في عصرنا (غزة – أريحا...؟!).

ويبعث الروم رجلاً منهم إلى أبي عبيدة ليفاوضه، ويتكرر موقف شبيه لما حدث مع معاذ؛ إذ إن الرجل لما دنا من المسلمين لم يعرف الأمير!! فسأل عنه، فقالوا: ها هو ذا!! فنظر إذا هو بأبي عبيدة جالس على الأرض، وهو منتكب القوس، وفي يده أسهم وهو يقلبها، فتعجب منه وسأله لم يجلس على الأرض؟ فكان مما قاله أبو عبيدة: "ما أصبحت أملك ديناراً ولا درهماً، وما أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي... ولو كان عندي بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون إخواني وأصحابي..."، فعرض الرومي على أبي عبيدة أن يعطي كل مقاتل مسلم دينارين وثوباً ويعطي أبا عبيدة ألف دينار، ويعطي الخليفة عمر ألفين، ويعطي المسلمين أرض البلقاء وسواد الأردن على أن يرجعوا وتكتب بذلك المواثيق، فرفض أبو عبيدة وقال: إن الله أمرهم أن يعرضوا على العدو إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب.... فانصرف الرومي.[69] كان على الروم أن يدركوا أن المسلمين أصحاب رسالة، وأنهم لا يبيعون رسالتهم بعرَضٍ من الدنيا، وهو درس أيضاً لأولئك المؤرخين الذين يتشدقون بالدافع الاقتصادي وعوامل الجوع والعطش التي يزعمون أنها دفعت المسلمين للقيام بحركة الفتح الإسلامي.

كان قائد الروم في المعركة هو سَقِلار بن مخراق، وقائد المسلمين أبو عبيدة، وفي الثلث الأخير من ليلة الإثنين 28 ذي القعدة 13هـ – 23 كانون الثاني/ يناير 635م تمَّت تعبئة المسلمين وترتيبهم، وصلّوا الفجر، وجعل أبو عبيدة على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة هاشم بن عتبة، وعلى المشاة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعلى الخيل خالد بن الوليد، وعبر بهم النهر باتجاه الروم.[70]

أما الروم فظنوا أن المسلمين في فحل لا يتوقعون عبورهم إليهم، وقدر قائدهم أنه إذا جاءهم وجدهم نياماً فيفاجئهم، فسار بجيشه نحو فحل.[71]

وفي الصباح بدأت المعركة، وكان القتال فيها أشد قتال اقتتلوه قط، وقتل خالد بن الوليد بنفسه 11 رجلاً من أشدائهم وبطارقتهم، وانتصر المسلمون، وقيل إن 80 ألفاً أصيبوا لم يفلت منهم إلا الشريد،[72] وذكر البلاذري أن قتلى الروم كانوا نحو 10 آلاف.[73]

وبهذه المعركة غلب المسلمون على أرض الأردن وأصابوا من ريفه أفضل ما ترك الروم فأصبحت أقواتهم ومادتهم موفورة، وأخذ الروم ينتقلون إلى الحصون، وأصابهم الرعب مما أصابهم فلجأ الكثير من فرسانهم وأغنيائهم إلى قيسارية والقدس.[74]

الاتجاه شمالاً:

وعلى الرغم من أن المسلمين هزموا الروم هزيمتين كبيرتين على أرض فلسطين، إحداهما في الجنوب "أجنادين" والأخرى في الشمال "فحل – بيسان"، إلا أنهم لم يتابعوا طريقهم لفتح باقي فلسطين، وإنما اتجهوا شمالاً، فحاصروا دمشق أربعة أشهر حتى فتحوها يوم الأحد 15 رجب 14هـ – 3 أيلول/ سبتمبر 635م، ثم فتحوا بعلبك صلحاً أواخر ربيع الأول 15هـ – أوائل أيار/ مايو 636م، ثم فتحوا حمص صلحاً بعد حصار استمر 18 ليلة في 21 ربيع الثاني 15هـ – أول حزيران/ يونيو 636م، وأرسل أبو عبيدة بعدها طلائع جنده إلى حلب، وإلى جهة الجزيرة، ولكن عمر بن الخطاب طلب منه أن يضم أجناده ويتوقف. ففي تلك الفترة كانت تجري الاستعدادات الكبرى لمعركة القادسية بين المسلمين والفرس، ثم إن الروم كانوا يعدّون لمعركة حاسمة فاصلة، ولذلك دعا أبو عبيدة خالداً فبعثه إلى دمشق ليقيم بها في ألف من المسلمين، كما كلَّف عمرو بن العاص، أن يقيم بجيشه في فلسطين.[75]

ثامناً: معركة اليرموك:

كان هرقل خلال الهزائم السابقة المتكررة ما يزال مقيماً في أنطاكية يحشد قواته ويبعثها للقتال، ويبدو أنه عند سقوط دمشق، وربما قبلها، أراد أن يحشد حشداً ضخماً بأكبر قوة يستطيعها ليدخل بها معركة فاصلة. وقد اختلفت الروايات في أعداد الروم،

وذكر الرواة أنه أقبلت من الجموع ما لا تحمله الأرض، ووصفهم الأزدي قائلاً: "فطبقوا الأرض مثل الليل والسيل كأنهم الجراد السود"،[76] أما تقديرات الرواة لأعدادهم فتراوحت بين 100–400 ألف، ولعل الأقرب للصحة أنهم كانوا 200 ألف بقيادة باهان Vahan، أما عدد المسلمين فكان 36 ألفاً منهم ألف من الصحابة رضوان الله عليهم فيهم نحو مئة ممن شهدوا بدراً.[77]

ولما بلغت أبا عبيدة أخبار جموع الروم الهائلة، وكان المسلمون قد ساحوا في أرض الشام، قررت قيادة جيش المسلمين أن يتنحوا جانباً وينسحبوا من حمص، وردوا لأهلها جزيتهم؛ لأنهم غير قادرين على حمايتهم.[78] وعلى الرغم من أن عمر بن الخطاب كره هذا الرأي إلا أنه رضي لإجماعهم عليه، وأمدهم بقوة عليها سعيد بن عامر وأوصى سعيداً: "إني قد وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم إلا أن تكون أتقى لله منه، فلا تشتم أعراضهم ولا تضرب أبشارهم، ولا تحقر ضعيفهم، ولا تؤثر قويهم، وكن للحق تابعاً، ولا تتبع هوى شاذاً...".[79] وهكذا فإن علاقة القيادة بالأفراد في الجيش الإسلامي علاقة متميزة تقوم على احترام إنسانيتهم، ومراعاة مشاعرهم، والمساواة والعدل بينهم لا كما يحدث في بعض الجيوش؛ حيث يتفنن أصحاب كل رتبة في إذلال من دونهم بحجة الانضباط، فتقوم علاقة مبنية على الكراهية والخوف لا على الحب والاقتناع والولاء.

ورجع أبو عبيدة إلى دمشق، ورد المسلمون على أهلها ما جُبي منهم،[80] وكان رأي المسلمين أن يتجمعوا لعدوهم وينتظروا قدوم الإمدادات لهم...، فخرج المسلمون باتجاه الأردن، وزحف جيش الروم، وانضم إليهم النصارى في المناطق التي في طريقهم...، وتجرأوا على المسلمين.[81] وأرسل أبو عبيدة إلى عمر أن "الروم قد نفرت إلى المسلمين براً وبحراً، ولم يخلفوا ورائهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وأخرجوا معهم القسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة..." وأخبره رأي المسلمين بالتنحي والتجمع حتى يأتي المدد... وقال "فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ودينهم منهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم ما لا قِبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله، والسلام عليك".[82]

ولما وصل كتاب أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب دعا المهاجرين والأنصار فقرأه عليهم، فبكوا بكاء شديداً وأشفقوا على إخوانهم، ولم يكن هناك مجال لإرسال غوث ومدد للمسلمين لقرب الروم منهم، فأرسل عمر يثبتهم ويشدّ من أزرهم، ويؤكد لهم في هذا الجو العصيب المعاني الإسلامية بما تحمله من إيمان وثقة بالله وموازين الصراع بين الحق والباطل... ومما جاء فيها "... فلا تهولنك كثرة ما جاء منهم فإن الله منهم بريء، ومن برئ الله منه كان قمناً [جديراً] ألا تنفعه كثرة، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله، ولا توحشك قلة المسلمين، فإن الله معك، وليس قليلاً من كان الله معه. فأقم بمكانك الذي أنت فيه حتى تلقى عدوك وتناجزهم وتستظهر الله عليهم، وكفى به ظهيراً وولياً ونصيراً..." "ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لما عند الله خير للأبرار"... ومما جاء في كتاب عمر لأبي عبيدة أيضاً:

> فأما قولك إنه قد جاءهم ما لا قِبل لهم به، فإن لا يكن لكم بهم قبل فإن لله بهم قبلاً، ولم يزل ربنا عليهم مقتدراً، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ما قد أبادونا وأهلكونا، ولكن نتوكل على الله ربنا ونبرأ إليه من الحول والقوة ونسأله النصر والرحمة، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال، فأخلصوا لله نياتكم، وارفعوا إليه رغبتكم، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون.[83]

وأوصاه عمر أن يقرأ كتابه على الناس.[84]

وجاء الرسول بكتاب عمر يوم دخل سعيد بن عامر الجمحي بألف من المسلمين مدداً من قبل عمر في معسكر المسلمين باليرموك، واستبشر المسلمون بالمدد، كما استبشروا برأي عمر.[85]

كانت جيوش المسلمين قد اجتمعت بالجابية قبل أن تتجه إلى اليرموك، وفي الجابية اجتمع قادة المسلمين وتداولوا الأمر فكان رأي بعضهم الانسحاب جنوباً إلى أطراف الصحراء، أما خالد بن الوليد فقال: "أرى والله إن كنا نقاتل بالكثرة والقوة فإنهم أكثر منا وأقوى منا وما لنا بهم إذن طاقة، وإن كنا نقاتلهم بالله ولله، فما أرى جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً أنها تغني عنهم شيئاً".[86]

كان قادة المسلمين يدركون خطورة الموقف، ويستشعرون عظم المسؤولية، وفي هذا الموقف الذي تتزلزل فيه الأقدام، ويهرب منه عشاق المناصب تقدم خالد بن الوليد وقال لأبي عبيدة: "أتطيعني أنت فيما آمرك به؟" قال أبو عبيدة، أمين هذه الأمة، وكله ثقة

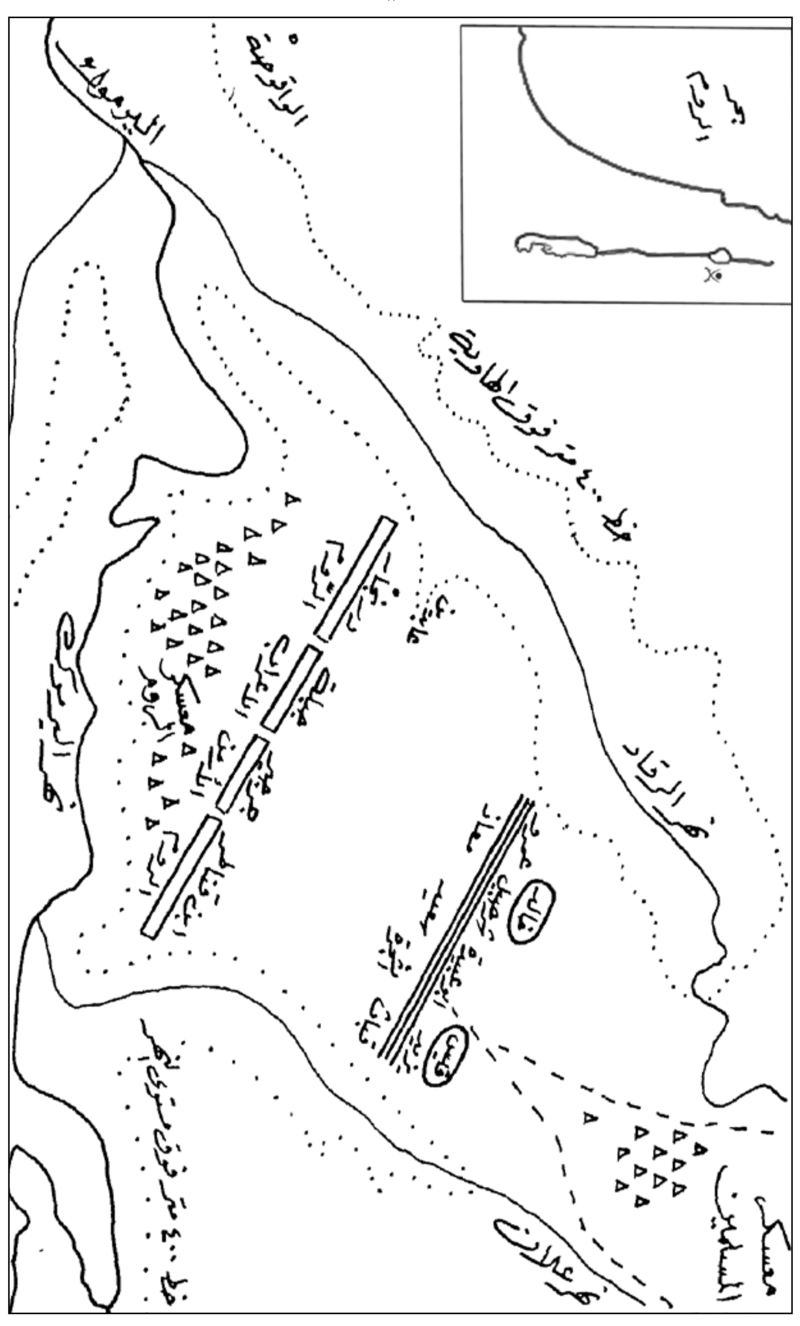
بخالد: نعم، فقال خالد: "فولني ما وراء بابك وخلني والقوم فإني لأرجو الله أن ينصرني عليهم"، قال أبو عبيدة "قد فعلت".[87]

وهكذا فوّض أبو عبيدة خالداً بالقيادة الميدانية، بينما احتفظ لنفسه، كما يظهر، بالقيادة العليا الرسمية للجيش. وظلّ خالد متأدباً مع أبي عبيدة فاستشاره في قيادة الميمنة فرشح أبو عبيدة معاذاً فوافق خالد، وقال فولّها له، فولاها له أبو عبيدة، ورشح خالد قُباث بن أشيم على الميسرة، فأمره أبو عبيدة بذلك، وقال خالد: وأنا على الخيل، وولِّ على الرجالة (المشاة) من شئت، فاختار أبو عبيدة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فوافق خالد، فأمر أبو عبيدة بذلك. ثم إن أبا عبيدة أرسل، بطلب من خالد، إلى أهل كل راية أن يطيعوا خالداً، ونقل الأمر الضحاك بن قيس، فسار على الناس وهو يقول: "إن أميركم أبا عبيدة، يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما يأمركم به".[88]

انسحب المسلمون من الجابية إلى أذرعات؛ حيث نزلوا خلف نهر اليرموك وجعلوا أذرعات خلفهم، ونزل الروم بين اليرموك ووادي الرقاد "الواقوصة" (وهو نهر الرقاد من جهة التقائه باليرموك) فحُصروا من ثلاث جهات. وتحرك المسلمون من أذرعات وعسكروا مقابل الروم الذين لم يعد لهم طريق إلا على المسلمين.[89]

كان المسلمون، في المعارك السابقة، يقاتلون متساندين أي أن كل جيش وحدة مستقلة بذاتها تتعاون مع الجيوش الأخرى، وكان رأي خالد بن الوليد مزجها جيشاً واحداً، وإعادة تنظيمها بوحدات متناسقة على شكل كراديس، فاجتمع بأمراء الجيش واقترح لهم ذلك، وكان مما قاله: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم فإن هذا اليوم له ما بعده"... "فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ....". وهكذا عالج خالد مسألة الإمارة الحساسة بصراحة ووضوح، وسد على النفوس منافذ الشيطان وسوء الظن، وتمت الاستجابة بسلاسة ويسر، وأعيد الترتيب بحيث يظهر كما يرى أحمد كمال أن أمراء الجيوش كانوا هيئة إدارة عليا للميدان بدليل وجود أسماء أخرى لقيادات الميمنة والميسرة والمشاة.[90]

معركة اليرموك



المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)**، ص 477.

وقبيل المعركة دعا باهان قائد الروم خالداً للتباحث، وفي المفاوضات التي جرت بينهما تحدث باهان عن قوة أمته ومَنَعتها ساخراً من ضعف ورقَّة حال العرب، وعرض عليه أن يعطي الأمير عشرة آلاف دينار، وأن يأخذ خالد عشرة آلاف، وكل رئيس ألف دينار، ولكل فرد مئة دينار!! وهكذا تتكرر مرة أخرى لدى الروم تلك العقلية المساومة التي تربط حركة الحياة بالمادة والمصلحة، ولم تستوعب أصول الرسالة الإسلامية وسموها ودوافع حركتها الجهادية النبيلة. ويرد خالد على طرح وعرض باهان فيؤكد له ما ذكره مما كان عليه العرب من فقر وضعف وفرقة وصراع ويبين له أن الذي استجد عليهم ليس الفقر والجوع، وإنما "خروج النبي ﷺ برسالة الإسلام وأمره لهم بقتال من اتخذ مع الله آلهة أخرى...."، وعرض خالد على باهان إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال.[91]

ودعا الدرنجار قائد ميسرة الروم رجلاً من نصارى العرب، وأمره أن يذهب ليتجسس على المسلمين فذهب ومكث في معسكرهم ليلة حتى أصبح، فأقام عامة يومه، ثم عاد إلى الدرنجار فقال له: "جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل أسد بالنهار، لو يسرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنى لرجموه لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى" فقال درنجار: "لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطن الأرض خير –لمن يريد قتالهم– من ظهرها".[92] هذا الوصف، هو الوصف الحقيقي لأي جيش مسلم يرفع راية الحل الإسلامي لتحرير الأرض المباركة، واستعادتها من أيدي الأعداء.

وفي يوم الإثنين 5 رجب 15هـ – 12 آب/ أغسطس 636م وقعت معركة اليرموك، ووضع باهان على ميمنته ابن قناطر، وعلى ميسرته الدرنجار، ومعه جرجير في جند أرمينية، وجبلة بن الأيهم الغساني على الأعراب الموالين للروم، وعددهم 12 ألفاً من قبائل لخم وجذام وبلقين وعاملة من قضاعة وغسان.[93]

وزحف الروم على المسلمين مثل "الليل والسيل" وكانوا نحو 120 ألفاً من المشاة، و80 ألفاً من الفرسان. وأخذ قادة المسلمين يحثون الجنود على الصبر والجهاد، وسار أبو عبيدة في المسلمين فقال "يا عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم فإن وعد الله حق، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة

للعار، فلا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا [بالدُّرق] والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى آمركم إن شاء الله".[94]

وكذا فعل معاذ بن جبل، وعمرو بن العاص الذي كان مما قاله: "فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان، لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشدة لقد انذعروا انذعار أولاد الحجل".[95]

وهكذا فعل أبو سفيان بن حرب، وجاءت نساء المسلمين فوقفن على مرتفع خلف الصفوف فرجع إليهنَّ أبو سفيان وأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن، وقال لهن: "لا يرجع أحد من المسلمين إلا رميتنَّه بهذه الحجارة".[96]

وزحف الروم، وقد رفعوا الصلبان، وأقبلوا معهم الرهبان والقسيسون والبطارقة، وتبايع عظماؤهم على الموت، ودخل 30 ألفاً منهم بالسلاسل، كل عشرة في سلسلة حتى لا يفروا.[97]

ورجع خالد إلى نساء المسلمين فأمرهن أن يقتلن أي رجل أقبل إليهنَّ منهزماً من المسلمين، ونظم خالد الجيش بحيث كان الفرسان خلف المشاة، وبحيث ينكسر الهجوم الرومي أمام المشاة، وعندما يفقد الروم نظامهم يهاجمهم خالد بفرسانه وهي مرتاحة.[98]

وبدأ الهجوم الرومي على ميمنة المسلمين ثم الميسرة، وحدث التحام هائل، وأمام سيل الروم الجارف انكشف المسلمون في الميمنة والميسرة، لكن المسلمين صمدوا في القتال بين مد وجزر.[99] وكان أشد القتال في الميمنة؛ حيث الأزد قوم أبي هريرة الذي أخذ يحمس المسلمين هناك، ويقول "تزينوا للحور العين، وارغبوا إلى جوار ربكم عز وجل في جنات النعيم، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم".[100] وهكذا فمن يتمعن في أقوال قادة المسلمين والصحابة في المعركة (أبي عبيدة، ومعاذ، وعمرو، وأبي هريرة...) لا يرى حثاً على الدنيا ولا وعوداً بالمغانم والمناصب، وإنما دعوات للإخلاص والصبر والذكر، وثقة بوعد الله ونصره، ورغبة في الشهادة والجنة.

وعندما حدث الاختراق الرومي للميمنة والميسرة، وثبت القلب، تدفقت قوات الروم نحو معسكر المسلمين بالخلف، وظلت هناك صفوف المسلمين تقاوم، ويعود إليها من جديد من كانت الروم قد اجتاحته.

وفي هذا الجو العصيب، قال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفر منه اليوم؟! من يبايع على الموت؟! فبايعه 400 من وجوه المسلمين وفرسانهم فيهم الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فاستبسلوا أمام فسطاط خالد بن الوليد، حتى أصيبوا جميعاً بجراح خطيرة فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من برئ مثل ضرار بن الأزور.[101] وقاتلت نساء المسلمين في هذا اليوم قتالاً شديداً كخولة بنت الأزور، وأم حكيم ابنة حكيم بن الحرث، وسلمى بنت لؤي، وأسماء بنت أبي بكر...، كما قامت نساء المسلمين بمداواة الجرحى وسقاية الماء.[102]

كان خالد بن الوليد في نصف فرسان المسلمين وقيس بن هبيرة في النصف الثاني لم يقاتلوا حتى تلك اللحظة، وعندما تكسرت صفوف الروم زحف خالد في فرسانه إلى الروم، وقد أنهكهم التعب واختلت صفوفهم. أما فرسان الروم الذين سبقوا المشاة إلى معسكر المسلمين فقد انقطعت أخبارهم، ويبدو أنهم استمروا في طريقهم هرباً من المعركة والحصار وعددهم نحو 30 ألف فارس، ولما رأى المسلمون خيل الروم كذلك فتحوا لها مهرباً فذهبت في حالة من الفوضى، وشدَّ خالد بفرسانه على المشاة وقتل 6 آلاف وقيل 10 آلاف،[103] وقيل إنه تكسرت في يد خالد تسعة أسياف.[104]

وأخذ المسلمون يزحفون مع هجوم خالد وقيس... وتراجع الروم وقد سدَّ المسلمون عليهم المنافذ...، واندفعوا متراجعين إلى الواقوصة، وكانت حافته مرتفعة فتهاووا فيها، إذ كان الجو ضباباً، وقيل كان ليلاً وهو الأرجح؛ حيث قتل منهم في هذه الهاوية نحو 80 ألفاً، وقتل في المعركة 50 ألفاً، واستطاع الفرار تحت جنح الليل نحو 40 ألفاً، بينما كان قد هرب نحو 30 ألف فارس.[105] أما المسلمون فقد استشهد منهم نحو 3 آلاف.[106]

استعادة الشام:

وبانتهاء معركة اليرموك التي تعدّ إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ انكسرت شوكة الروم في الشام، وأصبح فتحها أكثر سهولة ويسراً على المسلمين. وقد استفاد

المسلمون من هذه الفرصة، فقام خالد بسرعة كبيرة بمطاردة الروم واستعادة الشام حتى حمص.[107] وعادت القيادة المباشرة على الجيوش لأبي عبيدة بن الجراح الذي انتقل معسكره إلى مرج الصُفَّر ومنها إلى دمشق.[108]

وفي أواخر آب/ أغسطس 636م جاء أمر عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بإعادة الجيش، الذي جاء مدداً من العراق مع خالد بن الوليد، فعاد إلى العراق ستة آلاف؛ ليدركوا معركة القادسية التي وقعت بعد اليرموك بأربعين يوماً.[109]

وفي دمشق قسّم أبو عبيدة الشام على الأمراء؛ فاستخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وعمرو بن العاص على فلسطين، وشرحبيل بن حسنة على الأردن، ومضى أبو عبيدة إلى حمص. ومن دمشق خرج يزيد، وفي مقدمته معاوية بن أبي سفيان ففتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وكان فتحاً يسيراً. أما شرحبيل ففتح باقي الأردن بيسر... ففتح سوسية، وأفيق، وجرش، وبيت راس، وقَدَس، والجولان، وذلك في النصف الثاني من 15هـ.[110]

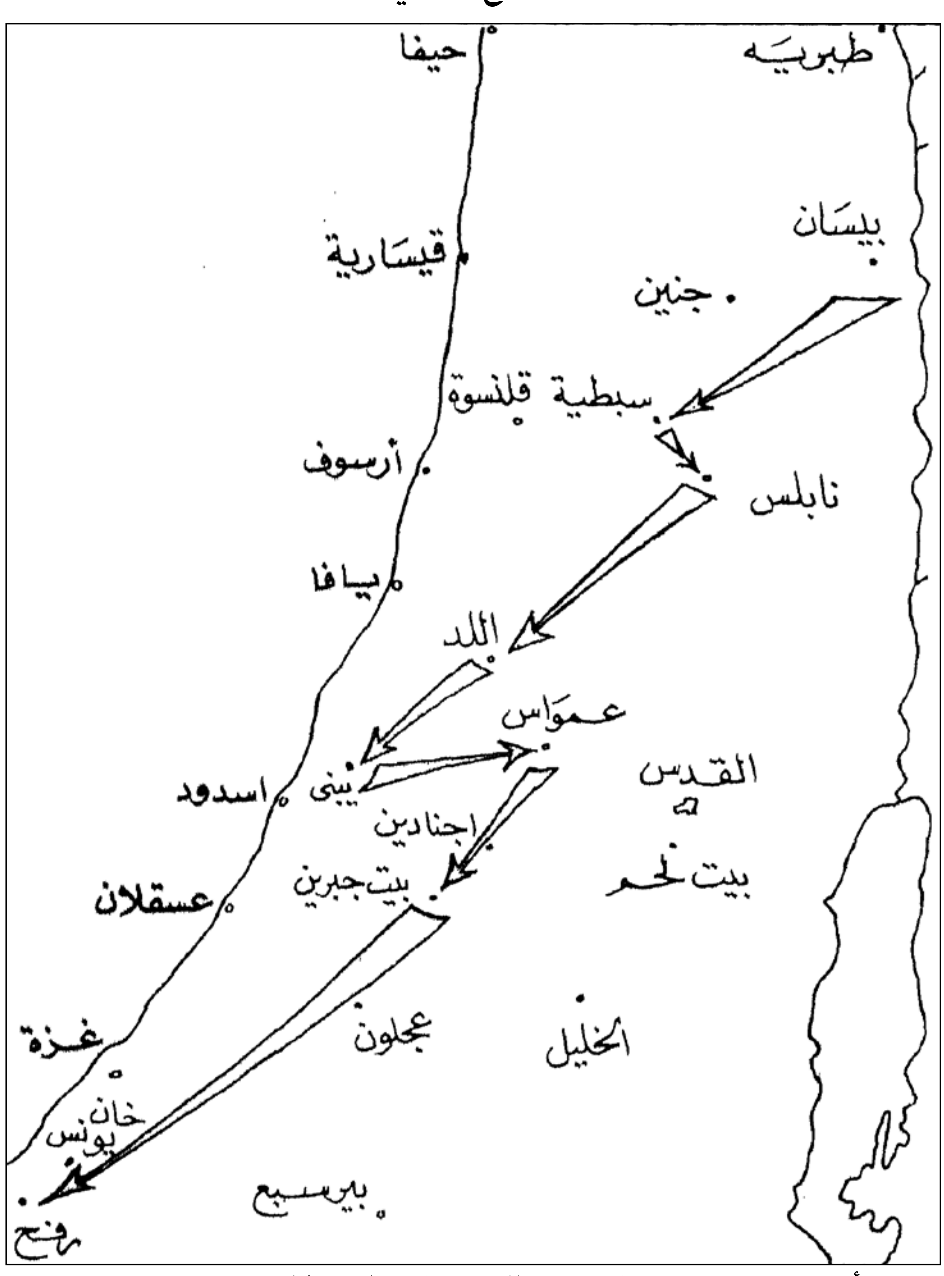
تاسعاً: فتح فلسطين:

وانفتح الطريق بعد اليرموك إلى فلسطين، فاتجه عمرو بن العاص إليها، ففتح سبسطية ونابلس، ثم اللد ونواحيها، ثم يبنه وعمواس وبيت جبرين، ثم هبط باتجاه الجنوب الغربي حتى فتح رفح، وفي رواية حتى أنه فتح يافا، وفي قول آخر أن معاوية هو الذي فتحها. ثم فتح عمرو عسقلان ثم انتقض أهلها فأعاد معاوية فتحها في ولايته.[111] وذكر صاحب فتوح البلدان أن عمرو بن العاص فتح غزة على عهد أبي بكر.[112]

وهكذا فتحت فلسطين، ولم يبقَ إلا قيسارية وبيت المقدس، أما بيت المقدس فقد فتحت على الأرجح في ربيع الثاني 16هـ – أيار/ مايو 637م. فقد اتجه عمرو بن العاص إلى القدس بعد أن أصبحت جيباً معزولاً وحاصرها، وبعد أن فرغ أبو عبيدة من تطهير شمال الشام (حلب، أنطاكية...) سار إلى عمرو وتولى الحصار بنفسه.

وكتب أهل القدس إلى أبي عبيدة يطلبون الصلح على مثل ما صالحت عليه مدن الشام، غير أنهم اشترطوا أن يتولى العقد عمر بن الخطاب... .

فتح فلسطين



المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)**، ص 514.

استخلف عمر بن الخطاب عليَّ بن أبي طالب على المدينة، وسار إلى الشام؛ حيث وافاه أمراء جيوش المسلمين في الجابية. ومع قدوم عمر هرب قائد الروم (أرطبون) من القدس، فكان الذي صالح عن أهل فلسطين رجل من أهل إيلياء (القدس) والرملة يدعى العوَّام. وقد صالح عمر أهل القدس وهو بالجابية وكتب لهم هناك الصلح.[113] وقد جاء في نصه:

> بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.
>
> وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وله مثل ما على أهل إيلياء من الجزية... .
>
> وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.
>
> شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر 15هـ.[114]

وهذا النص هو ما يعرف **بالعهدة العمرية**، وعلى أساسه فتحت القدس، وهو يعكس مدى التسامح الديني الذي تمتع به المسلمون؛ بحيث أصبح نموذجاً يحتذى في وقت كان التعصب الأعمى والإكراه على الدِّين يعمّ العالم.

وقبل أن نسرد دخول عمر إلى القدس نقف لحظات مع ذلك الجيل الرباني الذي فتح الأرض، وحطم القوى الكبرى في ذلك الزمان. نقف مع الخليفة القائد الزاهد عمر لنستلهم من سلوكه بعض المعايير التي يحتاجها أولئك الذين يتصدَّرون العمل الإسلامي، ويتحملون أمانة وتبعات الجهاد والتحرير. فقد روى ابن أبي الدنيا عن أبي الغالية الشامي أن عمر قدم إلى الجابية "على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب....، وعليه قميص من كرابيس* قد رَسم وتخرَّق جنبه....، فنزع قميصه وغسل ورقع"، فقال له أحدهم:

* كرابيس: ثوب خشن غليظ.

"أنت ملك العرب وهذه البلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا، وركبت بردوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم" فقال عمر: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً".[115]

ونقل ابن كثير عن طارق بن شهاب قال:

> لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره ونزع موقيه [حذاءه] فأمسكهما بيده، وخاض الماء ومعه بعيره. فقال أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصكَّ في صدره وقال: أولو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله.[116]

وهنا نقف لنقول: إن الشعور الذاتي بالعزة والكرامة الناتجة عن الإيمان، وتجاوز عُقد النقص، والتأكيد على ما يبذله الإنسان من عمل لا على ما يظهر عليه من لباس أو نعيم، هي من أحوج الحاجات لقادة المسلمين وأفرادهم.

لقد وضع عمر رضي الله عنه وهو في طريقه إلى القدس يده على القاعدة التي حكمت تاريخ المسلمين منذ فجر الدعوة وحتى عصرنا، وهي أن الله أعزّ المسلمين بالإسلام فمهما طلبوا العزّ بغيره أذلهم الله. وهي القاعدة التي أكدها رصيد التجربة، وهي القاعدة التي يستند إليها دعاة الحل الإسلامي لتحرير أرض الإسراء والمعراج.

رحمك الله يا عمر، كم من أناس وقادة يخجلون إذا لم يلبسوا البِذَل وربطات العنق، وإذا لم يلووا ألسنتهم ببعض الكلمات والمصطلحات الإنجليزية، ويخجلون أن يقوموا للصلاة إن حان وقتها،... ولكنهم لا يخجلون أن يفرِّطوا في أرض الإسراء والمعراج، وأن ينظروا للتسوية السلمية و"بركات" التطبيع...، كما لا يخجلون أن يتنكروا لتراث الأنبياء ودماء الشهداء!!

سار عمر من الجابية حتى وصل إلى القدس، وهو وغلامه يتبادلان الركوب على الجمل، ودخل عمر القدس وهو يمشي على قدميه وغلامه راكب!! ويذكر أنه شارك معه في فتح القدس أربعة آلاف من الصحابة، وهي المدينة الوحيدة التي استلم الخليفة عمر مفاتيحها بنفسه. وعندما دخل القدس صلى في محراب داود عليه السلام قارئاً سورة ص، حيث سجد سجدة داود، ثم قارئاً في الركعة الثانية سورة الإسراء، التي تحدثت فواتحها عن حادثة الإسراء ومباركة الله سبحانه لأرض فلسطين، ووعد الله سبحانه بظهور اليهود مرتين وانتصار المؤمنين عليهم.[117]

وسأل عمر عن مكان الصخرة المباركة التي كانت اختفت معالمها؛ لأنها اتُخذت مكاناً لإلقاء الأوساخ والقمامة من قبل سكانها النصارى، رداً على اليهود الذين اتخذوا مكان الشخص المصلوب بدل السيد المسيح (الذي شُبه للنصارى واليهود) مكاناً لإلقاء الأوساخ والقمامة، والذي أنشأت هيلانة Helena أم الإمبراطور قسطنطين في مكانه كنيسة "قمامة" التي عُرفت بعد ذلك بكنيسة "القيامة". وقد دلَّ كعب الأحبار عمر على المكان، فقام عمر بنفسه يشاركه الصحابة وأهل المنطقة بإزالة الأوساخ عنها وتنظيفها، ثم أمر عمر ببناء الحرم فبني من الخشب بما يتسع لنحو ثلاثة آلاف من المصلين.[118]

أما **قيسارية** فقد فتحها معاوية بن أبي سفيان في شوال 19هـ – تشرين الأول/ أكتوبر 639م، وبذلك تمّ للمسلمين فتح كل فلسطين. وقد كانت قيسارية مدينة عامرة ضخمة على البحر، ويبدو أن الروم أرادوا الاحتفاظ بها كموطئ قدم، وكان قد سبقت فتحها محاولات عدة لم يكتب لها النجاح. فقد كان أول من حاصرها عمرو بن العاص 13هـ، وكان يعود لمحاصرتها بعد أن يشارك في اجتماع الجيوش لمعارك أجنادين وفحل ومرج الصُفَّر واليرموك، وحاصرها بعد فتح القدس ثم خرج إلى مصر، فولى عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان، وأمره بغزوها فنهض إليها في 17 ألفاً وحاصرها، ومرِض آخر 18هـ فمضى لدمشق، واستخلف أخاه معاوية الذي تمّ له فتحها قسراً.

ويذكر البلاذري أن معاوية وجد فيها عندما فتحها 700 ألف من المرتزقة، ومن السامرة 30 ألفاً، ومن اليهود 200 ألف، و300 سوق، وكان يحرس سورها 100 ألف، وقيل إن قتلى الروم عند فتحها كانوا نحو 100 ألفٍ، وسبي 4 آلاف أرسلهم معاوية إلى عمر فأنزلهم الجرف.[119] غير أنه، على ما يبدو، فإن هناك مبالغة كبيرة في ذكر أعداد المرتزقة واليهود والأسواق، ولعلها في الحقيقة أقل من ذلك بكثير.

وظلّ عمر بن الخطاب في القدس بضعة أيام، وقبل أن يغادر خطب في المسلمين "يا أهل الإسلام، إن الله تعالى قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وأورثكم البلاد، ومكَّن لكم في الأرض، فلا يكون جزاؤه منكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر بالنعم، وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفرغوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط الله عليهم عدوهم".[120]

هذا ما قاله عمر، وهو الذي جعل الله الحق على لسانه، وهذه هي الحقيقة التي نعايشها اليوم، والتي عايشها المسلمون أيام الحروب الصليبية، كفر بالنعم وعمل بالمعاصي يتبعه سلب للعز وتسليط العدو على رقاب المسلمين.

عاشراً: الإسلام يترسخ في فلسطين:

وبعد الفتح الإسلامي لفلسطين أخذت هذه الأرض تكتسب من جديد هويتها الإسلامية؛ إذ دخل أهلها في الإسلام، وكان للصحابة الذين عاشوا فيها أثرهم في تعميق مفاهيمه ونشرها.

فمن الصحابة الذين استوطنوا في فلسطين عبادة بن الصامت (ت 34هـ) وهو من الخزرج، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان رضي الله عنه طويلاً جسيماً جميلاً.[121]

ومنهم أيضاً شداد بن أوس (ت 58هـ) رضي الله عنه وهو خزرجي، ابن أخ حسان بن ثابت، ولي إمارة حمص لعمر بن الخطاب، وكانت وفاته أواخر ولاية معاوية في القدس، وأسامة بن زيد بن حارثة (ت 57هـ) رضي الله عنه سكن ناحية الرملة ومات بها، وواثلة بن الأسقع (ت 85هـ) رضي الله عنه الذي سكن بيت المقدس ومات بها، وفيروز الديلمي رضي الله عنه وهو من فرس صنعاء وهو قاتل مدَّعي النبوة الأسود العنسي، ودحية الكلبي رضي الله عنه شهد كثيراً من الوقائع، كما شهد اليرموك، بعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم يدعوه للإسلام فلقيه في القدس وسلمه الرسالة، وسكن فلسطين وعاش فيها إلى خلافة معاوية، وتوفي في قرية "الدحي" التي نسبت إليه وجبلها القائمة عليه، وقبره معروف يُزار،[122] والصحابي عبد الرحمن بن غنم الأشعري (ت 78هـ) رضي الله عنه فقيه الشام وشيخ أهل فلسطين، كان ضمن البعثة التعليمية التي أرسلها ابن الخطاب، لتعليم أهل فلسطين أمور دينهم،[123] والصحابي علقمة بن مجزر الكناني، أرسله ﷺ في تبوك للاستطلاع إلى فلسطين، شهد اليرموك وحصار بيت المقدس، وكان عاملاً لعمر بن الخطاب على القدس.[124]

ومن الصحابة أيضاً أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، شهد بدراً والمشاهد كلها ومات بفلسطين وعمره 85 عاماً.[125] ومسعود بن أوس بن زيد، شهد بدراً وفتح مصر، وتوفي بالقدس. وسلام بن قيس بن قيصر الحضرمي (وقيل سلامة أو سلمة)، كان والياً لمعاوية على بيت المقدس.[126] وزنباع بن روح الجذامي، وهو من أهل فلسطين قبل الإسلام،[127] ومالك السرايا مالك بن عبد الله الخثعمي رضي الله عنه ومنهم من يجعله في عداد التابعين، ولي الصوائف زمن معاوية ثم يزيد ثم عبد الملك، وهو من أهل فلسطين.[128]

ومن الصحابة أيضاً الذين عاشوا وتوفوا في فلسطين أبو ريحانة شمعون الأنصاري، وذو الأصابع التميمي، وأبو أبيّ بن أم حرام الأنصاري الخزرجي، وأنيف بن ملة الجذامي، وسويد بن زيد الجذامي، وسعد بن وائل بن عمرو العبيدي الجذامي، وأبو رويحة الفزعي واسمه ربيعة بن السكن رضي الله عنهم أجمعين.[129]

وممن سكن بيت المقدس من الصحابة إبراهيم بن أبي علة العقيلي، ويزيد بن سلام، وعبد الله بن محيريز الجمحي، وزياد بن أبي سودة رضي الله عنه.[130]

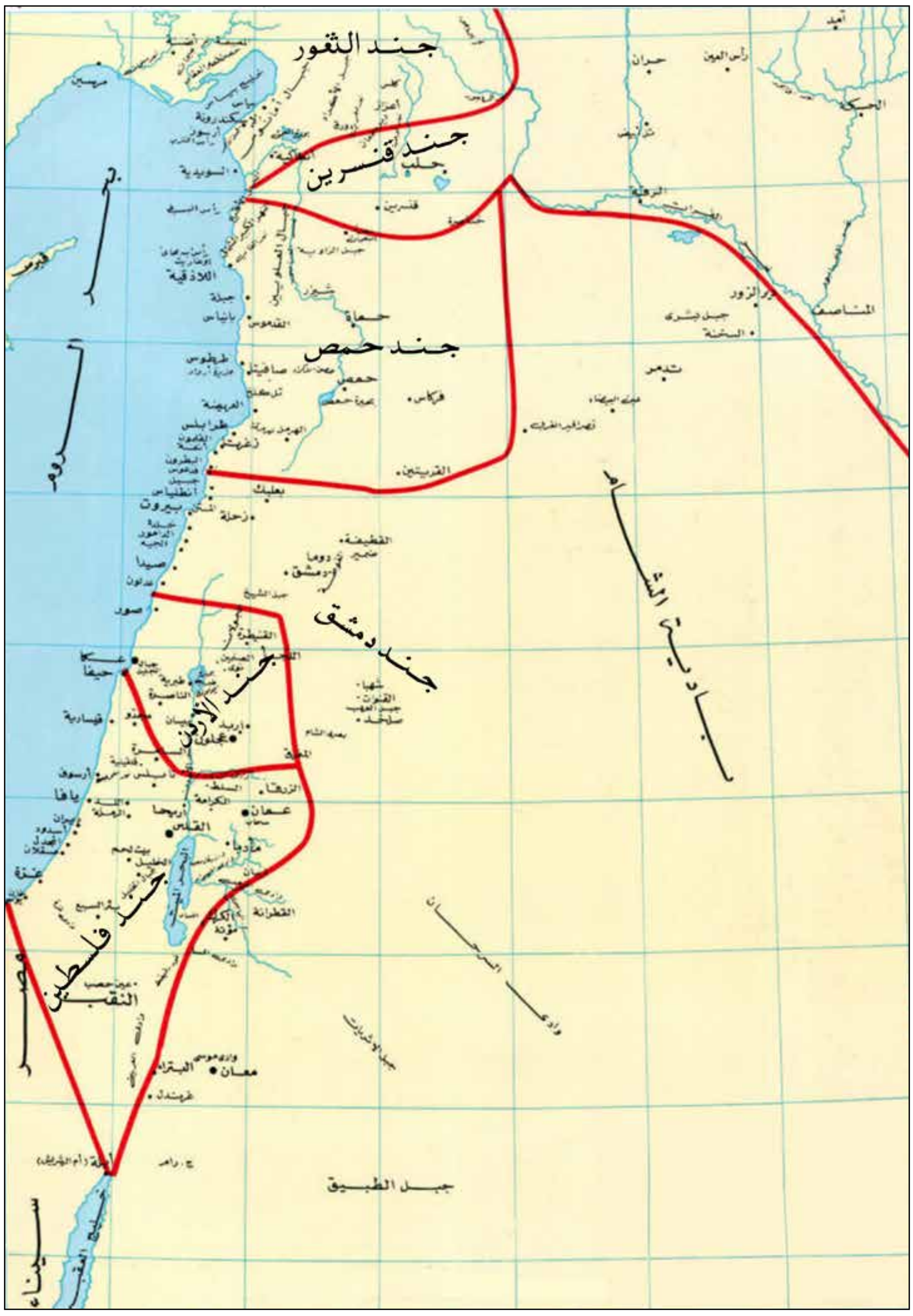
ورفع التابعون راية الصحابة على أرض فلسطين، وهناك الكثير ممن ولد فيها أو سكنها أو زارها، ومنهم رجاء بن حيوة الكندي (ت 112هـ/730م) وهو من أهل فلسطين من مواليد بيسان، وكان أميناً على بيوت أموال عبد الملك بن مروان، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن عبد العزيز. ومن التابعين أيضاً عبادة بن نسي الكندي (ت 118هـ/736م) وكان جليل القدر، يُنعت بسيد أهل الأردن، تولى قضاء طبرية، ومنهم أيضاً مالك بن دينار، وعبد الرحمن الأوزاعي، وروح بن زنباع، وهانئ بن كلثوم بن عبد الله، وحميد بن عبد الله اللخمي، وسفيان الثوري، وابن شهاب الزهري.[131]

ومن كبار الأئمة والفقهاء الذين عاشوا في فلسطين وزاروها الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي ولد في مدينة غزة، وإبراهيم بن أدهم، والليث بن سعد، وأبو بكر محمد الطرطوشي، وأبو بكر الجرجاني، وابن قدامة المقدسي. أما الإمام ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني فقد ولد وعاش في مصر بعد أن هاجر إليها أسلافه بعد خراب عسقلان 669هـ.[132]

وإلى فلسطين ينتسب الفاتح الإسلامي الكبير موسى بن نصير اللخمي (19–97هـ) فاتح الأندلس، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب، وكان جده من موالي ابن عامر الذي دعي المرج باسمهم (مرج ابن عامر) أصله من قيسارية، رئيس فنّ الكتابة وسيد الإنشاء وشيخ الدواوين صاحب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقتل معه سنة 132هـ/750م.[133] وإلى فلسطين أيضاً ينتسب أول علماء الكيمياء المسلمين الكبار خالد بن يزيد الأموي، وهو أول من نقل علوم الفرنج إلى العربية في دولة الإسلام.[134]

ويمكن أن ينسب إلى فلسطين، حسب التقسيمات الجغرافية الإسلامية القديمة، أول ثلاثة خلفاء من دولة بني العباس؛ إذ ولد كل من أبي العباس السفاح، وأبي جعفر المنصور وابنه المهدي في الحميمة من جند فلسطين (الشام الأولى)، وهي تقع الآن شرق الأردن على يمين الطريق من معان إلى العقبة.[135]

التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في صدر الإسلام والعصر الأموي



المصدر: حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1987)، ص 142. (بتصرف)

ومن الوزارء "الفلسطينيين" المشهورين الربيع بن يونس، الذي ينتسب إلى العائلة الكيسانية من جبل الخليل، كان حاجباً ثم وزيراً للمنصور، ثم وزيراً ومستشاراً للمهدي، أما ابنه الفضل بن الربيع فعمل حاجباً للمنصور، ثم وزيراً للمهدي، ثم وزيراً للهادي، ثم حاجباً لهارون الرشيد، ثم وزيراً للأمين بن هارون الرشيد،[136] ومن الوزراء أيضاً معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الطبراني استوزره المهدي، وفوَّض إليه أمر الدولة العباسية، وفي أيام وزارته علا شأن الوزارة لكفاءته ومقدرته،[137] وأحمد بن أبي خالد يزيد بن عبد الرحمن الكاتب الأحول، وكان من خيار الوزراء الذين استوزرهم المأمون.[138]

ومن العلماء المعروفين عقيل بن خالد الأيلي (ت 144هـ) روى الحديث عن مالك بن أنس، وآدم بن أبي عباس العسقلاني (ت 220هـ) روى عنه البخاري، والعباس بن محمد الجرجي (ت 320هـ) محدث فلسطين ينسب إلى قرية بيت جرجا من أعمال غزة، وسليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت 340هـ)، وهو رحالة ومحدث مشهور من مواليد طبرية.[139]

وقد أحصى أحد الباحثين المعاصرين أعيان المتوفين في بيت المقدس فقط في العهود الإسلامية فوجد أنهم 9 من الصحابة، و60 من الملوك والأمراء وأرباب الحكم، و167 من العلماء، و66 من الأولياء والصالحين، و53 من القضاة... وأضاف أن هذا غيض من فيض من أعيان المدفونين في بيت المقدس؛ لأن هناك كثيراً ممن توفوا فيها ضاعت أسماؤهم...، هذا في القدس وحدها فكيف بأرض فلسطين كلها؟![140]

خلاصة:

- رسَّخ الإسلام المكانة الكبرى لفلسطين، باعتبارها أرضاً مباركة مقدسة، وأرض الأنبياء، وأرض الإسراء، وبوابة الأرض إلى السماء (المعراج)، وأرض المسجد الأقصى، وأرض الطائفة المنصورة، وأرض المحشر والمنشر، وأرضٌ يُفصل فيها بين الحق والباطل.
- شجَّع الإسلام على الإقامة في بلاد الشام (وفي قلبها فلسطين)، وتطلّعت إليها أنظار المسلمين منذ العهد النبوي، واختلطت دماء الصحابة والتابعين وأبطال الإسلام

بثراها، واتخذت هويتها الإسلامية بفتحها ودخول أبنائها في دين الله أفواجاً، والذين تعرّبت لغتهم، وتعمّقت هويتها العربية الإسلامية باستقرار أبناء القبائل العربية فيها. وأصبحت فلسطين أرض وقفٍ إسلامي على المسلمين وأجيالهم.

- كان الدافع الإسلامي الإيماني هو الدافع الأساسي في فتح فلسطين وفي الفتوح الإسلامية، وكان جهاداً في سبيل الله ورفعاً لرايته وإعلاءً لكلمته ونشراً لدعوته؛ فاستحق المسلمون نصر الله وتمكينه لهم.
- أنجز المسلمون فتوح فلسطين والشام في فترة قصيرة (نحو ثلاث سنوات)، وحسموا المعارك الكبرى مع الإمبراطورية البيزنطية في أجنادين وفحل – بيسان واليرموك...، ببركة إخلاصهم وتضحياتهم، وبما أبرزوه من فنون قتالية وعبقرية عسكرية.
- قدَّم المسلمون في فتح القدس نموذجاً حضارياً راقياً، وكانت "العهدة العمرية" نموذجاً للعدالة والتسامح الديني. وتحت حكم الإسلام كان السلوك "جامعاً" مبنياً على التعايش والتسامح والعدل، والانفتاح على الآخرين واستيعابهم، وحمايتهم ومنع ظُلمهم أو الإساءة إليهم، بل والاستفادة من طاقاتهم في بناء الحضارة الإسلامية؛ في مقابل سلوك غيرهم "المانع" الذي فشل، عندما حكم القدس وفلسطين، في استيعاب الآخرين على مَرّ تجارب التاريخ.

هوامش الفصل الثاني

[1] رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأبو داود، انظر: المناوي، **فيض القدير: شرح الجامع الصغير**، ط 2 (د.م: دار الفكر، 1972)، ج 6، ص 403.

[2] حديث حسن رواه الطبراني، انظر: المرجع نفسه، ج 4، ص 228.

[3] **القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 1.

[4] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 71.

[5] إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج 3، ص 184–185.

[6] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 81.

[7] إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج 3، ص 187.

[8] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: 18.

[9] إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج 3، ص 533.

[10] محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ط 4 (بيروت: دار القرآن الكريم، 1998)، ج 2، ص 151.

[11] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 21.

[12] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 1، ق 1، ص 343.

[13] محمد ناصر الدين الألباني، **تخريج أحاديث "فضائل الشام ودمشق" للربعي** (دمشق: المكتب الإسلامي، د.ت)، ص 5.

[14] حديث صحيح رواه الإمام أحمد في مسنده 463/6، وابن ماجه في سننه 429/1، نقلاً عن: محمد عثمان شبير، **بيت المقدس وما حوله** (الكويت: مكتبة الفلاح، 1989)، ص 24.

[15] حديث صحيح رواه الطبراني ورجاله ثقات، نقلاً عن: المرجع نفسه، ص 26.

[16] حديث صحيح، أخرجه الحاكم وأبو نعيم في الحلية، نقلاً عن: المرجع نفسه، ص 27.

[17] رواه الطبراني، وقال الهيثمي فيه أرطأة بن المنذر وبقية رجاله ثقات، نقلاً عن: المرجع نفسه، ص 27.

[18] رواه الإمام أحمد، نقلاً عن: المرجع نفسه، ص 31.

[19] انظر حول الفترة من بعثة المسيح عليه السلام وحتى الفتح الإسلامي في: محمود سعيد عمران، **معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية** (بيروت: دار النهضة العربية، 1981)، ص 19–75؛ وجوزيف نسيم يوسف، **تاريخ الدولة البيزنطية** (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د.ت)، ص 35–111، وانظر:

Moses Hadas, *A History of Rome: from its Origins to* 529 *A.D* (US: Peter Smith, 1976); and A.H.M. Jones, *The Later Roman Empire* 284–602 (Baltimore US: Johns Hopkins University Press, 1986).

[20] حول ميلاد رسول الله ﷺ والفترة المكية انظر مثلاً: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ط 6 (بيروت والكويت: مؤسسة الرسالة و دار البحوث العلمية، 1979)، ص 36–118؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 3، ص 2–177.

[21] ظلّ المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى في الصلاة حتى السنة الثانية للهجرة، انظر: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ص 135.

[22] انظر: المرجع نفسه، ص 89–92، وإسماعيل بن كثير؛ **البداية والنهاية**، ج 3، ص 108–118.

[23] **القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 10.

[24] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 4، ص 99–102.

[25] انظر كتبه ﷺ إلى الملوك في: المرجع نفسه، ج 4، ص 262–273.

[26] أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق** (بيروت: دار النفائس، 1980)، ص 148.

[27] **القرآن الكريم**، سورة الروم: 2–4.

[28] انظر: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ص 238–242؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 145–149.

[29] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 5، ص 2–18.

[30] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 6، ص 304–305؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 152–156.

[31] سيد قطب، **الجهاد في سبيل الله**، ص 99–106.

[32] حسن البنا، **مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا** (القاهرة: دار الشهاب، د.ت)، ص 85.

[33] **القرآن الكريم**، سورة التوبة: 111.

[34] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 173.

[35] علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، 1965)، ج 2، ص 404.

[36] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1970)، ص 11–12.

[37] المرجع نفسه، ص 23–24.

[38] المرجع نفسه، ص 17.

[39] المرجع نفسه، ص 18.

[40] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام** (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ص 15–16.

[41] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 6، ص 352.

[42] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص 404.

[43] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط 2 (مصر: مطبعة السعادة، 1948)، ج 2، ص 315.

[44] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 15–16.

[45] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 23–24.

[46] أحمد كمال، **الطريق إلى المدائن**، ط 6 (بيروت: دار النفائس، 1986)، ص 212–263؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 159.

[47] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 161–162.



[48] المرجع نفسه، ص 162–170؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 1–6.

[49] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 171.

[50] المرجع نفسه، ص 176–192.

[51] المرجع نفسه، ص 195–196؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 27.

[52] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 209، و215.

[53] المرجع نفسه، ص 239–240، و247.

[54] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 30.

[55] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 208–210.

[56] المرجع نفسه، ص 238–242.

[57] المرجع نفسه، ص 273.

[58] المرجع نفسه، ص 263–272؛ وانظر: البلاذري، **فتوح البلدان** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983)، ص 120.

[59] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 90.

[60] محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2 (القاهرة: دار المعارف، 1969)، ج 3، ص 418.

[61] البلاذري، **فتوح البلدان**، ق 1، ص 135؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 280–281.

[62] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 291–298.

[63] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 102–103؛ وأيضاً: أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 305.

[64] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 305–306؛ وحسب الأزدي فإن الكلام الوارد في هذا النص على لسان أبي عبيدة كتبه عمر بن الخطاب بنفسه إلى أبي عبيدة ومعاذ بن جبل رداً على رسالتهما إليه، انظر: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 102.

[65] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 334، و346؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 131.

[66] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 113–114.

[67] المرجع نفسه.

[68] انظر نص مفاوضة معاذ للروم في: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 115–121.

[69] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 121–125.

[70] المرجع نفسه، ص 130؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 332.

[71] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 333.

[72] المرجع نفسه، ص 344؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 136.

[73] البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 122.

[74] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 344، و349.

[75] المرجع نفسه، ص 358–401.

[76] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 194.

[77] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 406–407؛ وانظر: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 152؛ والبلاذري، **فتوح البلدان**، ص 141.

[78] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 153–156.

[79] المرجع نفسه، ص 186.

[80] المرجع نفسه، ص 160.

[81] المرجع نفسه، ص 160–169.

[82] المرجع نفسه، ص 180–182.

[83] المرجع نفسه، ص 183.

[84] المرجع نفسه.

[85] المرجع نفسه، ص 184.

[86] المرجع نفسه، ص 170؛ وفي النص المشار إليه بين القوسين ذكر الأزدي ويبدو أن الصحيح هو "بالكثرة والقوة"، انظر: أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 428–429.

[87] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 170–171.

[88] المرجع نفسه، ص 189.

[89] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 433، و444.

[90] المرجع نفسه، ص 445.

[91] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 199–207.

[92] المرجع نفسه، ص 211.

[93] المرجع نفسه، ص 210؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 466، و471.

[94] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 218؛ الكلمة المشار إليها بين القوسين ذكرت في نص الأزدي "بالورق".

[95] المرجع نفسه، ص 219.

[96] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 474.

[97] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 220.

[98] المرجع نفسه، ص 221؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 475.

[99] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 476–480.

[100] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 225؛ ومحمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 206.

[101] محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج 3، ص 401.

[102] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 217–218.

[103] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 487–489.

[104] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 218.

[105] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 231؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 491–494.

[106] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 496، وذكر الواقدي أن شهداء المسلمين كانوا أربعة آلاف، انظر: محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 226.

[107] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 231.

[108] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 500.

[109] المرجع نفسه، ص 509–510.

[110] المرجع نفسه، ص 511–516.

[111] المرجع نفسه، ص 513.

[112] البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 144.

[113] حول فتح القدس، انظر: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 246–259؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 523–527؛ ومحمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج 3، ص 607–608.

[114] محمد بن جرير الطبري، **تاريخ فتوح الشام**، ج 3، ص 609.

[115] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 7، ص 59–60.

[116] المرجع نفسه، ج 7، ص 60.

[117] انظر: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 246–259؛ وانظر: مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (عمّان: مكتبة المحتسب، 1973)، ج 1، ص 255.

[118] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 7، ص 222.

[119] انظر: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 145–148؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 534–535.

[120] مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج 1، ص 258.

[121] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2، ص 96.

[122] انظر: المرجع نفسه، ج 9، ق 2، ص97؛ ومصطفى مراد الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين** (بيروت: دار الطليعة، 1979)، ص 47–48، و188.

[123] مصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص 104.

[124] المرجع نفسه، ص 188.

[125] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2، ص 97.

[126] انظر: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي، **فضائل بيت المقدس**، تحقيق محمد مطيع حافظ، سلسلة فضائل الشام رقم 2 (دمشق: دار الفكر، 1985)، ص 90–92.

[127] مصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص 104.

[128] المرجع نفسه، ص 98–99.

[129] ضياء الدين المقدسي، **فضائل بيت المقدس**، ص 90–92؛ ومصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص 98، و111–113.

[130] شفيق جاسر أحمد محمود، **تاريخ القدس: العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية** (عمّان: دار البشير للنشر والتوزيع، 1984)، ص 125–126.

[131] مصطفى مراد الدباغ، **من هنا وهناك** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986)، ص 80، و109.

[132] مصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص 187؛ وشفيق محمود، **تاريخ القدس**، ص 126–143.

[133] انظر: مصطفى الدباغ، **من هنا وهناك**، ص 80–81؛ ومصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص 138–140.

[134] انظر: صالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ط 3 (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، 1970)، ص 24–25.

[135] مصطفى الدباغ، **من هنا وهناك**، ص 81.

[136] المرجع نفسه، ص 82.

[137] المرجع نفسه.

[138] المرجع نفسه، ص 83.

[139] المرجع نفسه، ص 112.

[140] جميل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس: دراسة تاريخية لمقابر القدس وتربها وإثبات بأسماء الأعيان المدفونين فيها** (عمّان: مؤسسة آل البيت: المجموع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، 1981)، ص 150.

الفصل الثالث

المسلمون في مواجهة الصليبيين والتتار

المسلمون في مواجهة الصليبيين والتتار

أولاً: سنن الله في النصر والهزيمة:

إن سنن الله سبحانه في نصر المسلمين ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بمدى التزامهم بأحكام دينهم وشريعة ربهم، وهذا ما أثبتته نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وما أكدته تجارب التاريخ، وما أصاب حياة المسلمين من مدٍّ وجزر.

- فالنصر لا يأتي إلا من الله، قال تعالى ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾،[1] وقال سبحانه ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾.[2]

- والله ينصر الفئة المؤمنة الصادقة ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾،[3] وقال سبحانه ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.[4]

- والنصر يتحقق للمؤمنين متى أحسنوا الصلة بالله سبحانه، والتزموا كتابه، وسنّة نبيه، ونصروا دينه ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.[5]

- وعوامل النصر الحقيقية تتمثل في: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله والذكر، وطاعة الله، وطاعة الرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، وقد ذكرها الله سبحانه فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.[6]

ومن طاعة الله ورسوله الاستجابة لما أمرنا به من بذل للأسباب في العدة والإعداد ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾،[7] وكذلك بيع النفس لله، والإنفاق والجهاد في سبيل الله.

- والمؤمنون العاملون هم سادة الأرض وحكامها، قال تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.[8]

• وعندما تقع الهزيمة للفئة المؤمنة، فلا بدّ أن تكون هناك ثغرة في حقيقة الإيمان، إما في الشعور وإما في العمل، وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين حينما يعودون لدينهم، وبعد أن يسدوا ما بهم من ثغرات.

فمثلاً كانت الثغرة في "أحد" في ترك طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي الطمع في الغنيمة، وفي "حنين" في بدايتها، كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها... .

• أما التخلي عن منهج الله سبحانه، فإنه يعني بالنسبة للمسلمين الضعف والذلة، والهزيمة، والضياع، قال تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[9]

وفي الأثر: "ما ترك قوم الجهاد إلا ذلّوا".

وهكذا فإن المد والجزر في تقدم المسلمين أو تأخرهم، في انتصارهم أو هزيمتهم، في حضارتهم، أو تخلّفهم، ترتبط ارتباطاً أساسياً بمدى التزامهم بشرع الله سبحانه، أو ابتعادهم عنه، ومن هذا المنطلق نتقدم لنفهم حقيقة حركة التاريخ في النصر أو الهزيمة عند المسلمين.

ودار الزمان:

قدمت أرض الإسلام في فلسطين على مرّ عصور الإسلام الزاهرة فيها أطيب الثمار وأينعها، ولكن هذا المد المعطاء من الحياة الإسلامية المشرقة لم يستمر... .

وما فتئ الزمان يدور حتى ... مضى بالركب قوم آخرونا

وآلمني وآلم كلّ حرٍّ ... سؤال الدهر أين المسلمونا

فمنذ العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ بعد منتصف القرن الثالث الهجري، ودولة الخلافة الإسلامية في ضعف مستمر متزايد نتيجة ضعف الارتباط بالله سبحانه، وعدم التطبيق الدقيق لشرعه سبحانه، وضعف الحكام وانشغالهم بوسائل اللهو والترف، وانتشار الأفكار الضالة والفرق المنحرفة في دولة الإسلام، ودخول علماء المسلمين في مرحلة من الجمود والتقليد أبعدتهم عن حلّ كثير من مشاكل وقضايا العصر المتجدد التي تواجه المسلمين، وكثرة الخلافات الفقهية، وتزايد التعصب المذهبي، وتمزق دولة الإسلام، وتكوين ثلاث خلافات بدلاً من خلافة واحدة، فالخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في مصر وأجزاء من المغرب والشام، والخلافة الأموية في الأندلس،

وانشغال كثير من المسلمين بقشور الحضارة، ومباهجها، وجمع الأموال، والجواري والغلمان... .

في هذه الحالة من الترهل والضعف، التي أصابت المسلمين في تلك الفترة، حدثت الحروب الصليبية.

ثانياً: الخريطة السياسية للمنطقة قبيل الحروب الصليبية:

قبل بدء الحروب الصليبية بنحو أربعين عاماً، نجح السلاجقة الأتراك في بسط سيطرتهم على بغداد، وتولي الحكم تحت الخلافة الإسميّة للعباسيين. فقد استطاع السلاجقة بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس، وشمال العراق، وأرمينية، وآسيا الصغرى قرابة سنة 1040م، ثم سيطر السلطان السلجوقي طغرل بك على بغداد سنة 1055م، وتوسع السلاجقة على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى. وفي 1071/8/19م وقعت معركة ملاذكرد التي قادها السلطان السلجوقي ألب أرسلان، وحلت فيها أكبر كارثة بالبيزنطيين حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وفي 1071م سيطر السلاجقة على معظم فلسطين عدا أرسوف، وأخرجوا النفوذ الفاطمي منها، وتوسع السلاجقة على حساب الفاطميين في الشام فاستطاعوا الاستيلاء على معظمها.[10]

وفي 485هـ/1092م توفي السلطان السلجوقي ملكشاه فتفككت سلطة السلاجقة، ودخلوا فيما بينهم في معارك طويلة طاحنة على السيطرة والنفوذ، وعلى حدِّ تعبير ابن الأثير "انحلت الدولة ووقع السيف"،[11] وفي 1096م أصبحت سلطتهم تتكون من خمس ممالك: سلطنة فارس بزعامة بركياروق، ومملكة خراسان وما وراء النهر بزعامة سنجر، ومملكة حلب بزعامة رضوان، ومملكة دمشق بزعامة دقاق، وسلطنة سلاجقة الروم بزعامة قلج أرسلان، وكانت معظم مناطق فلسطين تتبع الحكم في دمشق.

وفي ظلّ ضعف حاكمي الشام (رضوان ودقاق) ظهرت الكثير من البيوتات الحاكمة بحيث لا يزيد حكم كثير منها عن مدينة واحدة.[12]

لقد بدأ الصليبيون حملتهم 491هـ/1098م ومناطق المسلمين في الشام والعراق وغيرها تمزقها الخلافات والصراعات الدموية، فقد دخل الأخوان رضوان ودقاق

ابنا تتش في حرب بينهما سنة 490هـ، ووقعت معارك عديدة بين محمد بن ملكشاه وأخيه بركياروق في الصراع على السلطنة، تداولا فيها الانتصارات والخطبة لهما بدار الخلافة (492–497هـ)، و"طالت الحرب بينهما، وعمّ الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها، محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين".[13] وفي تلك الفترة كان الصليبيون قد ثبتوا ملكهم في فلسطين وأرجاء عديدة من الشام، واستطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الشام، واتفق لهم "اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء، واختلفت الأهواء، وتمزقت الأموال".[14]

ثالثاً: الحملة الصليبية الأولى ونتائجها:

وفي تلك الأثناء أخذت الأنظار في أوروبا تتجه نحو الأرض المقدسة بعد أن دعا البابا أوربان الثاني Pope Urban II (1088–1099م) في مجمع كليرمونت Council of Clermont في 1095/11/26م "لاسترداد" الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، ثم عقد عدة مجمعات دعا فيها للحروب الصليبية (ليموج Limoges، أنجرز Angers، مان Le Mans، تورز Tours، بواتييه Poitiers، بوردو Bordeaux، تولوز Toulouse، نيم Nîmes) خلال الفترة 1095–1096م، وقرر أن كل من يشترك في الحروب الصليبية تغفر له ذنوبه، كما قرر أن ممتلكات الصليبيين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم، وأن يخيط كل محارب صليباً من القماش على ردائه الخارجي.[15]

وبدأت الحملات الصليبية بحملات العامة أو حملات الدعاة، وهي حملات تفتقر إلى القوة والنظام. وكان منها حملة بطرس الناسك، وهو رجل فصيح، مهلهل الثياب، حافي القدمين يركب حماراً أعرج، جمع حوله من فرنسا قرابة 15 ألفاً، وفي طريقهم أحدثوا مذبحة في مدينة مجرية لخلاف على المؤن فقُتل 4 آلاف، وانضمت إليهم عند القسطنطينية جموع والتر المفلس، ودخلت حشودهم الشاطئ الآسيوي، وحدثت معركة مع السلاجقة انتصر فيها السلاجقة وقتلوا من الصليبيين 22 ألفاً، ولم يبقَ من الصليبيين سوى 3 آلاف. أما حملتا فولكمار وأميخ فقد أقامتا مذابح لليهود في الطريق، وتشتت الحملتان في المجر!![16]

ثم كان ما يعرف بالحملة الصليبية الأولى، وقد شارك فيها أمراء وفرسان أوروبيون محترفون، وبدأت الحملة سيطرتها على مناطق المسلمين منذ صيف 1097م، وأسس الصليبيون إمارة الرُّها في آذار/ مارس 1098م بزعامة بلدوين البولوني. وحاصر الصليبيون أنطاكية تسعة أشهر، وظهر من شجاعة صاحب أنطاكية باغيسيان "وجودة رأيه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، فهلك أكثر الفرنج، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام"، غير أن أحد الأرمن المستحفظين على أسوار المدينة راسله الصليبيون، وبذلوا له "مالاً وإقطاعاً" ففتح للصليبيين الباب من البرج الذي يحرسه، فاحتل الصليبيون المدينة، وأسسوا فيها إمارتهم الثانية 491هـ – 3 حزيران/ يونيو 1098م، بزعامة بوهيموند النورماني Bohemond.[17]

ونستطرد قليلاً مع أحد المواقف التي تستحق التسجيل، والتي تعكس مدى تشتت المسلمين، وتنازع أهوائهم، فبعد سقوط أنطاكية جمع المسلمون العساكر بقيادة كربوقا الذي وُلي الموصل، واجتمع معه عساكر الشام: تركها وعربها...، وسار المسلمون إلى أنطاكية فحاصروها وأقام الفرنج بأنطاكية 12 يوماً ليس لهم ما يأكلونه. وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، وأصبح الرغيف بدينار، والبيضة بدينارين، وراسل الفرنج (الصليبيون) كربوقا يطلبون الأمان ليخرجوا من أنطاكية فرفض.... ومع بدء علائم النصر للمسلمين كانت قد بدأت علائم الخذلان وسط المسلمين؛ إذ إن كربوقا أساء السيرة فيمن معه من المسلمين، وتكبر على الأمراء فأغضبهم وأضمروا له الغدر.

وقرر الفرنج الخروج للقتال، فخرجوا متفرقين من خمسة أو ستة أبواب، فأشار المسلمون على كربوقا أن يقفوا عند كل باب فيقتلوا من يخرج، ولكنه رفض وقال: "لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم"، فلما تكامل خروجهم ولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا: أولاً من الاستهانة بهم، والإعراض عنهم، وثانياً لأنه منعهم من قتال الفرنج، وتمت الهزيمة، ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم!! فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة؛ إذ لم يجرِ قتال ينهزم بسببه، وثبت جماعة من المجاهدين قاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم!![18]

هذا الوضع يعكس باختصار جانباً كبيراً من الأحوال في ذلك الزمان، زعامة سيئة السيرة، مستفردة برأيها، وقادة جعلوا الخصومة مع أميرهم أكبر من عداء الفرنج، وأعداد كبيرة من المسلمين دون قيادة كفوءة، وأعداد أقل من الفرنج أكثر تدريباً وانتظاماً واحترافاً، ومسلمون مجاهدون صادقون لا يخلو منهم أي زمان يقاتلون احتساباً في سبيل الله... .

وفي الوقت الذي كان السلاجقة يتعرضون فيه للزحف الصليبي شمال بلاد الشام، استغل الفاطميون الفرصة، فاحتلوا صور 1097م، وسيطروا على بيت المقدس في شباط/ فبراير 1098م في أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية. واستقل بطرابلس القاضي ابن عمار أحد أتباع الفاطميين، وقد أرسل الفاطميون للصليبيين في أثناء حصارهم لأنطاكية سفارة للتحالف معهم، وعرضوا عليهم قتال السلاجقة بحيث يكون القسم الشمالي "سورية" للصليبيين وفلسطين للفاطميين...، وأرسل الصليبيون وفداً إلى مصر ليدللوا على "حسن نيَّاتهم"!!، وهكذا... ففي أثناء انشغال السلاجقة بحرب الصليبيين كان الفاطميون منشغلين بتوسيع نفوذهم في فلسطين على حساب السلاجقة حتى إن حدودهم امتدت حتى نهر الكلب شمالاً ونهر الأردن شرقاً...!!

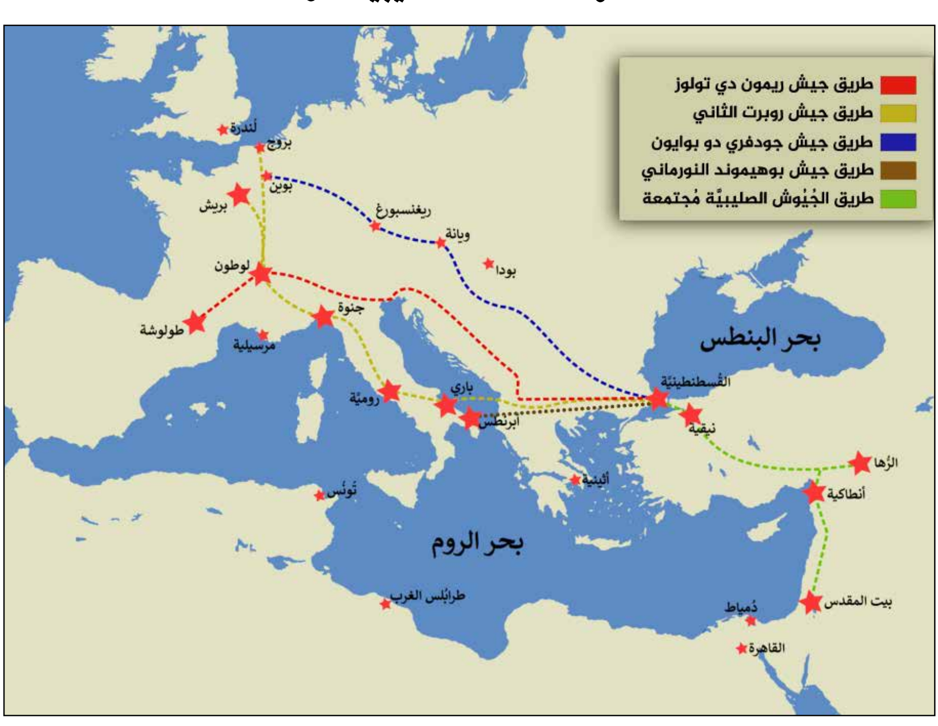
وظهرت الخيانات، وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها و"كسب ودّ" الصليبيين في أثناء توسعهم؛ ومن ذلك ما حدث من اتصال صاحب إقليم شيزر بالصليبيين، حيث تعهد بعدم اعتراضهم، وتقديم ما يحتاجون من غذاء ومؤن، بل وأرسل لهم دليلين ليرشداهم على الطريق!!، وقدمت لهم حمص الهدايا!! وعقدت معهم مصياف اتفاقية!! أما طرابلس فدفعت لهم الجزية، وأعانتهم بالأدلاء، ودفعت بيروت المال، وعرضت عليهم الدخول في الطاعة إذا نجحوا في احتلال بيت المقدس!![19]

تابع ريمون دي تولوز Raymond Toulouse (أمير إقليم بروفانس Provence وتولوز Toulouse بفرنسا) قيادة بقية الصليبيين إلى بيت المقدس، وكان عددهم ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة فقط!! وفي ربيع 1099م، دخلوا مناطق فلسطين، فمروا بعكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين، ثم قيسارية ثم أرسوف، ثم احتلوا الرملة واللد وبيت لحم، وفي 1099/6/7م بدأوا حصار بيت المقدس، وكان حاكمها قد نصَّبه

الفاطميون، ويدعى افتخار الدولة، وتمّ احتلالها في 23 شعبان 492هـ – 1099/7/15م. ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون المسلمين، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على 70 ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم.[20] أما الدولة الفاطمية فقد واجهت الخبر ببرود، كما أن الدولة العباسية لم تحرك ساكناً!!

تولى حكم بيت المقدس القائد الصليبي جودفري دو بوايون، وتَسمى تواضعاً بحامي بيت المقدس، واستسلمت نابلس، وتمّ للصليبيين احتلال الخليل.[21]

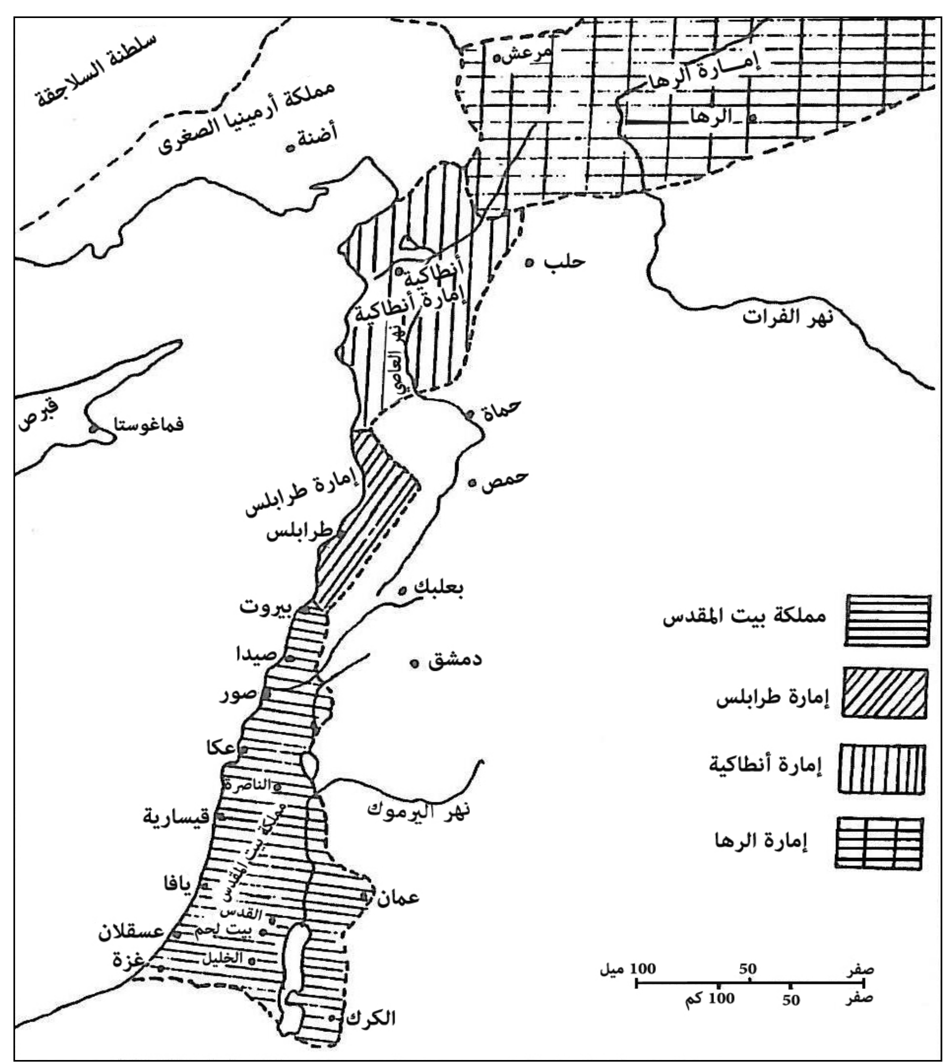
مسارات الحملة الصليبية الأولى



ويقال إنه لم يبقَ من الصليبيين إلا 300 فارس وألفين من المشاة، ولم يستطيعوا توسيع سيطرتهم، لأن كثيراً منهم عادوا إلى بلادهم بعد أن أوفوا قسمهم بالاستيلاء على بيت المقدس،[22] وبذلك أصبحت ممالك الصليبيين كالجزر وسط محيط من الأعداء، ومع ذلك كُتب لها الاستمرار 200 عام حتى تمّ اقتلاع آخرها!! بسبب الإمدادات والحملات التي كانت تأتيهم بين فترة وأخرى، وبسبب ضعف المسلمين وتشرذمهم، وعدم استغلالهم لفرصة انسياب وانتشار الصليبيين على مساحات واسعة من الأرض بأعداد

قليلة ليقضوا عليهم، ولكن المسلمين تأخروا حتى قويت شوكة الصليبيين، وأصبح من الصعب اقتلاعها.

الممالك والإمارات الصليبية في بلاد الشام



وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى، فقد كانت يافا قد سقطت في أثناء حصار بيت المقدس على يد سفن جنوية في 1099/6/15م، وسيطر الصليبيون على شرق بحيرة طبرية "منطقة السواد" في أيار/ مايو 1100م، واستولوا على حيفا عنوة في شوال 494هـ – آب/ أغسطس 1101م بمساعدة أسطول كبير من البندقية، وملكوا

أرسوف في نيسان/ أبريل 1101م بالأمان وأخرجوا أهلها منها، ثم ملكوا قيسارية في 1101/5/17م بالسيف، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها.[23]

وهكذا فرض الصليبيون هيمنتهم على فلسطين، غير أن عسقلان ظلّت عصية عليهم، وكان المصريون (الفاطميون) يرسلون لها كل عام الذخائر والرجال والأموال، وكان الفرنج يقصدونها ويحاصرونها كل عام فلا يجدون لها سبيلاً، ولم تسقط عسقلان بأيدي الفرنج إلا في 548هـ/1153م، وكان أهلها قد ردوا الفرنج مقهورين في ذلك العام، وعندما آيس الفرنج وهموا بالرحيل أتاهم خبر أن خلافاً وقع بين أهلها فصبروا.

وكان سبب الخلاف أن أهلها لما عادوا قاهرين منصورين ادعت كل طائفة أن النصر كان من جهتها، فعظم الخصام بينهم إلى أن قُتل من إحدى الطائفتين قتيل، واشتد الخطب، وتفاقم الشر، ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى!! فطمع الفرنج، وزحفوا إلى عسقلان وقاتلوا "فلم يجدوا من يمنعهم فملكوها"!![24] ترى... كم هي الهزائم التي تأتي من أنفسنا أو نصنعها بأنفسنا؟! ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾.[25]

وهكذا تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية، ونشير استطراداً إلى تأسيس الفرنج لملكة صليبية رابعة هي طرابلس في 11 ذي الحجة 503هـ – 12 تموز/ يوليو 1109م بعد حصار دام سبعة أعوام.[26]

رابعاً: استمرار الصراع (نظرة عامة):

من الصعب أن ندخل في تفصيل الأحداث سنة بسنة حادثاً بحادث، خصوصاً أن منهجنا يميل إلى الاختصار، ووضع اليد على النقاط المهمة الحساسة في سياق حديثنا عن التجربة التاريخية للحل الإسلامي على أرض فلسطين، غير أن استكمال الصورة، ومعرفة مجمل الظروف في تلك الفترة يقتضي الإشارة إلى المعطيات التالية، التي ظهرت خلال الثلاثين عاماً التي تلت الاحتلال الصليبي لبيت المقدس:

1. كان عدد الصليبيين محدوداً، وقد فرضوا هيمنتهم من خلال قلاع منتشرة كجزر معزولة في العديد من مناطق الشام.

2. استمر الصراع والنزاع بين المسلمين، واستعان بعضهم بالصليبيين على خصومهم، مما أضعف الموقف الإسلامي، وجعل الصليبيين يلعبون في بعض الأحيان دور الشرطي، ويستفيدون من ذلك في زيادة نفوذهم، وتقوية شوكتهم.

ومن ذلك الصراع بين طغتكين وبكتاش بن تتش على دمشق؛ حيث استعان بكتاش سنة 498هـ بالفرنج على خصمه، ولحق به "كل من يريد الفساد"، غير أن ملك الفرنج لم يعطِه سوى التحريض على الإفساد، ثم استقام الأمر لطغتكين.[27]

وعندما وقعت معركة بين الفاطميين والفرنج بين عسقلان ويافا 498هـ ساعدت الفاطميين قوة من دمشق من 300 فارس، وساعدت جماعة من المسلمين بقيادة بكتاش بن تتش الفرنج.[28] وعندما جاء جيش السلطان من العراق 509هـ إلى الشام لجهاد الصليبيين بقيادة برسق ابن برسق خاف حكام دمشق وحلب على نفوذهم من أن يزول، فتعاونوا بقيادة طغتكين مع فرنج أنطاكية ضدّ جيش السلطان؛ ثم ما لبث طغتكين نفسه أن قاتل فرنج بيت المقدس، واستعاد رفنية بعد أن استولى الفرنج عليها.[29]..، إنه القتال المرتبط بالمصلحة، فمرة يلبس ثوب الجهاد في سبيل الله، ومرة يلبس ثوب الدفاع عن "الحق" (الكرسي) تحت حجج الوراثة أو الكفاءة... حتى لو اقتضى ذلك التحالف مع الأعداء.

3. استمر جهاد المسلمين ضدّ الفرنج (الصليبيين) دون توقف، وإن كان هذا الجهاد قد افتقر إلى حسن الإعداد والتنظيم، وقد تعدد القادة المسلمون الذين يأتون ويذهبون، كما تعددت محاور الصراع والاشتباك مع الفرنج في بلاد الشام، وافتقر المسلمون إلى قاعدة كبيرة قوية تكون منطلقاً دائماً للجهاد، وكثيراً ما كان القتال بين مدينة أو قلعة إسلامية، تحاول الدفاع عن نفسها، أو توسيع نفوذها، وبين الفرنج.

وتداول المسلمون والصليبيون النصر والهزيمة في المعارك، ولم يكن يمضي عام دون معارك، وتبادلوا احتلال المدن والقلاع، ولم يكن من الصعب على المسلمين أن يدخلوا في وسط فلسطين، ويخوضوا المعارك عند الرملة أو يافا أو غيرهما. غير أن الصليبيين ظلّوا يحتفظون بنفوذهم وهيمنتهم في المناطق التي استولوا عليها.

وظهر عدد من المجاهدين المسلمين الذين كانت قدراتهم محدودة، ولم يتمكنوا من توحيد قوى المسلمين لجهاد الفرنج، غير أنهم حافظوا على جذوة الجهاد، وألحقوا بالفرنج خسائر كبيرة، وأفقدوهم الاستقرار والأمان، وقتلوا أو أسروا العديد من قادتهم وزعمائهم.[30] فمثلاً كان بين معين الدولة سقمان وشمس الدولة

جكرمش حرب، ولما حوصرت حرّان من قبل الفرنج 497هـ تراسلا، وأعْلَمَ كل منهما الآخر أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فسارا واجتمعا بالخابور في عشرة آلاف من التركمان والترك والعرب والأكراد، فالتقوا بالفرنج عند نهر البليخ، وهزم الفرنج فقتلهم المسلمون "كيف شاؤوا" وأُسر القائد الصليبي بردويل وفُدي بـ35 ديناراً و160 أسيراً من المسلمين، وكان عدد قتلى الفرنج يقارب 12 ألفاً.[31]
وفي 507هـ اجتمع المسلمون من الموصل وسنجار ودمشق، وقاتلوا الفرنج عند طبرية، وانتصروا عليهم، وأسروا ملكهم "بغدوين Baldwin I" دون أن يُعرَف أنه المَلك، فأُخذ سلاحه وأُطلق سراحه، وكثر القتل والأسر في الفرنج. ثم جاء مدد من جند أنطاكية وطرابلس فقويت نفوس الفرنج، وعادوا للحرب فأحاط بهم المسلمون من كل ناحية، وصعد الفرنج إلى جبل غربي طبرية، ومكثوا 26 يوماً دون أن ينزلوا للقتال، فتركهم المسلمون، وساروا إلى بيسان، و"نهبوا بلاد الإفرنج" بين عكا إلى القدس وخربوها، ورجع المسلمون. وعاد مودود بن التونتكين صاحب الموصل مع طغتكين إلى دمشق، وهناك في صحن المسجد في يوم الجمعة، وثب عليه باطني فجرحه أربع جراحات وقُتل الباطني، وأبى مودود أن يموت إلا صائماً، وكان خيِّراً عادلاً كثير الخير، ويقال إن طغتكين هو الذي تآمر عليه. وكتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً جاء فيه: "إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها"!![32]

4. المسلمون الأصليون من سكان فلسطين استمروا في سكنهم للبلاد التي احتلها الفرنج، ولكن قسماً منهم هجروها إلى شرق الأردن ودمشق، وأنفوا من التعاون مع الصليبيين. ولذلك تعطلت الزراعة في أكثر المدن الساحلية الفلسطينية. وقد عمل هؤلاء على محاربة الصليبيين، وقدموا خدمات للمسلمين المهاجمين، وانضموا إلى كتائب المسلمين في بلاد الشام، وساعدوهم كأدلاء في فلسطين، يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري عنهم "إنهم علموا عدونا كيف يدمرنا؛ لأنهم يملكون معلومات كافية عن حالتنا".[33]

5. كان من أبرز قادة المسلمين المجاهدين الأوائل أقسنقر البرسقي الذي ولاه السلطان محمد سنة 508هـ الموصل وأعمالها، وأمره بقتال الفرنج، وخاض أقسنقر المعارك ضدّ الصليبيين في شمال الشام. ودخلت، بالإضافة إلى الموصل والجزيرة وسنجار، مدينة حلب سنة 518هـ تحت زعامته، فتوسعت جبهته المعادية للصليبيين، غير أنه قُتِل

رحمه الله سنة 520هـ على يد الباطنية في الموصل، وكان أقسنقر مملوكاً تركياً خيّراً يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويقوم الليل.[34]

6. أرسلت الدولة الفاطمية في مصر بقيادة وزيرها الأفضل بدر الجمالي حملات عديدة إلى فلسطين، وحاولت الدفاع عن مناطق نفوذها على الساحل، غير أن حملاتها لم تكن بمستوى ما تزخر به مصر من قدرات وإمكانات، ويظهر أن حملاتها اتخذت طابعاً استعراضياً، وافتقرت إلى التنسيق الجاد مع القوى الإسلامية في الشام.[35] وكان الحكم الفاطمي قد افتقد مصداقيته الجهادية الإسلامية عندما راسل الفرنج وهم يزحفون باتجاه بيت المقدس عارضاً التحالف ضدّ السلاجقة، وتقاسم النفوذ في الشام. ومهما يكن، فإن الدولة الفاطمية كانت في طور الأفول، وكانت تعاني من عوامل الضعف والانهيار.

خامساً: جهاد عماد الدين زنكي 521-541هـ:

انفتحت صفحة جديدة لجهاد الصليبيين بظهور عماد الدين زنكي بن أقسنقر، وبدء عهد الدولة الزنكية في الموصل وحلب، فقد تولى عماد الدين زنكي أمر ولاية الموصل وأعمالها سنة 521هـ بعد أن ظهرت كفاءته في حكم البصرة وواسط وتولّى شحنكية العراق،[36] وفي محرم 522هـ تمت له السيطرة على حلب. وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك، ويحقق الانتصارات على الصليبيين، وعلَّق ابن الأثير بعد أن تحدث عن انتصار عماد الدين على الفرنج في معركة كبيرة، وملكه حصن الأثارب، وحصاره حارم 524هـ... "وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع".[37]

واستمرت جهود زنكي في توحيد قوى المسلمين في غزو الصليبيين، فملَك زنكي حماة، وحمص وبعلبك، وسرجي، ودارا، والمعرة، وكفر طاب، وقلعة الصور في ديار بكر، وقلاع الأكراد الحميدية، وقلعة بعرين، وشهرزور، والحديثة، وقعلة أشب وغيرها من الأكراد الهكارية... .[38] وفي 534هـ حاول زنكي الاستيلاء على دمشق مرتين دون جدوى، فقد كانت دمشق المفتاح الحقيقي لاسترداد فلسطين من جهة الشام، غير أن القائم بأمر

الحكم هناك معين الدين أُنر راسل الصليبيين للتحالف ضدّ زنكي، ووعدهم أن يحاصر بانياس ويسلمها لهم ووافقوا، ولكن زنكي ذهب إليهم قبل قدومهم لدمشق، فلما سمعوا ذلك لم يخرجوا. ومع ذلك فإن معين الدين حاصر بانياس بمساعدة جماعة من الفرنج، ثم استولى عليها، وسلمها للفرنج!![39]

غير أن أشهر ما يذكر من الفتوح لزنكي هو فتحه للرها، وإسقاطه للمملكة الصليبية التي قامت بها، فقد حاصرها أربعة أسابيع، وفتحها عنوة في 6 جمادى الثانية 539هـ، وفتح ما يتبع هذه المملكة من أعمال في منطقة الجزيرة، وفتح سروج وسائر الأماكن التي كانت للفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة.[40]

قُتل عماد الدين زنكي، بعد أن حمل راية الجهاد أكثر من عشرين عاماً، في 5 ربيع الأول 541هـ – منتصف أيلول/ سبتمبر 1146م، غدراً على يد جماعة من مماليكه، بينما كان يحاصر قلعة جعبر،[41] وكان عمره زاد عن ستين عاماً، وعلى ما ذكر ابن الأثير فقد كان زنكي، شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يعين القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمّرها وامتلأت أهلاً وسكاناً.[42] "وكان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً، خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامة".[43] واشتهر عماد الدين بعد مقتله بلقب "الشهيد".

لقد عمل عماد الدين زنكي في أجواء صعبة من النزاع بين أمراء وزعماء السلاجقة أنفسهم، وبينهم وبين الخليفة العباسي في أحيان أخرى، وفي أجواء الحكم الوراثي، ونزعة الكثيرين للسيطرة والزعامة حتى ولو على مدينة أو قلعة واحدة، كما عاش في فترة كانت القوى الصليبية فيها ما تزال تملك الكثير من القوة والحيوية. ومع ذلك فقد استطاع عماد الدين أن يضع الأسس لقاعدة انطلاق جهادية كبيرة وقوية تمتد من شمال الشام إلى شمال العراق، كما كسر شوكة الصليبيين في مواقع كثيرة، ويسَّر سبل الجهاد والعمل الجاد لتحرير الأرض، وقدَّم نموذجاً للحاكم والمجاهد تحت راية الإسلام، وقوّى الأمل باسترجاع المقدسات. غير أن أفضل أثر تركه، على ما يظهر لنا، هو ابنه نور الدين محمود.

سادساً: جهاد نور الدين محمود 541-569هـ:

بعد استشهاد زنكي، وحسب الأعراف الوراثية في ذلك الزمان، انقسمت دولته بين ابنيه: نور الدين محمود الذي تولى حلب وما يتبعها، وسيف الدين غازي الذي تولى الموصل وما يتبعها.

ولد نور الدين محمود بعد نحو عشرين عاماً من سقوط القدس في أيدي الصليبيين في 17 شوال 511هـ – شباط/ فبراير 1118م، وكان أسمر، طويل القامة، حسن الصورة، ذا لحية خفيفة، وعليه هيبة ووقار. تزوج سنة 541هـ من ابنة معين الدين أُنر ورزق ببنت وولدين، وتوفي رحمه الله في 11 شوال 569هـ – 15 أيار/ مايو 1174م.[44]

وبحكم نور الدين انفتحت صفحة جديدة رائعة من صفحات الجهاد الإسلامي في بلاد الشام، وطوال 28 عاماً، من حكم نور الدين كان واضحاً في ذهنه هدفه الأساسي في تحرير واسترداد بلاد المسلمين، وتوحيدها تحت راية الإسلام.

ومنذ تلك اللحظة أخذ يبذل الأسباب، ويعدّ العدة والعتاد، ويوحد جهود المسلمين، ويرتقي بهم في جوانب الحياة المختلفة، وذلك وفق تصور إسلامي متكامل لإعادة أمجاد المسلمين، وطرد الاحتلال الصليبي من بلادهم... .

ودخل المعركة وفق فهم إسلامي شامل سليم يؤكد على عقائدية المعركة مع الصليبيين، فهي:

- صراع بين حقٍّ وباطل، وبين إسلام وكفر.
- تعني كل المسلمين دون نظر إلى قوميات وعصبيات وجنسيات.
- ولا سلام نهائي حتى يسترجع المسلمون كل شبر من أراضيهم.
- ولا بدّ من الإعداد المتكامل للأمة، حتى تكون على مستوى الجهاد، إيمانياً وثقافياً وتربوياً واجتماعياً وجهادياً وعسكرياً.
- ولا بدّ من توحيد الجهود تحت راية الإسلام في مواجهة العدو الصليبي.

معالم النهضة الإسلامية:

وفي سبيل ذلك قام نور الدين محمود بإحياء نهضة إسلامية أكدت على تكامل الحل الإسلامي، وقد تمّ التعبير عنها من خلال:

1. القيادة الإسلامية الصادقة:

تمثَّلت هذه القيادة في شخصه وأشخاص من حوله من القادة والمسؤولين والعلماء. فقد كان للتكوين النفسي والشخصية المميزة لنور الدين محمود أثرهما الكبير في وجود قيادة إسلامية واعية، جادة، ومجاهدة.

قال ابن الأثير: "طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين".[45] فلقد كان ذكياً، ألمعياً، فطناً، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل والقدرة على الإنجاز الأمين المسؤول للعمل، ولم ينظر في تقديمه للرجال إلى المكانة الاجتماعية أو للجنس والبلد.[46]

كما عُرف نور الدين بتقواه وورعه، فقد كان حريصاً على أداء السنن وقيام الليل بالأسحار. إذ كان ينام بعد صلاة العشاء، ثم يستيقظ في منتصف الليل، فيصلي ويتبتل إلى الله بالدعاء حتى يؤذن الفجر، كما كان كثير الصيام.[47]

وتميز بفقهه وعلمه الواسع، فلقد تشبَّه بالعلماء، واقتدى بسيرة السلف الصالح، وكان عالماً بالمذهب الحنفي، وحصل على الإجازة في رواية الأحاديث، وألّف كتاباً عن الجهاد.[48]

وكان ذا طبيعة جادة، كما رزقه الله قوة الشخصية فكان "مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته"، ومجلسه "لا يُذكر فيه إلا العلم والدِّين والمشورة في الجهاد"، "ولم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى صموتاً وقوراً".[49]

وكان زاهداً متواضعاً، فقد كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز، ولا استئثارٍ بالدنيا، وعندما شكت زوجته الضائقة المادية أعطاها ثلاثة دكاكين له بحمص، وقال: "ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض في نار جهنم لأجلك".[50]

قال له الشيخ الفقيه قطب الدين النيسابوري يوماً: "بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف"، فقال له نور الدين: "يا قطب الدين!! ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو".[51]

وعلى اتساع نفوذه وسلطانه جاءه التشريف من الخلافة العباسية، وتضمن قائمة بألقابه التي يذكر بها على منابر بغداد تقول: "اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضِّيَ الإمامة وأثيرها، فخر الملة ومجدها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين"!! فأوقف هذا كله، واكتفى بدعاء واحد هو "اللهم أصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي".[52]

وعُرِفَ باتساع شعبيته، وحبّ الناس له حتى في البلاد التي لا يحكمها، وكان يستشعر إحساساً عظيماً بالمسؤولية تجاه الزمن أن يضيع، واتجاه الدم المسلم أن يراق، والكرامة الإسلامية أن تهدر، والأرض الإسلامية أن تستباح؛ فكان يَصِل في عمله الليل بالنهار، وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته.[53]

وحباه الله تكويناً عسكرياً فذاً حمل من خلاله تكاليف الجهاد الشاقة 28 عاماً بنفسية جهادية صادقة.[54]

2. التزام أحكام الإسلام وتطبيقها:

حرص نور الدين على تطبيق أحكام الإسلام على الجميع، وكان قدوة في الالتزام بها، وطبقها على مسؤولي الدولة وقادتها، وكما حرص على ردّ الحقوق إلى أصحاب المظالم، وكان يقول: "حرام على كل من صحبني أن لا يرفع قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ". وفي توحيده لبلاد المسلمين كان يحرص على عدم إراقة دماء المسلمين، ولذلك كان ذا صبر وحكمة وتأنٍّ في ذلك، لقد كان رحمه الله يحفظ الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها.[55]

وعلى الرغم من اضطراره للاصطدام بالعديد من زعماء المدن والقلاع المسلمين في سعيه لتحقيق الوحدة، أو لتحالفهم مع الفرنج...، إلا أن دم المسلم كان عنده عظيماً وكان: "لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا لضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم".[56] وعندما تحالف حكام دمشق مع الصليبيين 544هـ جاهد الصليبيين دون إيذاء المسلمين وضياعهم، وقال: "لا حاجة لقتل المسلمين بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين". لقد شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه، ودعوا الله أن يكون ملكهم.[57]

وعندما رفع عليه أحدهم قضية إلى القاضي، استدعاه القاضي فقال: "السمع والطاعة، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، إني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع". وفي مرة أخرى دعي للقضاء، فاستجاب، ولما ثبت أن الحق مع نور الدين وهب لخصمه ما ادعاه عليه.[58]

لقد ألغى رحمه الله الضرائب التي تزيد عن الحدِّ الشرعي على الرغم مما كانت تدر من دخل كبير على ميزانية الدولة، وعلى الرغم من إمكانية تبرير وجودها، عند البعض، بظروف البلاد والحرب،[59] وكان يقول: "نحن نحفظ الطريق من لصٍّ وقاطع طريق... أفلا نحفظ الدِّين ونمنع ما يناقضه؟".[60] وكان أشهى شيء عنده كلمة حقٍّ يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها.[61]

3. البناء الإيماني والتربوي والثقافي:

في هذا المجال استقدم نور الدين العلماء العاملين، وأفسح لهم مجال العمل والدعوة، وسعى في بناء المدارس والمساجد، وأوقف عليها الأوقاف، وحارب البدع والأضاليل... فانتشر نور الإيمان والعلم بين الرعية، وأحيا سمت احترام العلماء وتوقيرهم. وعلى الرغم من أن الأمراء والقادة لم يكونوا يجرؤون على الجلوس في مجلسه دون أمره وإذنه... إلا أنه كان إذا دخل عليه العالم الفقيه أو الرجل الصالح قام هو إليه وأجلسه، وأقبل عليه مظهراً كل احترام وتوقير.[62] وكان يقول عن العلماء إنهم "هم جند الله وبدعائهم نُنصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حقّ أضعاف ما أعطيهم، فإن رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا".[63] لقد كانت بلاد الشام خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية،[64] وكان يسمع نصيحة العلماء ويُجلها، ويقول: "إن البلخي إذا قال لي: محمود، قامت كل شعرة في جسدي هيبة له، ويرقُّ قلبي".[65]

4. الإعمار والبناء الحضاري والاجتماعي:

عُرف نور الدين بشخصيته التي تهتم بأحوال المسلمين وتحيي معاني التكافل والتعاون والتضامن بينهم، ورفع عنهم معاناتهم وأحوالهم الصعبة... فلقد عمل على كفالة الأيتام، وتزويج الأرامل، وإغناء الفقراء، وبناء المستشفيات والملاجىء ودور الأيتام والأسواق والحمامات والطرق العامة، وتوطين البدو وإقطاعهم الأراضي حتى لا يؤذوا الحجاج. لقد ارتقى بالخدمات التي تُقدّم للمسلمين فأحبه الشعب، وأصبحت

صلته به متينة قوية...، وسَرَت هذه النفسية البناءة المحبة للخير إلى نفوس رجاله، فأصبحوا يتسابقون في خدمة الناس، وبناء المدارس والمستشفيات والملاجئ، ووسائل الخدمات المختلفة.[66]

5. البناء الاقتصادي:

رتَّب نور الدين ديوان الزكاة في عهده ونظم جبايتها وتوزيعها وفق الأسس الشرعية، وشجَّع التجارة بتأمين طرق المواصلات ورفع الضرائب التي تثقل حركة التجارة، وسعى في كل ما يقوي الدولة ويدعم بنيانها الاقتصادي.[67]

6. البناء الجهادي العسكري:

لقد سعى نور الدين في إحياء المعاني الجهادية في النفوس، وتربية الأمة على معانيها وتكريس عزة المسلمين ومنعتهم وقوتهم، وبذل الجهد في توفير العدة والعتاد، واختيار القادة المناسبين، وحماية المدن، وبناء الأسوار والحفاظ على أرواح المسلمين، وتميز بحزمه وقوته في ذلك، وكان رده عنيفاً جداً على الأعداء إذا انتُهِكَت حرمات المسلمين. ومن ذلك أنه لم يكد يمرّ على استلامه للحكم شهر واحد حتى هاجم الصليبيون الرُّها ظانين أن الحاكم الجديد ضعيف، ولكن نور الدين هاجم الصليبيين، وقتل ثلاثة أرباع جيشهم، الذي هربت فلوله، وقد عرفت من يكون هذا القائد الجديد، وحصل مرة أن هاجم الصليبيون نور الدين وجزءاً من جيشه على حين غفلة، فأقسم نور الدين أن لا يستظل بسقف حتى ينتقم للإسلام، وكان انتقامه رهيباً في معركة حارم؛ إذ قتل منهم الآلاف.[68]

حتى الرياضة استفاد منها في مجال الإعداد الجهادي، فلقد كانت الحرب تجري في ذلك العصر على الخيول... ولبناء هذه المهارة في التحكم بالخيول وحركتها، كان يلعب بمهارة كبيرة لعبة الكرة من فوق الخيول (البولو)!![69]

لقد حرص على تعبئة طاقات الأمة للجهاد... وهو في بذله لأسبابه لم ينسَ دعاء الضعفاء والعجائز والمحتاجين، فكان يحسن إليهم، ويذكر أنه ربما ينتصر ببركة دعائهم.

بهذا البناء المتكامل والإعداد الجاد المتزن دخل نور الدين مرحلة التغيير الجذري على الساحة السياسية ليحقق أمرين سار بهما في اتجاهين متوازيين هما:

- تحقيق الوحدة الإسلامية وتعبئة قواها في بوتقة واحدة.
- تحطيم القوى الصليبية تدريجياً: بإضعاف هيبتها، وإنهاك قواها، والتحرير التدريجي لأرض المسلمين الواقعة تحت سيطرتها... وذلك بانتظار استكمال الوحدة الإسلامية لتحقيق نصر حاسم ونهائي.

جهود الوحدة الإسلامية:

لقد حرص نور الدين على تحقيقها بقدر كبير من الصبر والحكمة والأناة، وحرص شديد على عدم إراقة دماء المسلمين، وقد حرص على استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشمال، وشمال العراق وكسب صداقتها، كما كان يكشف بطريقة عاقلة واعية حقيقة أولئك الزعماء والحكام، الذين يقفون حجر عثرة أمام الوحدة الإسلامية أمام رعيتهم. وكان الناس يقارنون بين جهاده، وبين تخاذل حكامهم، وبين إصلاحاته وبين إفساد حكامهم، وبين ولائه لله سبحانه ولرسوله وللمؤمنين وبين ولاء حكامهم لمصالحهم وشهواتهم وللصليبيين!! فأخذ الناس يتمنون حكمه عليهم... ولذلك فقد وجد كل ترحيب شعبي عند انضمام أي من بلاد المسلمين إليه.

ضمّ نور الدين حمص إليه سنة 544هـ/1149م، غير أنه كان يتوق لضمّ دمشق التي كانت تقف بينه وبين الصليبيين في فلسطين. وكان الحكم في دمشق يسعى بالدرجة الأولى للحفاظ على نفسه، فمرة يجاهد الفرنج، ومرة يصانعهم ويهادنهم، ومرة يتحالف معهم إذا خاف من قوة إسلامية ما. ووفق تخطيط متأنٍّ يهدف إلى: السيطرة على دمشق دون إراقة دماء، وكسب أهل دمشق إلى صفه، ومنع نظام الحكم من الاستعانة بالفرنج عليه إذا قصدهم، استطاع نور الدين أن يفتح دمشق في صفر 549هـ – 25 نيسان/ أبريل 1154م، وقد جاء هذا الفتح بعد أن توفي معين الدين أُنر سنة 1149م، وبعد أن ضعف الحكم بدمشق، ووقع تحت النفوذ الصليبي الذي فرض الإتاوات على دمشق، وكانت رسلهم تدخل البلد كل عام ويأخذونها منهم.[70]

وتوالت سيطرة نور الدين على مدن وقلاع الشام حتى خضعت معظمها له، غير أنه كان يدرك أن السبيل الفعال لتحرير فلسطين واقتلاع الحكم الصليبي منها لا يكون إلا بالسيطرة على مصر، ودخولها ضمن الجبهة الإسلامية المتحدة، ووضع الصليبيين بين فكي الكماشة.

وقد جاءت الفرصة لنور الدين بالسيطرة على مصر عندما استعان أحد المتنافسين على الوزارة واسمه شاور بنور الدين على غريمه ضرغام سنة 559هـ، وعرض على نور الدين ثلث البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون قائده الذي يرسله مقيماً بمصر، ويتصرف بأمر نور الدين. أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه الذي هزم ضرغام وقتله، ولكن شاور غدر بشيركوه واستعان بالفرنج لإخراجه، فجاؤوا وحاصروا شيركوه ورفاقه في بلبيس ثلاثة أشهر حتى جاءتهم أخبار انتصارات نور الدين وملكه (حارم) فعرضوا الصلح والعودة إلى الشام، فوافق ولم يكن يعلم ما فعله نور الدين بالشام.[71]

واشتد التنافس بين نور الدين وبين الصليبيين على مصر، وخصوصاً أن الدولة الفاطمية كانت في ضعف شديد وفي طور الاحتضار. فأرسل نور الدين أسد الدين شيركوه إلى مصر في ألفي فارس في حملة ثانية في ربيع الثاني 562هـ، واستطاع هزيمة الفرنج وجيش مصر بالصعيد، وملَكَ الإسكندرية بمساعدة أهلها وذهب للصعيد فملكه، غير أنه اضطر للعودة إلى دمشق في ذي القعدة بعد أن اشترط على الفرنج ألا يأخذوا ولو قرية واحدة من مصر فوافقوا.[72]

وتمت السيطرة لنور الدين على مصر في الحملة الثالثة التي قادها أيضاً أسد الدين شيركوه في ربيع الأول 564هـ، ففي ذلك الوقت كان الفرنج بسبب تحالف شاور معهم قد تمكنوا من البلاد المصرية، وأصبح لهم نفوذ كبير، وتسلموا أبواب القاهرة وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم و"حكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم". وطمع الفرنج بملك مصر فجاءت حملة بقيادة ملك بيت المقدس واحتلت بلبيس عنوة، فقتلت وأسرت ثم حاصرت القاهرة، وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيثه وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال هذه شعور (جمع شَعْر) نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج. فأرسل نور الدين حملته الثالثة، فلما قارب أسد الدين مصر خرج الفرنج خائبين، وانتهت الحملة بسيطرة أسد الدين على مصر، وقتل الوزير شاور، وتولى أسد الدين الوزارة مكانه في 17 ربيع الثاني 564هـ – كانون الثاني/ يناير 1169م، غير أن أسد الدين توفي بعد شهرين في 22 من جمادى الثانية فولى صلاح الدين يوسف الأيوبي الوزارة مكانه.[73]

وبأمر من نور الدين أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية، وتمت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء في ثاني جمعة من محرم 567هـ – 10 أيلول/ سبتمبر 1171م "فلم

يتنطح في ذلك عنزان"، ومات الخليفة الفاطمي العاضد في 10 محرم من دون أن يعلم بذلك.[74] وهكذا ضُمت مصر رسمياً للخلافة العباسية، وأصبحت تحت القيادة الفعلية لنور الدين.

وفي 566هـ/1170م ضمّ نور الدين الموصل، والمناطق التي تتبعها إلى حكمه،[75] كما ضمّ اليمن سنة 569هـ/1173م عندما أذن لصلاح الدين بفتحها فأرسل إليها أخاه توران شاه بن أيوب؛ حيث تمت له السيطرة عليها.[76] وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية المتحدة من العراق إلى الشام فمصر واليمن، مما أنذر بقرب القضاء على الصليبيين.

تحطيم القوى الصليبية:

خلال فترة حكمه التي امتدت من 1146–1174م لم تتوقف المعارك وحروب الجهاد بين نور الدين والصليبيين، وفي الوقت الذي كان يدعم فيه حكمه، ويوحد جهود المسلمين كان يقوم بالاستيلاء التدريجي على الممالك الصليبية، ويضعف قوتها يوماً بعد يوم وهو يعد للمعركة الفاصلة معهم، وخلال تلك الفترة استطاع نور الدين في جهاده الإسلامي استرجاع وتحرير نحو خمسين مدينة وقلعة، مما كان تحت سيطرة الصليبيين.

فمنذ بداية حكمه أحكم السيطرة على منطقة الرُّها، وصفَّى الأملاك التي كانت تتبعها (تل باشر، وسميساط، وقلعة الروم، ودلوك، والراوندان، وقورس، ومرعش، وإعزاز، وعينتاب، والبيرة...) وذلك خلال الفترة الممتدة بين 1146–1151م. كما استعاد وحرر جميع الأراضي التي كانت تتبع إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي (1147–1149م)؛ وقَتل في إحدى معاركها (أنب 1149/7/29م) أمير أنطاكية ريموند دو بواتييه، وزعيمَ الباطنية المتعامل معهم ضدّ المسلمين علي بن وفا. وقام بدور أساسي في تحطيم الحملة الصليبية الثانية (1147–1148م) التي شارك فيها ملك فرنسا لويس السابع Louis VII، وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث Conrad III، والتي تعدّ نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية؛ حيث كُسرت هيبة الصليبيين، ورفعت الروح المعنوية لدى المسلمين.[77]

واستمرت الحروب سجالاً، ووقعت العديد من المعارك المهمة، أدت إلى إضعاف النفوذ الصليبي وضمّ مناطق جديدة لنور الدين على حساب الصليبيين... حتى أحكم نور الدين إحاطة مملكة بيت المقدس الصليبية. ولا يتسع المجال لذكر المعارك والوقائع كلها، ولكنا

نكتفي بالإشارة إلى إحداها، وهي التي وقعت عند تلّ حارم في رمضان 559هـ – 11 آب/ أغسطس 1164م.

ففي 558هـ، كان نور الدين قد انهزم من الفرنج تحت حصن الأكراد، وهي المعركة التي عرفت بـ"البقيعة"؛ حيث كبسهم الفرنج فجأة، وأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا نور الدين في اللحظة الحاسمة وهرب، ونزل قرب حمص، وهناك أقسم "والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام"، ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والثياب والخيل والسلاح، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه، وعاد العسكر "كأن لم تصبهم هزيمة".[78]

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خروجه للجهاد، وإنفاقه عليه قال له بعضهم: "إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح"، فغضب من ذلك، وقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم؟!".[79]

وعرض الفرنج الصلح، لكن نور الدين رفض. واجتمع جيشا المسلمين والفرنج بعد أن حشدا حشوداً ضخمة عند حارم. وقبيل القتال انفرد نور الدين بنفسه تحت تلّ حارم وسجد لله، ومرَّغ وجهه، وتضرع "يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك"... "إيش فضول محمود في الوسط"!!... وقال: "اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً. من محمود الكلب حتى يُنصر"!!، يحقر نفسه ويتذلل إلى الله سبحانه.[80] ولهذا الدعاء قصة مع بشرى النصر نذكرها كما رواها أبو شامة في كتاب الروضتين، إذ قال:

> بلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال يا رسول الله ربما لا يصدقني فاذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر!! قال: فانتهيت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس ولا يزال يتركّع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا

أنني لم أذكر لفظة الكلب. فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلها؛ وألحَّ عليَّ في ذلك، فقلتها؛ فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا. وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وفي 1164/8/11م التحم الفريقان، وانكشفت المعركة الكبرى عن كارثة هائلة حلت بالصليبيين؛ إذ قتل منهم عشرة آلاف وأسر عشرة آلاف أو أكثر، وكان من بين الأسرى أمير أنطاكية وأمير طرابلس وحاكم قيليقية البيزنطي، وأسر جميع الأمراء عدا أمير الأرمن، وفي اليوم التالي استولى نور الدين على حارم...، وكان ذلك فتحاً كبيراً.[81]

وفي 569هـ/1173م كان نور الدين قد أعد عدته للهجوم النهائي على بيت المقدس، وتحرير أرض الإسراء من النفوذ الصليبي، حتى إنه قد جهز منبراً جديداً رائعاً للمسجد الأقصى يوضع فيه بعد الانتصار على الصليبيين بإذن الله، وراسل في ذلك عامله على مصر صلاح الدين الذي تلكأ بسبب الظروف الخاصة التي تواجهه في مصر، والتي يرى أنها تحتاج إلى صبر وأناة وإعداد. ولم يرضَ نور الدين بذلك التأخر، فقرر الذهاب إلى مصر، وترتيب أمورها بنفسه إلا أن المنيّة عاجلته، فتوفي رحمه الله في 11 شوال 570هـ – 1174/5/15م.[82]

وهكذا انطوت صفحة رائعة من صفحات الجهاد أيام الحروب الصليبية إلا أن الصفحة التي تلتها كانت مشرقة ومؤثرة في مسار التاريخ، تلك هي صفحة صلاح الدين الأيوبي.

سابعاً: جهاد صلاح الدين الأيوبي 569–589هـ:

رفع الراية، بعد نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، وقد سار على خطى سلفه نور الدين، فقد ترسم المنهج الإسلامي والحل الإسلامي في تحطيم القوى الصليبية وتحرير الأرض المقدسة.

جاء صلاح الدين ووجد نور الدين قد هيأ الظروف المناسبة لاسترداد الأرض المقدسة، فاستغلها أحسن استغلال وقطف ثمارها اليانعة بعد سنوات من حكمه.

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 532هـ/1137م بقلعة تكريت، وكان أبوه والياً عليها، دخل هو وأبوه وعمه في خدمة نور الدين محمود، وشارك عمه أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاث على مصر، وتولى الوزارة في مصر وعمره 32 عاماً.

يُوصف صلاح الدين بأنه كان حسن العقيدة، كثير الذكر، شديد المواظبة على صلاة الجماعة، ويواظب على السنة والنوافل، ويقوم الليل. وكان يحب سماع القرآن وينتقي إمامه، وكان رقيق القلب خاشع الدمعة إذا سمع القرآن دمعت عيناه، شديد الرغبة في سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الله، وكان حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، وعظيم الإنابة إليه.

وكان صلاح الدين عادلاً رؤوفاً، رحيماً ناصراً للضعيف على القوي، وكان كريماً، وحسن العشرة، لطيف الأخلاق، طاهر المجلس؛ لا يذكر أحد بين يديه إلا بخير، طاهر السمع، طاهر اللسان، طاهر القلم، فما كتب إيذاء لمسلم قط.

وكان شجاعاً شديد البأس والمواظبة على الجهاد عالي الهمة، قال يوماً وهو قرب عكا "في نفسي أنه متى ما يسَّر الله تعالى فتح بقية السواحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت".

ومات صلاح الدين ولم يكن لديه من الأموال ما تجب فيه الزكاة، واستنفذت صدقة النفل جميع ما ملكه، ولم يخلف في خزائنه من الفضة والذهب إلا 47 درهماً ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا مزرعة... عزم على الحج في السنة التي توفي فيها، ولكنه تعوق بسبب ضيق ذات اليد وضيق الوقت.[83]

صراع على خلافة نور الدين:

لما مات نور الدين بويع لابنه من بعده بالملك، وهو الصالح إسماعيل، وكان صغيراً في الـ 11 من عمره، وجُعل أتابكه شمس الدين بن المقدم... "فاختلف الأمراء وحارت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور.... وانتشرت الفواحش... وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين"،[84] وعندما هاجم الفرنج المسلمين واجههم ابن المقدم عند بانياس لكنه ضعف عن مقاومتهم، فبذل لهم أموالاً جزيلة وهادنهم، كما خرجت أرض الجزيرة من ملك الصالح إسماعيل، واستبعد الأمراء المتحكمون في الصالح بني الداية وسجنوهم، وهم من أقرب الأمراء المقربين إلى نور الدين (شمس الدين بن الداية ومجد الدين بن الداية رضيع نور الدين...)، وكان كل ما سبق سبباً في غضب صلاح الدين على الأمراء المتحكمين في الملك الصالح، بل وعدَّ نفسه أحق الناس بالإشراف على تربية وخدمة الملك الصالح.[85]

وهكذا فتحت أنظمة الحكم الوراثي، وانعدام المؤسسات "الدستورية" الشورية، والتنازع على السلطة وحبّ الرئاسة...، المجال أمام مرحلة جديدة من الصراع والخلاف بين المسلمين أخَّرت المعركة الفاصلة التي كان يُعد لها نور الدين، واضطرت صلاح الدين أن يخوض معركة الوحدة من جديد، ولم يتم له ذلك إلا بعد أكثر من 12 عاماً.

ففي ربيع الأول 570هـ - تشرين الثاني/نوفمبر 1174م ضمّ صلاح الدين دمشق سلماً، ثم ضمّ حمص دون قلعتها في 1174/12/10م، ثم ملك حماة وقلعتها في 1174/12/28م، ثم عاد فسيطر على قلعة حمص، ثم استولى على بعلبك في رمضان من السنة نفسها، فصار أكثر الشام بيده، وكان صلاح الدين طوال ذلك الوقت محافظاً على ولائه الظاهر للصالح بن نور الدين، والدعوة له في المساجد وصكّ العملة باسمه، ولكن بعد أن وقعت معركة بين صلاح الدين من جهة وبين جند حلب والموصل الزنكيين من جهة أخرى وانتصر فيها صلاح الدين، قطع حينئذ صلاح الدين الخطبة وصكّ العملة للملك الصالح، وتسمَّى هو بملك مصر والشام، وأقره الخليفة على ذلك، ثم استولى صلاح الدين في شوال من السنة نفسها (570هـ) على قلعة بعرين.[86]

وفي سنة 570هـ أيضاً استولى صلاح الدين على بزاعة ومنبج وإعزاز،[87] وفي 577هـ توفي الملك الصالح إسماعيل في حلب، ولم يكمل العشرين عاماً،[88] وفي 578هـ عبر صلاح الدين الفرات وملك منطقة الجزيرة (الرُّها - حران - الرقة...) وملك سنجار،[89] وفي 579هـ ملك صلاح الدين آمد، وتلّ خالد وعينتاب،[90] وملك حلب في صفر من السنة نفسها؛ حيث نزل عنها عماد الدين بن مودود بن زنكي مقابل سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وبملك صلاح الدين حلب، بعد حصارها مرات عديدة، "استقر ملك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلاً فثبت قدمه بتسلمها..."،[91] كما فتح صلاح الدين قلعة حارم.[92] وفي 581هـ ملك صلاح الدين ميافارقين، واستلم شهرزور وولاية القرابلي وجميع ما وراء نهر الزاب.[93] وأخيراً دخلت الموصل وما يتبعها في حكم صلاح الدين في 582هـ/1186م.[94]

استمرار الجهاد:

لم تخلُ هذه المرحلة 569-582هـ/1174-1186م من معارك عنيفة مع الصليبيين أسهمت في المحافظة على هيبة المسلمين،[95] والتعرف على إمكانات العدو ونقاط ضعفه، واستدراك جوانب النقص عند المسلمين، وعدم إعطاء العدو فرصة للتقوِّي والتمدد والانتشار، إلا أن صلاح الدين لم يدخل في معركة فاصلة مع الصليبيين.

ونمرّ هنا على أهم الوقائع مع الصليبيين في تلك الفترة، ففي 570هـ هزم المسلمون الأسطول الصليبي القادم من صقلية، الذي هاجم الإسكندرية بـ 50 ألف رجل، هزيمة كبيرة.[96] وفي 573هـ هاجم صلاح الدين الفرنج من جهة مصر حتى وصل عسقلان وفتحها وأسر وقتل وأحرق، ثم انساح جند صلاح الدين لما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر، وسار صلاح الدين للرملة، وهناك فاجأهم الفرنج وهزموهم ورجع صلاح الدين في نفر يسير ومشقّة شديدة،[97] وكان درساً قاسياً له. وفي السنة نفسها، حاصر الفرنج حماة وحارم وفشلوا، وهزم الفرنج في السنة التالية عند حماة.[98] وفي 575هـ أغار صلاح الدين على مناطق سيطرة الفرنج، وخرب الحصن الذي أقاموه بمخاضة الأحزان قرب بانياس، ووقعت معركة شديدة انتصر فيها المسلمون، ونجا ملك الفرنج، وأسر عدد من قادتهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس، وهو أعظم الفرنج محلاً عند الملك، وأسر أخوه صاحب جبيل، كما أسر صاحب طبرية، ومقدم الداوية، وصاحب جنين.[99]

وفي 578هـ قام صلاح الدين بغارات على أطراف مناطق سيطرة الفرنج مُركِّزاً على الشوبك والكرك، وفتح المسلمون الشقيف من أعمال طبرية على يد فرخشاه (والي دمشق)، واقتحم فرخشاه بيسان وغنم ما فيها، وسارت العرب فأغارت على جنين واللجون حتى قاربوا عكا.[100] وفي السنة نفسها هزم صلاح الدين الأسطول الذي سيّره أرناط (رينالد دو شاتيون) حاكم الكرك في البحر الأحمر للتخريب في سواحل المسلمين ومهاجمة مكة والمدينة...، وأرسل بعض الأسرى الفرنج إلى مِنى "ليُنحروا" عقوبة لمن رامَ إخافة حرم الله.[101]

وفي 579هـ عبر صلاح الدين نهر الأردن في 19 جمادى الثانية، فهاجم بيسان، "وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً، ووصلوا فيها إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه". كما غزا صلاح الدين الكرك، وعاد فحاصرها في السنة التالية دون جدوى، ثم هاجم نابلس 580هـ، وسار إلى سبسطية فاستنقذ جماعة من أسرى المسلمين، ووصل إلى جنين فاقتحمها، وعاد إلى دمشق، وهو يبث السرايا عن يمينه وشماله يغنمون ويخربون أملاك الفرنج.[102]

وفي 582هـ مات ملك الفرنج في بيت المقدس، وتولى مكانه طفل صغير، وحدث خلاف وطمع في السلطة بين الفرنج جعل صاحب طرابلس يراسل صلاح الدين، ويتحالف معه ضدّ أقرانه من الفرنج. وفي السنة نفسها غدر صاحب الكرك أرناط بقافلة عظيمة

للمسلمين فأخذها عن آخرها وغنمها، ولم يستجب لطلب صلاح الدين ووعيده بإطلاقها، فأقسم صلاح الدين ليقتلنه إن ظفر به.[103]

وهكذا دخلت سنة 583هـ وقد نضجت ظروف الإعداد للمعركة الفاصلة من توحيد لقوى المسلمين، ومن كسر لهيبة الصليبيين، وخبرة أوسع في فنّ التعامل معهم، وبهذا دخل صلاح الدين معركة حطين. وقبل الإشارة إلى معركة حطين نقف قليلاً عند استراتيجية العمل لدى صلاح الدين.

استراتيجية العمل والإعداد لدى صلاح الدين:

1. الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة:

تمثل ذلك في إعادة الوحدة وتقويتها، وبناء الإنسان المسلم المقاتل، وبناء الاقتصاد الحربي.

2. بناء المجتمع للحرب:

وفي هذا حرص على إشاعة العدل وإزالة الأحقاد بين إمارات المسلمين، وتوجيه العداء ضدّ الصليبيين. كما أقام الصناعات الحربية بما في ذلك دورٌ لصناعة السفن، وقام بتنظيم الحصون وحمايتها، وتجهيزات أدوات الحصار... وغيرها.

3. وضوح الهدف:

الذي تمثل بقيادة الأمة الإسلامية لطرد الصليبيين، وهذا الوضوح ساعد على كفاءة الأداء والإعداد، فكان "يبذل أقل جهد لأفضل نتيجة"، كما ساعد على تحديد أهداف العمليات العسكرية، فكانت الأولوية للتحرير، وحُدِّدت السياسات على هذا الأساس.

4. الحرص على المسلمين:

فهو "يحرص على المسلمين لتحقيق هدف الحرب، ويحرص على الحرب للمحافظة على المسلمين"، وقد اعتاد على ردّ العدوان بأقوى منه حفاظاً على الروح المعنوية، وتبني الاستعداد القتالي المستمر، وحدد لكل عملية أساليبها المناسبة.[104]

بالإضافة إلى هذه الاستراتيجيات الأساسية فقد تبنى صلاح الدين في معاركه استراتيجية الهجوم غير المباشر مثل القيام بمسيرات طويلة وهجمات مباغتة، والهجوم على جهة لتخفيف الضغط عن جهة أخرى. واستراتيجية الحرب التشتيتية كتشتيت الجيش المعادي داخل المعركة (فصل الفرسان عن المشاة مثلاً) واستغلال النزاعات

السياسية، وضرب فريق بآخر وتحييد الأعداء. واستراتيجية الهجمات الوقائية التي تضعف قدرة العدو القتالية قبل هجومه أو استكمال استعداده.[105]

وحقَّق صلاح الدين في حروبه المبادئ الأساسية للحرب بكفاءة كبيرة مثل:

- مبدأ المباغتة.
- مبدأ أمن العمل: بما تمثل له من شبكة أمنية جاسوسية قوية ودقيقة.
- مبدأ القدرة الحركية: بما تعنيه من سرعة تحرك الجيش وتجمعه وانتقاله.
- مبدأ المبادءة والقوة الهجومية: الذي تمثل بتحويل الروح الدفاعية إلى هجومية.
- مبدأ الاقتصاد القوي: فكل معركة ما يناسبها.
- مبدأ المحافظة على الهدف: فكان يهتم بتدمير القوى البشرية للصليبيين بالدرجة الأولى، وحرمانهم من مواردهم الاقتصادية وتحويلهم إلى عبء على الغرب، وتحرير الأرض من الداخل تجاه الساحل.

وبالنسبة للجيش الإسلامي فإن صلاح الدين رسَّخ الاستعداد الدائم للقتال، ورفع الروح الإيمانية والجهادية في النفوس، كما نمى الكفاءة البدنية الجسدية، وأكد على الانضباط وكمال الطاعة (في غير معصية).[106]

معركة حطين:

جهَّز صلاح الدين جيشه للمعركة الفاصلة وكانوا 12 ألف مقاتل نظامي سوى المتطوعة، وجهَّز الفرنج أنفسهم وتصالحوا، وتجمعت ملوكهم وجيوشهم، وكوّنوا جيشاً من قرابة 63 ألف مقاتل.

اجتاز صلاح الدين نهر الأردن، وفتح طبرية بدون قلعتها، وبدأت المناوشات يوم الجمعة إلا أن المعركة احتدمت يوم السبت في 24 ربيع الثاني 583هـ – 4 تموز/ يوليو 1187م، وعانى الفرنج من الحر والعطش، وحصرهم المسلمون وأحرقوا الحشائش الجافة من حولهم ومن تحتهم "فاجتمع عليهم حرّ الشمس، وحرّ العطش، وحرّ النار، وحرّ السلاح، وحرّ رشق النبال"، ثم أمر السلطان بالتكبير وبالحملة الصادقة، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج فقتلوا منهم 30 ألفاً، وأسروا 30 ألفاً، وكان فيمن أسر جميع ملوكهم سوى أمير طرابلس، "ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله، ودَفعِ الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين أسيراً منَ الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين".[107]

معركة حطين



ووقع في الأسر الملك غي دو لوزينيان ملك بيت المقدس وأخوه، وأرناط حاكم الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده براً بيمينه لغدره وإيذائه المسلمين، وأسروا صاحب جبيل وابن همفرى Humphrey، ومقدم الداوية، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية، وقد أعدم المسلمون الداوية والاسبتارية لشدة نكايتهم في المسلمين.[108]

هذه هي وقعة حطين، وهي إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وتاريخ فلسطين، بات المسلمون ليلتها يكثرون من التكبير والتهليل، وانتهت بسجود صلاح الدين شكراً لله مع سقوط خيمة ملك الفرنج وأسره.[109]

وبعد هذه المعركة فتحت الطريق أمام المسلمين لتحرير معظم أرجاء فلسطين، فخلال أيام قليلة تمّ فتح طبرية ثم عكا (10 تموز/ يوليو) ثم الناصرة وصفورية، ثم قيسارية وحيفا وأرسوف، ثم نابلس، ثم الفولة، ودبورية، وجنين، وزرعين، والطور، واللجون، وبيسان، وجميع ما يتبع طبرية وعكا، وتمّ فتح يافا. ثم اتجه المسلمون شمالاً ففتحوا حصن تبنين، ثم صيدا (29 تموز/ يوليو)، ثم بيروت (6 آب/ أغسطس)، وجبيل. ثم اتجهوا جنوباً لاستكمال فتوح فلسطين، ففتحوا الرملة، ويبنه، وبيت لحم، والخليل، ثم عسقلان (4 أيلول/ سبتمبر)، وغزة والداروم، وأقام صلاح الدين بعسقلان حتى تسلم حصون الداوية في غزة والنطرون، وبيت جبريل... وغيرها.[110] وقد تمَّ ذلك كله لصلاح الدين في شهرين تقريباً، وبعضها كان يحتاج إلى سنين من الحصار لاقتحامه، وكان جملة ما فتح "خمسين بلداً كباراً كل بلد له مقاتلة وقلعة ومنعة".[111]

تحرير بيت المقدس:

تطلعت الأنظار إلى القدس فأعد صلاح الدين عدته، وبدأ حصارها في منتصف رجب 583هـ – 20 أيلول/ سبتمبر 1187م، وكان داخل القدس نحو 60 ألف مقاتل صليبي

كلهم يرى الموت أهون عليه من تسليمها. وخلال أيام حصارها جرت صدامات عديدة، وحاول المسلمون اقتحامها، واقتتلوا "أشد قتال رآه الناس، وكل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً حتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلا باعث سلطاني".[112] وطلب الفرنج الأمان مقابل تسليم المدينة فرفض صلاح الدين إلا أن يفعل بهم كما فعلوا بالمسلمين عندما احتلوها قبل نحو تسعين عاماً، ثم عادوا وطلبوا الأمان، وهددوا إن لم يعطوه أن يقتلوا أسرى المسلمين وهم ألوف، ثم يقومون بقتل نسائهم وذراريهم من النصارى، ويحرقون ويعطبون أموالهم، ويقتلون حيواناتهم، ويخربون الصخرة والأقصى، ثم يخرجون ليقاتلوا حتى النهاية قتال المستميت، وشاور صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على الإشارة بالأمان، فأمّنهم صلاح الدين: وتمّ للمسلمين فتح القدس في 27 رجب 583هـ – 2 تشرين الأول/ أكتوبر 1187م، وظهر من تسامح ورحمة صلاح الدين الكثير مما اعترف به الصليبيون أنفسهم.[113]

وهكذا عادت بيت المقدس لتحكم براية الإسلام بعد 91 عاماً هجرياً (88 عاماً ميلادياً)، وأعيد للمسجد الأقصى بهاؤه ونضارته، وعاد صوت الأذان يصدح في جنباته، وتمّ إحضار المنبر الذي أعده نور الدين للمسجد الأقصى قبل فتحها بعشرين عاماً.[114]

ومن المهم الإشارة إلى أن صلاح الدين تابع فتح المدن والقلاع الصليبية الأخرى، ففتح سنة 584هـ جبلة، واللاذقية، وقلعة صهيون، وفتح حصن بكاس، والشغر، وسرمينية، وبرزية، ودرب ساك، وبغراس،[115] كما فتح الكرك وما يجاورها كالشوبك بعد طول حصار بالأمان "وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الإسلام هناك جرانه، وأمنت قلوب كل من كان في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره، فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين". وفتح صلاح الدين صفد بالأمان بعد حصار، وخرج الفرنج إلى صور "وكفى الله المؤمنين شرهم، فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية"،[116] كما فتح كوكب. وفي ربيع الأول 585هـ فتح صلاح الدين شقيف أرنوم وهي من أمنع الحصون.[117]

وهكذا عادت أرض فلسطين لتحكم تحت راية الإسلام من جديد. ولكن ربيع الانتصارات لم يدم طويلاً فانفتحت صفحة جديدة من الصراع والتحدي.

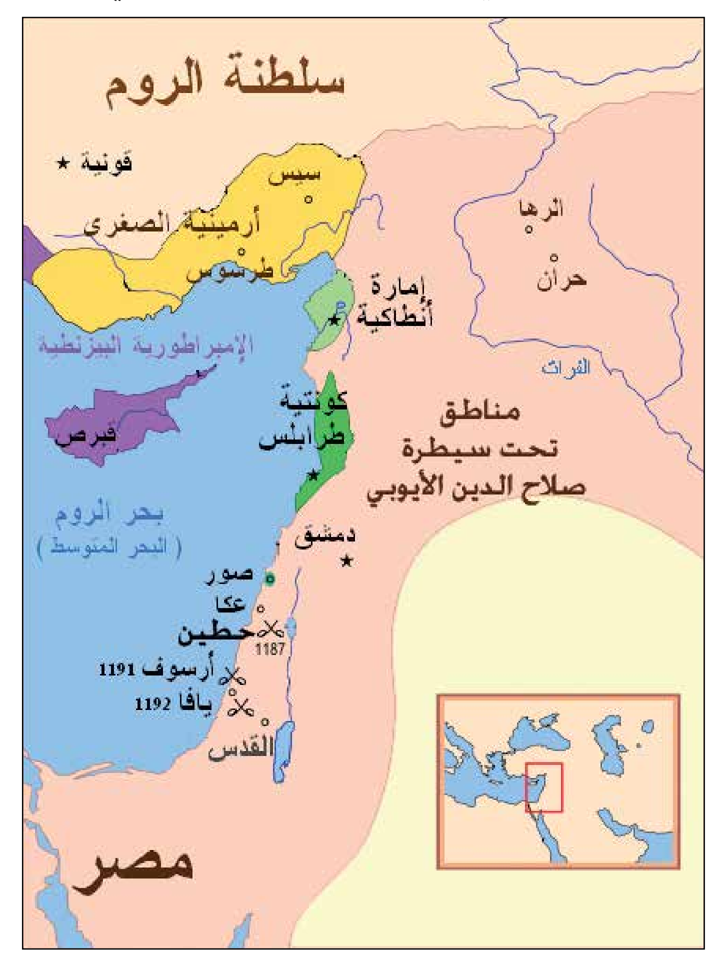
متابعة الجهاد ضدّ الصليبيين:

تجمَّع الصليبيون الذين سقطت مدنهم وقلاعهم في صور، وكان صلاح الدين قد تسامح وتساهل معهم في الذهاب إليها، وأخذ الصليبيون يرسلون الاستغاثات وتأتيهم الإمدادات حتى قويت شوكتهم، ثم إن صلاح الدين أطلق سراح الملك غي دو لوزينيان Guy de Lusignan سنة 584هـ على أن يعود لفرنسا، فذهب إلى صور وتولى قيادة الصليبيين من هناك بمساعدة أسطول من "بيزا Pisa" الإيطالية.... "وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عضّ بنانه ندماً وأسفاً؛ حيث لم ينفعه ذلك" على حدِّ تعبير ابن الأثير.[118]

هاجم الصليبيون من صور مدينة عكا 585هـ/1189م، وانتظروا هناك حتى جاءتهم إمدادات الحملة الصليبية الثالثة التي دعا إليها البابا جريجوري الثامن لاستعادة بيت المقدس يقودها ثلاثة من ملوك أوروبا؛ إمبراطور ألمانيا فريدريك الأول بربروسا Frederick I Barbarossa الذي مات وهلك أكثر جيشه في الطريق،[119] وريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart ملك إنجلترا الذي جاء بحراً "فعظم به شرُّ الفرنج، واشتدت نكايتهم في المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة، ومكراً، وجلداً، وصبراً، وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها"،[120] وملك فرنسا فيليب أغسطس Philip Augustus. وحاصرت جميع الجيوش عكا (ربيع الثاني – جمادى الأولى 587هـ أي حزيران/ يونيو 1191م) وسقطت بأيدي الفرنج في 17 جمادى الأولى 587هـ – 12 تموز/ يوليو 1191م. وبهذا عاد الصليبيون ليكون لهم موطئ قدم جديد في فلسطين. وتداول المسلمون والفرنج الصراع، ونال كل طرف من الآخر، واستطاع الفرنج التمدد على الساحل إلى الجنوب فاحتلوا حيفا ويافا.[121]

ومن المهم الإشارة إلى أن الصراع كان دموياً مريراً، فقد أشار ابن كثير إلى أن صلاح الدين أقام على عكا صابراً مصابراً مرابطاً 37 شهراً، وأن جملة من قتل من الفرنج كان خمسين ألفاً.[122]

بلاد الشام في نهاية عهد صلاح الدين الأيوبي



وانتهت الحملة الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين ريتشارد قلب الأسد، وصلاح الدين الأيوبي في 21 شعبان 588هـ – 1 أيلول/ سبتمبر 1192م، وهو عبارة عن هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، سيطر الفرنج بمقتضاها على الساحل من يافا إلى عكا، وسمح لهم بزيارة القدس، وحرية التجارة، وتنقل القوافل بين الطرفين.[123] على أنه من المهم الإشارة هنا إلى بعض النقاط المتعلقة بهذا الصلح:

1. لم يكن صلاح الدين يميل إلى عقد الصلح، وعندما أحضر أمراءه المستشارين كان رأيه عدم قبول الهدنة، وكتب العماد الأصفهاني بأسلوبه رأي صلاح الدين "... نحن بحمد الله في قوة، وفي ترقب نصرة مرجوة...، وقد ألفنا الجهاد، وألفنا به المراد، والفطام عن المألوف صعب...، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو....، رأيي أن

أخلّف رأي الهدنة ورائي، وأقدم تقديم الجهاد اعتزازي وإليه اعتزائي...، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه".[124]

ولكن مستشاريه أجمعوا على قبول الصلح بحجة خراب البلاد، وتعب الأجناد والرعية، وقلة الأقوات، ولأن الفرنج إذا لم تحدث الهدنة أصروا على البقاء والقتال، أما إن حدثت فسيعود للبلاد سكانها وعمارها، وتستريح الأجناد وتقوى وتستعد للحرب، وكان رأيهم أن الفرنجة لا يفون بعهودهم، ولذلك نصحوه بعقد الهدنة حتى يتفرق الفرنج وينحلوا، وما زالوا به حتى رضي.[125]

2. إن هذا الصلح هدنة مؤقتة قصيرة الأجل، وليس معاهدة سلام دائمة، وقد عقد مثلها قبلها وبعدها العديد، وهي جائزة في الشرع حسب تقدير المصلحة التي يقررها إمام المسلمين، وقد استمرت من بعدها الصراعات والمعارك.
3. لم يتم في هذه الهدنة أي اعتراف للفرنج بأي حقٍّ لهم على أرض فلسطين، وإنما تقررت الهدنة بعدم القتال على ما انتزعوه من أرض إلى أن تنتهي الهدنة.

وشتان ما بين هذه الهدنة التي عقد المسلمون منها العشرات، وبين معاهدة "السلام" مع الكيان الإسرائيلي التي تجري في عصرنا.

وعلى كل حال، فإن الأمر لم يطل بصلاح الدين فتوفي رحمه الله في 27 صفر 589هـ – 4 آذار/ مارس 1193م،[126] أي بعد ستة أشهر فقط من توقيع صلح الرملة.

ثامناً: الأيوبيون والصراع مع الصليبيين:

دبّ النزاع والشقاق بين خلفاء صلاح الدين، ودخلوا بعد سنوات من وفاته في صراعات دموية أضعفتهم، وقوت شوكة المملكة الصليبية في عكا التي استمرت وتمددت في بعض الأحيان على حسابهم.

لقد كان حبّ الدنيا وحبّ السلطان، ولو على حساب المبادئ والمقدسات أحد المظاهر التي حكمت عدداً من سلاطين الدولة الأيوبية، فتحالف بعضهم مع الصليبيين ضدّ بعض، وعرضوا عليهم بيت المقدس أكثر من مرة مقابل أن ينتصر سلطان الشام على سلطان مصر أو العكس!! وقد سعد الصليبيون بهذا الدور الذي لعبوه، ولكنهم ظلّوا على طمعهم في الجميع، غير أن ربيع الصليبيين لم يدم طويلاً.

انتهت الحملة الصليبية الرابعة التي أرسلها الغرب 601هـ/1204م في القسطنطينية، ولم تصل إلى الشام أو مصر،[127] أما الحملة الخامسة 615–618هـ/1218–1221م فقد انطلقت من عكا نفسها بقيادة ملكها يوحنا برين (جان دو بريين) إلى دمياط بمصر. وعندما شعر السلطان الأيوبي الكامل محمد بن العادل بن أيوب بخطورة الوضع عرض على الفرنج الصلح مقابل تسليمهم القدس ومعظم فتوح صلاح الدين، فرفضوا وطالبوا بجنوب شرق الأردن أيضاً (الكرك والشوبك...)، وقام الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب صاحب دمشق بتدمير أسوار القدس وتخريبها حتى لا يستفيد منها الفرنج إذا احتلوها في 616هـ/1219م. لكن الأيوبيين حشدوا قواهم في النهاية، واستطاعوا هزيمة الصليبيين الذين عادوا خائبين إلى عكا بعد أن فاتتهم فرصة عظيمة.[128]

ثم إن الخلاف الناشب بين الكامل محمد والمعظم عيسى أدى إلى استنجاد الكامل محمد بفريدريك الثاني Frederick II إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذي أصبح وصياً على عرش مملكة عكا الصليبية، ووعده بتسليمه القدس إن هو ساعده على أخيه المعظم عيسى.

وجاء فريدريك الثاني يقود الحملة الصليبية السادسة، ووصل إلى عكا في 625هـ/1228م، وعلى الرغم من أن المعظم عيسى توفي مما مكن أخويه الكامل محمد والأشرف موسى من اقتسام أملاكه مع إعطاء ابنه الناصر داود الكرك، والبلقاء، والأغوار، والسلط، والشوبك، ولم يعد الكامل بحاجة إلى فريدريك الثاني، إلا أن الكامل فرط في القدس "وفاء" بعهده لفريدريك!! الذي لم يكن لديه من القوة ما يكفي لإجبار المسلمين على التنازل عن القدس، بل إن فريدريك اضطر للبكاء واستعطاف الكامل في مراحل المفاوضات ليتسلم القدس!! ومما قاله للكامل: "... أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج.... فإن رأى السلطان أن ينعم عليَّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر"!! واستجاب له الكامل، وعقد معه صلح يافا في 626هـ – 18 شباط/ فبراير 1229م لمدة عشرة أعوام، وبمقتضاه تقرر أن يأخذ الفرنجة بيت المقدس، وبيت لحم، وتبنين، وهونين، وصيدا مع شريط من الأرض من القدس يخترق اللد، وينتهي عند يافا، بالإضافة إلى الناصرة وغرب الجليل، على أن يكون حرم المسجد الأقصى بما حواه من الصخرة والمسجد القِبْلي بأيدي المسلمين.[129]

وهكذا استولى الفرنج على بيت المقدس الأمر الذي أثار غضب المسلمين "فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وأقيمت المآتم، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، وقال الوعاظ والعلماء: يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة. واشتد الإنكار على الملك الكامل، وحقد أهل دمشق عليه ومن معه، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار"،[130] وقال ابن كثير: "فعظم ذلك على المسلمين جداً، وحصل وهن شديد، وإرجاف عظيم".[131]

واستمر الصراع بين أبناء البيت الأيوبي، غير أن الناصر داود صاحب الأردن انتهز فرصة انتهاء مدة صلح يافا، وتحصين الفرنج بيت المقدس بخلاف الشروط، فاستولى على القدس، وطرد منها الفرنج في 6 جمادى الأولى 637هـ – 7 كانون الأول/ ديسمبر 1239م، ولكن الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، سلَّمها لهم في 638هـ/1240م!! بعد أن طلب مساعدتهم له ضدّ صاحب مصر الصالح نجم الدين أيوب، هذا بالإضافة إلى تسليمهم عسقلان وقلعة الشقيف، ونهر الموجب وأعمالها، وقلعة صفد وأعمالها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهما، وجبل عامل وسائر بلاد الساحل... وقد أثار هذا التصرف سخط المسلمين الذين "أكثروا من التشنيع على الملك الصالح إسماعيل" وهكذا عادت القدس مرة أخرى للفرنج.

وعندما حشد الصالح إسماعيل قواته لينضم إلى حلفائه الفرنج عند غزة لقتال الصالح نجم الدين أيوب رفض جند الشام محالفة الفرنج ضدّ إخوانهم، فانحازوا إلى جند مصر، وهزموا الفرنج هزيمة كبيرة، ولكن الصالح أيوب صالحهم سنة 638هـ/1240م، واستقرت سيطرتهم على بيت المقدس، وما أعطاهم إياه الصالح إسماعيل.[132]

ومرة أخرى دخل أبناء البيت الأيوبي في الصراع، وظلت القدس والأرض المقدسة ورقة يلعبون بها في تهافتهم على السلطة والنفوذ. فقد عرض الصالح إسماعيل مرة أخرى على الفرنج في عكا التحالف مقابل أن يسيطروا على القدس سيطرة تامة بما في ذلك الصخرة والمسجد الأقصى، وانضم إليه في ذلك الناصر داود، وفي الوقت نفسه عرض الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر على الصليبيين أنفسهم العرض نفسه مقابل التحالف معهم!!![133]

واختار الفرنج التحالف مع الصالح إسماعيل الذي شرع في غزو مصر بمساعدة حليفه الناصر داود والمنصور إبراهيم ملك حمص إلى جانب الفرنج. واستعان الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية الذين جاؤوا لمساعدته في قوة من عشرة آلاف

مقاتل في طريقها إليه بالاستيلاء على طبرية ونابلس، اقتحمت بيت المقدس في 17 تموز/ يوليو، واستعادت بيت المقدس بشكل كامل إلى حظيرة الإسلام في 642هـ – 23 آب/ أغسطس 1244م.[134] وبذلك عادت بيت المقدس نهائياً إلى أيدي المسلمين، وظلت تحتفظ بهويتها الإسلامية حتى دخلها الإنجليز في 1917/12/9م.

ثم إن الخوارزمية اتجهوا لمساعدة الصالح نجم الدين أيوب ضدّ الصالح إسماعيل وحلفائه، ووقعت معركة غزة الثانية (قرب غزة في موقع اسمه هربيا) بين هذه القوى في 12 جمادى الأولى 642هـ – 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1244م، وانتهت بهزيمة ساحقة للصالح إسماعيل والفرنج، وقُدِّر فيها عدد قتلى الفرنج بأكثر من 30 ألفاً عدا 800 أسير سيقوا إلى مصر، وكانت هذه المعركة هي أخطر ضربة تلقاها الصليبيون بعد معركة حطين، وتعدّ من المعارك الفاصلة في تاريخ فلسطين؛ إذ ضعف الصليبيون بعدها، ولم يتمكنوا من التوسع، وسعوا إلى الاحتفاظ بما لديهم.[135]

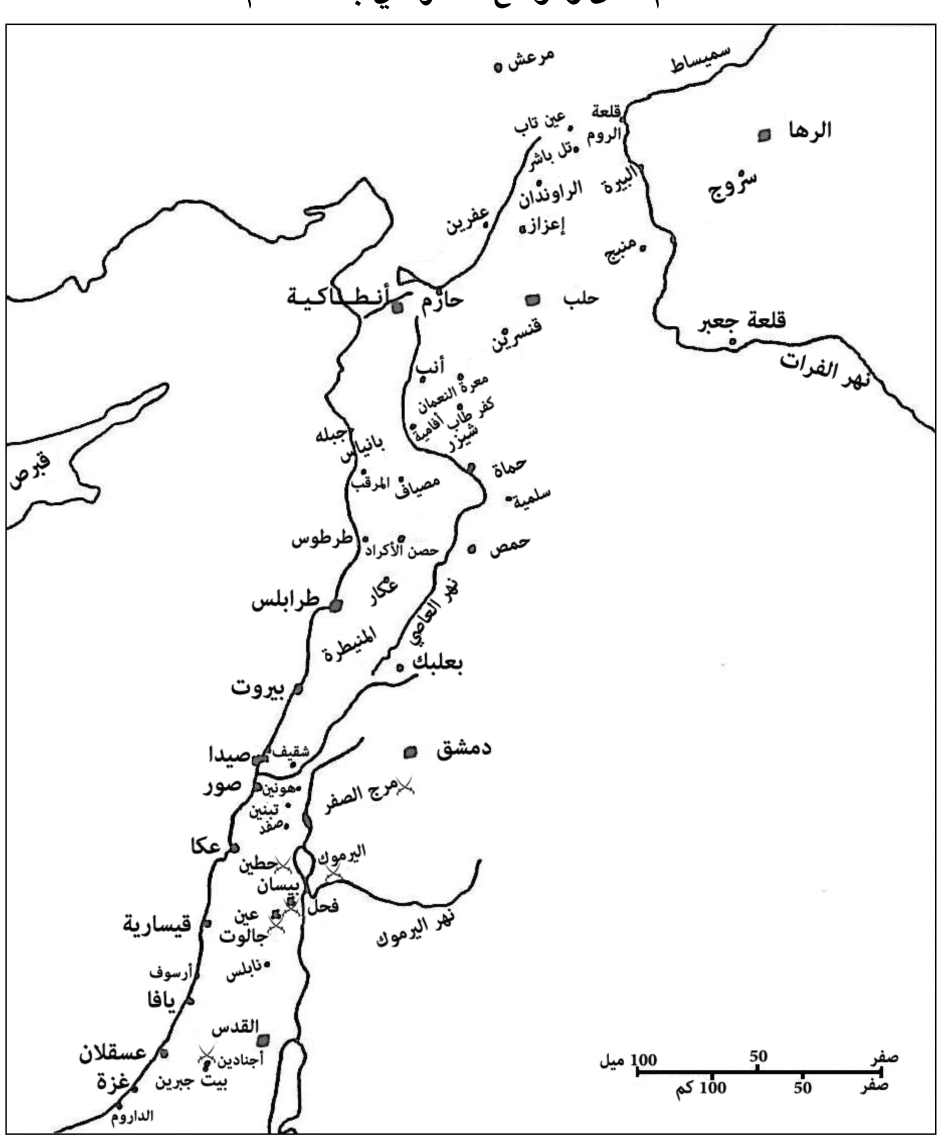
ثم قام الصالح أيوب بالسيطرة على القدس والخليل وبيت جبرين والأغوار ودمشق 642هـ/1245م، وعاقب الفرنج، فسيطر على قلعة طبرية، واقتحم عسقلان، وبذلك انحسرت حدود مملكة الفرنج إلى أبواب يافا سنة 644هـ/1247م.

ثم داهمت مصر الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا 646هـ/1249م، والتي انتهت بالفشل، وأسر لويس التاسع ثم تمّ إطلاق سراحه وذهابه إلى عكا،[136] ثم ما لبث الحكم الأيوبي لمصر أن انتهى بدخولها تحت حكم المماليك 647هـ/1250م، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الجهاد ضدّ المغول والصليبيين.[137]

وهكذا فإن بيت المقدس والأرض المقدسة في السنوات الخمسين التي تلت حكم صلاح الدين الأيوبي كانت عرضة لحالة من عدم الاستقرار خصوصاً في النصف الثاني منها، واستخدمت أكثر من مرة في مساومات عدد من حكام البيت الأيوبي مع الفرنج مقابل عقد تحالفات معينة، وافتقد هؤلاء مصداقيتهم الجهادية الإسلامية، حتى إن قتالهم للفرنج لم يكن يعبر بالضرورة عن التزامهم الإسلامي بقدر حرصهم على الحكم، والنفوذ، والمصالح الشخصية، ولذلك كان القتال مع الفرنج يعبر إلى حدٍّ كبير عن موازين القوى المادية بين هذه الأطراف، وهو ما جعل القدس وأجزاء من فلسطين تسقط أكثر من مرة بأيدي الفرنج دون مبررات مشروعة إسلامياً. على أن ما سبق لا

ينفي وجود الكثير من المتطوعة والمجاهدين الصادقين الذين كانوا وقود المعارك ضدّ الفرنج، والسبيل إلى تحرير الأقصى والأرض المباركة. ثم إن التعبئة الإيمانية الجهادية، والتصدي للحكام المتعاونين مع الفرنج التي قام بها علماء كبار سجنوا وأوذوا في سبيلها، أمثال العز بن عبد السلام وسبط بن الجوزي وغيرهما، كان لها دورها الكبير في حشد الجماهير وراء الصف الإسلامي، والإصرار على احتفاظ المسلمين ببيت المقدس والأرض المقدسة.

أهم المدن ومواقع المعارك في بلاد الشام



تاسعاً: المماليك ومواجهة التتار:

في القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي ظهر الخطر المغولي (التتري) على بلاد المسلمين. وكان المغول قد توحدت قبائلهم تحت قيادة جنكيز خان Genghis Khan، وبدأوا حملة كبرى للتوسع، فسيطروا على منشوريا والصين وكوريا، واستطاعوا تحطيم جيش الدولة الخوارزمية المسلمة 1221م، الذي كان سداً منيعاً أمام توسعهم تجاه العالم الإسلامي، والذي كان قد حقق عليهم عدداً من الانتصارات المهمة.

وقد توفي جنكيز خان سنة 624هـ/1227م، ولكن المغول واصلوا زحفهم فاقتحموا آسيا الوسطى، وروسيا، وسيطروا على موسكو، كما سيطروا على أوكرانيا، وهاجموا بولندا، وهزموا الجيوش الألمانية، واجتاحوا المجر بعد أن سحقوا جيشها، وتوغلوا في أوروبا، كما أخذوا يتوغلون في العالم الإسلامي، فاستكملوا سيطرتهم على مناطق التركستان وأفغانستان والهند وفارس... .[138]

وكان المغول يدمرون الممالك التي أمامهم تدميراً دون شفقة أو رحمة وبشراسة رهيبة أرعبت العالم من قوتهم وسطوتهم، فصاروا ينتصرون لا بكفاءتهم وقوتهم فحسب، وإنما بالحرب النفسية والرعب الذي بثوه في نفوس الناس.... حتى انتشر المثل القائل "من قال لك إن التتار قد هزموا فلا تصدقه"!! وقد استثمر المغول، إلى أقصى حدّ، حرب الصاعقة التي تعتمد على سرعة الحركة، كما استثمروا حرب الأعصاب، فنشروا الرعب والذعر من بطشهم في كل مكان.

وكانت بلاد المسلمين تعاني من التفكك والضعف مما سهل على المغول الزحف إلى بلادهم، والقضاء بسهولة على ممالكهم. وبلغ من ضعف حكام المسلمين أن أحدهم، وكان يحكم إحدى المدن، أرسل صورته المرسومة على حذاء هدية لهولاكو قائد المغول، حتى "يتشرف" هذا الحاكم بوضع هولاكو قدمه على صورته عندما يلبس الحذاء؟![139]

ثم اجتاح المغول العراق، وحاصروا بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي كانت تعاني من ضعف شديد كان من أسبابه تآمر الوزير ابن العلقمي مع المغول لإسقاط الخلافة وتسريحه معظم جيش الخلافة الذي أصبح 10 آلاف بعد أن كان أكثر من 100 ألف.

وقد سقطت بغداد في 656هـ – 10 شباط/ فبراير 1258م، وقام المغول بمذبحة هائلة استمرت أربعين يوماً، وذكر ابن كثير أن عدد الضحايا بلغ 800 ألف، وقيل مليونان، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وقيل إنه وضع في كيس وقتل رفساً.[140]

وقام المغول باجتياح بلاد الجزيرة، واستولوا على حران، والرُّها، وديار بكر، ثم جاوزوا الفرات، ونزلوا حلب في 658هـ – كانون الثاني/ يناير 1260م، وأظهر حكام بني أيوب في الشام تخاذلاً كبيراً، فأعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب خضوعه للمغول، ولكنهم دخلوا حلب، وارتكبوا الفظائع، حتى جرت دماء المسلمين في الأزقة. وبادر المنصور بن المظفر صاحب حماة بالفرار إلى مصر بحريمه وأبنائه تاركاً حماة وأهلها يلقون مصيرهم، ثم فرّ الناصر يوسف من دمشق إلى غزة بنية الهرب إلى مصر، "وترك دمشق خالية وفيها عامتها..."، وتبدد البيت الأيوبي في الشام بسرعة.

وصل المغول إلى دمشق فسيطروا عليها بعد إعطاء الأمان لأهلها أول آذار/ مارس 1260م ثم غدروا بهم، وخلال فصل الربيع احتلوا نابلس والكرك، وتقدموا إلى غزة دون مقاومة تذكر.[141] وهكذا تقاسم النفوذ في فلسطين مملكة عكا الصليبية والمغول التتار، وعادت فلسطين لتئن من جديد تحت سنابك خيل الكفار.

الصليبيون والتتار:

فرحت أوروبا بالهجوم التتري على بلاد الإسلام، وعملت على التنسيق معهم بغية ضرب "العدو المشترك"، كما هدفوا إلى نشر المسيحية بين التتار أنفسهم، وقد نجحوا في بداية الأمر جزئياً في ذلك؛ إذ اشتهر القائد التتري الذي اجتاح بلاد الإسلام هولاكو بميله للمسيحيين النسطوريين، وكانت حاشيته تضم عدداً كبيراً منهم، وكانت زوجته مسيحية أيضاً، وقد لعبت هذه الزوجة دوراً خطيراً تفخر فيه الكنيسة في تجنيب أوروبا أهوال الغزو التتري، وتوجيهه لبلاد المسلمين، بل إن قائد معركة عين جالوت التتري كتبغا Kitbuqa كان مسيحياً، حتى إن أحد الأساقفة المسيحيين وصف حملة التتار بأنها "حملة صليبية بالمعنى الكامل لها، حملة نسطورية مسيحية"، وإن آمال الغرب قد انعقدت على هولاكو وقائده كتبغا ليحقق "القضاء على المسلمين". وقد بادر هاتون الأول Hutton I ملك أرمينية وبوهيموند السادس Bohemond VI أمير طرابلس وأمراء الفرنج في صور وعكا وقبرص إلى عقد حلف مع المغول التتار يقوم على أساس القضاء على المسلمين في آسيا، وتسليم الفرنج بيت المقدس.[142]

وفي تلك الفترة تولى السلطة في مصر، التي أخذ المماليك يحكمونها، السلطان المظفر قطز محمود بن ممدود في 17 ذو القعدة 657هـ – كانون الأول/ ديسمبر 1259م، وقد عُرِفَ قطز بتقواه، وصلاحه، وارتباطه العميق بالإسلام، وكان تلميذاً لأعظم العلماء في ذلك العصر العز بن عبد السلام. وعلى حدّ تعبير ابن كثير فقد كان قطز شجاعاً بطلاً كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه، ويدعون له كثيراً.[143]

ولم يكد يمرّ عليه في الحكم سوى بضعة أشهر حتى واجه مشكلة الاجتياح التتري، وتلقى رسالة تهديد عنيفة من هولاكو، قبل مغادرته سورية، تطلب منه الاستسلام جاء فيها "اتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا... أي أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص... الحصون عندنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع!...".[144]

ولكن قطز، القائد المسلم الذي لا يخشى إلا الله، والذي يعلم أن النصر بيد الله، وأنه متى استكمل العدة، وبذل الأسباب، وأحسن الصلة بالله، والاستعانة به حقق له النصر، قرر إعلان الجهاد، ومواجهة الزحف المغولي، وبعد أن قرأ الكتاب قبض على هؤلاء الرسل، وأمر بإعدامهم توسيطاً (بأن يضرب الشخص في وسطه، فيقسم نصفين)، وعلقت رؤوسهم على أحد أبواب القاهرة (باب زويلة) وكان إعدامهم إعلاناً لا تراجع فيه عن العزم على القتال، وتحدياً يفيض بمشاعر القوة والعزة في مواجهة الزحف التتري.[145]

وقرر قطز أن يبادر هو بالهجوم والزحف على قوات التتار رفعاً للروح المعنوية للمسلمين، وتأكيداً على روح الجهاد الساعية إلى الشهادة في سبيل الله، وحفظاً لأرض الإسلام في مصر، وتحريراً لأرض الإسلام في بلاد الشام، ومن ضمنها أرض فلسطين والمسجد الأقصى المبارك، وتخويفاً للتتار بأنه نوع جديد من الرجال لم يواجهوه من قبل، ولأن أنجح وسائل الدفاع الهجوم.

وفي شعبان 658هـ – 26 تموز/ يوليو 1260م اجتاز الجيش المسلم بقيادة قطز الحدود، وحرر غزة؛ حيث أقام بها يوماً واحداً، ثم اتجه شمالاً باتجاه قوات التتار؛ حيث التقت القوتان الإسلامية والتترية عند "عين جالوت" شمال شرقي فلسطين.

معركة عين جالوت:

ونشبت إحدى أكبر المعارك الحاسمة في التاريخ هناك وهي معركة عين جالوت، يوم الجمعة 25 رمضان 658هـ – 3 أيلول/ سبتمبر 1260م، وفي هذه المعركة توفرت للتتار عناصر النصر "علمياً ومنطقياً" إذ تفوق التتار على الجيش الإسلامي في عناصر:

- الكفاءة والخبرة الواسعة، نتيجة الحروب الكثيرة التي خاضوها "قيادة وجنوداً".
- المعنويات العالية جداً لأنهم لم يهزموا من قبل.

- التفوق الكبير في العدة والعتاد والأعداد.
- الكفاءة العالية لسلاح الفرسان الذي تميز بكثرته وسرعة حركته وقدرته على تطبيق (حرب الصاعقة) التي كانت إحدى السمات البارزة للتتار.
- التفوق الإداري فله قواعد قريبة وطرق من مواقع الجيش المسلم.
- مواضع التتار في المعركة كانت أفضل من مواقع الجيش المسلم.

وعلى الرغم من التفوق التتري الساحق، إلا أن النصر الساحق كان للمسلمين.

التقدم المغولي ومعركة عين جالوت

المصدر: عين جالوت.. قصة النصر الإسلامي الذي دمر أسطورة المغول والتتار، موقع الجزيرة الوثائقية، 2022/4/26، انظر: https://doc.aljazeera.net

لقد تميز جيش قطز بأنه "جيش إسلامي" قام لنصرة الإسلام، والدفاع عن أراضيه المقدسة، وشارك في هذا الجيش شيوخ مصر وعلماؤها وصالحوها، وانتشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الجيش، فخرج من مصر تائباً منيباً طاهراً يبغي نصر دين الله، والتمكين له في الأرض، كما تميز الجيش الإسلامي بقيادة مؤمنة تتحلى "بإرادة القتال" بأقوى مظاهرها، وهي من أهم عوامل النصر في أي معركة.[146]

طلب قطز من الجيش الانتظار لما بعد صلاة الجمعة "لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس، وتفيء الظلال، وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم"...، وهكذا بدأ القتال.

وفي أثناء المعركة قتلت زوجة قطز "جلنار" وهي تجاهد فأقبل عليها قطز وهي في الرمق الأخير وهو يقول: واحبيبتاه، فقالت له: لا تقل واحبيبتاه، ولكن قل وا إسلاماه، ثم صعدت روحها إلى الله بعد أن ذكرته بأن أمر الإسلام والجهاد في سبيل الله أهم من الحب والعلاقات الشخصية...، وقام قطز منتفضاً وهو يردد وا إسلاماه... وا إسلاماه والجيش يرددها حتى تمّ النصر... .

كما حدث في أثناء المعركة أن قُتل فرس قطز، فترجل أحد الأمراء ليعطيه فرسه، فرفض حتى لا يحرمه من الجهاد، وحتى يأتيه المعنيون بالخيل بفرس جديد، فقيل له: لمَ لَمْ تركب الفرس، ولو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك؟ فقال: "أما أنا فكنت أروح الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه". وبعد النصر ترجل قطز عن فرسه، ومرغ وجهه بالتراب، وسجد لله شكراً على ما أولاه من نصر.

وبدأ المسلمون فوراً في مطاردة المغول، ودخل قطز دمشق بعد خمسة أيام من عين جالوت، وامتدت المطاردة إلى حلب، فلما شعر المغول باقتراب المسلمين تركوا ما بأيديهم من أسرى المسلمين... وقاسوا من البلاء الكثير، وخلال شهر واحد كان المسلمون بقيادة المماليك قد استعادوا بلاد الشام من المغول والتتار.[147]

وتعدّ هذه المعركة من المعارك الحاسمة في التاريخ؛ إذ إنها أوقفت الزحف التتري الذي لم يكن يقف أمامه شيء، وكانت بداية لسلسلة من الهزائم المتوالية أعادت المغول إلى قواعدهم، وحررت بلاد الإسلام منهم. ثم إن من استقر من المغول في بلاد الإسلام تحول إلى الإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجاً، فكان ذلك نصراً جديداً للمسلمين.

عاشراً: المماليك والقضاء على الصليبيين:

على الرغم من انحسار المد المغولي التتري عن فلسطين، وانتصار المسلمين في عين جالوت، إلا أن مملكة عكا الصليبية ظلّت تحتفظ بسيطرتها على المنطقة الساحلية الممتدة من يافا إلى عكا. وقد تولى سلاطين المماليك مهمة تحرير باقي أرض الإسراء، وبلاد الشام، حتى جلا آخر الصليبيين عنها بعد أكثر من ثلاثين عاماً من معركة عين جالوت.

وكان الظاهر بيبرس قد تولى خلافة السلطان قطز الذي لم يدم حكمه أكثر من عام، ونُفسح المجال هنا لنقل المختصر الجيد الذي كتبته الموسوعة الفلسطينية حول دور بيبرس ومن تلاه من سلاطين:

> وقد قام الظاهر بيبرس بدور كبير في محاربة الفرنج في بلاد الشام وتطهيرها منهم، فكان في حركة دائبة مستمرة يقوم بالغارات على ممتلكاتهم. ولكنه كان يلجأ أحياناً على الرغم من ذلك إلى توقيع المعاهدات معهم إذا أحسَّ بحاجة إلى ذلك. وقد جرت العادة أن تكون مدتها عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات.
>
> وبعد أن فرغ من القضاء على المشكلات الداخلية في دولته توجه إلى حرب الفرنج. ففي 662هـ/1263م خرج إلى فلسطين، ولما وصلت قواته إلى عكا خرج الفرنج إليه يطلبون تجديد الهدنة، ويتعهدون بإطلاق سراح أسرى المسلمين، والمحافظة على العهود والمواثيق. ولكن بيبرس لم يكترث لمطالبهم، وآثر مهاجمة مواقعهم المختلفة، ولا سيّما عكا، ليعرف أماكن القوة والضعف فيهم إلى أن يحين الوقت لاستنقاذ البلدان والمواقع التي كانوا يحتلونها. ولم تكن قوة الفرنجة بقادرة على اعتراض سبيله.
>
> خرج الظاهر بيبرس إلى فلسطين ثانية 664هـ/1265م فاستولى على قيسارية المحصنة، وهدم أسوارها، وهاجم قسم من جيشه عكا، وضرب حيفا، ثم سقطت أرسوف في يده في السنة نفسها.
>
> وفي السنة التالية خرج إلى فلسطين مرة أخرى، وحاصر صفد وفتحها، وهدم أسوارها، ثم عاد إلى فلسطين في 666هـ/1267م فأرسل إليه الفرنجة يطلبون الهدنة. وكان يتبع سياسة مهادنة بعضهم دون الآخر حتى لا تتجمع قواهم في وجهه. وقد مكنته هذه السياسة من تحرير أنطاكية سنة 667هـ/ 1268م. ويعد

استيلاؤه عليها أكبر نصر حققه المسلمون على الفرنجة في الشام منذ تحرير صلاح الدين بيت المقدس سنة 583هـ/1187م، وقد وافق بيبرس بعد فتح أنطاكية على عقد هدنة مع عكا مدتها عشر سنوات على أن تكون أعمال عكا مناصفة بين الطرفين، ويستولي هو على المرتفعات المحيطة بصيدا.

تابع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون مسيرة تحرير بلاد الشام من الفرنج بعد الظاهر بيبرس. ففي عهده حدث تحالف ثلاثي ضمّ التتار والصليبيين في الشام، وسنقر الأشقر نائب دمشق الثائر، ولكن تحالفهم أخفق، وبدأ قلاوون يشدّد الخناق على الفرنج، فاحتل حصن المرقب 684هـ/1285م، واستولى على اللاذقية 686هـ/1287م، وعلى طرابلس 688هـ/1289م. وقد استفاد قلاوون من حالة الفرنج غير المستقرة في عكا خاصة، وبلاد الشام عامة بسبب الصراعات والمنازعات على السلطة، فقوي مركزه وتمت له تصفية الوجود الفرنجي في الشرق العربي، ولم يبقَ في هذه الفترة بيد الفرنج على الساحل الشامي سوى عكا وصور وصيدا وعتليت.

وجد قلاوون أن الوقت قد حان لتصفية الوجود الصليبي في فلسطين، فانتهز حادثة مهاجمة الفرنج في عكا تجار المسلمين وقتلهم عدداً منهم، فأعلن الجهاد، وطلب القوات من جميع أنحاء مصر والشام، وأقام خارج القاهرة ينتظر وصول الإمدادات، ولكنه مرض فجأة وتوفي في ذي القعدة 689هـ – 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1290م، فخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل. وقد حاول الفرنج في عكا الاستفادة من الوضع الجديد ومن التغيير في القيادة المملوكية، فعرضوا على الأشرف خليل عقد هدنة يضع هو شروطها، ولكنه رفض وأكمل الاستعداد، وسار إلى عكا وحاصرها بمساعدة القوات الشامية، وتمكّن من تحريرها في 17 جمادى الأولى 690هـ – 18 أيار/ مايو 1291م بعد أن هرب ملكها هنري الثاني Henry II إلى قبرص، وبعد فتح عكا استولى الأشرف خليل على صيدا، وصور، وحيفا، وعتليت، وأمر بهدم تحصيناتها جميعاً. وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية في الشرق العربي في أيدي المماليك، وانتهى وجود الفرنجة في فلسطين والشام بعد قرنين من الزمان (492–690هـ أي 1099–1291م).[148]

وبذلك عادت فلسطين كاملة إلى حظيرة الحكم الإسلامي الذي استمر حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين.

خلاصة:

لعل الدارس لتاريخ الحروب الصليبية والجهود التي بذلت لتحرير الأرض المباركة يخرج بالنقاط البارزة التالية:

- إن الراية التي رفعت لتحرير فلسطين هي الراية الإسلامية، ولم تكن راية قومية أو علمانية أو إقليمية.
- إن الجهاد في سبيل الله هو الطريق الذي عادت عن طريقه فلسطين إلى الحكم الإسلامي.
- إن أبرز رموز الجهاد والقادة الذين حُررت الأرض المباركة على أيديهم (عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، قطز، بيبرس، قلاوون وابنه...) تبنوا الإسلام فكراً، ومنهجاً، ووسيلة للتحشيد والتعبئة ضدّ العدو الغاصب. وكانوا بشكل عام على التزام تام بالإسلام وأحكامه، وعلى سلامة العقيدة، وحسن الصلة بالله.
- إن القادة، والأمراء، والجنود، والمتطوعة، والعلماء الذين شاركوا في الجهاد والتحرير كانوا من جنسيات ومناطق شتى (عرب، أكراد، ترك... إلخ) وكان قاسمهم المشترك أمراً واحداً هو الإسلام وإيمانهم بحقهم المقدس في الأرض المباركة.
- إن أمر استعادة كامل فلسطين قد اقتضى نحو 200 عامٍ من الجهاد دون أن يتنازل المسلمون عن حقهم فيها، فكانت معركة تداولتها الأجيال حتى قطفت الثمرة النهائية للانتصار.
- وبالتالي فإن المحتل الغاصب لم يكن عدواً سهلاً، ولا ينبغي أن نتوقع من أي عدو أن يكون سهلاً (كاليهود الصهاينة في عصرنا)، كما لا ينبغي أن نفقد الأمل مهما طال الزمن، ومهما كان العدو شرساً عنيداً.
- إن هناك ارتباطاً جوهرياً بين انتصارات المسلمين، وبين مدى التزامهم بدين الله وشرعة تحكيمه في حياتهم، كما أن هناك ارتباطاً جوهرياً بين هزائم المسلمين وبين تنازعهم وتشتتهم وبعدهم عن منهج الإسلام.
- إن الفكرة الإسلامية هي الوسيلة المثلى لتحشيد وتعبئة الطاقات لتحرير أي أرض إسلامية.

هوامش الفصل الثالث

[1] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 126.

[2] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 160.

[3] **القرآن الكريم**، سورة الصافات: 171-173.

[4] **القرآن الكريم**، سورة النساء: 141.

[5] **القرآن الكريم**، سورة محمد: 7.

[6] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 45-46.

[7] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 60.

[8] **القرآن الكريم**، سورة النور: 55.

[9] **القرآن الكريم**، سورة النور: 63.

[10] انظر: فايد حماد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي**، ط 4 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988)، ص 51-54.

[11] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 162.

[12] فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 68.

[13] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 190-220.

[14] المرجع نفسه، ج 8، ص 222.

[15] أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، ط 4 (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت)، ص 23-24؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 78؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى**، ط 4 (القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، 1986)، ج 1، ص 104-107.

[16] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 1، ص 108-113؛ وأرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 25-26.

[17] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 181؛ وأرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 34-35.

[18] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 187.

[19] فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 108-112.

[20] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 189؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 112-113.

[21] أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 36-37؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 116.

[22] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 1، ص 229-230؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 444.

[23] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 1، ص 201-210، و231-232؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 204؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 117-124.

[24] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 42.

[25] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 46.

[26] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 258–259.

[27] المرجع نفسه، ج 8، ص 222.

[28] المرجع نفسه، ج 8، ص 228–229.

[29] المرجع نفسه، ج 8، ص 272.

[30] مثلاً: مقتل سيرجال صاحب أنطاكية مع ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف من المشاة في معركة مع إيلغازي صاحب حلب سنة 512هـ (ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 289)، وأسر جوسلين صاحب الرها ومعه ابن خالته كليام وجماعة من الفرسان المشهورين سنة 515هـ (ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 304).

[31] المرجع نفسه، ج 8، ص 222.

[32] المرجع نفسه، ج 8، ص 226.

[33] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 446.

[34] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 268، و302، و320.

[35] انظر: المرجع نفسه، ج 8، ص 212، و218، و228–229.

[36] شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ج 1، ق 1 (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1956)، ص 75؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 309، و323.

[37] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 331.

[38] المرجع نفسه، ج 8، ص 329–368، وج 9، ص 5؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 78، و84–85.

[39] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 367.

[40] المرجع نفسه، ج 9، ص 8–9؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 94–96.

[41] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 107–109.

[42] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 13.

[43] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 220؛ وانظر أيضاً: أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 109–114؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 179–204.

[44] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة** (دمشق–بيروت: دار القلم، 1980)، ص 49–50. يعتبر هذا الكتاب من أفضل ما كتب عن نور الدين محمود، حيث أعطى المؤلف من خلاله صورة متكاملة عن شخصيته وسياساته الإدارية والاجتماعية والقضائية والاقتصادية والثقافية.

[45] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 125.

[46] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 53.

[47] المرجع نفسه، ص 45–47.

[48] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 583.
(صدر القسم الثاني من الجزء الأول من كتاب أبي شامة سنة 1962 في مصر عن وزارة الثقافة).

[49] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 278؛ وعماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 24.

[50] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 125؛ وانظر: أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 584؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 278.

[51] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 125.

[52] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 42.

[53] المرجع نفسه، ص 12، و25.

[54] المرجع نفسه، ص 27–32.

[55] انظر: المرجع نفسه، ص 75–89.

[56] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 544.

[57] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 223؛ وعماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 17.

[58] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 36؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 125؛ وعماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 79.

[59] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 93–107.

[60] المرجع نفسه، ص 86.

[61] المرجع نفسه، ص 87.

[62] المرجع نفسه، ص 35–36.

[63] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 281.

[64] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 144.

[65] حول اهتمامه بالعلم والعلماء انظر: المرجع نفسه، ص 129–165.

[66] المرجع نفسه، ص 20–24، و111–118.

[67] انظر: المرجع نفسه، ص 93–126.

[68] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 86–87.

[69] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 32–35.

[70] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 45–46؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 236.

[71] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 84–85؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 329–338.

[72] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 95–96؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 363–367.

[73] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 99–103؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 389–406؛ وحول ضمّ نور الدين لمصر انظر: فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 229–244.

[74] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 111؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 492–500.

[75] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 109–110.



[76] المرجع نفسه، ج 9، ص 123؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 551–554.

[77] انظر بالتفصيل حول صراع نور الدين مع الصليبيين: فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 207–226.

[78] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 82–83.

[79] المرجع نفسه، ج 9، ص 83.

[80] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 342–343.

[81] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 86–88.

[82] المرجع نفسه، ج 9، ص 124؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 577–582.

[83] حول صفات صلاح الدين وأخلاقه، انظر: بهاء الدين بن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** (مصر: شركة طبع الكتب العربية، 1317هـ)، ص 4–28؛ ومحمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص 282، و307–314؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 13–25.

[84] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 285.

[85] المرجع نفسه، ج 12، ص 285–286؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 127.

[86] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 129–133؛ وانظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 583–586.

[87] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 137.

[88] المرجع نفسه، ج 9، ص 153.

[89] المرجع نفسه، ج 9، ص 156–159.

[90] المرجع نفسه، ج 9، ص 161–162.

[91] المرجع نفسه، ج 9، ص 162.

[92] المرجع نفسه، ج 9، ص 163.

[93] المرجع نفسه، ج 9، ص 169–170.

[94] المرجع نفسه، ج 9، ص 171.

[95] انظر حول جهاد صلاح الدين للصليبيين في تلك الفترة: فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 47–113.

[96] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 129–130.

[97] المرجع نفسه، ص 141–143؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 596.

[98] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 142–145.

[99] المرجع نفسه، ج 9، ص 147.

[100] المرجع نفسه، ج 9، ص 155–156.

[101] المرجع نفسه، ج 9، ص 160.

[102] المرجع نفسه، ج 9، ص 164–166.

[103] المرجع نفسه، ج 9، ص 174.

[104] انظر: بسام العسلي، **صلاح الدين الأيوبي** (بيروت: دار النفائس، 1983)، ص 99–106.

[105] المرجع نفسه، ص 107–109.

[106] المرجع نفسه، ص 112–115.

[107] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 320–321؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 178.

[108] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 321؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 178.

[109] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 178؛ وحول معركة حطين، انظر: العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 76–83؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 632–638؛ وبهاء الدين بن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، ص 60–64.

[110] انظر: العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 88–114؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 172–182؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 637–643.

[111] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 322.

[112] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 182.

[113] انظر: المرجع نفسه، ج 9، ص 183؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 323–324؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 644–650.

[114] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 185.

[115] المرجع نفسه، ج 9، ص 190–195.

[116] المرجع نفسه، ج 9، ص 196.

[117] المرجع نفسه، ج 9، ص 196–200.

[118] المرجع نفسه، ج 9، ص 197.

[119] المرجع نفسه، ج 9، ص 207.

[120] المرجع نفسه، ج 9، ص 213.

[121] انظر: المرجع نفسه، ج 9، ص 214–215.

[122] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 345.

[123] العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 605؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 350؛ وانظر بالتفصيل حول الحملة الصليبية الثالثة: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 659–709؛ وأرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 86–93؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 177–244.

[124] العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 603.

[125] المرجع نفسه، ص 604–605.

[126] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 3.

[127] انظر: أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 279–291؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 279–291.

[128] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 760–777؛ وأرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 105–110؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 249، وج 3، ص 512.

[129] نظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 123–124؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 791–804؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 618.



[130] انظر: السيد الباز العريني، **الشرق الأدنى في العصور الوسطى (1) الأيوبيون** (دون مكان: دار النهضة العربية، د.ت)، ص 125–127؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 334؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 618–619؛ ومجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج 1، ص 406–407.

[131] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 124.

[132] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 817–821؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 250، وج 3، ص 447. ذكر الحنبلي أن القدس استمرت بأيدي المسلمين حتى 641 هـ، انظر: مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج 2، ص 5–6.

[133] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 250.

[134] انظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 250، وج 3، ص 447؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 825–826؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 354–355.

[135] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 164–165؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 250، وج 3، ص 304، و447، و512؛ والسيد العريني، **الأيوبيون**، ص 141–142؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 826–827.

[136] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 250؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 831–849.

[137] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 850–853.

[138] انظر: السيد الباز العريني، **المماليك** (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت)، ص 40–43.

[139] رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج 1، نقله للعربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد (الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة — دار إحياء الكتب العربية، د.ت)، ص 301.

[140] حول استيلاء المغول على بغداد، انظر: المرجع نفسه، المجلد الثاني، ج 1، ص 281–295؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 886–887.

[141] حول اجتياح المغول للشام، انظر: رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج 1، ص 305–309؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 886–887.

[142] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 868–872، و881.

[143] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 225.

[144] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 899؛ ومحمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص 333–334.

[145] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 899.

[146] انظر: محمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص 345–346.

[147] حول معركة عين جالوت، انظر: رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج 1، ص 310–316؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 899–901؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام** (القاهرة: دار النهضة العربية، 1990)، ص 195–199؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 220–221.

[148] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 447–448. ولمزيد من التفصيل انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 905–936؛ وسعيد عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص 210–234.

الفصل الرابع

التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
منذ أواخر الدولة العثمانية
وحتى نهاية الاحتلال البريطاني 1948

المبحث الأول
التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
حتى نهاية الدولة العثمانية

أولاً: فلسطين في ظلّ الدولة العثمانية:

ظلت فلسطين تحت سيطرة دولة المماليك إلى أن قامت الدولة العثمانية بالسيطرة عليها 1516–1517. وكان لدولة الخلافة العثمانية من القوة ما مكَّنها من السيطرة على معظم شرق أوروبا (بلغاريا، ويوغوسلافيا، ورومانيا، وألبانيا، واليونان، وقبرص...) بالإضافة إلى العراق، وبلاد الشام، والحجاز، واليمن، ومصر، والسودان، وليبيا، وتونس، والجزائر... . وكانت إحدى أهم وأقوى دول العالم في العصر الحديث.

وقد حافظت الدولة العثمانية على الهوية الإسلامية لأرض فلسطين، ورسختها لأربعة قرون متواصلة، كما أن أهل فلسطين كانوا يعدّون هذه الدولة دولتهم، ويشعرون بالولاء لها. وكانوا، ومعهم غيرهم من المسلمين، يتمتعون بكافة الحقوق السياسية وغيرها التي يتمتع بها الأتراك، ويشاطرون الأتراك جميع مناصب الدولة العسكرية والمدنية... .[1] فمثلاً عُيِّن موسى كاظم الحسيني، والد الشهيد عبد القادر الحسيني، متصرفاً لعسير 1892، ثم متصرفاً لنجد 1896، ثم متصرفاً للحسا 1900،... وتنقل به المقام إلى أن صار متصرفاً لحوران 1912،[2] وهو نفسه الذي قاد الحركة الوطنية الفلسطينية 1920–1934، وهناك الشيخ أسعد الشقيري، والد أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري، الذي تولى أكبر منصب في دولة الخلافة يلي منصب "شيخ الإسلام"، كما تولى منصب مفتي الجيش العثماني الرابع... .[3]

ثانياً: التراجع الحضاري والنهضوي:

بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها في القرن الرابع الهجري، غير أن الروح الإبداعية التجديدية أخذت تتراجع بالتدريج، حتى وإن ظلت متقدمة على غيرها لأكثر من ثلاثة قرون أخرى في المجالات العلمية.

ومنذ القرن الخامس الهجري كانت المذاهب الفقهية قد استقرت، ومال العلماء بعد ذلك إلى التقليد، وانتشرت حالة من الجمود الفقهي، الذي أضعف القدرة على التفاعل مع الحياة وقضايا العصر. وأصبح العلماء والمبدعون في العصور التالية يظهرون وكأنهم جزر معزولة أو حالات استثنائية في بيئات راكدة (أمثال ابن تيمية، وابن خلدون...).

وقد ترافق الصعود والتمدد العثماني مع حالة صعود وتغيرات جذرية أوروبية نهضوية، وسياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية. وفي الوقت الذي بلغ الصعود العثماني ذروته في القرن السادس عشر على عهد السلطان سليمان القانوني الذي انتهت بوفاته سنة 1566 السلسلة الذهبية للسلاطين العثمانيين العظام، ولتدخل الدولة في حالة من الجمود، حاولت أن تحافظ فيها على مكانتها من خلال عهود "الوزراء العظام". غير أن العائلة الحاكمة لم تتمكن من إنجاب سلاطين عظام معظم الفترة حتى أواخر القرن الثامن عشر، وعلى مدى 220 عاماً (باستثناءات محدودة). بينما واصلت أوروبا الصعود وأنجزت ثورات علمية وصناعية وثورات سياسية غيّرت النظم الدستورية في هذه البلدان. وشكلت قفزات نوعية لم يُفق عليها العثمانيون إلا والدول الأوروبية تنهش الجسد العثماني، وتضرب قلبه في مصر في حملة نابليون بونابرت سنة 1798. بينما كانت أوروبا تملؤها الجامعات، والمصانع الضخمة، والقطارات، وتسيطر سفنها التجارية على التجارة الدولية، وتستعمر بلدان العالم وتنهب ثرواتها، وتطور أنظمتها العسكرية وجيوشها وتخترع أسلحة جديدة تحسم المعارك بسرعة ودموية غير مسبوقة؛ وتنشر ثقافتها ورؤيتها الحضارية العلمانية الرأسمالية على العالم.

وإذا كانت الدولة المسلمة قد حافظت على قوتها العسكرية كقوة كبرى حتى منتصف القرن الثامن عشر؛ وتحديداً الدولة العثمانية، والدولة المغولية في الهند؛ فإنه لم يصاحبها تطور علمي وحضاري موازٍ لقوتها ومكانتها. فالدولة العثمانية حافظت على زخمها العلمي حتى القرن السادس عشر. وبرز علماء كبار أمثال تقي الدين محمد الشامي (1526–1585)، الذي كان من أكبر علماء الفلك والفيزياء والهندسة الميكانيكية في عصره؛ والمهندس المعماري سنان (1489–1588)، الذي يُعدُّ من أبرز مهندسي المعمار عبر التاريخ؛ وأحمد محيي الدين بيري "بيري ريس" (1470–1554)، القائد والمستكشف البحري الذي كان أول من رسم أقرب الخرائط للدقة للسواحل الشرقية لأمريكا الشمالية والجنوبية، وسواحل غرب إفريقيا (خريطتين في 1513 و1528).

وفي الوقت نفسه، فإن حالة الجمود الفقهي انعكست سلباً على تفاعل العلوم الشرعية مع الحياة، واجتراح الحلول المناسبة لتطوير المنظومات السياسية والاقتصادية والتعليمية. وكان من نماذج ذلك أن الدولة العثمانية لم تستفد من القفزة العلمية الهائلة التي وفرتها عملية اختراع الطباعة في أوروبا منذ منتصف القرن الخامس عشر، وتأخرت نحو 300 عام عن الركب الأوروبي في بدء عجلة الطباعة لديها بشكل بطيء ومتردد. وبغضّ النظر عن مدى صحة الفتاوى التي أصدرها علماء الدولة العثمانية بتحريم الطباعة أو أوامر منع الطباعة في عهد السلطان بايزيد سنة 1485، وابنه السلطان سليم سنة 1515؛ فإنه من الواضح أن عملية الطباعة لم يُعمل بها، أو لم يكن مسموحاً بها، إلا لليهود والمسيحيين حتى القرن الثامن عشر. ولم تُنشئ الدولة العثمانية أي مطبعة رسمية إلا سنة 1727 بفرمان أصدره السلطان محمد الثالث؛ حيث تمت إجازة طباعة الكتب العلمية، مع الاستمرار في منع طباعة الكتب الشرعية. ولم تتم طباعة المصحف في إسطنبول إلا سنة 1877؛ مع قُرب أفول الدولة العثمانية.

هذا الجمود الفقهي، انعكس بشكل ضار، مثلاً، على حالة النهوض العلمي التي كان يقودها العالم الكبير تقي الدين الشامي، عندما أفتى شيخ الإسلام قاضي زادة، مفتي الدولة العثمانية، بعدم مشروعية الرصد والمرصد الذي أنشأه تقي الدين وشنَّ حملة ضده، فتم تدميره سنة 1580، وكان أحد أبرز المراصد الفلكية في العالم في ذلك الوقت.

وكان ثمة عجز شبه كامل في التعامل مع التطور الاقتصادي العالمي والأنظمة البنكية وشركات التأمين وغيرها، مما اضطر الدولة العثمانية لتبني منظومات القوانين الغربية، منذ منتصف القرن التاسع عشر دون تقديم حلول إسلامية؛ كما ظلّت المنظومات التعليمية على تأخرها وتخلفها مقارنة بنظيرتها الغربية التي سبقتها بقرون.

ثالثاً: ظهور المشروع الصهيوني:

فَقَدَ اليهود صلتهم بفلسطين عملياً مدة 1,800 عام، ولم يكن لديهم سوى العاطفة الدينية، التي رفض أحبارهم وحاخاماتهم وقادتهم تحويلها إلى برنامج عملي؛ لأنهم كانوا يؤمنون أنهم استحقوا تدمير دولتهم وشتاتهم بسبب خطاياهم، وأن عليهم انتظار المسيح المخلِّص الخاص بهم "الماشياح Mashiah" أو "المسيا Messiah"، وعند ذلك يجوز لهم الاستقرار في فلسطين وإقامة كيانهم.

غير أن إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية (World Zionist Organization (WZO، وانعقاد مؤتمرها الأول في بال بسويسرا في 29–1897/8/31 بزعامة ثيودور هرتزل Theodor Herzl، كان فاتحة العمل الصهيوني السياسي المؤسسي المنظم لتأسيس الدولة اليهودية على أرض فلسطين. وقد حرص هرتزل على تحقيق المشروع الصهيوني من خلال الاتصالات الدبلوماسية، ومحاولة تشجيع القوى الكبرى، وخصوصاً بريطانيا، على تبنّي هذا المشروع، في ضوء المصالح والفوائد التي يمكن أن يجنيها الغرب الاستعماري الصليبي.

تعود أسباب نشأة الحركة الصهيونية، التي سعت لإنشاء كيان يهودي في فلسطين، إلى ظهور النزعات الصهيونية المؤيدة لتجميع اليهود في فلسطين، وسط مسيحيي أوروبا، وخصوصاً البروتستانت منذ القرن السادس عشر الميلادي. وتعود أيضاً إلى فشل حركة الاستنارة اليهودية "الهسكلا" التي سعت إلى دمج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها. كما تعود إلى ظهور الأيديولوجيات القومية والوطنية ونشوء الدولة القومية في أوروبا، وما انبنى عليها من "تحرر اليهود" وتحولهم إلى مواطنين، خصوصاً في القرن التاسع عشر، ورغبة أعداد من اليهود في أن تكون لهم أرض يحكمونها، ويعيشون فيها قوميتهم. وتعود من جهة أخرى إلى نشأة "المشكلة اليهودية" خصوصاً في أوروبا الشرقية، وما تعرض له اليهود من اضطهاد على يد الروس، والتي دفعت عدداً من اليهود للمطالبة بملاذ آمن لهم وبدولة خاصة باليهود، وقد استفاد اليهود في سبيل تحقيق ذلك من تمكُّن بعضهم من الوصول إلى دوائر النفوذ والقرار في أوروبا وأمريكا. ثم إن عدداً من بلدان أوروبا الغربية وأمريكا لم يكن يرغب باستيعاب موجات الهجرة اليهودية القادمة من شرق أوروبا، وكانت تريد تحويل هذه الموجات إلى خارج بلدانها.

وأسهم ضعف الدولة العثمانية، التي كانت فلسطين تحت حكمها خلال الفترة 1516–1917، وسعْيُ الدول الغربية لتقاسم أراضيها، إلى بروز أجواء عملية أفضل لتأسيس المشروع الصهيوني. إذ كانت هناك رغبة غربية بملء الفراغ الذي سينتج عن سقوط الدولة العثمانية، ومنع نهوض قوة إسلامية كبرى تَخْلُف العثمانيين. وقد ظهرت في ذلك الوقت فكرة إنشاء دولة حاجزة شرقي قناة السويس وغربي بلاد الشام، في أواخر القرن التاسع عشر، بحيث يتم غرس كيان غريب في قلب العالم الإسلامي، ليقوم بدور "الدولة الحاجزة"، وليفصل جناحه العالم الإسلامي الآسيوي عن جناحه

الإفريقي، ويمنع وحدته، ويضمن ضعفه وتفككه، ويبقيه عاجزاً عن النهضة، قابعاً في دائرة التبعية، منتجاً للمواد الأولية وسوقاً استهلاكيةً للمنتجات الغربية.

وبالتالي، فإن معادلة بقاء الكيان اليهودي الصهيوني واستقراره ونموه، في وسطٍ معادٍ، مرتبطةٌ بضمان ضعف ما حوله من أقطار المسلمين وتفككها وتخلفها. وكذلك فإن معادلة نهضة الأمة ووحدتها وقوتها مرتبطةٌ بالقضاء على المشروع الصهيوني الجاثم على قلبها.

رابعاً: موقف الدولة العثمانية:

يُعدّ السلطان عبد الحميد الثاني (1876–1909) آخر السلاطين العثمانيين، الذين كان للدافع الديني في عهودهم الدور الأول، حيث كان يتم من خلال الولاء للفكرة الإسلامية تحقيق استقرار الشعوب المسلمة المتباينة الأجناس والأقاليم.[4]

وفي غمرة التحديات التي عصفت بالدولة العثمانية، والمشاكل التي واجهتها، ظهرت أفكار متعددة تدعو للإصلاح، إلا أن السلطان عبد الحميد، ومعه في ذلك العديد من المفكرين، رأوا أن قوة المسلمين تكمن في وحدتهم تحت راية الخلافة الإسلامية والتي تستطيع بما تملكه من سلامة المنهج وأصالة التجربة الحضارية أن تواجه الحضارة الغربية، وتوقف التوسع الاستعماري الأوروبي،[5] لقد رأى السلطان عبد الحميد أن القوة التي ينشدها تكمن في الإسلام، وفي ذلك يقول "إن الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء، ونحن أمة حية قوية، ولكن شرط أن نصدُق في ديننا العظيم".[6]

وحاول السلطان عبد الحميد أن يبعث الحيوية في نظام الخلافة من جديد فعمد إلى توثيق سلطة الخليفة على المسلمين وإعطاء الخلافة هيبتها ومكانتها، وحرص، إنجاحاً لسياسته، على أن يكمل الخط الحديديُّ الحجازي سنة 1908، الذي يصل إسطنبول بالمدينة المنورة، والذي جُمعت ثلث تكاليفه من المسلمين في العالم.[7] وخلال أيام عبد الحميد كانت فكرة الجامعة الإسلامية ذائعة الصيت ومنتشرة بين الناس، ولم يفكر العرب طوال حكمه بالانفصال عن الدولة لأن أهم أسباب الثورة العربية، فيما بعد، كانت سياسة التتريك التي اتبعتها جمعية الاتحاد والترقي Committee of Union and Progress التي خلعت السلطان عبد الحميد وحكمت بعده.[8]

أخذت الهجرة اليهودية إلى فلسطين تتخذ طابعاً أكثر تنظيماً وكثافة منذ سنة 1882 إثر تصاعد "المشكلة اليهودية" في روسيا، وعندما تكشفت للدولة العثمانية مخاطر المشروع الصهيوني قامت السلطات العثمانية بعدد من الإجراءات لمنع الاستيطان اليهودي في فلسطين، فحاربت الهجرة اليهودية إليها، ومنعت بيع الأراضي لليهود، وقامت سنة 1887؛ بفصل سنجق القدس عن ولاية سورية، وأخضعته بصورة مباشرة للباب العالي من باب زيادة الاهتمام بفلسطين، وإفشال المخطط الصهيوني – الغربي فيها.[9]

وكان للسلطان عبد الحميد موقفه المتسق تماماً مع الفكرة الإسلامية باعتبار أرض فلسطين جزءاً من أرض الإسلام والمسلمين المقدسة، التي لا يجوز التفريط بأي جزء منها. وعندما عرض مؤسس الحركة الصهيونية ثيودور هرتزل على السلطان عبد الحميد، عن طريق صديقه فيليب نيولنسكي Philipp Newlinski، بيع فلسطين لليهود، أجابه السلطان بما يلي:

> إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فأنصحه أن لا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد؛ لأنها ليست لي، بل لشعبي. ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذّوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطّيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منّا. لقد حاربت كتيبتنا في سورية وفي فلسطين، وقتل رجالنا الواحد تلو الآخر في بلقنة؛ لأن أحداً منهم لم يرضَ بالتسليم، وفضّلوا أن يموتوا في ساحة القتال. الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي، لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها. ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثثنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان.[10]

وتعدّدت محاولات هرتزل وعروضه السخية المختلفة دونما فائدة، ومات سنة 1904 دون أن يحقق أهدافه، وهكذا ظلّ السلطان عبد الحميد الثاني عقبة في وجه المشاريع الصهيونية طيلة سنوات حكمه منطلقاً في ذلك من سياسته الإسلامية، ومن معرفته بحقيقة الأطماع الصهيونية. ويذكر عبد الحميد في مذكراته "وانتظم يهود العالم وسعوا، عن طريق المحافل الماسونية، في سبيل "الأرض الموعودة"... وجاؤوا إليَّ بعد فترة، وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة، وبالطبع رفضت"،[11] وكان السلطان يعدّ نفسه أكبر أعدائهم،[12] ويذكر أنه إذا ما سمح لليهود بالتوطن في فلسطين

فإننا "نكون قد وقَّعنا قراراً بالموت على إخواننا في الدِّين" ويقصد الفلسطينيين،[13] ويؤكد الخلفية الإسلامية لارتباطه بفلسطين قائلاً: "لماذا نترك القدس؟... إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان، وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية، لا بدّ أن تظل القدس لنا".[14]

غير أن الدولة العثمانية التي كانت في أواخر عهدها، وقد اشتد فيها الفساد الإداري، واخترقتها المنظمات الماسونية والعلمانية لم تستطع أن تحقق أهدافها بالكامل في منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وانتقال الأراضي إلى اليهود، فكانت هناك مداخلات السفراء الأجانب الذين تمسكوا بالامتيازات الأجنبية، وأعاقت احتجاجاتهم تنفيذ قيود الهجرة اليهودية، وكان هناك ما عرف بـ"حزب البخشيش"!! المستشري في الجهاز الإداري، والذي كان يتحايل على القانون مقابل الرشاوي، ويسهل هجرة اليهود واستيطانهم.[15] وخلال الفترة 1881–1914 هاجر إلى فلسطين 55 ألف يهودي من أصل مليونين و367 ألفاً من اليهود تركوا مواطنهم إلى أماكن أخرى في العالم، أي ما نسبته 2.3% من المجموع الكلي للمهاجرين،[16] مما يدل على نجاح السلطات العثمانية إلى حدٍّ ما في الوقوف أمام حركة الهجرة اليهودية.

ومن المهم الإشارة إلى أن الدولة العثمانية فقدت الكثير من مصداقيتها الإسلامية خصوصاً بعد انقلاب جمعية الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد سنة 1909، وقد كان هذا الحزب الذي سيطر على تركيا فيما بعد معادياً للفكرة الإسلامية، منتهجاً سياسة التتريك، مُسيطراً عليه من قبل المحافل الماسونية التي يهيمن عليها اليهود، حتى إن الناس علقوا على الثورة التي أسقطت عبد الحميد بأنها ثورة يهودية أكثر منها تركية،[17] بل إن أحد الثلاثة الذين أوفدتهم جمعية الاتحاد والترقي لإبلاغ السلطان عبد الحميد قرار خلعه عن العرش كان يهودياً يدعى "إيمانويل قره صو Emanuel Karasu"، وكان السلطان قد طرده من مجلسه في قصر "يلدز" حين حاول التأثير عليه لإسكان اليهود في فلسطين.[18]

وقد ذكر السفير البريطاني في تركيا لوزير خارجيته في مذكرته التي رفعها إليه في آب/ أغسطس 1910 "إن لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً... إن اليهود الذين يبدون الآن في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية على تركياالفتاة...".[19]

بل إن السلطان عبد الحميد ذكر في رسالة إلى الشيخ محمود أبو الشامات في سنة 1911، أن سبب خلع الاتحاد والترقي له من السلطة هو إصرارهم عليه أن يصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)، فرفض وذكر لهم أنهم لو دفعوا ملء الأرض ذهباً فلن يرضى بذلك.[20]

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد انتشرت المفاسد المنافية لأحكام الإسلام وآدابه كالملاهي والمراقص والحانات، والتعامل بالربا، فأصبح عامة الناس يرَون جمعية الاتحاد والترقي بعيداً عن الإسلام، وخارجاً عن تعاليمه، وحدثت ردود فعل معادية لهذه المفاسد في فلسطين وسورية.[21]

ولذلك، لم يكن غريباً أن تظهر حركات معادية لحكم الاتحاد والترقي في البلاد العربية، وطالب جُلُّها في البداية بالإصلاح ضمن الدولة العثمانية، ولكن عندما لم تتم الاستجابة لتلك المطالب قامت الثورة العربية الكبرى سنة 1916، وأيّدها الكثير من رجال الفكر والإصلاح.[22]

وخلال الحرب العالمية الأولى فقدت الدولة العثمانية ما تبقى لها من أرض تحكمها في البلاد العربية (اليمن، والحجاز، والعراق، والشام)، ثم أعلن كمال أتاتورك الجمهورية التركية سنة 1923، وأسقط الخلافة العثمانية سنة 1924. وبذلك فَقَد المسلمون لأول مرة مِظلّة الخلافة الإسلامية، وتوزعت بلادهم على الدول الاستعمارية.

المبحث الثاني
التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
تحت الاحتلال البريطاني 1917–1948

أولاً: الاحتلال البريطاني لفلسطين وسياساته:

تبنّت بريطانيا المشروع الصهيوني، فأصدرت تصريح بلفور الذي اشتهر بـ"وعد بلفور" في 1917/11/2 بتعهدها بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وتمكنت من إتمام احتلالها لفلسطين في أيلول/ سبتمبر 1918، وتنكرت لوعودها للعرب بزعامة الشريف حسين بالحرية والاستقلال، وقسّمت دوائر النفوذ في بلاد الشام والعراق بينها وبين فرنسا، وفق اتفاقية سايكس – بيكو Sykes–Picot (أيار/ مايو 1916) التي خَطَّطت لجعل فلسطين منطقة دولية. وأتمّ البريطانيون احتلال جنوب فلسطين ووسطها في كانون الأول/ ديسمبر 1917، واحتلوا القدس في 1917/12/9. وخطب قائد الجيش البريطاني اللنبي Allenby في القدس محتفلاً بانتصاره قائلاً: "والآن انتهت الحروب الصليبية"،[23] وكأن حملتهم على فلسطين كانت آخر حملة صليبية، وكأن الحروب الصليبية لم تتوقف منذ أن شنّها الأوروبيون قبل ذلك بأكثر من 800 عام. وفي أيلول/ سبتمبر 1918، احتل البريطانيون شمال فلسطين، كما احتلوا في أيلول/ سبتمبر – تشرين الأول/ أكتوبر 1918 شرق الأردن وسورية ولبنان. ومنذ ذلك الوقت فتَحَت بريطانيا بالقوة مشروع التهويد المنظّم لأرض فلسطين. ثم إن بريطانيا استأثرت بفلسطين وفق اتفاقيات سان ريمو (نيسان/ أبريل 1920) مقابل إطلاق يد الفرنسيين في سورية. وقد وفّرت بريطانيا لنفسها غطاءً دولياً باستصدار قرار من عصبة الأمم في 1922/7/24 بانتدابها على فلسطين، وتمّ تضمين وعد بلفور في صكّ الانتداب، بحيث أصبح التزاماً رسمياً معتمداً دولياً.

وعلى أي حال، فقد عاشت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني مؤامرة رهيبة، فحُرم أهل فلسطين من بناء مؤسساتهم الدستورية وحُكْم أنفسهم، ووُضعوا تحت الحكم البريطاني المباشر، وأُعطي "المندوبون السامون" صلاحيات مطلقة. وضيَّقت بريطانيا على الفلسطينيين سبل العيش وكسب الرزق، وسَعَت لتعميق الانقسامات العائلية

والطائفية وإشغال أبناء فلسطين ببعضهم. وفي المقابل شجعت الهجرة اليهودية، فزاد عدد اليهود من 55 ألفاً (8% من السكان) سنة 1918 إلى 646 ألفاً (31.7% من السكان) سنة 1948. وبالرغم من الجهود اليهودية – البريطانية المضنية للحصول على الأرض، إلا أن اليهود لم يتمكنوا من الحصول سوى على نحو 6% من فلسطين بحلول سنة 1948، كان معظمها إما أراضٍ حكومية، أو أراضٍ باعها إقطاعيون غير فلسطينيين كانوا يقيمون في لبنان وسورية وغيرها، وقد بنى اليهود على هذه الأراضي 291 مستعمرة. وأسس اليهود الوكالة اليهودية سنة 1929، والتي تولت شؤون اليهود في فلسطين، وأصبحت أشبه بدولة داخل دولة لما تمتعت به من صلاحيات واسعة. وأقام اليهود مؤسسات اقتصادية واجتماعية وتعليمية ضخمة، شكلَّت بنية تحتية قوية للدولة اليهودية القادمة.[24]

اتفاقية سايكس – بيكو 1916



وفي الوقت الذي كانت السلطات البريطانية تسعى حثيثاً لنزع أسلحة الفلسطينيين، وتقتل أحياناً من يحوز سلاحاً نارياً، بل وتسجن لسنوات من يملك رصاصات أو خنجراً أو سكيناً طويلاً، فإنها غضّت الطرف، بل وشجعت سرّاً تسليح اليهود لأنفسهم، وتشكيلهم قوات عسكرية وتدريبها، بلغ عددها مع اندلاع حرب 1948 أكثر من 70 ألف مقاتل؛ 64 ألف مقاتل من الهاجاناه Haganah، و5 آلاف من الأرجون Irgun، وألفين من شتيرن Stern... وغيرها، وهو عدد يبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش العربية السبعة عندما دخلت في حرب 1948 ! ![25]

وهكذا، فإن الظلم والقهر والمحاباة كان السمة الأبرز للاستعمار البريطاني لفلسطين.

خريطة فلسطين تحت الاحتلال البريطاني



ثانياً: الحركة الوطنية الفلسطينية:

بالرغم من حالة الإنهاك التي خرج بها الفلسطينيون من الحرب العالمية الأولى، وبالرغم من وقوع البلاد العربية من حولهم، والعالم الإسلامي بشكل عام، تحت سطوة الاستعمار ونفوذه، وبالرغم من ضعف إمكاناتهم المادية، وانعدام أدوات الضغط والنفوذ السياسي لديهم، مقارنة بما حظِيَ به المشروع الصهيوني من دعم يهودي عالمي، ومن رعاية القوى العظمى له، بالرغم من ذلك كله، فإن التمسك بحقهم الكامل في فلسطين، والإصرار على استقلالهم مهما كلّف الثمن، كانت السمة الأبرز لنشاطهم السياسي الجهادي طوال فترة الاحتلال البريطاني. وقد تمحور النشاط السياسي الفلسطيني حول مطالب محددة أبرزها:

- إلغاء وعد بلفور لما يتضمنه من ظلم وإجحاف بحقوق الأغلبية الساحقة من السكان.
- إيقاف الهجرة اليهودية.
- وقف بيع الأراضي لليهود.
- إقامة حكومة وطنية فلسطينية منتخبة عبر برلمان (مجلس تشريعي) يمثل الإرادة الحقيقية الحرة للسكان.
- الدخول في مفاوضات مع البريطانيين لعقد معاهدة، تؤدي في النهاية إلى استقلال فلسطين.

وعلى هذه الأسس نشأت الحركة الوطنية الفلسطينية.

ونظَّم الفلسطينيون أنفسهم من خلال عقد مؤتمرات تمثلهم، حيث أقاموا سبعة مؤتمرات، وبرز في قيادة الحركة الوطنية رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني موسى كاظم الحسيني الذي استمر في الزعامة الرسمية للحركة الوطنية حتى وفاته في آذار/ مارس 1934. غير أنه من الناحية الفعلية برز اسم الحاج أمين الحسيني، الذي أصبح مفتي القدس سنة 1921، ورئيس المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى منذ تأسيسه سنة 1922، والذي غدا أهم قلعة للحركة الوطنية والقوة الدافعة خلفها. وبوفاة موسى كاظم الحسيني، أصبح الحاج أمين زعيم فلسطين دون منازع حتى نهاية الاستعمار البريطاني سنة 1948. ونزل الحاج أمين للميدان عند اندلاع الثورة الكبرى 1936–1939، حيث تمّ توحيد الأحزاب العربية، وتشكيل اللجنة العربية العليا، التي تولى رئاستها الحاج أمين الحسيني بنفسه، في 1936/4/25.

وبعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية أعاد الفلسطينيون ترتيب أنفسهم، وشكّلوا "الهيئة العربية العليا"[26] برئاسة الحاج أمين الحسيني في 1946/6/11. وعندما دخلت الجيوش العربية فلسطين في أيار/ مايو 1948، منعت الحاج أمين الحسيني من دخول فلسطين أو الوجود في الأماكن التي سيطرت عليها، ولم تمكِّن الأنظمة العربية الحاج أمين ورفاقه من تولي تنظيم وقيادة الشعب الفلسطيني في المناطق المحررة، بل باشرت بنفسها نزع أسلحة الفلسطينيين، وخصوصاً جيش "الجهاد المقدس" الذي نظمته الهيئة العربية العليا. وبالرغم من أن الهيئةَ شكَّلت حكومةَ عموم فلسطين في 1948/9/23، وأعلنت استقلال فلسطين في مؤتمر غزة في 1948/10/1، إلا أنها جوبهت بخصومة بعض الأنظمة العربية وبتجاهل بعضها الآخر، ومُنعت من ممارسة سلطتها فيما تبقى من فلسطين (الضفة والقطاع)؛ بينما ذَوَى تأثيرها في الخارج في السنوات التالية.

وفي حرب 1948 تمكّنت القوات اليهودية الصهيونية، المدعومة بالقوى الغربية، من السيطرة على نحو 77% من أرض فلسطين، 20,770 كم^2 من أصل 27,009 كم^2، وإنشاء الكيان الصهيوني الغاصب عليها، وشرَّدت بالقوة 800 ألف فلسطيني خارج المنطقة التي أقاموا عليها كيانهم، وذلك من أصل 925 ألفاً كانوا يسكنون في هذه المنطقة، كان المجموع الكلي للفلسطينيين في نهاية سنة 1948 نحو مليون و390 ألف نسمة. أما بالنسبة لما تبقى من فلسطين فقد قام الأردن بضم الضفة الغربية رسمياً إليه، 5,876 كم^2، كما وضعت مصر قطاع غزة، 363 كم^2، تحت إدارتها. وقد وافقت الأمم المتحدة على دخول الكيان الصهيوني "إسرائيل" في عضويتها، شرط السماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم، وهو ما لم يفعله الكيان الصهيوني مطلقاً.

نتائج حرب 1948



ثالثاً: المسار العام لتجربة التيار الإسلامي:

حتى منتصف الثلاثينيات لم تظهر حركات إسلامية منظمة ذات منهجية محددة، إلا أن التأثير السياسي والاجتماعي للعلماء كان واضحاً وقوياً، كما أن المشاعر الشعبية الإسلامية كانت ما تزال عميقة في نفوس الشعب الفلسطيني، ولا يوجد هناك ما ينافسها، ولذلك فقد اكتسب التحرك الشعبي طبيعة إسلامية، وتميزت الانتفاضات التي وقعت في تلك المرحلة إما بطبيعتها الإسلامية الكاملة، وإما بعمق التأثير الإسلامي فيها. غير أن الطابع الإسلامي الحركي أخذ شكلاً أكثر وضوحاً مع إطلاق حركة الجهادية "جماعة القسام" للثورة في سنة 1935، ومع انتشار جماعة الإخوان المسلمين في الأربعينيات. وكان الحاج أمين الحسيني أبرز الرموز الفلسطينية التي قادت تلك المرحلة، وقدم نموذجاً لـ"الإسلامية الوطنية" في إدارة الشأن الفلسطيني.

كانت أولى الجمعيات السرية العسكرية التي حملت مشروع المقاومة هي جمعية "الكف الأسود" التي تأسست أوائل سنة 1919، وغيَّرت اسمها إلى جمعية "الفدائية" في أيار/ مايو 1919، وقد كان مركزها يافا، وتكوّنت لها فروع في القدس، وغزة، ونابلس، وطولكرم، والرملة، ورام الله، والخليل، وتولى زعامتها في البداية محمد الدباغ، ثم محمود عزيز الخالدي، واستمرت بأشكال مختلفةٍ حتى سنة 1923. ونشطت في تجنيد الأعضاء وسط الضباط والشرطة الفلسطينيين، وممن لهم خبرة عسكرية سابقة. وكان لعلماء القدس دورٌ أساسي في إنشائها والإشراف عليها، فقد تأثرت بشخصية الحاج أمين الحسيني كثيراً حيث كان أعضاؤها يقسمون أن يفدوا الحاج أمين بأرواحهم.[27] وكان من الشخصيات الموجهة لجمعية "الفدائية" في الخفاء الشيخ سعيد الخطيب، والشيخ حسن أبو السعود، والشيخ محمد يوسف العلمي. وقد وصف تقرير مخابراتٍ بريطاني الشيخ محمد يوسف العلمي، أنه "نشيط جداً، وأنه قوة محركة خلف الأضواء في كل الجمعيات أعظم خطر كامن وسط المحرضين في القدس". وبالرغم من أنه تمّ القبض على كثير من عناصرها، إلا أنه يظهر أن أفرادها شكَّلوا عناصر تحريض مهمة في انتفاضة موسم النبي موسى في القدس في نيسان/ أبريل 1920.[28]

خلال الفترة 1920–1929 وقعت ثلاث "ثورات" أو انتفاضات شعبية عبّرت بشكل قوي عن الغضب الشعبي العارم من المشروع الصهيوني، غير أنها وَجَّهت غضبها ضدّ

اليهود، وحاولت تجنب البريطانيين، لكن الدور الأساسي في قمع هذه الثورات كان للبريطانيين. فكانت ثورة موسم النبي موسى في 4–1920/4/10 في القدس، التي حدثت في أثناء احتفالات المسلمين بهذا الموسم الديني، واندلعت شرارتها عندما لوَّث أحد اليهود أحد الأعلام الإسلامية لموكب الخليل. وقد أدّت إلى مقتل 5 يهود وجرح 211 آخرين، ومقتل 4 عرب وجرح 24 آخرين. وقد كان للحاج أمين دورٌ رئيسيٌّ في تدبير الثورة، واضطر الحاج أمين وعارف العارف للهرب إلى شرق الأردن، بعد انكشاف دورهما للسلطات البريطانية، وحكم عليهما غيابياً بالسجن عشرة أعوام. غير أن المندوب السامي أصدر عفواً عنهما، طمعاً في استيعاب وتطويع الحاج أمين ورفيقه.

أما ثورة يافا 1–1921/5/15 التي اندلعت في يافا، وشملت أجزاء من شمال فلسطين، فقد كان أحد أسبابها السلوك الاستفزازي لليهود ضدّ دين وأخلاق وآداب المسلمين.[29] وقد أدت إلى مقتل 47 وجرح 146 يهودياً، بينما قتل 48 وجرح 73 عربياً.

أما ثورة البراق التي تصاعدت أحداثها منذ 15 آب/ أغسطس واستمرت حتى 1929/9/2، وقد خاضها المسلمون دفاعاً عن الحق الإسلامي في حائط البراق، الحائط الغربي للمسجد الأقصى المبارك، ضدّ الاعتداءات اليهودية وفي مواجهة المطالبات اليهودية بامتلاكه باعتباره "حائط المبكى" الذي يقدسونه، ويُصلُّون عنده، وانتشرت الثورة في كافة أرجاء فلسطين، وأدت إلى مقتل 133 وجرح 339 يهودياً، وقتل 116 عربياً وجرح 232 آخرين. وقد كان للحاج أمين الحسيني دور أساسي سرِّي في ثورة البراق. أما القيادة السياسية الرسمية الفلسطينية فقد ظلّت متمسكة بالأساليب السلمية، بل وسَعَت إلى تهدئة مشاعر الغضب واستيعابها.[30]

سعى أبناء فلسطين في تلك الفترة إلى تأكيد البُعد العربي والإسلامي لقضية فلسطين وتفعيله. فنقلت التقارير في أيار/ مايو 1931 وجود مخطط ثوري جهادي يستهدف إنقاذ البلاد العربية وخصوصاً فلسطين وسورية، وأن الأمير شكيب أرسلان، وهو إسلامي لبناني، كان زعيم هذه الحركة، ويشترك معه في المخطط الحاج أمين الحسيني وشوكت علي الزعيم الهندي المعروف، وكان على اتصال بزعماء الحركات العربية في الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر. لكن المخطط لم يُكتب له النجاح.[31] وفي 7–1931/12/17 انعقد في القدس المؤتمر الإسلامي العام برئاسة الحاج أمين الحسيني، وبحضور مندوبين عن 22 بلداً، وتكرّس فيه البُعد الإسلامي لقضية فلسطين، التي

أصبحت همّاً مركزياً للعالم الإسلامي، وحضره علماء وشخصيات إسلامية كبرى مثل الشيخ محمد رشيد رضا، والمفكر الهندي الشاعر محمد إقبال، والزعيم الهندي شوكت علي، والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، ورئيس وزراء إيران السابق ضياء الدين الطبطبائي، والزعيم السوري شكري القوتلي، ... وغيرهم. وصدرت العديد من القرارات العملية كإنشاء جامعة إسلامية، وتأسيس شركة لإنقاذ الأراضي، وتشكيل لجان لفلسطين في مختلف البلدان...،[32] لكن وقوع معظم بلدان العالم الإسلامي تحت الاستعمار، وإصرار البريطانيين على إفشال أيّ من المشاريع العملية أدى إلى تعطيل العمل بمعظم هذه القرارات.

وتزايد دور علماء المسلمين الفلسطينيين بانعقاد مؤتمرهم الأول في 1935/1/25، وإصدارهم فتوى بتحريم بيع الأرض لليهود، وتكفير من يرتكب ذلك، ثم قيامهم بحملة توعية كبرى في فلسطين.[33]

الثورة الفلسطينية الكبرى:

اكتسبت الثورة الفلسطينية الكبرى (1936–1939) طبيعة إسلامية واضحة، فالشعب الفلسطيني الذي عرف بعمق ارتباطه بالإسلام عبّر عن ثورته ومشاعره من خلال الصياغات الإسلامية ومفهوم الجهاد.

وكان لجماعة القسام شرف تفجير الثورة في عملية عنبتا – نور الشمس في 1936/4/15، والتي قادها القائد الجديد للجماعة الشيخ فرحان السعدي.

وكان أبناء فلسطين قد أعلنوا الإضراب العام في 1936/4/20، وتمّ توحيد الأحزاب العربية، وتشكيل اللجنة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني، حيث أعلنت عن الإصرار على الاستمرار في الإضراب حتى تحقيق المطالب الفلسطينية في إنشاء حكومة فلسطينية مسؤولة أمام برلمان منتخب، ووقف الهجرة اليهودية، ومنع بيع الأراضي لليهود.

واستمر الإضراب 178 يوماً، نحو ستة أشهر، ليكون أطول إضراب في التاريخ يقوم به شعب بأكمله. ورافق الإضراب ثورة عارمة عمّت كل فلسطين، ولم تتوقف المرحلة الأولى من الثورة إلا في 1936/10/12، بناء على نداء ملوك وأمراء العرب، وتهيئة لقدوم لجنة تحقيق ملكية بريطانية، لجنة بيل Peel Commission، لتدرس الوضع وتقدم توصياتها. وقد صدرت توصيات هذه اللجنة في مطلع تموز/ يوليو 1937، واقترحت

تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وقد أدى ذلك إلى تأجيج مشاعر الثورة من جديد، وكانت علامة بدئها الفاصلة اغتيال القساميين للحاكم البريطاني للواء الجليل لويس أندروز Louis Andrews في 1937/9/26. وقامت السلطات البريطانية بإجراءات قمعية هائلة، وحلَّت المجلس الإسلامي الأعلى واللجنة العربية العليا واللجان القومية، وحاولت اعتقال الحاج أمين الذي تمكن من الهرب إلى لبنان في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 1937، حيث تولى قيادة الثورة من هناك.

ومن البيانات التي تعبّر بعمق عن الروح الإسلامية للثورة، وعن الانسجام الطبيعي بين الشعب الفلسطيني ودينه وتاريخه وتراثه، باعتبار الإسلام التعبير الحقيقي عن هويته، ذلك البيان الذي أصدرته قيادة الثورة العامة في فلسطين سنة 1938، والذي جاء فيه:

> إن المجاهدين قد باعوا أنفسهم لله، وخرجوا في طاعته، لم يخرجوا إلا ابتغاء وجهه، والجهاد في سبيله والفوز بمثوبته، واكتساب مرضاته، لا يرضون بذلك بديلاً ولا يبغون عنها حولاً، صدَقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً، وهم يتسابقون إلى ميدان الجهاد والشهادة انتصاراً للحق وإقامة للعدل ودفاعاً عن أمتهم الكريمة وبلادهم المقدسة، فقد فارقوا في سبيل ذلك أهلهم، وتركوا أموالهم، وعطلوا مصالحهم.
>
> ومن كان هذا حالهم، وكان كل مبتغاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة مِن الله لا مِن سواه، حاشا لله أن يفسدوا في الأرض... .
>
> ... ونحن ماضون في هذا السبيل إن شاء الله إلى أن يكتب النصر لهذه الأمة، أو يأتي الله بأمر من عنده ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[34] ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[35]، والله وَليّنا وهو نِعم المولى ونِعم النصير.[36]

وأظهرت دراسة إحصائية قام بها الباحث[37] في بيانات وتقارير الثورة الكبرى (المرحلة الثانية 1937–1939، والموجودة في مجلد وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية: من أوراق أكرم زعيتر، الذي يعد أكبر مصدر في هذا المجال) شملت 154 وثيقة، حوَت أخباراً وتقاريراً عن 698 عملية مقاومة، أنه كان للإسلام ورجاله ورموزه النصيب الأكبر من أسماء الفصائل (41 فصيلاً من أصل 86 فصيلاً)، مقارنة بـ 3 فصائل ارتبطت بمعاني قومية، بينما هناك 15 فصيلاً ارتبطت أسماؤها بمعانٍ عامة (الصواعق، الإقدام ...)، و10 فصائل سميت بأسماء أماكن أو قرى في فلسطين، و3 فصائل باسم

قادة قساميين، بالإضافة إلى أسماء 9 فصائل أخرى مرتبطة بأسماء أشخاص (سماحة المفتي، سعيد العاص،...)، وأخيراً هناك 5 فصائل ارتبطت بطبيعة عمل معينة (التأديب، القناصة...).

كما أن طريقة كتابة البيانات والتقارير العسكرية تميزت بطابعها الإسلامي العام، فهي عادة تبدأ بالبسملة، وتحتها أحياناً آية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾،[38] وأحياناً ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾،[39] وإلى جانبها أحياناً "الله أكبر". وكان قادة الثورة يوقّعون بياناتهم بألفاظ "المتوكل على الله"، أو "خادم دينه ووطنه"، أو "المعتصم بالله"، أو "المعتز بالله"، أما الأختام فكان ختم ديوان الثورة يتضمن أعلاه لفظة "الله أكبر" وتحتها هلال بداخله آية ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. أما مناطق العمليات فقد تركزت في شمال فلسطين ولواء نابلس حيث كان الوجود القسامي كثيفاً.

ومن جهة أخرى، فقد أسهم القساميون في تنظيم الثورة وقيادتها، فشارك ثلاثة منهم، من أصل ستة، في عضوية القيادة العسكرية، التي اختارت في 1936/9/2 فوزي القاوقجي قائداً عامّاً للثورة، والذي استمر في القيادة حتى نهاية المرحلة الأولى من الثورة في 1936/10/12.

أما في المرحلة الثانية من الثورة فقد اشتهر عبد الرحيم الحاج محمد، وكان معروفاً بتقواه وتدينه، كقائد عام للثورة حتى استشهد رحمه الله في 1939/3/26.

وقد تولى قيادة الثورة في شمال فلسطين القائد القسامي أبو إبراهيم الكبير، وكان معظم قادتها من الحركة القسامية؛ أبو محمود الصفوري، وسليمان عبد الجبار، وعبد الله الأصبح، وتوفيق الإبراهيم، وعبد الله الشاعر... وغيرهم. وفي منطقة لواء نابلس المقسّمة لأربعة أقسام كان هناك قائدان قسّاميان بارزان هما: الشيخ عطية أحمد عوض، والذي خلفه في منطقته الشيخ القسامي يوسف أبو درة، والشيخ محمد الصالح الحمد (أبو خالد)، والذي خلفه في منطقته الشيخ القسامي عبد الفتاح محمد الحاج مصطفى. هذا بالإضافة إلى منطقة يقودها عبد الرحيم الحاج محمد، وأخرى يقودها عارف عبد الرازق.

وتولى قيادة منطقة القدس المجاهد عبد القادر الحسيني، وقاد منطقة اللد الشيخ حسن سلامة، أما منطقة الخليل فقادها عيسى البطاط ثم عبد الحليم الجولاني.

وكان للحاج أمين الحسيني، من موقعه كرئيس للجنة العربية العليا، وكزعيم إسلامي معروف، دور رائد في تنظيم وتمويل وتوجيه الثورة بشكل غير معلن في مرحلتها الأولى، ثم مباشرة في مرحلتها الثانية.[40]

وقد هزت هذه الثورة الوجود البريطاني في فلسطين، واستطاعت أن تسيطر على الريف الفلسطيني وعدد من المدن، خصوصاً في صيف 1938، ونفذت آلاف العمليات العسكرية، وأقامت لنفسها مراكز قيادة ميدانية، ومحاكم تحكم بين الناس بكتاب الله وسنة رسوله... . ولم تستطع بريطانيا القضاء على الثورة إلا بعد أن استعانت بقوات كبيرة من جيشها الإمبراطوري الذي كان يُهيمن على عشرات من دول ومناطق العالم بما فيها القارة الهندية، وبعد أن استدعت أفضل قادتها العسكريين أمثال جون ديل John Dill، وآرتشيبالد ويفل Archibald Wavell، وروبرت هاينينج Robert Haining، وبرنارد لو مونتغمري Bernard Law Montgomery، وأفلين هيو باركر Evelyn Hugh Barker وغيرهم، وبعد أن أعادت احتلال أرض فلسطين جزءاً جزءاً في حرب شرسة استخدمت فيها كافة الوسائل والتقنيات العسكرية المتطورة والطيران والدبابات، بالإضافة إلى قمعها العنيف لكافة أنصار الثورة (كل الفلسطينيين) المدنيين.[41]

حرب 1948:

أعلن الصهاينة دولتهم "إسرائيل" مساء 1948/5/14، وتمكّنوا من هزيمة الجيوش العربية التي مَثَّلت نموذجاً بائساً لسوء القيادة وضعف التنسيق وقلّة الخبرة، والتي كان عددٌ منها ما يزال واقعاً تحت النفوذ الاستعماري.

أما قوات الجهاد المقدس[42] التي تولى قيادتها عبد القادر الحسيني ورعاها الحاج أمين فقد جنّدت في صفوفها أعداداً كبيرة من أهل فلسطين، وخاضت معارك مهمة وعديدة في مناطق فلسطين، وخصوصاً في منطقة القدس مثل عمليات شارع بن يهودا، والبالستاين بوست، وهاسوليل، والمنتفيوري، والوكالة اليهودية.

ومن أشهر المعارك التي خاضتها قوات الجهاد المقدس معركة القسطل، وكان عبد القادر الحسيني قد طلب مساعدة اللجنة العسكرية للجامعة العربية بالسلاح لاسترداد القسطل دونما فائدة، فخرج من عند رئيسها وهو يقول بصوت مرتفع: "أنتم خائنون... أنتم مجرمون، سيسجل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين، سأحتل القسطل وسأموت أنا وجميع إخواني المجاهدين"...، وغادر المكان وهو يقول لصديقه

قاسم الريماوي "هيا نرجع إلى فلسطين كي نموت فيها الميتة التي وضعناها نصب أعيننا، هيا نستشهد أو ننتصر على الأعداء، ولنذكر قوله تعالى ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾".[43] وفي 1948/4/8 انتصر عبد القادر ورفاقه في معركة القسطل وحرروها، واستشهد قائد قوات الجهاد المقدس عبد القادر الحسيني في هذه المعركة... .

من جهة أخرى، عندما أعلنت الحرب 1947–1948 عاد القساميون[44] للمشاركة في ميادين الجهاد من جديد، وقد عمل معظمهم تحت توجيه الحاج أمين الحسيني ضمن جيش الجهاد المقدس، أو مع جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي.

وقد ظلّ القساميون يعملون بالذات في مناطق الشمال كأبي إبراهيم الكبير (خليل العيسى)، وأبي إبراهيم الصغير (توفيق الإبراهيمي)، وأبي محمود الصفوري، وسرور برهم، ولكن هذه المرة لم يكونوا هم القيادات الموجهة المسيطرة المحركة للوضع، وإنما كانوا تابعين لقيادات أعلى، كثيراً ما وضعتهم في ظروف صعبة، بحيث لم يتمكنوا من أداء واجبهم كما يشاؤون.

شارك أبو إبراهيم الكبير ضمن قيادة فوج اليرموك الثاني التابع لجيش الإنقاذ، والذي كان يتولى قيادته أديب الشيشكلي. وقد قاد أبو إبراهيم ضمن أعمال هذا الفوج "معركة جدين" في الشمال، وبلغت خسائر اليهود 120 قتيلاً وجريحاً، واستشهد من العرب تسعة وجرح ستة.

وتولى أبو إبراهيم الصغير العمل في منطقة الناصرة، وكان تحت إمرته 200 مسلح، وكان يتبع في عمله جيش الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني وتوجيه ورعاية الحاج أمين الحسيني. كما أبلى أبو محمود الصفوري بلاءً حسناً في معارك الشمال، وتولى الدفاع عن بلدة شفا عمرو مع 50 جندياً من قوات الجهاد المقدس، واستشهد سرور برهم الذي تولى مسؤولية مساعد قائد حامية حيفا عندما حوصر وعدد من إخوانه المجاهدين فرفض التسليم وفجّر السيارة التي تحمل الذخيرة، مما أدى لمقتل أكثر من 50 يهودياً واستشهاد 14 مجاهداً منهم سرور برهم نفسه.

أما الإخوان المسلمون الفلسطينيون فقد شاركوا في الجهاد عندما اندلعت حرب 1948، إلا أن حداثة تنظيمهم وعدم نموه واستقراره بشكل مناسب وقوي، جعلت مشاركتهم محصورة ضمن قدراتهم المحدودة وإمكاناتهم المتواضعة.

ومع ذلك فقد شكّلت شُعب الإخوان في فلسطين قوات غير نظامية منذ بداية الحرب عملت في أماكن استقرارها في الشمال والوسط تحت القيادات العربية المحلية هناك، التي تتبع جيش الإنقاذ أو جيش الجهاد المقدس، وقد قامت بغارات ناجحة على مستعمرات اليهود وطرق مواصلاتهم على الرغم من الضعف الشديد الذي كانت تعانيه سواء في التسليح أو التدريب.[45]

ولذلك لا نجد ذكراً رسمياً لدور الإخوان في هذه المناطق بشكل عام، أما في المناطق الجنوبية وخصوصاً غزة وبئر السبع فقد انضم العديد من إخوان فلسطين إلى قوات الإخوان (المصرية) الحرة بقيادة كامل الشريف، وشاركوا بقوة وفاعلية في معارك فلسطين هناك، ويذكر كامل الشريف أن قوات الإخوان المصريين الحرة كان معدل عددها 200 مجاهد في مناطق جنوب فلسطين، وأنه كان يشاركها الجهاد نحو 800 مجاهد آخر من أبناء فلسطين تحت قيادتها، حيث إن كثيراً منهم تأثروا بفكر الإخوان المسلمين وأصبحوا منهم.[46]

وكانت أنشط شُعب الإخوان مشاركة في الجهاد شعبة الإخوان المسلمين في يافا، وقد كان هناك "تنظيم عسكري سري خاص" ضمن أعضاء الإخوان في يافا، شارك فيه عدد محدود من الإخوان ممن يصلحون لهذا العمل. وعندما جاء كامل الشريف إلى منطقة يافا مع سرية من شباب الجامعات، تولى هو قيادة مجاهدي الإخوان حيث تجمّع تحت قيادته نحو مئة مجاهد. وبحسب يوسف عميرة، فإن الإخوان تولوا في أثناء الحرب الدفاع عن مناطق البصة وتل الريش والعجمي والنزهة في يافا، بالإضافة إلى المحافظة على الأمن داخل البلد.[47]

وفي منطقة القدس شارك إخوان فلسطين في القتال مع إخوانهم القادمين من البلاد العربية، أو مع قوات الجهاد المقدس.

أما الإخوان المسلمون المصريون،[48] فبالإضافة إلى دورهم الكبير في التعبئة الإعلامية وجمع التبرعات والأسلحة، فقد أبدوا استعدادهم الجاد، قبل بدء المعارك، بإرسال دفعة أولى من عشرة آلاف مجاهد إلى فلسطين، وهي أكبر من بعض الجيوش العربية، حيث أبرق بذلك الشيخ البنا إلى جامعة الدول العربية في1947/10/9، وتقدم فوراً إلى الحكومة المصرية بطلب السماح لفوج من هؤلاء باجتياز الحدود، ولكنها رفضت. وأخذ الإخوان يجهزون المجموعات ويرسلونها، ولكن الحكومة كانت تضيِّق عليهم حتى إنهم اضطروا للتحايل (بعمل رحلة علمية إلى سيناء...) لينطلقوا بعد ذلك إلى فلسطين.

ولما اشتد الضغط على الحكومة المصرية سمحت للمتطوعين بالمشاركة في القتال تحت راية الجامعة العربية حيث تدربوا في معسكر "هاكستب"، وكان يشرف على حركة التطوع محمود لبيب وكيل الإخوان للشؤون العسكرية، وتألفت ثلاث كتائب من المتطوعين يقدر عددها بـ 600 مقاتل نصفهم تقريباً من الإخوان المسلمين، وقد طبعوا هذه الكتائب بطابعهم الخاص، وكان أبرز قادة هذه الكتائب أحمد عبد العزيز وعبد الجواد طبالة. ولم يكفِ معسكر هاكستب لاستيعاب المتطوعين، إذ إن المتطوعين كانوا عشرات الأضعاف بالنسبة للمشاركين، فأرسل الإخوان مئة من أفرادهم ليتدربوا في معسكر "قطنا" في سورية، وهم كل ما استطاع المركز العام للإخوان أن يقنع الحكومة المصرية بقبوله.

قام الإخوان المسلمون المصريون بدور مشرّف في حرب فلسطين اعترف لهم به كل من كتب عن هذه الحرب، وكان لهم دور مشهود في جنوب فلسطين في مناطق غزة ورفح وبئر السبع، حيث كانوا يهاجمون المستعمرات، ويقطعون مواصلات اليهود الصهاينة، ومن أبرز المعارك التي شاركوا فيها هناك معركة التبة 86 التي يذكر العسكريون أنها هي التي حفظت قطاع غزة عربياً، ومعركة كفار ديروم، واحتلال مستعمرة ياد مردخاي وغيرها، كما أسهموا بدور مهم في تخفيف الحصار عن القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا.

كما كان للإخوان المصريين مشاركتهم الفعالة في معارك القدس وبيت لحم والخليل، وخصوصاً صور باهر، وكان من أبرز المعارك التي شاركوا فيها معركة رامات راحيل، واسترجاع مار الياس، وتدمير برج مستعمرة تل بيّوت قرب بيت لحم، والدفاع عن "تبة اليمن" التي سمّيت تبة الإخوان المسلمين، نظراً للبطولة التي أبدوها... وغيرها.

وقد استشهد من إخوان مصر في معارك فلسطين نحو مئة، وجرح نحو ذلك وأسر بعضهم، وكانت وطأة الإخوان شديدة على اليهود الصهاينة. غير أن الإخوان الذين قاموا بأدوار بطولية، كان مصيرهم الاعتقال والسجون قبل عودتهم إلى مصر، حيث تمّ حلُّ جماعة الإخوان المسلمين قبل أن تنتهي المعارك في 1948/12/8، وقامت المخابرات المصرية باغتيال الشيخ حسن البنا نفسه في 1949/2/11، قبيل توقيعها اتفاقية الهدنة مع الكيان الصهيوني. وكان ثمة علاقة ظاهرة بين حلّ جماعة الإخوان واغتيال البنا وبين جهاد الإخوان في فلسطين.

وقام الإخوان السوريون[49] بدور مشهود خصوصاً في معارك منطقة القدس، وقد تدربت كتيبة الإخوان السوريين في "قطنا" ثم سافرت إلى منطقة القدس، وقد شارك من الإخوان السوريين نحو مئة أخ، بقيادة المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية الدكتور مصطفى السباعي، وقد اشتركوا ببسالة في معارك القدس، مثل معركة باب الخليل، ومعركة القسطل، ومعركة الحي القديم في القدس، ومعركة القطمون، ونسف الكنيس اليهودي الذي اتخذه اليهود مقراً حربياً وغيرها.

وقد تفاعل الإخوان الأردنيون،[50] مع حرب فلسطين، وتكوَّنت من إخوان منطقة عمّان وما حولها سرية متطوعين تضم نحو 120 مجاهداً من الإخوان المسلمين، وسميت باسم سرية أبي عبيدة، وقد تولى قيادتها التنظيمية الإخوانية الحاج عبد اللطيف أبو قورة المراقب العام للإخوان المسلمين في الأردن في تلك الفترة، أما قيادتها العسكرية فقد تولاها الملازم المتقاعد ممدوح الصرايرة، وقد دخلت فلسطين في 1948/4/14 وتمركزت في عين كارم وصور باهر. وقد خاضت هذه السرية عدة معارك، واستشهد عدد من أفرادها مثل سالم المسلم وبشير سلطان.

أما في العراق فبعد أسبوع واحد من قرار التقسيم أسهم الإخوان المسلمون في العراق[51] بقيادة الشيخ محمد محمود الصواف بشكل فعال في تأليف "جمعية إنقاذ فلسطين" في بغداد، ولقد لبى نداء التطوع 15 ألفاً معظمهم ممن تدرب في الجندية أو الشرطة، وكان للإخوان المسلمين في تلك الفترة دور أساسي في تعبئة الجماهير للجهاد.

وتألَّف من المتطوعين للجهاد فوجا الحسين والقادسية وسرية المغاوير وغيرها، وكلما تدرب فريق منهم كانت الجمعية ترسله إلى اللجنة العسكرية في دمشق. وفي 1948/1/7 وصلت أول سرية مغاوير إلى دمشق، وبعد أسبوع وصل فوجان آخران مع السلاح والعتاد، وبينما كانت الجمعية تستعد لإرسال فوج جديد تلقت إنذاراً من اللجنة العسكرية بأن تكفَّ عن إرسال المتطوعين حتى إشعار آخر!! وقد وصلت كتيبتا "الحسين" و"القادسية" من متطوعي العراق، كل واحدة تتكون من 360 مقاتلاً، إلى فلسطين في آذار/ مارس 1948.

كما شارك ضمن الأفواج التي ذهبت للجهاد الكثير من "إخوان" العراق الذين قاتلوا ضمن قوات جيش الإنقاذ، ورأوا الكثير من تخاذل وضعف وسوء إدارة قيادته، وعلى رأسه فوزي القاوقجي، إلا أنهم بذلوا ما استطاعوا في المعارك التي شاركوا فيها خصوصاً في شمال فلسطين.

رابعاً: أبرز الرموز والتيارات الإسلامية:

1.الحاج أمين الحسيني:[52]

يرجع نسب الحاج أمين الحسيني (1895–1974/7/4) إلى إحدى أكبر عائلات فلسطين وأكثرها نفوذاً، لانتسابها لآل البيت. التحق الحاج أمين في القاهرة بالأزهر، وتتلمذ على الفكر الإصلاحي النهضوي على يدي الشيخ محمد رشيد رضا في مدرسة "دار الدعوة والإرشاد". وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة 1914، ذهب إلى إسطنبول ليلتحق بالكلية العسكرية، وليتخرج برتبة ضابط صف في الجيش العثماني. غير أنه انضم لاحقاً لقوات الثورة العربية بقيادة الشريف حسين. ثم ما لبث أن أخذ موقفاً عدائياً تجاه الاحتلال البريطاني، بعد انكشاف خداعه ودعمه للمشروع الصهيوني.

وقد اتسم الحاج أمين منذ صغره بالذكاء والبراعة في القيادة وسحر الشخصية وحسن التصرف.[53] وهو "شجاع صبور مخلص"،[54] وكان يتميز بأنه كتوم يخفي تصرفاته، ويمتاز بالغموض الذي يخفي خلفه فاعلية كبيرة، وقد وصفه المندوب السامي هارولد ماكمايكل Harold MacMichael بأنه سيدٌ من سادة المكر والخداع، وأنه المحرك لأكثر من ثورة واضطراب.[55]

ويصفه جون مارلو John Marlowe بأنه "كان واحداً من أقدر السياسيين الذين أنجبهم الشرق الأدنى في السنوات الماضية"؛[56] ويضيف بأنه كان يستطيع أن يثير التعصب الديني دون أن يكون هو متعصباً، وهو شخص "مقتدر جدّاً وخطير جدّاً"، حيث ارتكب البريطانيون خطأً في تقديره، لم ينتبهوا له إلّا بعد أن كان الوقت متأخراً جدّاً.[57] أما عارف العارف أحد أبرز مؤرخي فلسطين، والذي احتك به وبرجالات فلسطين خصوصاً في الفترة 1917–1948، فيقول بأنه "أخلص من أنجبته فلسطين للقضية العربية".[58]

وقد نمت شخصية الحاج أمين في فلسطين وازدادت شعبيتها خصوصاً بعد أن صار مفتي القدس (1921) ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى (1922).[59] وقام باستخدام منابر المساجد لخدمة القضية وتوعية الناس، ومواجهة اليهود الصهاينة والاستعمار البريطاني، وكانت المساجد في تلك الفترة منابر إشعاع وطنية، ومراكز تجميع وانطلاق شعبي للتظاهرات والثورات الفلسطينية.

ومع مرور الزمن صار الشخصية الأولى في فلسطين، حتى إن أحمد الشقيري، أحد البارزين في الحركة الوطنية في تلك الفترة، يصفه قائلاً "لقد كان الحاج أمين هو ذلك القائد معبود الشعب، فلا مكان للتغيير ولا إمكان"،[60] وكتبت جريدة فلسطين تقول عنه، عندما قررت الحكومة البريطانية حرمانه من مؤتمر المائدة المستديرة سنة 1939، "هو الفرد الذي تمثلت فيه أمة، والأمة التي تجمعت إرادتها في فرد".[61]

وقد ظلّ الحاج أمين الشخصية الأولى في نظر الشعب الفلسطيني ولنحو ثلاثين عاماً؛ وكان إلى حدٍّ كبير شخصية إجماع بين القوى الوطنية الفلسطينية. ولم تَحُلْ عمامته وعباءته ولا موقعه كمفتٍ، من قبول الاتجاهات الوطنية والقومية والإسلامية لقيادته.

ولم يشمل نفوذ الحاج أمين المسلمين فقط ولكنه شمل النصارى أيضاً، فلقد كان من الزعماء القلائل الذين استطاعوا أن يكسروا حاجز الطائفية، بحيث أصبحت شخصيته رصيداً للطرفَين فبقدر ما كان الحاج أمين "سيف الدين الحاج أمين" عند المسلمين فهو كذلك "حاج أمين يا مفتينا" التي ينشدها الشباب النصارى في كنيسة القيامة،[62] حتى إن جورج أنطونيوس، المؤرخ المعروف، كان يعتقد أن المفتي قديس!![63] وكان مسيحيو فلسطين يثقون بشكل عام بقيادته، حتى إن المسيحيين كانوا يتمتعون بتمثيل قوي داخل الحزب العربي (حزب المفتي)، يقترب من نحو ثلاثة أضعاف نسبتهم العددية في فلسطين.[64] مع ملاحظة ارتفاع نسبتهم في الطبقة المثقفة، ونشاطهم السياسي.

نجح الحاج أمين خصوصاً في الثلاثينيات والأربعينيات في الجمع بين الزعامة الوطنية للشعب الفلسطيني، وبين الزعامة العربية وكذلك الزعامة الإسلامية. وكان من أكثر الزعامات العربية والإسلامية شهرة واحتراماً. فقد تفاعل مع الأحداث، حتى ارتدَت شخصيته طابع البطل القومي للأمة العربية، وازداد نفوذه حتى أصبح في ثلاثينيات القرن العشرين الشخصية الإسلامية الأولى من الناحية الروحية والنفوذ الروحي.[65] وبالتالي، فقد أكسب البُعد الإسلامي الواضح في شخصيته قضية فلسطين بُعداً إسلامياً عالمياً، وأسهم إلى حدٍّ كبير في التعريف واستنهاض الدعم للقضية الفلسطينية في العالم الإسلامي.

وعلى سبيل المثال، ففي بغداد (عندما كان لاجئاً إليها) وقبل نهاية سنة 1940 أصبح المفتي الحاج أمين شخصية كبرى وعملاقة في السياسة العربية، وخصوصاً في العراق،

إلى درجة أنه كان وراء تعيين طه الهاشمي رئيساً للوزراء، وزاد نفوذه لدرجة أن الناس أصبحوا ينتظرون رؤيته للتبرك به، كما أن أركان الجيش كانوا يبدأونه بالزيارة قبل زيارتهم للوصي على العرش العراقي!![66]

كان هناك محاولات لتشويه صورة الحاج أمين بسبب علاقاته بهتلر وألمانيا النازية. والحقيقة أن ألمانيا كانت ممراً إجبارياً بالنسبة للحاج أمين؛ إذ اضطر بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية للهرب من لبنان إلى العراق لئلا يسلمه الفرنسيون للإنجليز. وبعد أن فشلت ثورة رشيد عالي الكيلاني، وسيطر البريطانيون على العراق، اضطر للهرب إلى إيران ثم إلى تركيا حتى استقر به المقام في ألمانيا. ومع ذلك فقد سعى للاستفادة من وجوده هناك لمحاولة إصدار تصريح بدعم استقلال الدول العربية تحت الاحتلال البريطاني، ومعارضة إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين. وأشرف على تدريب الألمان لمئات العرب تدريباً عسكرياً، وتجهيز أبناء فلسطين للمعركة المقبلة، وأقيم في جزيرة رودس مخزن كبير للأسلحة، كما خُبّئ في ليبيا 30 ألف قطعة سلاح من أجل إرسالها لفلسطين في الوقت المناسب.[67]

وفي ذلك يقول الحاج أمين "أنا لم أذهب إلى المحور كي أضع نفسي تحت تصرفهم، لقد ذهبت في سبيل خدمة قضيتي التي هي قضية أمتي بكاملها... ذهبت مفاوضاً لا متعاوناً. كنت أتوق لأن تكون إقامتي ذات نفع لفلسطين خاصة ولوطني العربي الكبير عامة وللإسلام الذي أهمل أكبر مهمة من أجل إعلاء كلمته".[68]

قبضت فرنسا على الحاج أمين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لكنه تمكن من الهرب إلى مصر، فعمّت فلسطين الأفراح "فأقيمت الزينات في طول البلاد وعرضها وتألفت المواكب وشمل الناس سرور عظيم"، على حدٍّ تعبير خليل السكاكيني.[69] وتابع الحاج أمين قيادته للشعب الفلسطيني من خلال رئاسته للهيئة العربية العليا التي تشكلت في حزيران/ يونيو 1946. غير أن جانباً كبيراً من البيئة الرسمية العربية التي كانت تحت النفوذ البريطاني والفرنسي صارت بيئات معادية أو مخاصمة للحاج أمين، وبالتالي عملت على تجاوزه وتجاهله وتهميشه، ومحاولة فرض أجندتها على الهيئة العربية العليا التي تمثل الشعب الفلسطيني.[70]

وفيما يلي بعض الوقفات والاستخلاصات المتعلقة بالحاج أمين:

- لم ينشئ الحاج أمين تنظيماً أو حركة إسلامية، كما لم يُقدّم رؤية إسلامية حركية مكتوبة، وهو ما جعل عديدين يتجاوزونه عند الكتابة عن التيارات والاتجاهات الإسلامية، ويحصرونه في دائرة الزعامة الوطنية. وربما يعود ذلك، لاستغراقه الكامل المبكر في قيادة العمل الوطني، ولطبيعته الدينامية العالية. ثم إن زعامته لجميع أهل فلسطين بمختلف اتجاهاتهم وطوائفهم جعلته يعطي مرونة أكبر في استيعابه لجميع الأطراف، مما أدى إلى عدم وجود منهجية إسلامية حركية جهادية تعتمد التربية والتركيز في أعماله. غير أن الاستقراء والتحليل الموضوعي لسلوك الحاج أمين وأدائه السياسي، يظهر أنه عبّر عن هوية إسلامية عميقة أنزلت رؤيتها على أدائها الوطني وعلى بيئتها العربية. فقد مثّل الحاج أمين نموذجاً استثنائياً خاصاً في التاريخ الحديث لفلسطين والعالم العربي. إذ نجح، كما لاحظنا، ولعشرات السنوات في الجمع بين الانتماء الإسلامي والزعامة الوطنية بشكل سلس.

  وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، تظهر روحه الإسلامية في رعايته لجيش الجهاد المقدس مع وضوح الدلالة الإسلامية للجيش "الرسمي" للهيئة العربية العليا الممثلة لشعب فلسطين، وفي علاقاته القوية بالإخوان المسلمين. كما أنه دفع غالياً ثمن التزامه الإسلامي، حصاراً واستبعاداً وتهميشاً، من القوى السياسية العربية، وخصوصاً منذ أن تولى قيادة الهيئة العربية العليا سنة 1946، ثم من نظام عبد الناصر في خمسينيات القرن العشرين.

- انعكست البيئة المجتمعية والصراع والتنافس العائلي على قيادة العمل الفلسطيني في أثناء الاحتلال البريطاني وظهر التنافس بين الحسينية والنشاشيبية، وبين "المجلسيين" وخصومهم. وحاول البريطانيون والصهاينة وخصوم الحاج أمين اللعب على هذا الوتر باعتبار الحاج أمين زعيماً للحسينية ورئيساً للمجلس، وهو ما أضعف الحركة الوطنية، وانعكس سلباً على أداء الحاج أمين.

- حاول البريطانيون استيعاب الحاج أمين وتكبيله بقيود الوظيفة من خلال عمله مفتياً للقدس (منذ 1921) ورئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى (1921–1937). وبالتأكيد، فإن العمل الوظيفي الرسمي تحت أعين البريطانيين كان معوقاً لشخصية الحاج أمين التي اتسمت بالنزوع للعمل الثوري والمسلح قبل ذلك. كما وجه عديدون انتقادات للحاج أمين، لكونه حرص على وتيرة عمل وطني لا تصل إلى مستوى الثورة،

وأنه نأى بنفسه أن يتولى القيادة المباشرة للحركة الوطنية، غير أن الحاج أمين كان يرى أن البريطانيين كانوا قادرين بسهولة على قمع أي تحرك ثوري منظم، وأن الشعب الفلسطيني ليس جاهزاً تماماً للدخول في تجربة ثورية تملك عناصر الاستمرار والنجاح. ولذلك، يبدو أنه وفق ميزان السلبيات والإيجابيات رجحت لديه كفة الإعداد التدريجي، والعمل السياسي والتعبوي إلى أن تنضج الظروف المناسبة، بينما اتخذت رعايته للعمل العسكري المقاوم شكلاً سرياً محسوباً. وظلّ كذلك حتى نزل للميدان وتولى القيادة المباشرة سنة 1936.

- نجح الحاج أمين في استيعاب معظم العلماء الفاعلين في الشعب الفلسطيني، خصوصاً المعارضين بقوة للاحتلال البريطاني وللمشروع الصهيوني والداعمين لخط المقاومة. غير أن علاقته لم تكن واضحة تماماً بالشيخ عز الدين القسام قبل استشهاده، مع ملاحظة أن القسام كان أكثر استعجالاً في إعلان الثورة والمقاومة المسلحة؛ كما كان القسام يرى تركيز الإنفاق على المقاومة، وأن الإنفاق على صيانة المساجد يكون في الحدود الضرورية، وأن لا حاجة للإنفاق على تزيينها. غير أن القسام ظلّ إماماً ومأذوناً يتبع المجلس الإسلامي الأعلى الذي يرأسه المفتي، واستخدم ذلك غطاء لعمله دون أن يكون نشاطه محلّ اعتراض المفتي. ثم إن الحاج أمين عندما نزل للميدان سنة 1936 للقيادة المباشرة للعمل الفلسطيني، أعطى القادة القساميون ولاءهم له وعملوا تحت توجيهاته، مثل باقي القادة العسكريين الميدانيين. وكذلك حافظ الحاج أمين على علاقة قوية بالشيخ حسن البنا وبجماعة الإخوان المسلمين، وكانوا محل ترحيبه ودعمه في فلسطين، وانضم الكثير من أنصار المفتي إلى عضويتهم؛ وكان الحاج أمين أيضاً محط احترامهم وتقديرهم.
- مثَّل الحاج أمين نموذجاً لـ"الإسلامية الوطنية"، وظلّ طيلة حياته ملتزماً بخطه الإسلامي وبخط المقاومة المسلحة وعدم التنازل عن أي جزء من فلسطين. وقد حورب وحوصر بسبب ذلك. وجاءت نكبة فلسطين 1948، وسيطرت الأردن على الضفة الغربية ومصر على قطاع غزة، ومُنع من الإقامة والعمل هو وجهازه التنفيذي فيهما، لتضعف قدرته على العمل والتأثير. ومع صعود المدِّ القوي واليساري العربي ومحاصرة التيار الإسلامي، تعرَّض الحاج أمين للمزيد من التضييق والتهميش، انتهى بخروجه من مصر سنة 1958، وبلعبه دوراً ضئيلاً متراجعاً مع ظهور الفصائل الفدائية الفلسطينية وإقامة منظمة التحرير الفلسطينية.

2. جماعة القسام "الجهادية":

الشيخ عز الدين عبد القادر مصطفى القسام، من مواليد بلدة جبلة قضاء اللاذقية في سورية سنة 1882، درس في الأزهر، وعاد ليكون أحد دعاة الإسلام النشطين في بلدته في سورية، كان من قادة الثورة السورية ضدّ الفرنسيين خلال الفترة 1918–1920، وقد هرب إلى فلسطين بعد توقفها، واستقر في حيفا.

عرف الشيخ القسام بتقواه وورعه، وذكائه، وسعة علمه، وكان سلفيّ العقيدة، محارباً للانحرافات والبدع، قدوة في سلوكه وما يدعو إليه. وكان القسام شجاعاً جريئاً، ومن أكثر العلماء توقاً للجهاد، كما كان متفاعلاً مع الواقع، ذا شخصية اجتماعية منفتحة محببة، تحمل هموم الناس، وتشاركهم أفراحهم وأتراحهم. وكان حسن السيرة والعشرة، ومحدِّثاً لَبِقاً وخطيباً بارعاً، قوي الحجة، وحظي بشعبية كبيرة.[71]

تعود نشأة جماعة القسام إلى سنة 1925، عندما ابتدأ الشيخ عز الدين القسام في إنشاء تنظيم جهادي سري، يستمدُّ فهمه ومنهجه من الإسلام، ويَعدّ الجهاد طريقاً وحيداً لإنقاذ فلسطين.[72] وقد رأى إميل الغوري هذا التنظيم "أخطر منظمة سرية، وأعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، بل تاريخ الجهاد العربي الحديث".[73] وقد أُطلق على هذا التنظيم اسم "المنظمة الجهادية"،[74] ولكن غلب عليه بعد استشهاد القسام اسم جماعة القسام أو القساميون،[75] وكان شعار التنظيم "هذا جهاد... نصر أو استشهاد".[76]

وكانت جماعة القسام لا تقبل أي عضو إلا بعد انتقاء وتمحيص، ولا يدخل في عضويتها إلا من كان "مؤمناً مستعداً أن يموت في سبيل بلاده"، ومن أهل الدِّين والعقيدة الصحيحة.[77] وتشكلت القيادة الأولى للتنظيم القسامي سنة 1928، وضمت بالإضافة إلى رئيسها القسام كلاً من العبد قاسم، ومحمود زعرورة، ومحمد الصالح الحمد، وخليل محمد العيسى. وكان مركزها حيفا،[78] وبلغ عدد أفراد الجماعة سنة 1935 نحو 200 منتظم أكثرهم يشرف على حلقات توجيهية من الأنصار، الذين يصل عددهم إلى 800.[79]

وقد أنشأ تنظيم القسام خمس وحدات متخصصة تضمنت وحدة لشراء السلاح، ووحدة للتدريب، ووحدة للتجسس على اليهود والإنجليز، ورابعة للدعاية للثورة، وخامسة للاتصالات السياسية.[80] أما ماليتها فقد اعتمدت على اشتراكات الأعضاء، وتبرعات الموثوقين،[81] وكان من منهج التنظيم أن يتدرب جميع أفراده على حمل السلاح

بحيث يكونون مستعدين لخوض معارك الجهاد عند إعلانها، وكان على كل عضو أن يدبر أمر تجهيز نفسه بالسلاح.[82] ولم يكن حال أغلب الأعضاء ميسورة، إذ كانوا يكِدّون من أجل لقمة العيش، ومع ذلك "فقد منعوا أنفسهم الخبز من أجل ابتياع السلاح"، ومن أجل أن يعتمدوا على أنفسهم في العمل والإعداد.[83]

ويبدو أن انتقال جماعة القسام إلى مرحلة التسليح والتدريب كان في أواخر سنة 1928،[84] وجاءت ثورة البراق في آب/ أغسطس 1929 لتعزز الاتجاه العسكري لدى الجماعة، فأخذ القسام يسهم في عملية التدريب بنفسه، والتي شملت رحلات ليلية وحركات استطلاعية وتمارين على إصابة الهدف.[85] وعندما قرّرت الجماعة أن تعلن عن نفسها في تشرين الثاني/ نوفمبر 1935 كانت تملك حسبما ذكر صبحي ياسين، وهو أحد أعضائها، ألف قطعة سلاح وقاعدة تسليح في منطقة اللاذقية.[86]

وعلى الرغم من أن جماعة القسام لم تعلن عن نفسها إلا في وقت متأخر، إلا أنها قامت بعدد من العمليات العسكرية، خصوصاً في الفترة 1930–1932، وقد بدت وكأنها عمليات فردية. ويبدو أن هذه العمليات كانت من باب كسر حاجز الخوف لدى أفراد الجماعة، وجسّ النبض وردود الفعل لدى العرب والإنجليز واليهود، وربما كانت تعبيراً عن الحماس والتفاعل مع القضايا الوطنية، ومحاولة تصعيدها بما يتناسب وخطة الإعداد والتعبئة.

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1935 أعلنت جماعة القسام "الجهادية" الجهاد، وقد توافق ذلك مع الازدياد الهائل في الهجرة والاستيطان، وتهريب السلاح لليهود، واشتداد المراقبة على القسام وإخوانه. وتلخصت خطة القسام في الخروج إلى القرى، وحضّ الناس على شراء السلاح، والاستعداد للثورة، وحشد العناصر المؤيدة للجماعة.[87] وقد اختفى القسام وعدد من إخوانه في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر بعد أن باع بيته الوحيد في حيفا، وباع أصحابه حلِيّ زوجاتهم وبعض أثاث بيوتهم ليوفروا الرصاص والبنادق.[88]

وبعد فجر يوم 1935/11/20، طوَّقت قوات كبيرة من الشرطة تقدر بـ 400 رجل، معظمهم من الإنجليز، القسام وعشرة من إخوانه في أحراش يعبد عند قرية الشيخ زيد. وقد بدأت المعركة في الخامسة والنصف صباحاً، واستمرت أربع ساعات ونصف الساعة.[89] وحسب المصادر العربية فقد خسر الإنجليز 15 رجلاً،[90] لكن

التقارير البريطانية أشارت إلى مقتل شرطي واحد يدعى موت Mott وجرح العريف ريدر Reader في يده.[91] أما جماعة القسام فقد استشهد في هذه المعركة الشيخ عز الدين القسام ويوسف الزيباوي ومحمد حنفي المصري، وقبض على نمر السعدي وأسعد المفلح اللذَين أصيبا بجراح، كما قُبض على عربي بدوي ومحمد يوسف وأحمد جابر وحسن الباير.[92]

وقد أحدث استشهاد القسام ورفاقه هزة كبرى في فلسطين، وخرج في جنازتهم نحو 30 ألفاً جاؤوا إلى حيفا من مختلف أنحاء فلسطين،[93] وكانت أكبر جنازة في تاريخ فلسطين حتى ذلك الوقت. ولولا أن السلطة سحبت "عساكرها" من وجه الجنازة لوقعت الثورة الكبرى في فلسطين قبل موعدها بخمسة أشهر على حدِّ تعبير صبحي ياسين.[94] كما أحدث استشهاد القسام تغييراً أساسياً في مسار الحركة الوطنية الفلسطينية، فقد كرّس بديل الجهاد بعد سنوات طويلة من الحركة السياسية غير المجدية، وألهبت حركته، و"تضحيته" الحماس، و"صارت مثلاً رائعاً للجرأة والجهاد العلني ضدّ الإنجليز"،[95] "وقامت البلاد وقعدت واهتزت أيما اهتزاز، وزلزلت أيما زلزال، ومن ذلك الحين اشتدت كراهية العرب لحكومة الانتداب، وأخذت تظهر هذه الكراهية بأشكال عنيفة".[96] وأطلق شعب فلسطين على القسام اسم "أبو الوطنية"،[97] وقد شعر الزعماء السياسيون العرب في فلسطين بحدّة المأزق الذي وضعوا فيه، فقد أوضح المندوب السامي في رسالة له إلى وزير المستعمرات في 1935/12/7 ما أحدثه مقتل القسام ورفاقه من أثر كبير. وقال المندوب: إن زعماء الأحزاب العربية الخمسة قد اجتمعوا به يوم 25 تشرين الثاني/ نوفمبر وأخبروه أنهم ما لم يتلقوا على مذكرتهم رداً يمكن اعتباره بشكل عام مرضياً لمطالبهم فإنهم "سيفقدون كل تأثير على أتباعهم، وستسود الآراء المتطرفة واللا مسؤولة، وسيتدهور الوضع السياسي بسرعة".[98]

وهكذا فإن القسام كان محقاً عندما قال قبل ابتداء المعركة: إنه وإخوانه عبارة عن عود ثقاب سيشعل الثورة في البلاد.[99]

من خلال الدراسة التي قام بها كاتب هذه السطور للتجربة القسامية، **يمكن استخلاص النقاط التالية:**

- قدم القسام من خلال حركة "الجهادية" رؤية إسلامية جهادية خالصة، قائمة على تحرير الأرض المباركة من الاحتلال البريطاني وإفشال المشروع الصهيوني.

• جمعت حركة "الجهادية" بين العمل الدعوي، والتربوي، والعسكري، والأمني، والتوعية السياسية ضمن بنية حركية سرية منضبطة.

• تميز أعضاء الجهادية أو القساميون بمستوى عالٍ من السرية، ومن الحرص على الإخلاص واحتساب العمل لله. وهو ما حمى البنية التنظيمية للحركة على مدى عشر سنوات (إلى حين الإعلان عن نفسها)، مع تنفيذ عمليات لم ينكشف كثير منها إلا بعد أعوام عديدة. ولعل حرص من تبقى من القساميين على السرية والاحتساب جعلهم لا يتحدثون عن حركتهم وجهادهم إلا بعد عشرات الأعوام قبيل وفاتهم، ولعل عديدين لقوا ربهم وأسرارهم في صدورهم.

• نجحت حركة الجهادية في تكوين تنظيم حركي مجاهد، جُلُّهم من طبقات الشعب من الفلاحين والعمال، وكانت قيادة الحركة إلى جانب القسام من الفلاحين ذوي التعليم البسيط، وهو إنجاز كبير في بيئات اعتادت على هيمنة وريادة الطبقات المثقفة على العمل السياسي والحركي والأيديولوجي.

• اتسمت الحركة بالجدية والدينامية العالية، وقرنت بين الإيمان العقائدي والانتماء التنظيمي وبين الجانب العملي والاستعداد منذ البداية للتضحية؛ فألزمت أعضاءها باقتناء السلاح وبالتدريب العسكري، وجعلت رسوم الاشتراك تزداد مع ارتفاع الموقع القيادي.

• تميزت الحركة بالاعتماد على الذات، وتبرعات الموثوقين غير المشروطة، وبالتالي امتلكت حرية قرارها، ولم تكن مرهونة لأحد.

من جهة أخرى، عانت حركة الجهادية مما يلي:

• كان القسام نفسه عالماً وفقيهاً وقائداً ومُنظِّراً حركياً، لكن حركته لم تتحول بعد استشهاده إلى مدرسة فكرية، ولم تحافظ على نفسها كتنظيم حركي إسلامي في السنوات التالية. ذلك أن استشهاد القسام، أحدث فراغاً كبيراً، لافتقار الحركة لأمثاله في الإطار الفكري، بالرغم من كثرة القادة الميدانيين المتميزين جهادياً وعسكرياً.

• قدمت الحركة معظم قادتها شهداء، سواء باستشهاد القسام عند إعلان انطلاقتها، أم في الثورة الكبرى 1936–1939. وهو ما أضعف قدرتها على النمو وعلى إعادة تنظيم نفسها بشكل فعال، ولذلك كان أثرها محدوداً في حرب 1948، ثم تلاشى بعد ذلك.

• اقتصرت حركة القسام بعد استشهاده على العمل العسكري الجهادي، فلم تُطور لنفسها تشكيلاً أو حزباً سياسياً، كما لم تطور أطراً تنظيمية تربوية ودعوية كجماعة أو حركة إسلامية.

3. الإخوان المسلمون:

إن الحديث عن جماعة الإخوان المسلمين لا يكتسب أهميته فقط من دورها الذي أدَّته في فترة الأربعينيات في فلسطين، وإنما لأن تيار الإخوان المسلمين أصبح هو التيار الإسلامي الرئيسي في أوساط الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة وخارجها وإلى وقتنا الحاضر.

أسّس الشيخ حسن البنا جماعة "الإخوان المسلمين" في آذار/ مارس 1928 في مدينة الإسماعيلية بمصر.[100] وقد هدفت هذه الجماعة إلى إحياء معاني الإسلام الصحيحة في النفوس، والالتزام بتعاليمه عقيدة وسلوكاً ومنهج حياة، وبناء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، وتخليص البلاد الإسلامية من الاستعمار بكافة أشكاله، وإقامة الخلافة الإسلامية الواحدة على بلاد المسلمين، والتقدم لسيادة وأستاذية العالم.[101] وعدَّت الجماعة نفسها، وفق المفهوم الشامل للإسلام، "دعوة سلفية... وطريقة سنية... وحقيقة صوفية... وهيئة سياسية... وجماعة رياضية... ورابطة علمية ثقافية... وشركة اقتصادية... وفكرة اجتماعية".[102]

بدأ اهتمام جماعة الإخوان المسلمين في مصر بفلسطين مبكراً، غير أنه برز في أثناء الثورة الكبرى 1936–1939 عبر الدعاية والإعلام والمظاهرات وجمع التبرعات. وكانت أولى الإشارات لما بدأ الإخوان نشر دعوتهم في فلسطين في آب/ أغسطس 1935، عندما زارها عبد الرحمن الساعاتي ومحمد أسعد الحكيم، وهناك لقيا ترحيباً من الحاج أمين، حيث قاما بنشر دعوتهم.[103] وخلال الحرب العالمية الثانية (1939–1945) زادت زيارات الإخوان لفلسطين، وأخذ عدد من أبناء فلسطين ينضمون للإخوان، غير أن تشكيل فروع للإخوان لم يتم، على ما يظهر، إلا بعد انتهاء الحرب، حيث خفَت ظروف القهر والتشديد البريطاني، ونشطت الحركة السياسية الفلسطينية. ويبدو أن أول فروع الإخوان إنشاءً كان فرع غزة برئاسة الشيخ عمر صوان، بينما تولى ظافر الشوا أمانة السر. ثم تمّ إنشاء فروع للإخوان في شهرَي تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر 1945 في القدس والخليل وغزة وحيفا ويافا؛ كما نشأت في الفترة نفسها مجموعات شكّلت أنوية

لفروع الإخوان في نابلس وبئر السبع ورام الله واللد وأريحا.[104] وتتابع إنشاء الفروع في قلقيلية، وطولكرم، والمجدل، وسلواد، حتى زادت الفروع عن عشرين فرعاً.[105]

أما فرع القدس، فتولى أمانة سره وإدارة مكتبه محمد أسعد الإمام الحسيني، شهد الفرع حفل افتتاح مميز في 1946/5/5 حضره الزعيم الفلسطيني جمال الحسيني. وكان فرع يافا برئاسة ظافر الدجاني، وفرع حيفا برئاسة الشيخ عبد الرحمن مراد.

وقد نشط الإخوان المسلمون في فلسطين بين فترة الإنشاء (أواخر 1945) وبين قرار التقسيم (1947/11/29) في نشر دعوتهم وتأسيس شُعَبهم وفروعهم، وافتتاح المكتبات والأندية وإلقاء المحاضرات؛[106] وفي مجالات الدعوة والتربية والتوعية الإسلامية، والتعريف بالخطر الصهيوني على فلسطين، والتعبئة للجهاد. وأشارت التقديرات إلى أن إجمالي عدد الإخوان في فلسطين قد بلغ في سنة 1947 نحو 20 ألفاً.[107]

وقد دلّت القرارات الصادرة عن مؤتمراتهم العامة في سنتَي 1946 و1947 على قوّتها ومتابعتها للأحداث السياسية، وعلى مضمونها الجهادي المتقدم.[108] ففي المؤتمر الكبير الذي عقده الإخوان المسلمون قبيل قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، في حيفا في 1947/10/27، اتخذت عدة قرارات، كان من أبرزها:

- يعلن الإخوان المسلمون تصميمهم على الدفاع عن بلادهم بجميع الوسائل، واستعدادهم للتعاون مع جميع الهيئات الوطنية في هذا السبيل.
- يعلن المؤتمرون أن هيئة الإخوان المسلمين ستحمل نصيبها كاملاً من تكاليف النضال.[109]

ومما يلفت النظر، أنه عندما تشكلت اللجنة القومية في القدس في 1948/1/26 لتتولّى أمور رعاية المدينة وحمايتها في أثناء حرب 1948، فإنها كانت تتكون من 14 عضواً. وقد كان من بين هؤلاء خمسة أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين في القدس، وهم: شريف صبوح، وأسعد الإمام، وطاهر بركات، وجميل وهبة، وعيد عابدين.[110] وهذا مؤشّر قوي على ما تمتّعت به جماعة الإخوان أو الشخصيات المنتمية لها من احترام ونفوذ وتأثير في القدس، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كثرة الاتجاهات، والأحزاب، والجمعيات، والتنوع الطائفي الديني في القدس.

وبالفعل، وكما لاحظنا سابقاً، فقد أثبت الإخوان مصداقيتهم من خلال المشاركة الفاعلة والتضحيات التي قدموها في حرب 1948.

وإذا ما أردنا تقييم أداء الإخوان عن الفترة التي درسناها، **فلعلنا نستخلص ما يلي**:

- تمكَّن الإخوان المسلمون الفلسطينيون من تحقيق انتشار واسع، قياساً بالفترة الزمنية بين انتهاء الحرب العالمية الثانية وبين حرب 1948؛ ويعود ذلك إلى الطبيعة الإسلامية المنفتحة المعتدلة للشعب الفلسطيني، وتطلعهم للنموذج الإسلامي في مواجهة المشروع الصهيوني؛ وإلى الطبيعة الشاملة والمعتدلة لجماعة الإخوان، وطرحها السياسي والجهادي المتقدم، وديناميتها العالية، وإلى قدرة الإخوان المسلمين المصريين ودعاتهم على نشر دعوة الإخوان ونسج علاقات إيجابية مع الكثير من الرموز الاجتماعية والدينية في المجتمع الفلسطيني، وإلى ترحيب الحاج أمين الحسيني والقيادة الفلسطينية بالإخوان وتسهيل انتشارهم في البيئة الفلسطينية.

- نجح الإخوان الفلسطينيون في تجاوز العقبات والإشكالات والصراعات العائلية والحزبية الفلسطينية، وتمكنوا من تحشيد مؤيدين وكسب عضوية أفراد من مختلف طبقات المجتمع؛ مثقفين وفلاحين وعمال وغيرهم. كما نجحوا في عمل علاقات إيجابية مع مسيحيي فلسطين.

- دلّ أداء الإخوان على رؤى سياسية ناضجة، وعلى تفاعل متقدم مع الجوانب الاجتماعية والحياتية الفلسطينية.

- قام الإخوان بدور مُشرِّف في حرب 1948، قياساً بإمكاناتهم المتاحة، وقدموا نموذجاً متقدماً عكس روح الأمة الواحدة بشكل صادق وفعّال مع قضية فلسطين، من خلال قدوم أعداد كبيرة المتطوعين من الإخوان من مصر وسورية والأردن والعراق، ومشاركتهم الفعالة في القتال، واستشهاد الكثيرين على ثرى فلسطين.
  ودفع الإخوان المصريون ثمناً غالياً بسبب مشاركتهم الفعالة في الحرب، فحُظرت جماعتهم في مصر، واعتقلت كوادرهم وقياداتهم، وصودرت ممتلكاتهم، وتمّ اغتيال مرشدهم حسن البنا رحمه الله، وهو ما عدَّه الإخوان وسام شرف لهم، واستحقاقاً يؤدونه عن طيب نفس دفاعاً عن فلسطين.

- نجح الإخوان في ترسيخ وجودهم في فلسطين المحتلة، ووسط فلسطينيي الشتات، بعد نكبة 1948، فلم يكن تأسيسهم عابراً، وإنما أصبحوا أقوى التيارات الإسلامية في فلسطين وحتى وقتنا هذا.

من جهة أخرى:

- فإنَّ قِصر المدة بين نشأة الإخوان في فلسطين وحرب 1948 لم تعطهم وقتاً كافياً لبناء هياكلهم التنظيمية، ومؤسساتهم الدعوية والاجتماعية.
- ولم يتمكنوا خلال هذه الفترة من إبراز رموزهم وقياداتهم على المستوى الفلسطيني، وإن كان كثير منهم يحظى بالمكانة والاحترام على المستوى المحلي قبل انتمائه للإخوان.
- ظلّت إمكانات الإخوان وقدراتهم التعبوية الجهادية محدودة قياساً بحرب 1948 التي أخذت أبعاداً هائلة عربية ودولية، لكنهم قدّموا ما يستطيعون في تلك الظروف.

خلاصة:

- حافظت الدولة العثمانية على هوية فلسطين الإسلامية وحَمَتها على مدى أربعة قرون، غير أن أمتنا الإسلامية ونظمها السياسية عانت من عوامل الجهل والتخلف والتراجع الحضاري، والجمود الفقهي والفكري ومن غياب روح التجديد والإبداع، ومن التنازع الداخلي، ومن الركون إلى الدنيا. وقد أدّى ذلك إلى بروز عناصر الضعف السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي والتعليمي والاجتماعي، وضعف نظم الدولة القادرة على مواكبة التطور، والعجز عن بناء منظومات فعالة (نابعة من ديننا وتراثنا) قادرة على مواجهة التحديات المعاصرة، ومنافسة القوى العالمية الصاعدة؛ مما جعل عالمنا الإسلامي بما فيه فلسطين منطقة مكشوفة، يسهل على القوى الاستعمارية وأعداء الأمة استباحتها واحتلالها وتمزيقها، ونشر الأيديولوجيات الغربية في أوساطها.
- بانهيار الدولة العثمانية، تراجعت فكرة الخلافة الإسلامية، وأنشأت الدول الاستعمارية في معظم أنحاء العالم العربي والإسلامي نظماً سياسية خاضعة لنفوذها، وسمحت للتيارات العلمانية التي نشأت في جامعاتها ومؤسساتها بتصدّر مراكز القيادة والقرار، في الوقت الذي حاربت فيها التيارات الإسلامية النهضوية؛ وهيأت المجال لنشوء دول قطرية، لا تضع قياداتها أولوية كبرى لقضايا الأمة المركزية. وبالتالي، وجدت الشعوب نفسها غير قادرة على التعبير عن إرادتها، والقيام بدورها النهضوي والحضاري والوحدوي، وعاجزة عن مواجهة أعداء الأمة وخصوصاً

العدو الصهيوني. لقد أضعف عزل التيار الإسلامي عن مراكز القيادة وصنع القرار من قدرة هذا التيار على القيام بالدور الفعال المنشود، وحصر أدواره بأسقف منخفضة لا تتناسب مع إمكاناته المذخورة.

- أدّى وقوع المنطقة تحت السيطرة الاستعمارية، وخصوصاً الاستعمارَيْن البريطاني والفرنسي، وما أقامه من تقسيمات وحدود مصطنعة وفق اتفاقيات سايكس – بيكو وغيرها، وما التزم به تجاه المشروع الصهيوني من خلال وعد بلفور، إلى فرض برنامج قسري ممنهج تواطأت عليه القوى الكبرى ضدّ إرادة الشعب الفلسطيني وضدّ إرادة الأمة، وعُزلت فلسطين عن محيطها العربي والإسلامي، ليتم الاستفراد بها، وتمَّ توظيف التفاوت الهائل في الإمكانات لتوفير الغطاء للمشروع الصهيوني وحمايته ورعايته لإنشاء كيانه الغاصب، بالتزامن مع قمع وسحق إرادة الشعب والأمة.
- اتَّسم المشروع الصهيوني بقدرات تنظيمية وقيادية عالية، وبتوفر أدوات نفوذ عالمية تحت تَصرّفه، وبإمكانات سياسية وإعلامية ومالية وعسكرية متقدمة. في المقابل عانت الحركة الوطنية الفلسطينية من انعكاس حالة التخلف التي تشهدها الأمة على مجمل أدائها وتكوينها، فعانت من ضعف إمكاناتها، ومن ضعف خبراتها القيادية والتنظيمية، ومن انعكاس مظاهر التنازع والتنافس الداخلي سلباً على مجمل الأداء الجهادي والوطني.
- قاوم الشعب الفلسطيني بكل ما لديه من إمكانات متاحة الاحتلالَ البريطاني والمشروعَ الصهيوني، وتتابعت ثوراته وانتفاضاته وتضحياته التي وصلت ذروتها في الثورة الكبرى 1936–1939؛ والتي أجبرت بريطانيا في أيار/ مايو 1939 على إلغاء وعد بلفور والالتزام بإنشاء دولة فلسطينية خلال عشر سنوات؛ غير أنها نكثت لاحقاً بذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكان من الواضح أن المؤامرة أكبر من الشعب الفلسطيني وأكبر من إمكاناته.
- في الفترة 1918–1948 لم تكن الأفكار والأيديولوجيات الغربية اليسارية والعلمانية والقومية والقُطرية (الوطنية) قد ترسَّخت في البيئة العربية والإسلامية، كما أن الدولة القُطرية لم تكن قد نضجت وترسخت؛ ولذلك كان المضمون العام لحركة الناس وعملهم التعبوي وطروحاتهم وشعاراتهم ومقاومة العدو الصهيوني يستند إلى الإسلام بفهمه

البسيط المتسامح المعتدل. كما أن تفاعل جماهير الأمة مع قضية فلسطين كان كبيراً، وأخذ مظهراً عملياً في المشاركة المباشرة في الجهاد على أرض فلسطين، وحتى بالقيام بأدوار قيادية في إطار العمل المقاوم؛ كما في الأدوار التي قام بها على سبيل المثال عز الدين القسام (سورية)، وفوزي القاوقجي (لبنان)، ومتطوعو الإخوان المسلمين (مصر، وسورية، والأردن، والعراق...)، وجيش الإنقاذ (عدة بلدان)، وغيرهم.

- كان للتيار الإسلامي دور ريادي كبير في مقاومة المشروع الصهيوني والاحتلال البريطاني، سواء من خلال القيادة السياسية والدينية للحاج أمين الحسيني ورفاقه العلماء، أم من خلال حركة الجهادية بقيادة الشيخ الشهيد عز الدين القسام، أم من خلال جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين والبلاد العربية، وغيرهم من القوى.

هوامش الفصل الرابع

[1] انظر: عارف العارف، **المفصل في تاريخ فكرة القدس** (القدس: فوزي يوسف، 1961)، ج 1، ص 365–366؛ وأحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار، 1969)، ص 42.

[2] انظر: عجاج نويهض، **رجال من فلسطين** (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1981)، ص 98–99.

[3] المرجع نفسه، ص 134–135؛ وانظر أيضاً: خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا** (د.م: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1982)، ص 134–135.

[4] بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917–1948**، سلسلة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رقم 57 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981)، ص 11.

[5] محمد عزة دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة: انبعاثها ومظاهرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى** (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، د.ت)، ص 187.

[6] **مذكرات السلطان عبد الحميد**، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد (القاهرة: دار الأنصار، 1978)، ص 13.

[7] انظر: فيليب حتّي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة كمال اليازجي (بيروت: دار الثقافة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، 1959)، ج 2، ص 349؛ وفلاديمير لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية الحديثة**، ترجمة عفيفة البستاني (موسكو: دار التقدم، 1971)، ص 382.

[8] بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 11.

[9] انظر: حسان علي حلاق، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897–1909**، ط 2 (بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر، 1980)، ص 86–90، و101–105.

[10] سمير أيوب، **وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني**، ج 1، ص 128؛ وصالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن** (بيروت: دار الفتح، 1970)، ص 31.

[11] **مذكرات السلطان عبد الحميد**، ص 65.

[12] سمير أيوب، **وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني**، ج 1، ص 269–270.

[13] مقدمة **مذكرات السلطان عبد الحميد**، ص 11.

[14] المرجع نفسه، ص 11–12.

[15] عبد العزيز محمد عوض، **مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث 1831–1914** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر – مكتبة المحتسب، 1983)، ص 62؛ وحسان حلاق، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية**، ص 96–98.

[16] وليم فهمي، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين** (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974)، ص 36.

[17] انظر: خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908–1918**، سلسلة كتب فلسطينية، رقم 41 (بيروت: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، 1973)، ص 41–49.

[18] صالح أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ص 33.

[19] وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات، **ملف وثائق فلسطين**، الجزء الأول: 1937–1949 (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، 1969)، ج 1، ص 155.

[20] خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه**، ص 403.

[21] انظر: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد 1917–1948**، ط 2 (الكويت: مكتبة الفلاح، 1989)، ص 59–61.

[22] انظر: المرجع نفسه، ص 62–78.

[23] إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاماً** (بيروت: دار النهار للنشر، 1972)، ص 28–30.

[24] انظر مثلاً لمزيد من التفصيل حول تطور المشروع الصهيوني في: محمد سلامة النحال، **سياسة الانتداب البريطاني حول أراضي فلسطين العربية**، ط 2 (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1981)؛ و**حرب فلسطين 1947–1948** (الرواية الإسرائيلية الرسمية) ترجمة أحمد خليفة (قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1984)، ص 18، و26؛ وصالح أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ص 465–485؛ ومحمد عبد الرؤوف سليم، **نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين: منذ إنشائها وحتى قيام دولة إسرائيل 1922–1948** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982).

[25] انظر: محمد عزة دروزة، **فلسطين وجهاد الفلسطينيين: في معركة الحياة والموت ضد بريطانيا والصهيونية العالمية 1917–1948** (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1959)، ص 98؛ ومحمد أمين الحسيني، **حقائق عن قضية فلسطين**، ط 2 (القاهرة: مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين، 1957)، ص 50.

[26] حول الهيئة العربية العليا، انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 556–561.

[27] Yehoshua Porath, *The Emergence of Palestine of National Movement: 1918–1929* (London: Frank Cass Company Ltd., 1974), p. 129.

[28] See Report on the Arab Movement & Zionism, by J. Camp, 12/8/1919, The National Archives (Public Record Office), London, Foreign Office, F.O. 371/4182; and Yeshoa Porath, *The Emergence of the Palestine National Movement*, p. 129.

[29] انظر مثلاً: **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918–1939: من أوراق أكرم زعيتر**، أعدتها للنشر بيان الحوت، ط 2 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1984)، ص 58–61.

[30] حول هذه الثورات الثلاث انظر: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 165–191.

[31] عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1985)، ص 229.

[32] انظر: بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 216، و246–247، و872–873.

[33] المرجع نفسه، ص 294–295؛ و**وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918–1939: من أوراق أكرم زعيتر**، ص 381–391.

[34] **القرآن الكريم**، سورة الحج: 40.

[35] **القرآن الكريم**، سورة محمد: 7.

[36] **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية 1918–1939**، جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1968)، ص 614–616.

[37] انظر خلاصة هذه الدراسة في: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 358–360.

[38] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 60.

[39] **القرآن الكريم**، سورة الصف: 13.

[40] حول دور جماعة القسام والإسلاميين بشكل عام في الثورة الكبرى، انظر: المرجع نفسه، ص 361–412.

[41] حول الثورة الكبرى، انظر: المرجع نفسه، ص 331–351.

[42] حول دور الجهاد المقدس، انظر: صالح أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ص 340–356.

[43] **القرآن الكريم**، سورة النساء: 74.

[44] حول دور القساميين، انظر: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 479–480.

[45] كامل الشريف، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين** (الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، 1984)، ص 464.

[46] كامل الشريف، مقابلة مع المؤلف، عمّان، الأردن، 1985/10/28. كامل الشريف أحد قادة الإخوان المسلمين المصريين في حرب فلسطين 1947–1948، وزير الأوقاف الأردنية السابق.

[47] يوسف عميرة، مقابلة مع المؤلف، الكويت، 1985/11/6. يوسف عميرة أحد قدماء الإخوان المسلمين الفلسطينيين، وأحد مجاهدي حرب 1947–1948.

[48] حول دور الأخوان المسلمين المصريين، انظر: كامل الشريف، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين**؛ ومحسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 468–475.

حول دور الإخوان المسلمين السوريين، انظر: مصطفى السباعي، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين** (د.م: دار النذير، 1985)؛ وعارف العارف، **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود 1947–1951** (صيدا–بيروت: المكتبة العصرية، 1954)، ج 1، ص 326، و329، و435–437.

[49] حول دور الإخوان المسلمين السوريين، انظر: مصطفى السباعي، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين**؛ وعارف العارف، **النكبة**، ج 1، ص 326، و329، و435–437.

[50] حول دور الإخوان المسلمين الأردنيين، انظر: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 476–477؛ وسليمان موسى، **أيام لا تنسى: الأردن في حرب 1948** (الأردن: مطبعة المسلحة الأردنية، 1982)، ص 44–45.

[51] حول دور الإخوان المسلمين العراقيين، انظر: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 477–478؛ وبيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 612–613.

[52] كتب الكثير عن الحاج أمين ودوره، انظر مثلاً: بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 201–249، و585–594؛ وزهير الماريديني، **ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني** (د.م: د.ن، 1980)؛ وغيرها.

[53] علي سعود عطية، "الزعامة السياسية للمفتي الحاج أمين الحسيني بين عهدين: ثورة 1936 وما قبلها،" في **المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام "فلسطين"، المجلد الثالث: تاريخ فلسطين** (عمَّان: الجمعية العلمية الملكية، 1983)، ص 428.

[54] أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**، ص 184.

[55] علي عطية، "الزعامة السياسية للمفتي الحاج أمين الحسيني بين عهدين: ثورة 1936 وما قبلها،" ص 430.

[56] John Marlowe, *Rebellion in Palestine* (London: The Cresset Press, 1946), p. 74.

[57] Ibid.

[58] علي عطية، "الزعامة السياسية للمفتي الحاج أمين الحسيني بين عهدين: ثورة 1936 وما قبلها،" ص 433.

[59] المرجع نفسه، ص 431.

[60] أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**، ص 184.

[61] علي عطية، "الزعامة السياسية للمفتي الحاج أمين الحسيني بين عهدين: ثورة 1936 وما قبلها،" ص 432.

[62] المرجع نفسه؛ وإميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاماً**، ص 56–58، و84.

[63] Christopher Sykes, *Cross Roads to Israel* (London: The New English Library, 1967), p. 138.

[64] بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 660 و664.

[65] علي عطية، "الزعامة السياسية للمفتي الحاج أمين الحسيني بين عهدين: ثورة 1936 وما قبلها،" ص 428، و431، و433.

[66] المرجع نفسه، ص 434.

[67] زهير المارديني، **ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني**، ص 200–202؛ وفلاح خالد علي، **فلسطين والانتداب البريطاني 1939–1948** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980)، ص 109–110.

[68] زهير المارديني، **ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني**، ص 171.

[69] خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ص 367.

[70] بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 144–145.

[71] حول شخصية القسام بالتفصيل، انظر: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 231–247.

[72] صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى في فلسطين: 1936–1939** (القاهرة: وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي، 1967)، ص 33.

[73] إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاماً**، ص 248.

[74] عوني العبيدي، **ثورة الشهيد عز الدين القسام وأثرها في الكفاح الفلسطيني** (الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، د.ت)، ص 9.

[75] بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 317–318.

[76] سميح حمودة، **الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام 1882–1935**، ط 2 (عمَّان: دار الشروق، 1986)، ص 42.

[77] انظر: صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص 31؛ وأكرم زعيتر، **الحركة الوطنية الفلسطينية 1935–1939: يوميات أكرم زعيتر** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1980)، ص 30؛ ومحمد نمر الخطيب، **من أثر النكبة** (دمشق: المطبعة العمومية، 1951)، ص 87.

[78] بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 324؛ وكامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني 1922–1929** (طرابلس، ليبيا: المنشأة العامة للنشر، 1982)، ص 584.

[79] صبحي ياسين، **حرب العصابات في فلسطين** (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر – دار الكتاب العربي، د.ت)، ص 79؛ وصبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص 33–34.

[80] صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص 33–34.

[81] إبراهيم الشيخ خليل، "رسالة من مجاهد قديم: ذكريات مع القسام،" مجلة **شؤون فلسطينية**، مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، رام الله، العدد 7، آذار/ مارس 1972، ص 267–268؛ وبيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 323.

[82] صبحي ياسين، **حرب العصابات في فلسطين**، ص 68؛ ومحمد عزة دروزة، **فلسطين وجهاد الفلسطينيين**، ص 29.

[83] عبد الستار قاسم، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام** (بيروت: دار الأمة للنشر، 1984)، ص 99.

[84] كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني 1922–1929**، ص 584.

[85] علي حسين خلف، **تجربة الشيخ عز الدين القسام** (عمّان، الأردن: دار بن رشد، 1984)، ج 1، ص 53–54؛ ومحمد نمر الخطيب، **من أثر النكبة**، ص 88؛ وانظر أيضاً:

S. Abdullah Schleifer, "The Life and Thought of Izziddin Al-Qassam," *The Islamic Quarterly* Journal, Islamic Cultural Centre, United Kingdom, vol. 23, no. 2, 1979, p. 75.

[86] صبحي ياسين، **حرب العصابات في فلسطين**، ص 70.

[87] المرجع نفسه.

[88] عوني العبيدي، **ثورة الشهيد عز الدين القسام وأثرها في الكفاح الفلسطيني**، ص 42.

[89] كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني 1922–1929**، ص 593–594؛ وعبد الستار قاسم، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام**، ص 64–65؛ وانظر أيضاً:

The Palestine Police Force, *Annual Administrative Report, 1935* (Jerusalem: Government Printing Press, n.d), p. 40.

[90] صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص 40.

[91] **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918–1939: من أوراق أكرم زعيتر**، ص 397؛ وانظر أيضاً:
Police Report, 1935, p. 40.

[92] عبد الستار قاسم، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام**، ص 66–67.

[93] أكرم زعيتر، **الحركة الوطنية الفلسطينية 1935–1939: يوميات أكرم زعيتر**، ص 32.

[94] صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص 39–41.

[95] محمد عزة دروزة، **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها** (بيروت: دار الكلمة، 1980)، ج 2، ص 52.

[96] محمد نمر الخطيب، **من أثر النكبة**، ص 88.

[97] كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني 1922–1929**، ص 594.

[98] Despach, High Comissioner of Palestine to Secretary of State for the Colonies, 7 December 1935, Secret, C.O. (Colonial Office-London), 733/297/1.

[99] عبد الستار قاسم، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام**، ص 106.

[100] حسن البنا، **مذكرات الدعوة والداعية**، ط 5 (بيروت – دمشق: المكتب الإسلامي، 1983)، ص 28.

[101] حسن البنا، **مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا**، ص 271–273.

[102] المرجع نفسه، ص 156–157.

[103] حسن البنا، **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 198–199.

[104] Abd al-Fattah M. El-Awaisi, *The Muslim Brothers and the Palestine Question 1928–1947* (London, New York: Tauris Academic Studies, 1998), p. 162.

[105] حول نشأة جماعة الإخوان في فلسطين، انظر: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 438–445.

[106] بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 405.

[107] Abd Al-Fattah El-Awaisi, *The Muslim Brothers and the Palestine Question*, p. 155.

[108] محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد**، ص 447–450؛ وبيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 503.

[109] بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 794.

[110] انظر أسماء أعضاء اللجنة القومية في القدس في: بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 906؛ وانظر: محسن محمد صالح، "أضواء وثائقية على جماعة الإخوان المسلمين في القدس سنة 1946،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لبنان، المجلد 15، العدد 58، ربيع 2004، ص 67–83.

الفصل الخامس

المقاومة الإسلامية
على أرض فلسطين
2022-1949

المبحث الأول
بين الصعود والتعثُّر
1949-1987

أولاً: المسارات العامة:

- كان وقْعُ حرب 1948 كارثياً على الشعب الفلسطيني، إذ أدت عملية التطهير العرقي الصهيوني إلى تهجير نحو 800 ألف من أصل مليون و390 ألفاً هم تعداد الشعب الفلسطيني (نحو 57.6%)، كما خسر الفلسطينيون 77% من أرضهم، حيث أنشأ عليها اليهود الصهاينة كيانهم. وبالتالي فقد تمزّق النسيج الاجتماعي الفلسطيني، كما دُمرت البنى الاقتصادية والحياتية. ولم يتمكن الفلسطينيون من إنشاء كيانهم على ما تبقى من أرضهم، فضَمَّت الأردنُ الضفةَ الغربية، كما وضعت مصرُ قطاعَ غزة تحت إدارتها المباشرة؛ ومُنعت الهيئة العربية العليا الممثلة للشعب الفلسطيني من ممارسة سلطاتها على الضفة والقطاع، وعلى شعبها في أماكن تواجده.
- أصابَ أبناء التيار الإسلامي ما أصاب الفلسطينيين من قتل ودمار وتشريد، وانشغلوا كغيرهم بلملمة جراحهم، والتكيُّف مع أوضاعهم الجديدة، بينما تتطلع أعينهم للعودة، وتتلمس الطُّرق لاسترداد الكرامة والمضي في مشروع التحرير.
- كان النزيف هائلاً في فلسطين المحتلة 1948، حيث طرد الصهاينة 86.5% من أبنائها، وبقي فقط نحو 125 ألفاً من أصل 925 ألفاً كانوا يقيمون فيها، ووُضِعت هذه الأرض تحت الأحكام العسكرية حتى سنة 1966، وحصل تغييب للتيار الإسلامي، بينما نشط الحزب الشيوعي (الذي اعترف بالكيان الإسرائيلي) في الوسط الفلسطيني. غير أن هذا التيار أخذ يستعيد عافيته منذ منتصف السبعينيات، ليأخذ موقعه الشعبي المتقدم في الثمانينيات.
- اتسمت فترة الخمسينيات والستينيات بغلبة التيارات القومية واليسارية على الحياة السياسية العربية، وانتشرت خصوصاً في فترة صعود جمال عبد الناصر 1956-1967 الفكرة الناصرية، وفكرة "قومية المعركة" بمعنى أن قضية فلسطين

هي قضية قومية ومسؤولية قومية. وقد تألّق نجم عبد الناصر خصوصاً إثر العدوان الثلاثي الإسرائيلي البريطاني الفرنسي على قناة السويس سنة 1956، واضطرار هذه القوات للانسحاب بعد بضعة أشهر. وقد رافق ذلك، ترقّبٌ شعبي فلسطيني للدول العربية للقيام بتحرير فلسطين. وهو شعور أصابه الإحباط والخذلان في حرب 1967 عندما هُزمت البلاد العربية هزيمة كارثية أدت للاحتلال الإسرائيلي لباقي فلسطين التاريخية (الضفة والقطاع) ولشبه جزيرة سيناء المصرية وللجولان السورية.

- وفي هذه الأجواء، تعمقت الهوية الوطنية الفلسطينية، وضرورة أن يستلم الفلسطينيون زمام المبادرة بأنفسهم. وقد حاولت الأنظمة العربية أن تسترد بعضاً من كرامتها في حرب رمضان/ أكتوبر 1973، حيث حققت نجاحات جزئية على الجبهتين المصرية والسورية، سرعان ما تمكّن الصهاينة من إفراغها من محتواها بمكاسب مضادة تحت غطاء الدعم الأمريكي الهائل. وقد كانت هذه آخر الحروب العربية؛ إذ واجهت المقاومة الفلسطينية الاجتياح الإسرائيلي للبنان في صيف 1982، دونما تدخل عربي (إلا من دعمٍ سوري محدود)، حيث تلقت ضربة قاسية، أدّت لخروجها من بيروت، وإنهاء عملها المقاوم عملياً من خارج فلسطين. أما البيئة العربية فقد عانت من الانقسام، بدخول مصر في تسوية سلمية مع الكيان الصهيوني (كامب ديفيد Camp David 1978)، كما استنزفت العراق في حربها مع إيران 1980–1988. وبدا أن البيئة العربية صارت تميل أكثر لمسار التسوية وحلّ الدولتين، مع بروز مشروع الأمير فهد سنة 1982، وأخذت تدفع منظمة التحرير الفلسطينية بهذا الاتجاه.

- في الإطار الرسمي الفلسطيني، تابعت الأنظمة العربية محاصرة الهيئة العربية العليا وتهميش دورها، ولم يتبقَ لها سوى مكاتب مشلولة عاجزة عن التأثير على الأرض، واستمر أحمد حلمي عبد الباقي ممثلاً لفلسطين باسمها في جامعة الدول العربية حتى وفاته سنة 1963. غير أن الساحة الفلسطينية التي كانت تموج بالتنظيمات والحراكات الشعبية، نبهت الأنظمة العربية، وخصوصاً عبد الناصر، لضرورة استيعاب الوضع الفلسطيني وتوجيهه؛ فتم إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة أحمد الشقيري في 1964، تعبيراً عن الكيانية الفلسطينية. غير

أن كارثة 1967 دفعت الفصائل الفلسطينية التي تصاعدت شعبيتها، وخصوصاً حركة فتح، للسيطرة على منظمة التحرير في صيف 1968، بينما تولى رئاستها ياسر عرفات في شباط/ فبراير 1969. وتمكنت المنظمة من الحصول على اعتراف الأنظمة العربية بها ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني سنة 1974، وتمكنت في السنة نفسها من تحقيق اعتراف دولي بمشاركتها في الأمم المتحدة؛ والحصول على عضوية مراقبة، والتصويت بأغلبية كبيرة في كل سنة من السنوات التالية على حق الشعب الفلسطيني بتقرير المصير، وحقه في المقاومة بكافة أشكالها؛ غير أن الطرف الإسرائيلي واصل احتلاله وبرامج قمعه وتهويده، مستفيداً من الغطاء الأمريكي والغربي الذي يمنع أي قرار ملزم ضده.

- الدُّول القطرية التي نشأت في المنطقة العربية نشأت دولاً علمانية، فصلت الدِّين عن الدولة، أو وظفت الدِّين في خدمة "شرعية" النظام الحاكم والعائلات الحاكمة. وفي الوقت الذي تمكنت فيه النُّخب التي تربت في مدارس الاستعمار وجامعاته، من مفاصل الدولة، واستلهمت النماذج الغربية في إدارة الدولة والمجتمع، فإن الإسلام أخذ حيّزاً متفاوتاً بين بلد وآخر، لكنه على أي حال لم يعد هو المنهج الحاكم والمرجعية الأساس. ولم يتمكن التيار الإسلامي من ترجمة مشروعه ورؤيته من خلال دولة أو نظام سياسي.

- وبالرغم من الشعارات القومية المرفوعة، ووجود جامعة الدول العربية، إلا أن الاتجاه العام كان نحو الانكفاء القُطري، خصوصاً بعد فشل مشاريع الوحدة، التي كان أبرزها مشروع الوحدة المصرية السورية 1958–1961.

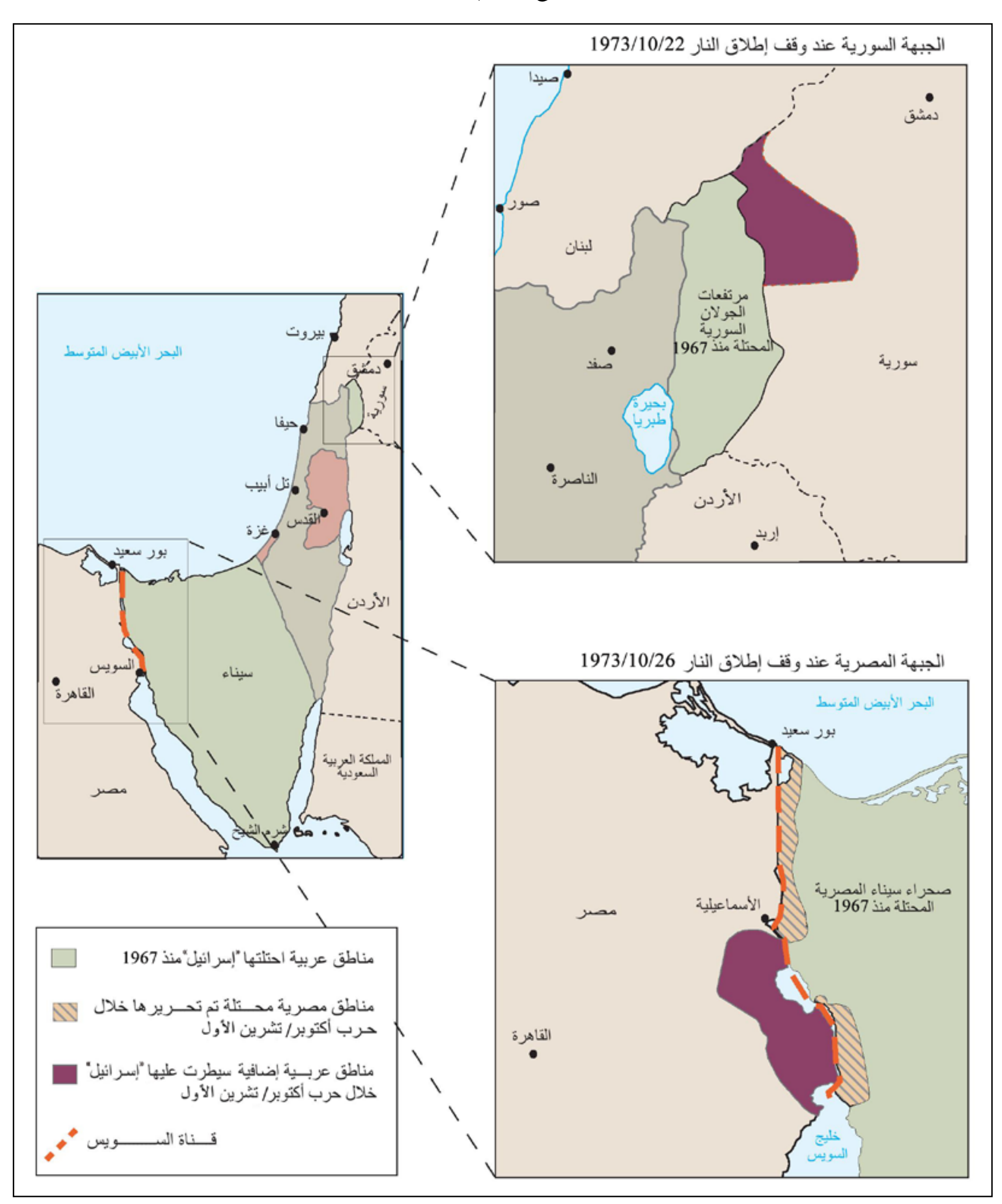
- أدى عدم وجود دولة أو نظام عربي رسمي يتبنى الخط الإسلامي والعمل الإسلامي المقاوم لتحرير فلسطين، وخصوصاً في البيئة الاستراتيجية المحيطة بفلسطين، إلى انغلاق الفرصة أمامه للاستفادة من الإمكانات اللوجستية الهائلة للدول، مقارنة بإمكانات الأفراد والتنظيمات، بما في ذلك توفير القواعد ومقار العمل ونقاط الانطلاق، والدعم العسكري المالي والأمني والإعلامي... في الوقت الذي استفادت تنظيمات ناصرية وقومية وبعثية ويسارية من العديد من الأنظمة العربية. وبالتالي، فقد عبَّر التيار الإسلامي عن نفسه في إطار شعبي محدود، منعزل عن صناعة الأحداث، أو تشكيل ثقلٍ نوعي قادر على التأثير في مجرياتها.

- عاش الحضور الشعبي للتيار الإسلامي الفلسطيني حالة مدٍّ وجزر، إذ كان له حضوره القوي في الفترة 1949–1956 في قطاع غزة والضفة الغربية وشرقي الأردن، غير أنه عانى من حالة من الانحسار خصوصاً في الفترة 1956–1967 في ضوء الضربات القاسية التي تلقاها الإسلاميون، وحملات التشويه والمطاردة التي قادها نظام عبد الناصر، وصعود التيارات القومية واليسارية. ثم عاد للصعود من جديد في السبعينيات ليصبح منذ أواخرها المنافس الشعبي الأول لحركة فتح؛ وقد ترافق ذلك مع انتشار الصحوة الإسلامية التي أخذت تعمُّ العالم العربي والإسلامي.
- كان للتيار الإسلامي الفلسطيني قصب السبق في إطلاق المقاومة المسلحة من قطاع غزة وسيناء بعد كارثة حرب 1948، مع دور أقل في الضفة الغربية. غير أن ضرب نظام عبد الناصر للإخوان عطّل هذا العمل. وهو ما دفع عدداً من شباب الإخوان للعب دور أساسي في إنشاء حركة فتح، بينما أعاد الإخوان الفلسطينيون ترتيب تنظيمهم، وفضلوا الركون للتربية وحفظ الذات في أجواء مطاردة وملاحقة الإسلاميين. ولم يكن ثمة دور عسكري مقاوم إلا في إطار مشاركة محدودة من خلال معسكرات الشيوخ 1968–1970؛ بانتظار جهود أكثر فاعلية منذ نهاية السبعينيات أدت إلى انطلاق حماس سنة 1987. أما حركة الجهاد الإسلامي (التي خرجت من رحم الإخوان)، فقد انطلقت سنة 1980.
- في سنة 1952 أنشئ حزب التحرير الإسلامي برئاسة الشيخ تقي الدين النبهاني، وهو من أبناء فلسطين؛ وتمكّن من ضم العديد من شباب الإخوان وقياداتهم خصوصاً في القدس والخليل. وقد اكتسب شعبية لا بأس بها في الخمسينيات، وكان له دوره في الدفاع عن الإسلام والدعوة للخلافة الإسلامية، غير أنه لم يمارس عملاً جهادياً باعتبار أن ذلك منوط بخليفة المسلمين الذي يجب أن يتم الجهاد تحت رايته؛ وأن إقامة الخلافة تسبق عملية التحرير.

نتائج حرب 1967



نتائج حرب 1973



المصدر: حرب أكتوبر، تشرين الأول 1973، موقع الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية PASSIA، في: http://www.passia.org/maps/view/101 (بتصرف)

ثانياً: الإخوان المسلمون والمقاومة المسلحة 1949–1955:[1]

يحسب للإخوان الفلسطينيين التجربة الريادية التي قدموها للعمل العسكري المقاوم من قطاع غزة وسيناء، بالتنسيق مع الإخوان المصريين. وربما كانت قدرة هذه التجربة محدودة في التأثير على مجريات الأحداث، وربما كان مداها الزمني محدوداً (1950–1955)، غير أنها يجب تسجيلها تاريخياً كعمل ريادي. كما يجب أن يُحسب لها أنها وفرت العناصر القيادية المؤهلة والحاضنة التي نشأت في أجوائها حركة فتح. وثمة تقصير وسط مؤرخي القضية الفلسطينية في إعطاء هذه التجربة مكانتها اللائقة في سياق تاريخ المقاومة الفلسطينية.

لم يكن من المستغرب أن تكون فكرة استئناف العمل العسكري بعد النكبة، حاضرة في نفوس الإخوان المسلمين. وثمة ما يشير إلى أن بدايات عمل المقاومة المنظمة من قطاع غزة ومن الحدود المصرية تعود إلى جهود كامل الشريف. فقد كان الشريف أحد قادة الإخوان المسلمين المصريين، من أبناء سيناء، الذين شاركوا في حرب 1948 في يافا وفي جنوب فلسطين. وقد تمرَّد كامل ورفاقه من الإخوان ومؤيديهم، على الهدنة بين مصر و"إسرائيل"، والتي عُقدت في آذار/ مارس 1949، وتابعوا القتال، بالرغم من وجود بيئة سياسية وأمنية مصرية تحارب الإخوان وتطاردهم، بعد حظر جماعتهم واغتيال مرشدهم. غير أن السلطات المصرية قامت باعتقاله ورفاقه في رفح، ثم أفرجت عنهم في أوائل 1950، واضطر للعودة إلى العريش.[2]

ظلّ الشريف "مسكوناً" بفكرة الجهاد ضدّ الصهاينة، حيث أقام في مدينة العريش، وأخذ يعيد ترتيب شبكة للمقاومة المسلحة في قطاع غزة وعبر الحدود المصرية، تحت المظلة الواسعة للإخوان. ومن الواضح أن كامل الشريف، ابن صحراء سيناء، وبما لديه من خبرة عسكرية ناجحة، قد فاز بثقة قيادة الإخوان في القاهرة، لتكليفه بمهام قتال الإسرائيليين، والتي أضيف إليها مهام قتال الإنجليز في قناة السويس، بعد أن قام رئيس الوزراء المصري النحاس باشا بإلغاء معاهدتَي 1899 و1936 مع بريطانيا، في أواخر سنة 1951.[3]

وبالتنسيق مع كامل الشريف، أنشأ الإخوان المسلمون في قطاع غزة تنظيماً سرياً ذا طبيعة عسكرية، قام بعدد من العمليات بالتنسيق مع بدو النقب وسيناء. وبحسب

شهادات أعضاء هذا التنظيم العسكري الخاص، أمثال: محمد الخضري، وفوزي جبر، وخيري الأغا، ومحمد صيام، فإن هذا العمل كان عملاً سرياً منظماً جداً.[4] ولضمان نجاح العمل، لم يكن هذا النشاط موضوعاً تحت إشراف القيادة الرسمية "التقليدية" للإخوان في غزة، ولكن كان له صلة وصل بكامل الشريف في العريش، الذي كانت تتم متابعته تنظيمياً من عضو مكتب الإرشاد الشيخ محمد فرغلي؛ والذي كان القائد العام لحملة الإخوان العسكرية في حرب فلسطين 1948.[5]

وكان محمد أبو سيدو[6] صلة وصل رئيسية بين الشريف وبين القيادات في القطاع، فقد كان يعمل سباكاً في الجيش المصري في العريش، وكان معتاداً على العودة إلى غزة في عطلة نهاية الأسبوع. وقد وفّر له ذلك غطاء مناسباً لتوصيل المعلومات والتعليمات، ابتداء من رفح مروراً، بخان يونس، ووصولاً إلى مكان إقامته في غزة.[7]

من ناحية تنظيمية، تمّ تقسيم قطاع غزة إلى ثلاث مناطق:

1. غزة: ويتولى قيادتها خليل الوزير (أبو جهاد) وكان من بين مساعديه فوزي جبر، ومحمد الخضري، ومعاذ عابد، وعبده أبو مريحيل، وحمد العايدي.
2. الوسطى (خان يونس): ويتولى قيادتها خيري الأغا.
3. الجنوب (رفح): ويتولى قيادتها محمد يوسف النجار؛[8] وكان يساعده موسى نصار، وتولى إبراهيم عاشور في وقت لاحق القيادة مكان النجار.[9]

وكانت إحدى العلامات المشجعة أن هناك المئات من الشباب الفلسطيني ممن تدرب في معسكرات الإخوان، في حرب 1948. واستفاد الإخوان من وجود الضابط الإخواني في الجيش المصري عبد المنعم عبد الرؤوف في القطاع إثر نجاح الثورة المصرية، فسهل لهم سبل التدريب العسكري.[10] كما وفّر كامل الشريف ورفاقه دعماً لوجستياً للعمل المقاوم، من خلال إنشاء معسكر للتدريب في القصيمة في سيناء، على بعد نحو 86 كم جنوب شرقي العريش، قرب الحدود مع فلسطين المحتلة.[11] كما تلقى عدد من الفلسطينيين تدريباً عسكرياً في المعسكرات التي أقامتها الجامعات المصرية بعد تصاعد الأزمة مع الإنجليز في قناة السويس منذ أواخر 1951 وحتى 1954. وكان ياسر عرفات (القريب من الإخوان) أحد الفلسطينيين الذين تلقوا التدريب على يد مدربي الإخوان في جامعة فؤاد الأول (القاهرة) في تلك الفترة.[12]

وكان معظم السلاح المتوفر سلاحاً خفيفاً يتناسب مع عمليات مقاومة محدودة، وزرع ألغام، ولكن لا يسمح بمواجهات واسعة مباشرة أو طويلة.[13]

وقد تمّ تنفيذ الكثير من العمليات المسلحة تحت إشراف كامل الشريف في النصف الأول من الخمسينيات ضدّ الإسرائيليين. وكانت المخابرات العسكرية المصرية تعتقل أحياناً، ولوقت محدود، بعضاً من رفاق كامل الشريف؛ ومع ذلك، فقد كان هناك مجموعة من الضباط، مرتبطون بشكل عام بالإخوان المسلمين وبالضباط الأحرار، يدعمون هذه العمليات، ويشاركون فيها، وهو ما كان يُسهل عمل المقاومة، ويوفر لها بيئة عمل أفضل.[14] ويشير أبو جهاد، في المقابلة التي أجرتها معه سلوى العمد، إلى قيامه وإخوانه بعمليات زراعة ألغام. كما كان يتم نسف أنابيب المياه في المستعمرات.[15]

نفَّذ عبد الله صيام عمليات من شمال غزة، بينما نفَّذ حمد العايدي عمليات من الوسط، ونفَّذ إبراهيم عاشور عمليات من الجنوب. وكانت عملية "الباص" في 1954/3/17 أحد أشهر العمليات التي تُظهر بعض المؤشرات أن البدو نفذوها بالتنسيق مع الإخوان، وأدت إلى مقتل 11 إسرائيلياً قرب بئر السبع بجانب مستعمرة معاليه أكربيم Ma'ale Akrabim.[16]

أسهمت عمليات الإخوان العسكرية في القطاع في إفشال مشروع توطين اللاجئين في سيناء، الذي كانت قد وافقت عليه حكومة الثورة المصرية، ذلك أن كل عملية جهادية كان يعقبها انتقام إسرائيلي، مما أحرج الحكومة المصرية، ودفعها إلى إنشاء الكتيبة الفلسطينية.[17] وحتى بعد حظر نشاط الإخوان في القطاع وتعرضهم للمطاردة استمروا في عملهم الجهادي السري. وكان لهم دورهم في المقاومة الشعبية للاحتلال الإسرائيلي للقطاع (1956/10/31–1957/3/6)، وتحت الاحتلال نظَّم الإخوان إضراباً نجح على نطاق واسع، وقبض الصهاينة على عدد من الإخوان الذين ظلّوا في السجن حتى انسحاب الصهاينة من القطاع.[18]

غير أن ظروف مطاردة النظام الحاكم في مصر للإخوان واعتقالهم، والإفساح لنشاط الحركات القومية والاشتراكية، بالإضافة إلى هجرة العديد من كفاءات ورموز الإخوان إلى الخارج، وخصوصاً الخليج للعمل، كل ذلك أضعف من قوة حركة الإخوان في القطاع، وهمَّش دورها خصوصاً منذ أواخر الخمسينيات وحتى 1967.[19]

الضفة الغربية:

بعد ضمّ الأردن للضفة الغربية أصبح نحو 75% من سكان المملكة "فلسطينيون" أو من "أصول فلسطينية".[20] كما أن أبناء شرقي الأردن كانوا يحملون في أعماقهم قضية فلسطين باعتبارها قضيتهم الدينية والقومية والوطنية؛ بعيداً عن الحدود التي اصطنعها الاستعمار بين أبناء الأمة العربية المسلمة. وبالنسبة للتيار الإسلامي وتحديداً الإخوان من أبناء الضفة الغربية فقد كان اندماجهم مع إخوانهم في شرقي الأردن سلساً وقوياً، ويعبرّ بصدق عن روح الأمة الواحدة، كما أن قيادة الإخوان برئاسة عبد اللطيف أبو قورة ثم محمد عبد الرحمن خليفة، وضعت فلسطين على رأس أولوياتها.

وقد واصلت شُعب الإخوان أعمالها في الضفة الغربية،بعد حرب 1948، كفروع القدس ونابلس والخليل وبيت لحم وطولكرم. كما افتتحت فروع جديدة في جنين وقلقيلية، وعنبتا، ودورا، وصوريف، وصور باهر، وبرقا، وأريحا؛ وفي عدد من مخيمات اللاجئين بما فيها عقبة جبر قرب أريحا، والعروب قرب بيت لحم.[21]

سعى الإخوان في الأردن الذين لم يكونوا مرتاحين لأداء الجيش بقيادة الجنرال البريطاني جلوب باشا Glubb، إلى دعم الحرس الوطني وتقويته؛ وهي تشكيلات عسكرية دفاعية بدأ تشكيلها منذ 1949، وكانت تتولى حماية خطوط التماس مع العدو الصهيوني؛ ولكنها كانت ضعيفة التسليح والتدريب والإمكانات.[22] ولذلك، انتمى الكثير من الإخوان إلى الحرس الوطني، وكانوا ضمن تشكيلاته حيث يتواجد في المناطق والقرى التي ينتمون إليها. وفي صور باهر مثلاً كان معظم أعضاء الحرس الوطني من الإخوان؛ وعملوا على تحصين القرى الأمامية.[23]

وفي سنة 1953 بذل الإخوان جهوداً كبيرة لتحشيد العالم الإسلامي لنصرة قضية فلسطين، وتمكنوا من عقد "المؤتمر الإسلامي" في القدس 4–1953/12/10، حضره ممثلون من بلدان العالم العربي والإسلامي ومسلمون من باقي دول العالم، وصدرت قرارات داعمة لفلسطين بما في ذلك إنشاء صندوق لدعم إعمار فلسطين، وجعل فلسطين محل اهتمام العالم الإسلامي. وانتُخب سعيد رمضان أميناً عاماً، وكامل الشريف نائباً له.[24]

كانت رغبة الإخوان أن يشكل المؤتمر غطاء للمقاومة ومواجهة الاحتلال. وقد عقد مصطفى السباعي مؤتمراً صحفياً في نيسان/ أبريل 1954 قال فيه إن المؤتمر الإسلامي

قرر تدريب شباب فلسطين على حمل السلاح، وأضاف "ستكون مهمتنا تقوية الخطوط الأمامية بين الدول العربية وإسرائيل وتسليح الفلسطينيين تسليحاً كافياً".[25]

ويبدو أن الإخوان أرادوا من انتخاب كامل الشريف في هذا الموقع أن يوفروا له غطاء لمتابعة عمله العسكري الجهادي عبر الضفة الغربية. ومع أواخر سنة 1953، انتقل كامل الشريف بالفعل إلى الأردن. وقد نشأ تعاون وثيق بين المؤتمر الإسلامي وبين الحرس الوطني؛ وتمّ جمع أموال كثيرة تحت غطاء المؤتمر لتسليح الحرس الوطني، حيث أشرف بنفسه على تحصين الحدود، ودعم الحرس الوطني على خطوط الهدنة في الضفة الغربية. وقام المؤتمر بتحصين أربع قرى قرب القدس والخليل؛ وزوَّد العديد من القرى بمواد بناء وغيرها لعمل التحصينات بإشراف المؤتمر أو بإشراف الإخوان، وصرف مبالغ على بناء متاريس في عدد من أحياء القدس، وتمّ إنشاء مستشفى على طريق البيرة – الجلزون ليكون للحرس الوطني.[26]

وكان جزء كبير من المال يذهب للعمل الفدائي السري الذي يشرف عليه الشريف. وقد أحضر الشريف أحد أبرز مدربي الإخوان العسكريين ممن شاركوا في حرب 1948 وهو عبد العزيز علي، الذي جاء من مصر في 1954/7/21، بعد أن استأذن من الإخوان هناك فسمحوا له. وطَلَب منه الشريفُ تدريب العناصر الفدائية سراً. حيث قام عبد العزيز في القدس بتدريب عدة دفعات من الإخوان، كما قاموا بعمليات ضدّ الكيان الإسرائيلي. وقد تركز العمل من منطقتَي القدس والخليل. وممن ساعد في العمل العسكري أبناء عبد النبي النتشة في الخليل، وكذلك عبد الرحيم الشريف الذي كان يعمل قاضياً في غزة، وكان له بيت في الخليل، حيث كانت تُرتب عن طريقهم العمليات.[27]

وقد استمر عبد العزيز علي في العمل والتدريب، غير أن السلطات الأردنية قامت بطرد كامل الشريف وعبد العزيز علي في كانون الأول/ ديسمبر 1954،[28] بعد أن انزعج رئيس أركان الجيش الأردني في تلك الفترة جلوب باشا من نشاطهما، ثمّ إنهما عادا للأردن، بعد طرد الملك حسين لجلوب في آذار/ مارس 1956، ولكن العمل العسكري كان قد توقف.[29]

أحدث العدوان الثلاثي على مصر 1956، حراكاً شعبياً واسعاً في الأردن. وكان موقف المكتب التنفيذي لتنظيمات الإخوان في البلاد العربية داعماً بقوة لمصر ولعبد الناصر في مواجهة العدوان (بالرغم من اضطهاده وضربه للإخوان)، وأيَّدوا

تأميم قناة السويس، وأكدوا أن الإسلام دين التحرّر، وأن المعركة مع الاستعمار معركة عقيدة، وأنه لا بدّ أن يطرد الاستعمار نهائياً من بلدان المسلمين، وأن الإخوان المسلمين في كافة البلدان العربية يضعون كافة إمكانياتهم لنصرة مصر ومؤازرة جيشها.[30] واستفاد الإخوان في الأردن من تخفيف الحكومة قبضتها الأمنية، فأخذوا يتدربون على القتال في شُعب الإخوان، بما في ذلك سطح المركز العام في عمّان، وفي مقرهم في القدس؛ وأخذوا يجهزون أنفسهم لمواجهة أي عدوان إسرائيلي محتمل.[31]

من جهة أخرى، سعى الإخوان في الأردن تحت غطاء الكشافة إلى التدريب على الأسلحة تحت غطاء المخيمات الكشفية التي تُعقد في مناطق نابلس والخليل والقدس ومناطق شرقي الأردن، وهو ما كان يثير قلق السلطات الأردنية بشكل كبير. وفي تقارير الأمن الأردني معلومات عن تدريبات في منتصف الخمسينيات وسنة 1958، وكان التدريب يتم سراً وليلاً في أماكن منعزلة، حيث تكون الأسلحة مخبأة بعناية، ثم يعودون كأفراد إلى بيوتهم.[32] غير أن هذا التدريب، كان في إطار الإعداد، ولم ترافقه عمليات مقاومة عسكرية.

وفي لبنان، قام الشيخ فضل عباس، الذي جاء إليه نحو سنة 1953 (وكان من شباب الإخوان من أبناء فلسطين)، بتنظيم مجموعات جهادية سرية، تمكنت من اختراق الحدود باتجاه شمال فلسطين المحتلة والاستطلاع في الفترة 1954–1956، لكن دورها لم يتطور أكثر من ذلك.[33]

وفي سورية، يظهر أن النظام الخاص التابع للإخوان السوريين قام بتجنيد كثير من الفلسطينيين، في النصف الأول من الخمسينيات، ومن بينهم هاني الحسن، حيث خضعوا لدورات تثقيف عقائدي ودورات عسكرية.[34] ويبدو ذلك منسجماً مع توجهات الإخوان السوريين الذين شاركوا بقيادة مراقبهم العام مصطفى السباعي في حرب 1948، واستمرت حماستهم متقدة لفلسطين. ولكن ليس لدينا معلومات إن كانوا قد قاموا لاحقاً بأي عمليات عسكرية ضدّ العدو الصهيوني.

وفي العراق، كان من التجارب المبكرة اللافتة، تجربة صالح عبد الله سرية، الذي هاجر للعراق إثر نكبة 1948، وانتمى لجماعة الإخوان وتتلمذ على يد مراقبها العام في العراق الشيخ محمد محمود الصواف. وبالإضافة إلى تعليمه الجامعي، تلقى تدريباً عسكرياً وتخرج سنة 1959 برتبة "ملازم ثاني" من الكلية الحربية ببغداد. ويبدو أنه

استمر على التزامه الإسلامي، دون أن يواصل عضويته في الإخوان. وكان له دور رئيسي في تأسيس جبهة تحرير فلسطين (تغيرّ اسمها فيما بعد إلى جبهة التحرير الوطني الفلسطيني) في سنة 1959، والتي اندمج معظم أفرادها في فتح سنة 1968، وأصبح عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني الرابع، في صيف 1968، الذي سيطرت فيه الفصائل الفلسطينية على منظمة التحرير، وكان على علاقة وثيقة بياسر عرفات منذ أوائل الستينيات. غير أن صالح الذي أخذ يميل إلى رؤية إسلامية متشددة، والذي استقر لاحقاً في القاهرة، قُبض عليه سنة 1974 في حادثة "الفنية العسكرية" بتهمة السعي لقلب نظام الحكم، وتمّ إعدامه سنة 1976.[35]

ثالثاً: علاقة الإخوان المسلمين بنشأة حركة فتح:[36]

فرضت حالة التضييق والمطاردة وحملات التشويه الإعلامي ضدّ التيار الإسلامي، خصوصاً في مصر والقطاع، تساؤلاتٍ أمام شباب الإخوان المسلمين الفلسطينيين المتحمسين، الذين أخذوا يتساءلون عن وسائل العمل الممكنة لتحرير فلسطين. وبالرغم من أن التيار العام وسطهم كان يدعو إلى التريث، والتركيز على الجوانب التربوية والإيمانية، إلا أن تياراً آخر أخذ يتجه للقيام بعمل منظم مسلح، لا يتخذ أشكالاً إسلامية مكشوفة، وإنما يتبنى أطراً وطنية تمكنه من تجنيد قطاعات أوسع من الشباب، ولا تجعله عرضة لعداء الأنظمة وملاحقاتها. وكانت تجربة الثورة الجزائرية في تلك الفترة أحد الحوافز المهمة لهذا العمل.

تشير الدلائل إلى أن جماعة الإخوان المسلمين كانت الحاضنة الأولى لنشأة حركة فتح، وخصوصاً بين أفرادها من أبناء قطاع غزة (وتحديداً من أبناء التنظيم العسكري السري). وقد أبقى الكثير من هؤلاء على صِلاتهم مع بعضهم عندما انتقلوا للدراسة في مصر أو عندما رجعوا إلى القطاع، أو عندما ذهبوا للعمل في الكويت والسعودية وقطر والأردن (بما في ذلك الضفة الغربية). ويظهر أن النقاشات في الفترة 1955-1957، والتي تلت تَعطُّل عملهم، أوصلتهم إلى قناعة بضرورة إنشاء ما عُرف لاحقاً بـ"فتح". ويظهر أن عامة الإخوان كانوا يعدُّونها في البداية جزءاً منهم، أو على الأقل رصيداً لهم. غير أن الطرفين اتخذا خط الانفصال والتمايز عن بعضهما منذ صيف 1962.

وحسب خالد الحسن، أحد أبرز قادة فتح، فإن أبا جهاد خليل الوزير هو الذي بدأ حركة فتح،[37] وهو رأي يؤكده عدد من رموز وقيادات الإخوان الفلسطينيين.[38] وكان أبو جهاد من قادة التنظيم الإخواني السري العسكري.[39] أما ياسر عرفات، فثمة شبه إجماع بين الإخوان على أنه لم يكن عضواً في جماعة الإخوان، ولكنه كان قريباً منها.[40]

بعد انتهاء الاحتلال الإسرائيلي للقطاع ببضعة أشهر، وتحديداً في صيف 1957، قدَّم أبو جهاد تصوراً إلى قيادة الإخوان المسلمين في قطاع غزة؛ يقضي بإنشاء تنظيم لا يحمل لوناً إسلامياً في مظهره، وإنما يحمل شعار تحرير فلسطين عن طريق الكفاح المسلح، ويقوم بالإعداد لذلك. ونوَّه أبو جهاد في مذكرته إلى أن هذا التنظيم سيفتح الأبواب المغلقة بين الإخوان والجماهير، وسوف يفكُّ حصار نظام عبد الناصر للإخوان، وسوف يُبقي قضية فلسطين حية، ويجبر الدول العربية على خوض الحرب.[41]

ويبدو أن قيادة الإخوان في غزة لم تأخذ المذكرة مأخذ الجد، فأهملتها ولم تردَّ عليها. وعلى ما يظهر فإن التوجه العام للقيادة كان يميل نحو التريث، والسلوك الأمني الحذر، والتركيز على التربية، والمحافظة على الذات، في أجواء ملاحقة النظام المصري، بعد عودته لإدارة القطاع. وربما انعكست طبيعة القيادة والتي تميل لعدم الدخول في مغامرات تراها غير محسوبة، في بيئة غير مواتية، على النظرة السلبية للمشروع.[42]

وعندما قدم ياسر عرفات وخليل الوزير إلى الكويت سنة 1957، أخذا ينشران فكرة فتح في الوسط الإخواني، وهو وسطهما الطبيعي. وكانا على معرفة بمعظم الخريجين من شباب الإخوان الذين وفدوا إلى الكويت. وكان لوجود اثنين من قيادة التنظيم الإخواني الخاص، هما يوسف عميرة ومحمد أبو سيدو، ممن سبقا خليل الوزير في القدوم للكويت، أثر كبير في تهيئة الظروف المناسبة لنشأة فتح في الوسط الإخواني الفلسطيني في الكويت؛ كما انضم إليهما أخ قيادي ثالث مقيم في الكويت هو سليمان حسن حمد.[43]

ويعترف عبد الله أبو عزة الذي كان في قيادة إخوان غزة، أن طرح عناصر فتح كان "منطقياً، وتتولاه عناصر قيادية إخوانية موثوقة". وأنه خلال ثلاث سنوات (1957–1960)، وقبل أن تتوصل قيادة إخوان غزة إلى إجابات وتصورات واضحة، في مقابل طرح فتح، كان الإخوان قد فقدوا أفراداً من أفضل عناصرهم؛ وإن "موثوقية وقيادية دعاة فتح في الإخوان، سهَّلت عليهم اقتناص أفراد كثيرين وممتازين من الإخوان". وتشير القراءة المتأنية لسلوك عناصر الإخوان التي شاركت في فتح في

السنوات الثلاث الأولى من نشأتها، على الأقل، إلى أن الكثير منها استمر في عضويته في الإخوان، وأنها استفادت من مواقعها القيادية والتنظيمية في تجنيد عناصر الإخوان النوعية.[44]

وكان من أبرز المؤسسين في قطاع غزة من ذوي الخلفية الإخوانية سليم الزعنون، وهاشم الخزندار، وصلاح خلف، وأسعد الصفطاوي، وسعيد المزيَّن (أبو هشام)، وغالب الوزير، وفتحي بلعاوي، ورياض الزعنون.[45]

وفي الأردن، بما في ذلك الضفة الغربية (التي تمّ توحيدها مع شرقي الأردن سنة 1950)، مثَّل الإخوان حاضنة مهمة وأساسية لبدايات حركة فتح. وبحسب هاشم عزام، الذي كان من الإخوان الذين انتموا لفتح في أواخر الخمسينيات، فإن قادة فتح في الأردن "كلهم كانوا إخوان مسلمين في البداية".[46] وكان من أبرز المؤسسين ذوي الخلفية أو الانتماء الإخواني في الضفة حمد العايدي (أبو سامي)، وعبد الفتاح حمود، ومحمد يوسف النجار، ورمضان البنا، وزكريا قنيبي، وموسى غوشة (شقيق إبراهيم غوشة). وفي شرقي الأردن في عمَّان كان من رواد الإخوان في فتح محمد غنيم (أبو ماهر)، ومحمد أبو سردانة، وعبد الله جبر. كما أبقى قادة فتح على صلتهم القوية بكامل الشريف.[47]

وكان من مؤسسي فتح ذوي الخلفية أو الانتماء الإخواني في السعودية سعيد المزيَّن، وعبد الفتاح حمود، وسعيد المسحال، وغيرهم. وفي قطر، قاد إنشاء فتح عضو الإخوان القادم من الضفة الغربية رفيق النتشة، وانضم إليه لاحقاً محمد يوسف النجار، وعبد الفتاح حمود، وكمال عدوان، وسعيد تيم، وغيرهم.[48]

وفي لبنان، كانت جماعة عباد الرحمن تمثل الوجه المعلن للإخوان المسلمين في خمسينيات القرن العشرين، وكان من رواد فتح فيها توفيق راشد حوري (الذي وضع على عاتقه إصدار مجلة فلسطيننا)، وهاني فاخوري، وزهير العلمي، الذي كان من شباب الإخوان البارزين في قطاع غزة، وانتقل للبنان في بداية الستينيات، ومحمد عبد الهادي (أبو الهيثم). وفي سورية، كان من مؤسسي فتح ذوي الخلفية الإخوانية هاني الحسن،[49] وأخيه علي الحسن.[50] وفي ألمانيا والنمسا يحيى عاشور (حمدان) القادم من قطاع غزة.[51]

أما القيادة الأولى لفتح، فيذكر خليل الوزير أن الاجتماع التأسيسي لفتح عُقد في الكويت، وحضره خمسة أشخاص، هم خليل الوزير، وياسر عرفات، وعادل عبد الكريم،

ويوسف عميرة، وتوفيق شديد. وفي الاجتماع الثاني تخلف توفيق شديد، فتابع الأربعة العمل.[52] والروايات عن نشأة فتح تعترف بالدور التأسيسي لهؤلاء الأربعة، حيث ثلاثة منهم لهم خلفيات إخوانية[53] والرابع (عرفات) مقرب من الإخوان.

وقد تعرَّض تنظيم الإخوان الفلسطينيين لهزة كبيرة، بخروج عدد لا يستهان به من عناصره القيادية التي شكلت حركة فتح، وهي عناصر نوعية تميزت بالكفاءة والحيوية وروح المبادرة؛ ومعظمها كانت قيادات وكوادر أساسية في التنظيم العسكري الخاص، الذي شكَّله الإخوان في النصف الأول من خمسينيات القرن العشرين. وقد وفَّرت أساليب التنظيم الخاص والتدريب والخبرة العسكرية التي اكتسبتها هذه العناصر، قاعدة مهمة وغنية لإطلاق حركة فتح من حيث انتهى التنظيم الخاص.

ويُظهر جدول مرفق في ملحق كتاب "الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني"، الصفحات 311–317، أسماء 50 شخصاً من الأعضاء المؤسسين والرياديين في حركة فتح، ممن لهم خلفية إخوانية. وبالرغم من أنه لا يعطي قائمة حصرية للأسماء، فإنه يعطي مؤشراً قوياً على نشوء فتح في الحاضنة الإخوانية. ويلاحظ من الجدول أن هناك 27 عضواً ممن انتظموا في فتح في فترة الخمسينيات، وهناك 14 شخصاً دخلوا في عضوية اللجنة المركزية لفتح. كما أن أغلب هؤلاء الخمسين (ثلاثين على الأقل) شغلوا مواقع متقدمة في الحركة في وقت من الأوقات. ويلاحظ أن حضورهم القيادي في الصف الأول كان حاسماً وطاغياً في مرحلة التأسيس خصوصاً 1957–1961، مقارنة بأي أشخاص لهم خلفيات حزبية أخرى ممن حصلوا على مواقع متقدمة، حيث كان عددهم نادراً.[54]

ولم يكن خلاف الإخوان الفلسطينيين مع فتح على فكرة المقاومة والجهاد، ولا على العمل في إطار وطني، وإنما على التوقيت، وإمكانات النجاح، والقدرة على التحكم في مسارات الحركة. وبحسب سليمان حمد الذي كان وسيطاً في المفاوضات التي جرت بين الطرفين، فإنها لم تنجح في الوصول إلى تفاهم؛ حيث رغبت قيادة الإخوان بالإشراف أو الهيمنة عملياً على فتح، بينما أصرت فتح على استقلاليتها، بالرغم من حرصها على بقاء الإخوان فيها. ولذلك قررت قيادة الإخوان الفلسطينيين سنة 1962 أن تلزم أفرادها "مزدوجي العضوية" بالاختيار إما بالالتزام بالجماعة أو بفتح؛ وفي المقابل، ألزمت فتح أفرادها أيضاً بالاختيار بين عضويتها وعضوية الجماعة، وحصل الانفصال

بين الطرفين. وكان من أواخر من أُخرج من الإخوان على عكس رغبته عضو اللجنة المركزية لفتح محمد يوسف النجار سنة 1966.[55]

لم تشعر فتح أنها خسرت كثيراً، فبالنسبة لعناصر فتح الإخوانية (التي أصرّت على البقاء في فتح) فقد كان لديها من القدرات والإمكانات المتميزة، وحالة الاندفاع والقوة والحيوية، ما يجعل من الصعب أو المتعذر على قيادة الإخوان التي تعيش ظروف السرية والانكفاء الذاتي وضعف الإمكانات، متابعة هكذا عمل يتمتع بدينامية عالية وبالانفتاح الشعبي والسياسي، ويحتاج إلى قرارات سريعة. وبحسب القيادي الإخواني عبد الرحمن بارود "لم يكن لدى الإخوان شخصيات قوية قادرة تستطيع إقناع مؤيدي فتح بثغرات مشروعها. كما لم تكن قيادات الإخوان تملأ أعين الفتحاويين ممن كانوا من الإخوان".[56] ثم إن انكشاف هكذا علاقة (وهو أمر ليس صعباً) كان سيضر بفتح وعملها.

وعلى أي حال، فلا ينبغي للإخوان أن يبالغوا في نسبة حركة فتح إليهم، كما لا ينبغي لحركة فتح أن تتنكر لجذورها وبداياتها الأولى، فإذا كان الإخوان هم المحضن الذي خرجت منه الفكرة وبداياتها الأولى، فإن فتح لم تنشأ بقرار من قيادة الإخوان ولا وفق خططهم، كما أن مشروعها لم يحمل أيديولوجية الإخوان، ولا الضوابط التي تضمن سيره كمشروع يخدم أهدافهم. وفي المقابل، فليس ثمة كثير فخر الآن لدى فتح بخلفيتها الإخوانية، وليس ثمة كثير فخر لدى الإخوان بخلفية فتح؛ خصوصاً وأن تأثير الخلفية اقتصر على البدايات الأولى، إذ لم يطل الزمان بفتح إلى أن تحولت إلى حركة علمانية براجماتية، بهوية وطنية، واجتهادات سياسية خاصة.

لعل أبرز درسين من هذه التجربة: أن العمل لفلسطين قد يحتمل تخفيف قوة الموجة، لكنه لا يحتمل الانكفاء والانعزال؛ وإن حدث فهو للاستثناء وللضرورة التي تقدر بقدرها. وإن عدم قدرة جماعة الإخوان على استيعاب وتوجيه طاقة مجموعة من أفضل كفاءاتها (لأسباب ذاتية وموضوعية)، قد أدى إلى خسارتها، وإلى ملء هذه الكفاءات للساحة الفلسطينية بطريقة أثَّرت لاحقاً على المسار الوطني الفلسطيني.

والدرس الثاني هو أنّ أولئك الذين لا ينتبهون إلى ضبط مساراتهم وحسم خطوطهم الحمراء (العقائدية والأيديولوجية)، ويستجيبون للتكتيكات والاعتبارات البراجماتية المصلحية، ويتخففون من التزاماتهم (الدينية والسلوكية والفكرية)، قد يجدون أنفسهم

في نهاية المطاف، وقد ابتعدوا عن أهدافهم، وتغيرت معاييرهم، وتضاءلت قِيَمهم. إذ إن حالة "التديّن" لجيل التأسيس في فتح تحوّلت مع الزمن إلى تدين شخصي لعدد من الأفراد، ثم تلاشى تأثيرها في صناعة القرار وفي توجيه المسيرة... مع غلبة "الوطني" على "الديني" في شخصياتهم.

رابعاً: المسار من الإخوان إلى حماس:

من الناحية الشعبية، كان الإخوان المسلمون قوةً شعبية أولى، وسط قطاعات الفلسطينيين خلال الفترة 1949–1956 سواء في الضفة أم في القطاع، لما حققوه من سمعة جهادية في حرب 1948، ولما طرحوه من برامج إسلامية وطنية، حيث نعموا بحرية نسبية في مصر حتى أواخر 1954، وبأجواء مواتية في الأردن. وقد أدى تراجع الحضور الشعبي للإسلاميين الفلسطينيين في الفترة 1956–1967 إلى "نزيف" في عدد الأعضاء، وتراجع القدرة على اكتساب عناصر جديدة، كما تراجع حضورهم وتأثيرهم الاجتماعي والدعوي؛ ولم يكن لهم حضور مؤثر في الإطار السياسي. وبالرغم من أن أوضاع الإخوان في الأردن بما فيها الضفة كانت أفضل حالاً عنها في قطاع غزة؛ إلا أنّ الإخوان لم يكونوا رقماً في المعادلة، ولا عنصراً فاعلاً في إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، ولا في إنشاء المنظمات الفدائية الفلسطينية في تلك الفترة.

بعد انتهاء حرب 1948 وفي بداية الخمسينيات، كان الإخوان المسلمون يزدادون قوة ونفوذاً، خصوصاً في قطاع غزة. وفي القطاع أصبح الشيخ عمر صوان، رئيس المكتب الإداري في غزة. وكان مركز قيادة الإخوان حيث المكتب الإداري في حارة الدرج، وهناك 11 شُعبة أخرى في الرمال، وحارة الزيتون، والشجاعية، وخان يونس، ورفح، والبريج، والنصيرات، والمغازي، ودير البلح، وبني سهيلة، وبيت لاهيا. وخلال الفترة 1949–1956 كان الإخوان أقوى التيارات، والقوة السياسية الأولى في القطاع.[57] غير أن إخوان القطاع شهدوا حالة من التراجع الشعبي والدعوي والتنظيمي، بعد أن سدّد عبد الناصر ضربته القاسية للإخوان، وأخذ يلاحقهم، واستخدم إعلامه القوي في تشويه صورتهم. فأصبح التوجه العام لدى الإخوان والإسلاميين عموماً هو المحافظة على النفس، والانكفاء على الذات بانتظار ظروف أفضل.

في منتصف الخمسينيات، أعاد الإخوان في قطاع غزة ترتيب أوضاعهم بشكل سري تحت قيادة شابة أبرز عناصرها عبد الله أبو عزة وعبد البديع صابر. أما هاني بسيسو الذي كان أحد أبرز شباب الإخوان ومحطّ إجماعهم، فقد ذهب للتدريس في العراق في منطقة الزبير منذ سنة 1953؛ غير أن إخوان القطاع كانوا يسلمونه القيادة، أو لا يقطعون أمراً دونه، عندما يعود صيفاً.[58]

وفي بيئة من الضغوط القاسية، ووجود أجواء من التَّفلت والترك والتراخي لدى عناصر الإخوان، ومع تشتت الإخوان في عدد من البلدان، ومع نجاح حركة فتح في تجنيد الكثير من العناصر المتميزة من الإخوان؛ ارتأت قيادة الإخوان تحصين الوضع الإخواني وحمايته، فقررت إعادة بناء التنظيم حيث رتّبت اجتماعاً في صيف 1963 (وقيل في سنة 1962) حضره 15 مندوباً في مواصي (مزرعة) عيد الأغا في منطقة خان يونس. وقرر المشاركون إنشاء تنظيم "الإخوان الفلسطينيين"، وانتخبوا هاني بسيسو رئيساً لهم (مراقباً عاماً). فترك بسيسو التدريس في العراق، واستقر في القاهرة تحت غطاء الدراسات العليا للتفرغ لقيادة التنظيم، وانتُخِب عبد البديع صابر نائباً له. وشمل تنظيم الإخوان الفلسطينيين قطاع غزة وبلدان الخليج وسورية لكنه لم يشمل الأردن (بما فيها الضفة الغربية) حيث كان للإخوان تنظيمهم هناك.[59]

وفي سنة 1965 قبض النظام المصري على هاني بسيسو ضمن حملته على الإخوان، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، غير أنه لم يفرج عنه، وتوفي رحمه الله في السجن مصاباً بالحمى الشوكية سنة 1970.[60]

تولى عبد البديع صابر، الذي استقر في قطر، قيادة الإخوان الفلسطينيين في غياب هاني بسيسو، وتمّ تثبيته رسمياً مراقباً عاماً في اجتماع مجلس شورى الإخوان الفلسطينيين سنة 1969 في بيروت. غير أن عبد البديع استعفى من القيادة سنة 1970 فحلَّ مكانه نائبه عبد الله أبو عزة، إلا أن أبو عزة الذي تطورت لديه رؤى فكرية ناقدة لعمل الإخوان ولفكر سيد قطب؛ قدَّم استقالته من موقعه القيادي؛ ثم انسحب من جماعة الإخوان.[61]

حلَّ عمر أبو جبارة الذي كان أيضاً مسؤولاً عن الإخوان الفلسطينيين في الكويت، مكان أبو عزة، ثم تمّ تثبيته بانتخابه مراقباً عاماً في مجلس الشورى الذي عُقد سنة 1973، وانتخِب خيري الأغا نائباً له، وانتخِب معهم في اللجنة التنفيذية سليمان حمد ونادر الحاج عيسى وخليل حمد. وقدَّر الله أن يتوفى عمر أبو جبارة

رحمه الله في بداية صيف 1975 عندما وقع من فوق شاحنة صغيرة في أثناء تجهُّزه للسفر إلى الأردن؛ فتولى نائبه خيري الأغا قيادة الإخوان، أما سليمان حمد فحلَّ مكان أبو جبارة في قيادة الإخوان الفلسطينيين بالكويت. وفي اجتماع مجلس الشورى خلال السنة نفسها انتخِب خيري الأغا مراقباً عاماً، وسليمان حمد نائباً له.[62]

كان بين الأغا وحمد تناغم كبير خصوصاً في الاهتمام بالعمل الجهادي لفلسطين وفي الاهتمام في قطاع الشباب والطلاب. فقد كان الأغا أحد قادة التنظيم العسكري الخاص في القطاع (1952–1954)، وكان حمد أحد مؤسسي حركة فتح (والتي تركها لاحقاً). وقد توافق ذلك التناغم تماماً مع شخصية الشيخ أحمد ياسين الذي تولى قيادة الإخوان في قطاع غزة بعد الاحتلال الإسرائيلي للقطاع سنة 1967، خلفاً لإسماعيل الخالدي؛ وكان نائبه عبد الفتاح دخان.

وكان توحيد تنظيمَي الإخوان الفلسطينيين والأردنيين[63] علامة فارقة في تاريخ الإخوان. ففي اجتماع اللجنة التنفيذية للإخوان الفلسطينيين في صيف 1976، وضعت اللجنة مشروع قرار يقضي باندماج التنظيم الفلسطيني مع تنظيم الإخوان المسلمين في الأردن في الداخل والخارج. وكان أصل الفكرة قائماً على دمج التنظيمات الإخوانية في تنظيمات إقليمية، حيث تتوحد مثلاً تنظيمات الإخوان في الأردن وسورية وفلسطين ولبنان في تنظيم بلاد الشام؛ وقِسْ عليها مصر والسودان، وشمال إفريقيا. وحدثت مشاورات واستقراءات لآراء الإخوان في مختلف الأقطار. وعُرض ذلك على مجلس الشورى للتنظيم الفلسطيني، في دورته في صيف 1977، فوافق عليه بالإجماع. وكُلفت اللجنة التنفيذية برفع الفكرة إلى مكتب الإرشاد فوافق عليها وشجعها، وكذلك قامت اللجنة التنفيذية بمناقشة الفكرة مع القيادة في الأردن، فلقيت منها ترحيباً حاراً. وطرحت الفكرة على مجلس شورى الإخوان في الأردن بوجود خيري الأغا وسليمان حمد، فوافق المجلس عليها بالإجماع. وخلال سنة 1978 تمّ حلُّ مجلسَي شورى الإخوان الأردنيين والإخوان الفلسطينيين؛ وتمّ انتخاب مجلس جديد، وفق لائحة جديدة، وانتُخبت قيادة جديدة برئاسة محمد عبد الرحمن خليفة، وانضمت تشكيلات الإخوان الفلسطينيين في غزة والكويت والسعودية وقطر والإمارات لهذا التنظيم، الذي أطلق عليه "بلاد الشام". وبالرغم من أن ظروفاً عملية وموضوعية حالت دون انضمام إخوان سورية ولبنان للتنظيم إلا أنه حافظ على اسم "بلاد الشام".

كانت الضفة الغربية تتبع للتنظيم الأردني، وكان قطاع غزة يتبع للتنظيم الفلسطيني. وعندما توحد التنظيمان، انبثق عن هذا التنظيم الجديد لجنة متخصصة تتابع الشأن الفلسطيني في الداخل، وخصوصاً في الضفة والقطاع. وكان من أبرز العاملين فيها قنديل شاكر وأبو بشير سعد الدين الزميلي، بالإضافة إلى متابعة أمين السر يوسف العظم لأعمالها. وتمّ ترتيب تشكيل مكتب إداري للضفة والقطاع في داخل فلسطين، تقوم هذه اللجنة بمتابعته. وتولى رئاسة هذا المكتب راضي السلايمة من القدس، ثم خلفه عبد الفتاح دخان من خان يونس.

في 20 و1983/10/21 عُقد مؤتمر داخلي لفلسطين، وهو المؤتمر الأول الخاص بالقضية الفلسطينية الذي يعقده تنظيم بلاد الشام، ليبحث في توحيد الفهم وفي أسس ومنطلقات ووسائل العمل لفلسطين، وفي إطلاق برامج العمل المتعلقة بها. وقد تمّ عقد هذا المؤتمر في الأردن بحضور ممثلين عن مناطق التنظيم المختلفة بما في ذلك قطاع غزة. وانصبَّت مُخرجاته التي توزعت على عشر صفحات على التأكيد على أن العمل لقضية فلسطين ومشروع التحرير لا يتناقض مع مشروع إقامة الدولة الإسلامية، وأنهما خطان متوازيان يسيران جنباً إلى جنب ويكمل بعضهما بعضاً. واتخذ في إطار التنظيم الداخلي 26 قراراً لتطوير ودعم العمل على الساحة الفلسطينية بما في ذلك تفريغ جهاز خاص أو لجنة... للعمل الفلسطيني الإخواني بحيث يضع الخطط والدراسات ويتولى تأمين متطلبات الإعداد والاستعداد؛ وقيام قيادة واحدة للتنظيم في داخل فلسطين بالنسبة للأمور الحركية وشؤون الدعوة...، مع فصل المناطق عن بعضها فيما يتعلق بالعمل الجهادي. وكانت هناك قرارات متعلقة بالقدس ومركزيتها، وبالأنشطة الدعوية والشعبية والتعليمية والإعلامية. كما عالجت مُخرجات المؤتمر العمل الجهادي على الساحة الفلسطينية، وأكدت على ضرورة الاستعداد العسكري وتهيئة الوسائل المناسبة لإنجاحه. كما قرر المؤتمر تأليف لجنة مهمتها متابعة قراراته ووضعها موضع التنفيذ.[64]

ومن خلال الحوارات والمناقشات، طُوِّرت الفكرة باتجاه اقتراح جسم مركزي يتابع العمل لفلسطين في الداخل والخارج ويشرف عليه. رُفع المشروع إلى قيادة الإخوان في الأردن فوافقت على إنشاء هذا الجسم باسم "قسم فلسطين" في تشرين الأول/ أكتوبر 1985، ثم أصبح لاحقاً يُعرف باسم "جهاز فلسطين". وقد وافق خيري الأغا على قيادته فانطلق العمل فيه بقوة بعد ذلك. وأصبح هذا الجهاز يدير العمل الفلسطيني، وهو الجهة المعنية بمتابعة الداخل الفلسطيني، ويملك صلاحيات واسعة، غير أنه ظلّ ملتزماً بالعمل تحت سقف تنظيم بلاد الشام.

وفي صيف سنة 1985 اتخذت قيادة الإخوان المسلمين قراراً باستغلال أيّ أحداث للاشتراك في المواجهة ضدّ الاحتلال، أي قبل سنتين من بدء الانتفاضة. وقد استشهد اثنان من شباب الإخوان في المواجهات التي شهدتها جامعة بيرزيت سنة 1986. ويبدو أن قيادة الخارج أعطت للداخل صلاحية اختيار التوقيت المناسب.[65]

وفي 1987/10/23 اتخذ المكتب، الذي كان مجتمعاً في بيت حسن القيق، في دورا قضاء الخليل، قراره بإطلاق المقاومة ومواجهة الاحتلال، وقد حضر ذلك الاجتماع حسن القيق، وعبد الفتاح دخان، وحماد الحسنات، وإبراهيم اليازوري، وعدنان مسودي، وناجي صبحة، ومحمود مصلح، وفضل صالح، وغاب عن الاجتماع سعيد بلال رحمه الله لأنه لم يستطع الوصول إلى المكان. وقد قرر المجتمعون أن يتركوا لكل مدينة الخيار بأن تعمل بالكيفية التي تراها مناسبة.[66] فكانت غزة هي المبادرة، إثر حادث دعس العمال الأربعة في 1987/12/8، لتنطلق بعد ذلك حركة حماس.

خامساً: تطلعات ومسارات جهادية:

لعل الإخوان دفعوا ثمناً غالياً بخسارتهم لمجموعة من أفضل عناصرهم وقياداتهم الذين انضموا لفتح، وترافق معه ثمن اضطرارهم للخروج من دائرة التأثير الفلسطيني. ومع الزمن تكرَّست فكرة حفظ الذات والتركيز على التربية والعمل السري، وتكرست مدرسة تُشدد على البناء التربوي والتنظيمي والتوسع الدعوي حيثما أمكن؛ وظهرت بعض الأجواء الداخلية التي تعودت على فقه "غير ذات الشوكة"، في ضوء عظمة الشعارات وتواضع الإمكانات. وفي المقابل أخذت تتصاعد تساؤلات في الوسط الإخواني تتساءل عن المدى المطلوب في الاتساع التنظيمي والدعوي للانتقال إلى العمل الجهادي والعسكري؛ مع الخشية أن تتحول من حالة مؤقتة إلى حالة دائمة.

ومن ناحية أخرى، فإن قضية فلسطين بطبيعتها المتفجرة ومتغيراتها وحالة الصراع الدائم مع الاحتلال والعدوان، وبروز مخاطر تستدعي المسارعة لمجابهتها وظهور فرص لا يكفي العمل السري التربوي لاقتناصها، جعل مسألة العمل العسكري حاضرة في نقاشات القيادة والقاعدة الإخوانية. كما أنه في الفترة التي تلت حرب 1967، أصبحت مسألة "المصداقية" والجدية في العمل لفلسطين في أعين الشعب الفلسطيني مرتبطة بالقدرة على مجابهة العدو وخصوصاً في العمل المسلح.

معسكرات الشيوخ:

إثر حرب 1967، وبروز العمل الفدائي الفلسطيني وانتشار قواعده خصوصاً في الأردن، تصاعدت الرغبة لدى شباب الإخوان في المشاركة في المقاومة المسلحة. وحدث جدل بين رأيين، أيّد الأول إنشاء فصيل مستقل، بينما دعم الثاني مشاركة الإخوان في العمل الفدائي لكن ليس تحت اسمهم الصريح. غير أنه عندما بادر بعض شباب الإخوان بتلقي تدريبات عسكرية مكثفة في معسكرات فتح 1967، من بينهم أحمد نوفل وداود قوجق ومشهور حسن حيمور، وحاولوا إنشاء قواعد مستقلة لهم في أحراش دبِّين، قامت قوة عسكرية من فتح بمحاصرتهم وقبضت عليهم ومنعتهم من إنشاء قاعدة مستقلة.[67] وكان واضحاً من الرسالة أن العمل الإسلامي المستقل غير مرحب به.

لقيت حماسة إخوان الأردن لإنشاء معسكرات للعمل الفدائي تشجيعاً ودعماً من تنظيم الإخوان المصريين المقيمين في الخارج، ومن إخوان الكويت والسودان في المكتب التنفيذي الذي يشرف على تنظيمات الإخوان المسلمين. ثم ما لبثت أن دعمت الفكرة تنظيمات الإخوان السوريين والعراقيين واللبنانيين.[68]

وأصدرت قيادة الإخوان المسلمين قراراً بفتح معسكرات لتدريب الإخوان ومؤيديهم، حيث استفاد الإخوان من أجواء حرية العمل الفدائي والتأييد الشعبي الهائل له، والذي ظهر خصوصاً بعد هزيمة 1967، غير أن الإخوان لم يستطيعوا العمل باستقلالية كاملة نتيجة أجواء العداء ضدّ الإسلاميين التي كانت ما تزال مستمرة، وبالذات من عبد الناصر والقوى اليسارية...، بالإضافة إلى صعوبة التمويل.

كان الترتيب أن يعمل الإخوان تحت راية فتح، وتشكلت لجنة للتنسيق بين فتح والإخوان، حيث مثَّل الإخوان سعد الدين الزميلي (أبو بشير)، وإسحق الفرحان، وعبد خلف داودية، ومثّل فتح محمد راتب غنيم ومحمد يوسف النجار؛ وكلاهما ذوا خلفية إخوانية.[69]

غير أن قيادة التنظيم الفلسطيني لم تتبنَّ المشاركة في هذه المعسكرات، على أساس أن هذا العمل العسكري سابق لأوانه، وقررت عدم إطلاق العمل المسلح لأنها ترى أنه لا طائل منه حسب تقديرها للموقف من: تغوّل وتمكّن صهيوني، وضعف عربي، وعدم القدرة في ضوء الإمكانات الضعيفة على إحداث تأثير إيجابي؛ وأكدوا أن المطلوب هو بذل

كل الطاقات لتجميع القوى العربية تحت راية الإسلام لهزيمة الصهاينة. غير أن قيادة التنظيم الفلسطيني لم تمنع من يرغب من أفرادها من الانضمام إلى هذه المعسكرات، كما دعمتها مادياً.[70]

وقد وافقت حركة فتح على توفير الغطاء لهذه المعسكرات، كما التزمت بتقديم التموين والسلاح والذخيرة، بالإضافة إلى مصاريف المتطوعين، وكانت العمليات الفدائية تحدث بالتنسيق مع فتح؛ بينما كان للإخوان معسكراتهم الخاصة، ولهم حريتهم الكاملة في إدارتها، وفي تصريف أمور التدريب والانتقاء، وشؤونهم الخاصة. وقد تمّ تدريب نحو 300 رجل توزعوا على سبع قواعد فدائية.[71] وشارك في هذه القواعد أفراد من جنسيات عربية مثل فلسطين، والأردن، وسورية، ولبنان، والسودان (نحو سبعة سودانيين)، ومصر، واليمن.[72]

ومن العمليات البارزة التي نفّذتها معسكرات الشيوخ عملية "الحزام الأخضر" في 1969/8/31، بالتعاون مع فتح، حيث استهدفت ثلاث مستعمرات متقاربة هي "ياردينا Yardena" و"بيت يوسف Beit Yosef" و"نيفي أور Neve Ur"، وتمّ الهجوم في ليلة واحدة، وكانت أصداؤها مدوية؛ وعملية "دير ياسين"، المشتركة مع فتح، في الجولان ضدّ مستعمرة "ناحال هجولان" في ليلة 1969/9/15، حيث تمّ تدمير نادي الضباط ومحطة للوقود ومستودعات التموين وسيارات عسكرية إسرائيلية.[73] أما عملية 1970/6/5 فقد شارك فيها 6 من المجاهدين حيث تصدوا لدبابتين وكاسحة ألغام، واعترف الصهاينة بـ 12 قتيلاً، واستشهد من المجاهدين 3 منهم مهدي الإدلبي من قاعدة "بيت المقدس" التي يقودها الشيخ عبد الله عزام، وبلال المقدسي من قاعدة "غزة".[74]

وحسب عبد العزيز علي فإن عدد شهداء معسكرات الشيوخ خلال الفترة 1968–1970 بلغ 11 شهيداً،[75] غير أن عبد الله عزام يذكر أن عددهم كان 13 شهيداً، ومن هؤلاء الشهداء رضوان كريشان، ورضوان بلعة الدمشقي، ومحمد سعيد باعباد الضابط اليمني، وأبو الحسن إبراهيم الغزي.[76]

استعادة الشعبية:

بعد كارثة حرب 1967 والاحتلال الإسرائيلي لباقي فلسطين وسيناء والجولان، أخذ التيار الإسلامي يستعيد حيويته وسط الفلسطينيين، وتزايد الاتجاه نحو الإسلام، بعد

أن رأت الجماهير فشل الأيديولوجيات القومية والعلمانية واليسارية في حلّ القضية. وبشكل عام، فإن الإخوان المسلمين الذين أخذوا يستعيدون حالتهم الشعبية (مع تصاعد الصحوة الإسلامية) في النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، وضعوا المقاومة المسلحة نصب أعينهم، ولكنهم قرروا التريّث ريثما يستكملون استعداداتهم ويشكلون عملاً عسكرياً يستعصي على الاستئصال... ولذلك كان ظهور حماس بشكلها الناضج ثمرة طبيعية لجهود طويلة... وتحولاً محسوباً في جماعة متجذرة في الواقع الفلسطيني.

وكما نشطت الفصائل الفلسطينية في إنشاء المؤسسات المدنية التعليمية والصحية والاجتماعية والاقتصادية، فقد نشط الإخوان أيضاً في إنشاء المؤسسات المدنية، وفي بناء المساجد في فلسطين، واستخدامها في نشر دعوتهم. وقاموا ببناء العديد من المؤسسات الخيرية والاجتماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة. وتمّ بناء أطر ومؤسسات داعمة للشعب الفلسطيني في الخارج، كما تمّ تأسيس عدة واجهات للعمل الطلابي الإسلامي الفلسطيني في الكويت وبريطانيا وألمانيا وأمريكا. ومع استمرار الوقت أخذت تتزايد الجمعيات الخيرية الإسلامية ولجان الزكاة والتكافل الاجتماعي، كما تضاعفت أعداد المساجد في الضفة وقطاع غزة، وأصبح الكتاب الإسلامي والشريط الإسلامي هما الأكثر رواجاً. وفي قطاع غزة برز دور المجمع الإسلامي والشيخ أحمد ياسين، وأصبحت الجامعة الإسلامية بغزة أحد أهم المعاقل الإسلامية، وتزايدت أعداد المساجد من 200 مسجد سنة 1967 إلى أكثر من 600 مسجد سنة 1987.

وقويت الظاهرة الإسلامية في فلسطين المحتلة سنة 1948، وأصبحت تحظى بشعبية متزايدة؛ وبرز في قيادتها الشيخ عبد الله نمر درويش، والشيخ رائد صلاح، والشيخ كمال الخطيب... وغيرهم.

جذور العمل العسكري لحماس:

كان سؤال الجهاد حاضراً منذ البداية لدى الشيخ أحمد ياسين الذي تولى قيادة الإخوان في داخل قطاع غزة منذ أيلول/ سبتمبر 1967 خلفاً لإسماعيل الخالدي. إذ كان رحمه الله تواقاً للعمل العسكري في القطاع، وأبدى رغبته في إطلاقه، لكن إخوانه في قيادة القطاع، وفي قيادة الإخوان الفلسطينيين في الخارج، كانوا يرون أن أولوية المرحلة هي للعمل التربوي وإعادة بناء التنظيم، خصوصاً في ضوء ضعف الإمكانات وقلة عدد الإخوان. كما بقي سؤال الجهاد حاضراً لدى عدد ممن شارك في تأسيس فتح ثم تركها

التزاماً بقرار الجماعة أمثال سليمان حمد، أو ممن ظلّ في الجماعة ممن له عضوية سابقة في العمل العسكري السري أمثال خيري الأغا، ومحمد الخضري، وفوزي جبر.

وبشكل عام، أخذت جدلية العلاقة بين الإعداد التربوي وكسب الأنصار وبين المقاومة والخشية من أثمانها من اعتقال واستشهاد وإغلاق مؤسسات...، خطأً عملياً، فالإعداد التربوي وتجميع العناصر مهم لكنه ليس عملية لا نهائية، ويكفي وجود قواعد وأنوية صلبة قادرة على العمل والاستمرار، وعملية المقاومة هي بحدّ ذاتها عملية تربوية تصقل المعادن وتصنع الرجال، ثم إن الإعداد التربوي (خصوصاً عندما يكون تحت الاحتلال) جوهره المقاومة والتضحية، ولا بدّ من بناء التنظيمات على هذا الأساس.

في أواخر السبعينيات، صار الإخوان أكثر ثقة بأنفسهم مع صعود شعبيتهم واتساع تنظيمهم؛ ولذلك عاد التطلع من جديد للعمل العسكري، خصوصاً في أجواء تصاعد الجهاد في أفغانستان، ونجاح الثورة في إيران، بالتزامن مع المعارك والمواجهات التي كانت تخوضها المقاومة الفلسطينية في لبنان، ومع أجواء الغضب والتحدي التي أثارتها معاهدة كامب ديفيد، ودخول مصر في مسار التسوية.

وفي 1979، تشكَّل تنظيم "أسرة الجهاد" في قرى المثلث العربي، وكان على ما يبدو على علاقة بسعيد بلال (من قيادة الإخوان في الضفة الغربية). وقام هذا التنظيم بتدمير العشرات من المرافق الاقتصادية، وإحراق السيارات والمعامل والبساتين الإسرائيلية. وقد تمكّن الكيان الإسرائيلي من كشف التنظيم في السنة التالية، واعتقل العشرات من أفراده (أكثر من ستين عنصراً) من قرى أم الفحم وكفر قاسم وقلنسوة وباقة الغربية، وكان من أبرز قياداته فريد أبو مخ والشيخ عبد الله نمر درويش اللذان حُكِمَ عليهما وعلى رفاقهما بالسجن مُدداً مختلفة.[77]

في النصف الثاني من سنة 1979، بدأ التحضير لتأسيس عمل عسكري لدى الإخوان الفلسطينيين في الكويت، وكان لخالد مشعل دور أساسي في ذلك، وبرعاية خاصة من سليمان حمد رئيس المكتب الإداري لتنظيم بلاد الشام في الكويت آنذاك، وأخذت القيادة ترسل كوادر مختارة (من الخارج) بسرية تامة، منذ سنة 1980، للتدريب العسكري في عدد من الساحات التي توفرت فيها الفرصة، وقامت بتدريب الكثير من الكوادر من عدد من البلدان، وفرَّغت عدداً من الأفراد للعمل العسكري والأمني.[78] وفي الوقت نفسه، استفادت دائرة العمل العسكري في الخارج من الخبرة العسكرية لكوادر من كتيبة

الجرمق (الكتيبة الطلابية) الذين قاتلوا في الجنوب اللبناني، والذين تحولوا للاتجاه الإسلامي، ومن آخرين من أصحاب الخبرة والاختصاص العسكري في الأمة.

تمّ تشكيل نواة ترعى العمل العسكري في 1981–1982 بقيادة مشعل. وتوسعت في تدريب كوادر منتقاة من عدد من البلدان في الخارج 1984–1985. ثم قام جهاز فلسطين، بعد تشكيله بإنشاء لجنة مركزية للعمل الإيجابي (العسكري) تحت إشراف مشعل وبرئاسة محمد الخضري. وتابعت اللجنة تجنيد الإخوان من أبناء الداخل خصوصاً ممن يقيم ويدرس في الخارج ويمكنه العودة، ومن ثم "زرعهم" للعمل في الداخل في مقاومة الاحتلال. كما تواصلت اللجنة في أوائل 1988 مع صلاح شحادة المسؤول عن العمل العسكري في غزة، من أجل تنسيق العمل بين الداخل والخارج.[79]

وتمّ تأسيس العمل الأمني في الخارج سنة 1981، وتمّ فرز طاقم متخصص له، وفي 1986 أخذ العمل الأمني بُعداً مركزياً على مستوى الجهاز، غير أنه دخل كاختصاص ضمن لجنة العمل العسكري إلى أن تمّ ترتيبه كدائرة مستقلة في قيادة الجهاز لاحقاً.[80]

يُعدُّ الشيخ أحمد ياسين، المؤسس الفعلي للعمل العسكري على الأرض داخل فلسطين، بتأسيس الجهاز العسكري في القطاع. فقد بدأ الشيخ أحمد ياسين في أواخر 1982 أوائل 1983 بإعطاء أولوية للعمل العسكري. وشكَّل لجنة سرية بقيادته مسؤولة عن الإعداد والعمل الجهادي مكونة من عبد الرحمن تمراز، وإبراهيم المقادمة، وأحمد الملح. وفي نيسان/ أبريل 1983 أوفد الشيخ أحمد ياسين تمراز للأردن حيث طلب أموالاً لشراء السلاح فقابل يوسف العظم، باعتباره أمين سر الجماعة، فأعطاه دعماً أولياً. وعندما اطلع الإخوان المعنيون بالعمل لفلسطين في الكويت على الأمر، قرروا دعم العمل العسكري في غزة، وأرسلوا ما لا يقل عن 30 ألف دينار كويتي (نحو 100 ألف دولار أمريكي)؛ عن طريق يوسف العظم، حيث كان للشيخ عمر الأشقر وإخوانه في الكويت دور أساسي في توفير التمويل. وتمّ شراء 80 قطعة سلاح، وتدريب عدد من الكوادر في داخل القطاع وفي الخارج. غير أن هذا العمل انكشف، وتمّ القبض على عدد من الإخوة على فترات كان آخرهم الشيخ أحمد ياسين في منتصف تموز/ يوليو 1984. وحُكم بالسجن على أحمد ياسين 13 عاماً، وعلى تمراز 12 عاماً، ومحمد شهاب 10 أعوام، وإبراهيم المقادمة ثمانية أعوام ونصف، وعلى صلاح شحادة عامين. وقد أُفرج عن الشيخ أحمد ياسين

في عملية تبادل الأسرى التي تمت في 1985/5/20، بين الجبهة الشعبية – القيادة العامة والكيان الإسرائيلي.[81]

كان هناك خلايا أخرى لم تُعتقل، وواصلت العمل مثل مجموعة المغرافة بقيادة عدنان الغول التي قامت بعدد من العمليات في الفترة 1985–1986، منها استهداف شاحنة عسكرية، وإطلاق النار على ضابط مخابرات، وتصفية عدد من العملاء.[82]

وبعد تشكيل جهاز فلسطين سنة 1985، قرَّرت القيادة "دعوة كافة عناصرها في كافة أماكن تواجدهم في فلسطين المحتلة إلى المشاركة في المظاهرات والصدامات مع العدو المحتل بل والدعوة إليها". وفي ضوء ذلك، أجمعت القيادة في غزة في سنة 1986 على بدء العمل العسكري. وقد أعيد بناء الجهاز العسكري من جديد تحت اسم "المجاهدون الفلسطينيون"، وعاد الشيخ أحمد ياسين لقيادة هذا الجهاز في منتصف حزيران/ يونيو 1987؛ وفي 1987/11/17 تقرر إطلاق العمل العسكري، حيث أوكل الشيخ أحمد لصلاح شحادة مسؤولية تشكيل الجهاز العسكري في شمال قطاع غزة، وأوكل لعبد العزيز الرنتيسي مسؤولية تشكيل الجهاز العسكري في جنوب قطاع غزة. ونظراً لاعتقال الرنتيسي إدارياً في 1988/1/15، فقد ألقيت مسؤولية الجهاز على صلاح شحادة.[83]

وقبل انطلاق الانتفاضة المباركة في 1987/12/9، كان صلاح شحادة قد شكَّل مجموعات عسكرية، منها مجموعة بيت حانون بقيادة صبحي اليازجي التي نفَّذت عدة عمليات عسكرية، ومجموعة مخيم جباليا بقيادة فتحي حماد التي نفَّذت أيضاً عدة عمليات، ومجموعة جباليا (المجموعة 101) بقيادة محمد الشراتحة التي عملت قبل الانتفاضة بشهور وهاجمت سيارات مستوطنين في أيلول/ سبتمبر 1987.[84]

من جهة أخرى، قام عبد الرحمن تمراز بطلب من الشيخ أحمد ياسين في سنة 1983 بتشكيل "جهاز أمن الدعوة"، وكان ليحيى السنوار دور أساسي في قيادته. وبعد خروج الشيخ أحمد ياسين في صفقة التبادل بعد نحو عشرة أشهر (1985/5/20)، استجاب لضغط إخوانه في متابعة هذا الجهاز. وفي سنة 1986 تمّ تشكيل منظمة الجهاد والدعوة "مجد" كقوة عسكرية ضاربة تتبع الجهاز الأمني، برئاسة يحيى السنوار، الذي ضمّ إلى جانبه روحي مشتهى؛ مهمتها مقاومة الفساد والمفسدين، ثم تشعبت مهامها في مقاومة العملاء وغير ذلك.[85]

حركة الجهاد الإسلامي:

شهدت سنة 1980 إنشاء حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، والتي قام بتأسيسها عدد من الشباب الفلسطيني الدارس في الجامعات المصرية برئاسة الدكتور فتحي الشقاقي رحمه الله. وكان الدكتور الشقاقي قد انضم لجماعة الإخوان المسلمين في القطاع بزعامة الشيخ أحمد ياسين سنة 1968، واستمر في أطر الإخوان إلى أواخر السبعينيات.[86]

ويذكر الشقاقي الذي ولد في غزة سنة 1951 (عائلته تنتمي أصلاً إلى قرية زرنوقة قضاء الرملة)، والذي درس الطب في جامعة الزقازيق بمصر 1974–1981، أن فكرة إنشاء حركة الجهاد الإسلامي نشأت أيام الدراسة الجامعية، وأنه كان هناك خلافات بينه وبين الإخوان في المنهج والتغيير وقضية فلسطين، والموقف من الأنظمة ومن العالم الواقع والأدب والفن. وأضاف أنه كان يشعر أنه "ليس لدى الإخوان منهج، وأن هناك فوضى في المفاهيم في إطار الحركة...".[87]

وانتقد الشقاقي ما عدَّه سكونية مناهج التكوين لدى حركة الإخوان، والتخبط في طرائق العمل، وإهمال جانب التخطيط، وطغيان مبدأ السلامة والمبالغة فيها.[88] غير أن الشقاقي يرى أن حركة الإخوان المسلمين حركة أم للتيار الإسلامي في المنطقة، وأن البنا كان رائداً كبيراً، وقال: إنه وحركته يكنون "كل احترام وتقدير لهذه الحركة على دورها التربوي وحفظها للإسلام في المنطقة".[89]

وقال الشقاقي: إنه مع مجيء 1978 كان التمايز واضحاً بينه وعدد من زملائه وبين الإخوان، وتابع الشقاقي الثورة الإيرانية باهتمام، وانتهى من إعداد كتابه "الخميني: الحل الإسلامي والبديل" في كانون الثاني/ يناير 1979 قبيل نجاح الثورة، والذي صدر بعد نجاحها بأيام، ولم يلتقِ بأي مسؤول إيراني قبل ذلك، وقد اعتقل ليلة صدور الكتاب مدة أربعة أيام بسبب نشاطه الإسلامي في الجامعة، ثم أعيد اعتقاله في 1979/7/20 لأربعة أشهر، وبعد خروجه من السجن انقطعت صلته التنظيمية بالإخوان، حيث شعر أن فكرة "التأثير والتوافق لم تعد قائمة" بينه وبين الإخوان، فبدأ بتشكيل نواة حركة الجهاد الإسلامي في بداية 1980.[90]

وقبل أن يعود الشقاقي إلى فلسطين سنة 1981، كان قد سبقه عدد من إخوانه الذين تخرجوا في سنة 1980 من الجامعات المصرية، وبدأوا نشاطهم داخل الأرض المحتلة. وقد التحق الشقاقي بمستشفى فكتوريا بالقدس لمدة سنتين إلى أن اعتقل في سنة 1983 لمدة عام لإصداره مجلة الطليعة، ثم أعيد اعتقاله في سنة 1986 وحكم عليه بالسجن أربعة

أعوام بتهمة تشكيل تنظيم سري عسكري، ثم أُبعد في سنة 1988 إلى لبنان، حيث عاش سنة واحدة، ثم انتقل إلى دمشق.[91]

وحسب فكرة حركة الجهاد الإسلامي فإنها جاءت لتعبِّر عن "الإسلام كمنطلق، والجهاد كوسيلة، وفلسطين كهدف للتحرير"، وأنها عندما قامت "كانت قوة تجديد داخل الفكر الإسلامي وداخل الحركة الإسلامية على مستوى الفكرة والمنهج والتنظيم وعلى مستوى الأداء داخل فلسطين".[92] وبشكل عام، فإن الحركة ركزت على المعاني الجهادية، وتحرير الوطن، وتنظيم العناصر للقيام بالعمليات العسكرية، وتأثرت بتجربة الجهاد الإسلامي في مصر، والتجربة الإيرانية، والتجربة القسامية. وحافظت على علاقة متينة بإيران منذ إنشائها وحتى الآن.

وقد انضم للحركة التي أنشأها فتحي الشقاقي مجموعتان، لهما تقريباً التوجهات السياسية والجهادية نفسها؛ حيث كانت المجموعة الأولى هي "سرايا الجهاد الإسلامي"؛ وهي مجموعة يعود أصل تكوينها إلى عناصر من حركة فتح، تمركزت أساساً في قلعة الشقيف في لبنان، وتميزت بخبرتها وتكوينها العسكري. وبرز في توجيهها المفكر الفلسطيني المعروف منير شفيق، وفي قيادتها العسكرية أبو حسن قاسم "محمد محمد بحيص"، وحمدي "محمد باسم سلطان التميمي". وهي التي يُعتقد أنها نفذت أشهر عمليات الجهاد الإسلامي في الثمانينيات، وهي عملية باب المغاربة في 1986/10/16، والتي أدت إلى إيقاع ثمانين إصابة بين قتيل وجريح من لواء "جفعاتي Givati" العسكري الإسرائيلي. أما المجموعة الثانية فقد شكَّلها إبراهيم سربل الذي أعطى هو ومن معه البيعة للشيخ أسعد بيوض التميمي، وعرفت بالجهاد الإسلامي وقد فضلت هذه المجموعة فيما بعد الانسحاب من الوحدة مع الشقاقي ورفاقه.

***

من ناحية أخرى، تطور العمل الإسلامي المقاوم في لبنان إثر الاجتياح الإسرائيلي 1982، واضطرار المقاومة الفلسطينية للانسحاب. فظهرت قوات الفجر التابعة للجماعة الإسلامية، كما ظهر حزب الله الذي أصبح قوة المقاومة الأكبر في جنوب لبنان. وقد نشطت فعاليات المقاومة الإسلامية ضدّ الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان وأجبرته على الانسحاب من صيدا وأجزاء واسعة من الجنوب سنة 1985، ليعيد تموضعه في "حزام أمني" حدودي، إلى أن انسحب نهائياً تحت ضربات المقاومة في 2000/5/25.

المبحث الثاني
نحو الصدارة العسكرية والشعبية
1987–2022

أولاً: المسارات العامة:

- شهدت هذه الفترة بشكل عام صعوداً شعبياً للتيار الإسلامي الفلسطيني، كما تصدر هذا التيار المقاومة الفلسطينية المسلحة من خلال حركتَي حماس والجهاد الإسلامي. وفرض التيار الإسلامي نفسه على الساحة الفلسطينية، فلم يعد بالإمكان تحييده أو تهميشه أو تجاوزه.

وبالرغم من حالة "الجَزْر" التي شهدها في الفترة 1994–2000، إلا أنه سرعان ما استرد قوته وعافيته، فحققت المقاومة الإسلامية قفزات نوعية في انتفاضة الأقصى 2000–2005، وفي الارتقاء بالعمل العسكري في قطاع غزة، وفي الدفاع عنه في المعارك والحروب ضدّ العدو الصهيوني 2008–2009، و2012، و2014، و2021، و2022. كما كان لها دورها الأساسي في المقاومة الشعبية والمسلحة في الضفة الغربية بما فيها القدس.

وأصبح للتيار الإسلامي قاعدته وسلطته المقاتلة في قطاع غزة، التي بالرغم من تعرضها للحصار الخانق، إلا أنها تمكنت من الصمود ومن تطوير إمكاناتها العسكرية، ومن تجنيد وتدريب عشرات الآلاف من المقاتلين.

- على الصعيد الشعبي، حقّق التيار الإسلامي (وتحديداً حماس) صعوداً كبيراً وحافظ على مكانة شعبية متقدمة خصوصاً في العقدين الأوليين من القرن الـ 21. وتمكنت حماس من تحقيق أغلبية ساحقة في المجلس التشريعي للسلطة الفلسطينية في الضفة والقطاع سنة 2006؛ ومنذ ذلك الوقت تتجنب قيادة منظمة التحرير (قيادة السلطة وفتح) إجراء انتخابات نزيهة وشفافة على صعيد السلطة وعلى الصعيد الفلسطيني في الداخل والخارج، وتتابع تعطيل مسار المصالحة وإعادة بناء منظمة التحرير وتفعيلها.

ومنذ سنة 2007 تابعت فتح سيطرتها على مناطق السلطة في الضفة الغربية كما تابعت حماس السيطرة على قطاع غزة، فيما عُرف بالانقسام الفلسطيني.

- عاش التيار الإسلامي في عالمنا العربي حالات من النجاحات والإخفاقات في هذه الفترة؛ غير أنه ظلّ يُعدّ التيار الأقوى على المستوى الشعبي، مقارنة بالتيارات القومية واليسارية والليبرالية والقُطْرية؛ وتتجلى قوته حيثما توجد بيئات حرة وانتخابات شفافة. وهو ما برز في فترة "الربيع العربي" وتحديداً خلال الفترة 2011–2013. غير أن التجربة أثبتت أن أمام التيار الإسلامي الكثير ليتعلمه للانتقال من ريادة المجتمع إلى قيادة الدولة، كما أثبتت التجربة شدة العداء من خصومه ومنافسيه ومن "الدولة العميقة"، وكذلك القوى الغربية التي تضع "الفيتو" على وصول الإسلاميين للحكم.
- تابع الشعب الفلسطيني صموده على أرضه بالرغم من شدة المعاناة وقسوة الاحتلال، وتجاوزت أعدادُ الفلسطينيين أعدادَ اليهود في فلسطين التاريخية في نهاية 2022. كما أن الشعب الفلسطيني في الخارج، الذي تتجاوز أعداده نصف عدد الفلسطينيين الكلي، تابع ارتباطه وإصراره على حقّ العودة والتحرير، وتطويره المؤسسات الداعمة لهذا الحق.
- شهدت الحركة الإسلامية في فلسطين المحتلة 1948 صعوداً كبيراً، وأصبحت أحد أبرز القوى في المجتمع الفلسطيني. وكان لها وما زال دور كبير في نشر الوعي والالتزام الإسلامي، والدفاع عن حقوق الفلسطينيين ودعم صمودهم. وبرزت في الدفاع عن المسجد الأقصى والقدس، والحفاظ على هويته الإسلامية. وبالرغم من انقسامها إلى حركتين "شمالية" و"جنوبية" سنة 1996، والتضييق والحظر الذي تعرضت له الحركة "الشمالية" بقيادة الشيخ رائد صلاح في 2015؛ إلا أن الحركة الإسلامية ما تزال تلعب دوراً فاعلاً في المجتمع الفلسطيني.
- نتيجة ظروف موضوعية وذاتية مختلفة، دخلت منظمة التحرير في مسار التسوية السلمية، الذي أدى إلى اتفاق أوسلو Oslo Accord في 1993، وما تلاه من التزامات وترتيبات. وبناء عليه اعترفت قيادة المنظمة بالكيان الإسرائيلي، وتنازلت له عن 77% من أرض فلسطين، والتزمت بالتوقف عن الكفاح المسلح، وعطلت بنود الميثاق الوطني الفلسطيني المتعارضة مع هذا الاتفاق. وقد تسبب هذا بغضب عارم في الوسط الإسلامي الذي رفض هذ الاتفاق باعتبار فلسطين أرضاً إسلامية مقدسة لا يجوز التفريط بأي جزء منها، وباعتبار وجوب الجهاد لتحرير كامل أرضها. كما لقيت هذه الاتفاقات معارضة قوى فلسطينية يسارية وقومية ووطنية، حيث شكلت حماس والجهاد بالاتفاق معها تحالف الفصائل العشر للعمل على إسقاط هذه الاتفاقات.

- أنشأت منظمةُ التحرير، بناء على اتفاق أوسلو، السلطةَ الفلسطينية سنة 1994، سعياً إلى تحويلها إلى دولة فلسطينية على فلسطين المحتلة سنة 1967 (الضفة والقطاع)، غير أنها تحولت مع الزمن إلى سلطة وظيفية تخدم أغراض الاحتلال أكثر مما تخدم تطلعات الشعب الفلسطيني. وتضخمت أجهزتها الأمنية التي انشغلت بالتنسيق الأمني مع الاحتلال وفي ملاحقة العمل المقاوم وضرب وتفكيك خلاياه، كما عانت من الفساد بأشكاله المختلفة، وفشلت في الارتقاء بحياة الفلسطينيين المعيشية والاقتصادية؛ كما فشلت في تشكيل بنى مؤسسية تنفيذية وتشريعية وقضائية فعالة، وفي بناء منظومة تستوعب كافة القوى الفلسطينية، وتعبّر عن الإرادة الحرة للشعب الفلسطيني.

وعانى التيار الإسلامي، وما زال يعاني، من التضييق ومحاولات العزل والتهميش التي تمارسها السلطة خصوصاً في الضفة الغربية؛ ومع ذلك فقد حافظ هذا التيار على قوته وشعبيته.

- حقَّق الكيان الصهيوني علواً كبيراً خلال هذه الفترة، فاستفاد من بيئة العجز العربي والإسلامي، وحالة التشرذم التي تلت الاحتلال العراقي للكويت وما أدى إليه من انعكاسات، ومن الانقسام الفلسطيني، ومن الدعم الغربي، ومن انهيار الاتحاد السوفييتي والمنظومة الشيوعية، حيث تدفق مئات الآلاف من اليهود من تلك المناطق إلى الكيان، ليصل عدد اليهود في الكيان سنة 2022 إلى نحو 7 ملايين، أي نحو 47% من يهود العالم. واستخدم الكيان الصهيوني اتفاق أوسلو ومسار التسوية لتسويق نفسه في البيئة الدولية ليقيم علاقات ديبلوماسية جديدة مع عشرات الدول، وليقوم بالتطبيع مع عدد من البلدان العربية والإسلامية؛ كما استخدمه في مضاعفة أنشطته الاستيطانية والتهويدية في الضفة الغربية، وخصوصاً في القدس، ليقفز عدد مستوطنيه من نحو 280 ألفاً سنة 1993 إلى أكثر من 800 ألف في سنة 2022.

وطوَّر الكيان من إمكاناته العسكرية والتكنولوجية والاقتصادية، وحقّق مستويات معيشية تضارع أوروبا الغربية. كما زاد المجتمع الصهيوني تطرفاً دينياً وقومياً، وأخذ يُشَرْعِن ذلك في قوانين عنصرية وظالمة.

وفي المقابل، فإن تصاعد قوة المقاومة أجبره على الانسحاب من جنوب لبنان 2000، ومن قطاع غزة 2005؛ كما صارت صواريخ المقاومة تغطي كل مساحة فلسطين التاريخية. وما زال الكيان يعاني من رفض وعداء الشعوب العربية والإسلامية له؛

كما يعاني من غياب الصف القيادي السياسي الأول؛ ومن تراجع وتردي نوعية المقاتل الإسرائيلي، ومن تفجر المشاكل الداخلية في المجتمع الصهيوني.

• حدث شرخ عربي كبير إثر الاحتلال العراقي للكويت في صيف 1990، وما نتج عنه من تدخل أمريكي دولي. وتضاعفت أزمة البيئة العربية والإسلامية بالاحتلال الأمريكي لأفغانستان 2001 والعراق 2003، وظلت هذه البيئة تعاني من إصرار الأنظمة على متابعة فسادها واستبدادها. وجاء "الربيع العربي"، خصوصاً في الفترة 2011–2013، ليعبر عن تطلعات الأمة في الحرية والنهوض الحضاري والتداول السلمي للسلطة، وحدثت اهتزازات هائبة في البيئة العربية. ونجح التيار الإسلامي في أن يتصدر المشهد الشعبي والسياسي وحركات التغيير في المنطقة. غير أن "الموجة المضادة" تمكنت من استعادة زمام المبادرة، وإجهاض معظم حركات التغيير. وما تزال المنطقة تعيش حالة من التدافع، واللا استقرار، مما يؤذن بعودة مسارات التغيير مستقبلاً. واندفعت بعض الأنظمة في سبيل بقائها وحماية ذاتها للاستعانة أكثر بالقوى الكبرى، ولتطبيع علاقاتها مع العدو الإسرائيلي. وهو ما زاد من حالة الضعف والتشرذم العربي؛ في الوقت الذي تعرض فيه التيار الإسلامي الفلسطيني المقاوم لمزيد من الحصار والمطاردة وتجفيف ينابيع الدعم والإسناد الرسمي وإغلاق الأبواب في وجه القوى والمؤسسات الشعبية عن إسناد المقاومة الفلسطينية ودعم صمود الشعب الفلسطيني.

• خلال هذه الفترة (1987–2022)، ومع انهيار الاتحاد السوفييتي، تحول العالم إلى منظومة أحادية القطبية تقودها الولايات المتحدة، وهو ما وفّر غطاء مثالياً للكيان الصهيوني لمتابعة احتلاله وطغيانه. غير أن العالم أخذ يتجه ببطء نحو منظومة متعددة القطبية مع تراجع النفوذ الأمريكي ومع صعود الصين، ومحاولات روسيا والهند والاتحاد الأوروبي فرض مكانتها في البيئة الدولية.

وفي هذه الفترة، صعدت مظاهر العولمة، ووسائل التواصل الاجتماعي، والشركات العابرة للقارات؛ بينما تراجعت المظاهر القيمية والأخلاقية، وتفشى التطرف الديني والقومي. وظهرت في المنطقة العربية حالة من "الفراغ الاستراتيجي"؛ مع نمو البيئات التي تدفع باتجاه استعادة الأمة زمام نهوضها الحضاري، لتقدم للإنسانية مشروعها الإسلامي الذي يخرجها من حالة الضياع.

ثانياً: حركة المقاومة الإسلامية (حماس):

كما أشرنا سابقاً، فقد اتخذ المكتب الإداري العام للإخوان المسلمين في الضفة الغربية وقطاع غزة قراراً بإطلاق مواجهة الاحتلال، الذي ترافق معه إطلاق حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، في اجتماع في بيت الأستاذ حسن القيق رحمه الله في 1987/10/23.[93]

وعندما وقعت حادثة دعس أربعة من العمال الفلسطينيين في 1987/12/8، اجتمعت قيادة الإخوان في قطاع غزة ليلتها (بحضور الشيخ أحمد ياسين، وإبراهيم اليازوري، وعبد العزيز الرنتيسي، وعبد الفتاح دخان، ومحمد شمعة، وصلاح شحادة، وعيسى النشار)، وناقشت ما جرى من أحداث، وقررت القيادة تصعيد المواجهات في مختلف مناطق القطاع. وهو ما بدأ فعلاً بعد صلاة فجر 1987/12/9 عندما خرجت المظاهرات من مخيم جباليا. وكان اثنان من تيار الإخوان هما أول شهيدين دشَّنا بدء الانتفاضة المباركة في فلسطين، وهما حاتم أبو سيسي ورائد شحادة.[94] وفي 1987/12/14 أصدرت حركة المقاومة الإسلامية بيانها الأول الذي عبَّر عن مجمل سياساتها وتوجهاتها.[95]

وفي اجتماع للمكتب الإداري العام للإخوان في الضفة والقطاع عقد في 1988/1/10 في القدس في بيت حسن القيق في المدرسة الصناعية في دار اليتيم العربي، اتخذ قرار استمرار الانتفاضة، وتوسع العمل في جميع أنحاء الضفة الغربية، بالوسائل والأعمال نفسها التي حصلت في غزة. أما اختصار حركة المقاومة الإسلامية إلى حماس، فاتفق عليه المكتب الإداري في بيت حسن القيق؛ حيث كان هو صاحب الاقتراح. فقد كان يوضع في البيانات الأولى أحرف: ح.م.س تحت اسم حركة المقاومة الإسلامية، ثم تمَّ إضافة حرف الألف فأصبحت "حماس".[96]

بالنسبة للإخوان، كان الجديد في حركة حماس أنها:

1. حسمت حالة "التقطُّع" في الأداء الجهادي الإخواني، وحوَّلته إلى حالة دائمة مستمرة.
2. وفَّرت غطاء حركياً مقاوماً لجماعة الإخوان، يتسم بالمؤسسية التنظيمية، والسياسية، والعسكرية، وله قيادته السياسية المعلنة.
3. نقلت الوضع الداخلي للإخوان الفلسطينيين نقلة نوعية، بحيث أصبح العمل التنظيمي، والتربوي، والتعبوي يخدم الفعل الجهادي واستراتيجية المقاومة.

وقد صَعَدت حماس بسرعة لتصبح المنافس الرئيسي لحركة فتح في قيادة الساحة الفلسطينية، وتمكنت منذ البداية من الاستناد على أسس أيديولوجية وحركية وشعبية صلبة، مكّنتها من الوقوف في وجه الضربات القاسية التي تلقتها من الكيان الصهيوني ومن السلطة الفلسطينية بعد ذلك. وقد أعانها على ذلك عراقة وقدم التنظيم الإخواني الفلسطيني، إذ إنه أقدم تنظيم حركي فلسطيني، كان ما يزال يحتفظ بفاعليته على الساحة. كما استفادت من تراث الإخوان المسلمين العالمي الفكري والدعوي والتربوي الضخم، الذي أنتجته مدرسة الشيخ حسن البنا ومفكروها في بلدان العالم منذ ثلاثينيات القرن العشرين؛ ومن الدعم الذي يتلقونه من فروع الإخوان في بلدان العالم. كما لم يركز الإخوان على مشروع المقاومة العسكرية فقط؛ وإنما شكّلوا دعوة إصلاحية ومدرسة تربوية وهيئة اجتماعية خيرية، وتغلغلوا في أوساط الناس، بحيث استفادوا من هذه الأنشطة في تجنيد عناصرهم وتجديد أنفسهم، مما جعل عملية اقتلاعها أمراً يكاد يكون مستحيلاً. وفوق ذلك، فقد كان لدى الإخوان شعور عميق بماضٍ جهادي مقاوم يفخرون به منذ 1948.

من جهة أخرى، تابع جهاز فلسطين بقيادة خيري الأغا (الذي كان يتبع تنظيم بلاد الشام) الإشراف على حماس وفعالياتها في الداخل الفلسطيني. وتشكلت اللجنة السياسية للحركة في الخارج سنة 1989 برئاسة إبراهيم غوشة. وفي سنة 1991، شكّلت حماس مجلس شوراها حيث تولى رئاسته الشيخ عمر الأشقر وتتابع على رئاسته بعد ذلك إبراهيم غوشة، ومحمد الخضري، وأحمد بحر. أما رئاسة الحركة، فقد استمر الأغا في قيادتها حتى 1993، عندما استعفى وحلّ مكانه نائبه موسى أبو مرزوق. وعندما اعتقل أبو مرزوق في الولايات المتحدة سنة 1995 (نتيجة اضطراره لمغادرة الأردن وعدم وجود أي بلد عربي يستقبله) تولى القيادة بعده خالد مشعل حتى 2017، حيث خلفه إسماعيل هنية.

ولا بدّ من الإشارة إلى المكانة الكبيرة والإجماع الذي حظي به الشيخ أحمد ياسين ورمزيته العالية في حماس ولدى الشعب الفلسطيني، بالنظر إلى ريادته للمشروع الجهادي للإخوان في الداخل الفلسطيني، وما يتمتع به من إيمان عميق وروح رسالية، ومن مزايا قيادية ورؤى استراتيجية، ومن إصرار على العمل الدؤوب بالرغم من معاناته من الشلل الجسدي. وقد أفرج عن الشيخ أحمد ياسين في 1997/10/1 نتيجة اتفاق بين الأردن والكيان الصهيوني مقابل الإفراج عن عميلين للموساد Mossad

الإسرائيلي، كانا قد حاولا اغتيال رئيس الحركة خالد مشعل في عمّان في 1997/9/25. حيث عاد لمتابعة دوره الأساسي في توجيه العمل خصوصاً من قطاع غزة. وقد ظلّ الشيخ أحمد ياسين "أباً روحياً" لحماس حتى استشهاده رحمه الله.

ظلت حماس تتبع نظاماً تتولى فيه قيادتها لجنةٌ تنفيذيةٌ تقيم في الخارج حتى 2009، عندما تحولت حماس إلى "نظام الأقاليم" الذي يجعل عضوية اللجنة التنفيذية متساوية بين أقاليم الضفة والقطاع والخارج (ستة لكل إقليم بالإضافة إلى رئيس الحركة)، وهي عضويةٌ متساوية أيضاً على صعيد مجلس الشورى العام للحركة. كما أن حماس ظلت تتبع (من ناحية رسمية إخوانية) تنظيم بلاد الشام حتى سنة 2012، عندما تمّ التوافق على انفصالها عن الإخوان في الأردن، وأن تتولى بنفسها العمل الإخواني الفلسطيني.

أهداف حماس ورؤيتها السياسية:

أصدرت حماس ميثاقها في 1988/8/17، وحسب عدنان مسودي فإن الذي كتب مسودة الميثاق هو عبد الفتاح دخان (أبو أسامة)، وقد اعتمده المكتب الإداري العام للإخوان في الضفة والقطاع، بعد قراءته مرتين في منزل حسن القيق.[97] كما تمّ اعتماده من قيادة تنظيم بلاد الشام في عمّان بالأردن. وجرى توزيعه بشكل واسع في السنة نفسها في الكويت والأردن، بالإضافة إلى الداخل الفلسطيني.

أعلنت حماس نفسها في الميثاق جناحاً من أجنحة الإخوان المسلمين في فلسطين، وامتداداً من امتداداتها، وأنها تَعدُّ الإسلام منهجها، منه تستمد أفكارها ومفاهيمها وتصوراتها، وإليه تحتكم، ومنه تسترشد خطاها.[98] وتهدف حماس إلى تحرير فلسطين، وإقامة دولة الإسلام عليها، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، وتعدُّ نفسها سنداً لكل مستضعف، ونصيراً لكل مظلوم.[99] وترى حماس أن فلسطين أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة، لا يصحّ التفريط بها أو بجزء منها، أو التنازل عنها أو عن جزء منها، وأنه لا حلّ لقضية فلسطين إلا بالجهاد في سبيل الله، وأن العمل على تحريرها فرض عين على كلّ مسلم حيثما كان.[100]

وأبدت حماس في ميثاقها اهتماماً بتربية الأجيال تربية متكاملة، وأعطت للمرأة المسلمة دوراً لا يقلّ عن دور الرجل في معركة التحرير.[101] ونظرت حماس نظرة احترام وتقدير إلى الحركات الإسلامية، وبادلت الحركات الوطنية الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية الاحترام، لكنها رفضت في الوقت نفسه الفكرة العلمانية، معتبرة أنها لن

تؤدي إلى التحرير.[102] وأكدت حماس على اعتبارها حركة إنسانية تلتزم بسماحة الإسلام في النظر إلى أتباع الديانات الأخرى، ولا تعادي إلا من يناصبها العداء.[103]

ترى حركة حماس أن العمل العسكري هو خيار استراتيجي دائم، وتتعامل مع المعركة باعتبارها معركة طويلة الأمد، ربما تتداولها الأجيال. وهي في مثل أجواء التسوية السلمية وحالة استضعاف الأمة تسعى لإبقاء جذوة الجهاد مرفوعة تعبيراً عن عدم التفريط بالأرض المقدسة. ولكن الذي عقَّد الأمر في وجه حماس أنها أقبلت على الخيار العسكري حين أدبر الآخرون، وسارت عكس التيار، لكنها على أي حال تمكنت من إثبات نفسها.

وفي مطلع أيار/ مايو 2017 أصدرت حماس وثيقتها السياسية،[104] حيث أكدت فيها على هويتها ومرجعيتها الإسلامية، والتزامها بالثوابت؛ وعلى دائرة اهتمامها باعتبارها حركة وطنية فلسطينية. وعالجت الوثيقة ثغرات في الميثاق كان أبرزها ما يتعلق باليهود، حيث كان ثمة لبس بين اليهود كأتباع ديانة وأهل كتاب، وبين اليهود الصهاينة الغاصبين لأرض فلسطين. وهي ثغرة غير مقصودة باعتبار أن الثقافة الشعبية التي كانت سائدة في العالم العربي والإسلامي تستخدم لغة مبسطة في استخدام المصطلح وتعميمه. غير أن الجانب الإسرائيلي استغل هذه الثغرة لاتهام حماس بـ"اللا سامية" وتشويه صورتها في كل مكان. ولذلك أكدت الوثيقة أن حماس لا تحارب اليهود لكونهم يهوداً أو بسبب ديانتهم، وإنما تحارب المشروع الصهيوني والصهاينة المعتدين المحتلين لفلسطين.

وتميزت الوثيقة بالشمول وبلغة سياسية مرنة منفتحة على الواقع، والتي تؤكد على المشترك مع الآخرين دونما إخلال بالثوابت. كما تميزت بالروح الإسلامية الوسطية المتسامحة المعتدلة، البعيدة عن الغلو والتطرف والتعصب؛ والتي تؤكد على القيم الإنسانية المشتركة في الحرية والعدالة ورفض الظلم والعدوان.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن البند 20 في الوثيقة الذي يشير جزءٌ منه إلى إمكانية القبول بدولة فلسطينية على خطوط 4 حزيران/ يونيو 1967 هو أكثر الجوانب التي أثارت النقاش وشغلت الرأي العام، وكأنه مبادرة جديدة أو تنازل من حماس. والحقيقة أن النص حول الدولة يأتي في سياق نصّ حاسم يرفض التنازل عن أيّ جزء من فلسطين مهما كانت الأسباب. والنص نثبته هنا لمن لم يطلع عليه:

لا تنازل عن أي جزء من أرض فلسطين، مهما كانت الأسباب والظروف والضغوط، ومهما طال الاحتلال. وترفض حماس أي بديلٍ عن تحرير فلسطين تحريراً كاملاً، من نهرها إلى بحرها. ومع ذلك—وبما لا يعني إطلاقاً الاعتراف بالكيان الصهيوني، ولا التنازل عن أيٍّ من الحقوق الفلسطينية—فإن حماس تعتبر أن إقامة دولة فلسطينية مستقلة كاملة السيادة، وعاصمتها القدس، على خطوط الرابع من حزيران/ يونيو 1967، مع عودة اللاجئين والنازحين إلى منازلهم التي أخرجوا منها، هي صيغة توافقية وطنية مشتركة.[105]

هذا النص مرتبط بقضية جوهرية كانت وما تزال مثار النقاش في الساحة الفلسطينية طوال السنوات العشر الماضية، وكانت حماس مطالبة بالإجابة عنها في كل حواراتها مع فتح والقوى الفلسطينية لبناء قاعدة التقاء وتقاطع مشترك، لتجاوز الانقسام الفلسطيني والعمل المشترك في الأطر الفلسطينية كمنظمة التحرير والسلطة. فقد ثبّتت حماس هنا حرصها على الشراكة والتوافق وإنهاء الانقسام، وأنها ليست عقبة في طريق إنشاء دولة فلسطينية كاملة السيادة على خطوط الرابع من حزيران/ يونيو؛ غير أن هذه الصيغة لا تملي على حماس أي التزامات تجاه العدو كالاعتراف بـ"إسرائيل" أو التنازل عن أي جزء من فلسطين، وهي النصوص الحاكمة التي سبقت النص على موضوع الدولة.

ثالثاً: الأداء العسكري للتيار الإسلامي: مرحلة الانتفاضة المباركة 1987–1993:[106]

عرفت الانتفاضة الأولى بـ"الانتفاضة المباركة" وبـ"انتفاضة أطفال الحجارة". وعلى الرغم من أنها لم تكن الانتفاضة الأولى إلا أنها كانت علامة فارقة في التاريخ الفلسطيني؛ فمن خلالها انتقل مركز المقاومة من الخارج إلى الداخل؛ وتميزت بالشمول ومشاركة كافة قطاعات الشعب الفلسطيني واتجاهاته وفئاته العمرية؛ كما تميزت ببروز العامل الديني ودور التيار الإسلامي في إذكاء روح المقاومة وحبّ الاستشهاد. ومنذ ذلك التاريخ سيستعيد التيار الإسلامي أَلَقه المقاوم، ويصبح العمل الجهادي جوهر برنامجه وتكوينه، ويتصدر بشكل عام العمل العسكري الفلسطيني، وخصوصاً من خلال حركتَي حماس والجهاد الإسلامي.

وعلى أي حال، فإن السنوات الست الأولى للانتفاضة (كانون الأول/ ديسمبر 1987 – كانون الأول/ ديسمبر 1993)، حسب إحصائية أعدتها منظمة التحرير الفلسطينية، قد شهدت استشهاد 1,540 فلسطينياً، وبلغ عدد الجرحى 130 ألفاً، واعتقل نحو 116 ألفاً لمدد مختلفة.[107]

تنازع قيادة الانتفاضة تياران هما التيار الإسلامي (حماس والجهاد الإسلامي) وتيار منظمة التحرير الفلسطينية باستراتيجيات وأهداف متباينة، ولكن بفعاليات نضالية متشابهة، وكانت الجماهير الفلسطينية تستجيب لكلا التيارين. وقد أثار هذا الانقسام الميداني حفيظة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، التي وجدت في صعود التيار الإسلامي تحدياً كبيراً على الأرض. ومنذ ذلك الوقت، سيطبع الانقسامُ السياسي والنضالي العملَ الوطني الفلسطيني؛ فلا حماس والجهاد الإسلامي مستعدتان للالتزام ببرنامج المنظمة وقراراتها وتعهداتها، ولا قيادة المنظمة مستعدة للقيام بعملية إصلاح هيكلي لنفسها ومؤسساتها لتصبح أكثر "ديموقراطية"، وأقدر على استيعاب كافة الشرائح والتيارات الفلسطينية، وأكثر تعبيراً عن رؤية وطنية شاملة، يلتزم بها الجميع.

ترى حماس أنها هي التي حملت عبء إطلاق هذه الانتفاضة في أيامها الأولى، حيث ترافق قرار نزولها للميدان وتصعيد الفعاليات مع اللحظات الأولى للانتفاضة؛ وأن منظمة التحرير وفصائلها لم تشارك بشكل واضح إلاّ بعد نحو أسبوعين، عندما دعت للإضراب العام في 1987/12/21، ثم شكلت الفصائل المنتمية لمنظمة التحرير "القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة"، وصدر بيانها الأول في 1988/1/8.

ومن جهة أخرى، لم تكن حماس فصيلاً معروفاً على الساحة الفلسطينية، وعانت لأشهر عديدة من عدم تعامل وسائل الإعلام مع بياناتها وفعالياتها، كما لم تكن حماس قد أفرزت شخصيات سياسية أو إعلامية للتحدث باسمها؛ وهو ما دفع منظمة التحرير وفصائلها إلى الواجهة. غير أن قدرة حماس على تنفيذ فعاليات واسعة على الأرض، وقيادة المظاهرات، وعمل الإضرابات الشاملة، أعطاها الكثير من المصداقية، وأخذ يثير الأسئلة الراغبة بالتّعرف على الحركة وقياداتها ورموزها.

انتشرت فعاليات حماس بشكل سريع في الضفة الغربية، وبرزت العديد من الرموز والقيادات أمثال الشيخ حامد البيتاوي، ومحمد الحاج، وبسام جرار، وجمال سليم، وجمال منصور، وحسن يوسف، وجمال النتشة؛ وتولت قيادات شبابية الإدارة السرية

لأنشطة حماس؛ إذ قام حسن القيق بتسليم هذه القيادة لمحمد صوالحة في حزيران/ يونيو 1989، الذي تولى المتابعة الميدانية للانتفاضة في منطقة الوسط (القدس، ورام الله، وبيت لحم، وأريحا)، وساعده تيسير عمران في قيادة شمال الضفة، وتحسين شاور في قيادة جنوب الضفة. وتعرضت حماس في الضفة للعديد من حملات التصفية والاعتقال والمطاردة؛ وأمسى صوالحة مطارداً في نهاية 1990، غير أنه تابع دوره حتى تمكن من المغادرة للخارج في 1991/6/27.

تطوّرت فعاليات حماس الانتفاضية من الإضرابات، والمظاهرات، ورمي الحجارة، إلى تطوير تدريجي في الفعاليات العسكرية كالهجمات بالسكاكين، والأسلحة النارية، واختطاف الجنود، وقتل العملاء، إلى السيارات المفخخة، والعمليات الاستشهادية. وقد أصبح الجهاز العسكري جزءاً ثابتاً وأصيلاً من تركيبة حماس، وعلى الرغم مما تعرض له الجهاز من ضربات سنة 1988، و1989، و1990 على خلفيات فعالياته العسكرية فإن الحركة كانت تعيد بناءه من جديد، وعلى الرغم من حالات المد والجزر فإن الجهاز ظلّ موجوداً، وفاعلاً، ومركزياً. وقد أمكن لحماس تجاوز الصعوبات بوجود نوعية من الرجال مستعدة للتضحية والاستشهاد، ويعترف المحللون الإسرائيليون أن "حماس قد صكّت نماذج جديدة للإنسان الفلسطيني، وهم الاستشهاديون الجدد".[108]

كما أشرنا سابقاً، عاد الشيخ أحمد ياسين لقيادة هذا الجهاز العسكري في قطاع غزة في منتصف حزيران/ يونيو 1987؛ وفي 1987/11/17 تقرر إطلاق العمل العسكري. ونظراً لاعتقال عبد العزيز الرنتيسي إدارياً في 1988/1/15، فقد تمّ ضم قيادة منطقة جنوب غزة إلى صلاح شحادة؛ الذي أصبح بذلك القائد الميداني للجهاز العسكري.[109]

في 1988/3/21، قامت المجموعة 101 في الجهاز العسكري لحماس "المجاهدون الفلسطينيون" الذي يقوده الشيخ صلاح شحادة، بمحاولة اختطاف مهندس ومقاول صهيوني في منطقة الشيخ رضوان في قطاع غزة، بيد أن العملية واجهتها صعوبات حالت دون إتمامها، فقامت المجموعة بإطلاق النار عليه وأصابوه بجراح، وتلا ذلك عمليات تفجير عبوات ناسفة في بيت حانون في أيار/ مايو 1988، وفي يوم عيد الأضحى في 1988/7/25، ثم في ذكرى الهجرة النبوية في 1988/8/14. كما قتلت المجموعة مستوطناً إسرائيلياً في 1988/8/18، قرب منطقة بيت لاهيا شمال قطاع غزة. ونجحت المجموعة في خطف وقتل الرقيب الصهيوني آفي ساسبورتس Avi Sasportas في 1989/2/3، وفي خطف الجندي إيلان سعدون Ilan Sa'adon وقتله في 1989/5/3. لكن سرعان ما ضُرب

هذا الجناح العسكري وحركة حماس بشكل عام في أيار/ مايو 1989؛ حيث قامت قوات الاحتلال باعتقال ما يزيد عن ألف من كوادر الحركة وأبنائها، وتمّ التحقيق بأساليب وحشية مع المئات منهم، فأدى ذلك إلى كشف بنية الحركة التنظيمية لأول مرة، وألقي القبض على الشيخ أحمد ياسين في 1989/5/18؛ حيث حُكم عليه بالسجن المؤبد، مضافاً إليها 15 عاماً.

ولذلك، ذهب القيادي في جهاز فلسطين في الخارج موسى أبو مرزوق إلى الداخل الفلسطيني، وقام (بتكليف من رئيس الجهاز آنذاك خيري الأغا) بإعادة تنظيم الحركة، وجعل توجيه العمل العسكري مرتبطاً بالخارج، كما قام بترتيب عملية التنسيق بين الضفة والقطاع، من خلال التواصل السري بين حسن القيق (ثم صوالحة) في الضفة وسيد أبو مسامح الذي تولى متابعة العمل في القطاع إثر ضرب التنظيم في أيار/ مايو 1989.[110]

وقد شكلت حماس جناحها العسكري الحالي "كتائب عز الدين القسام" في 1990، الذي حلّ محل "المجاهدون الفلسطينيون".[111] وبحسب موسى أبو مرزوق فإن ياسر النمروطي كان على أول قيادة لكتائب القسام.[112]

تأخَّر العمل العسكري في الضفة الغربية مقارنة بالقطاع، غير أنه سرعان ما أخذ بالتجذر والانتشار بعد انطلاق الانتفاضة. وأخذ العمل العسكري في الضفة في البداية شكل المبادرات الفردية أو المنظمة المتأثرة بالتعبئة الداخلية، ونداءات حماس للثأر من العدو ومواجهة اعتداءاته.

ويبدو أن أحد أولى المبادرات كان تشكيل "مجموعة بيت أمر" في الخليل بقيادة بدر أبو عياش، والتي تعود أولى عملياتها إلى آذار/ مارس 1988؛[113] ومبادرة ابن حماس أحمد شكري الذي قَتَل في تل أبيب عاملاً صهيونياً كان قد خدم في جيش الاحتلال في 1989/9/7؛[114] ومجموعة سمير الأسطة في نابلس التي قامت بمهاجمة دورية عسكرية في 1990/4/5 وأوقعت فيها إصابات خطيرة؛ وعملية عامر أبو سرحان الذي قتل ثلاثة صهاينة وجرح رابعاً في 1990/10/21، والذي عُدَّ رائد حرب السكاكين،[115]... وغيرها.

غير أنه على ما يظهر، فإن أولى المجموعات التي أخذت شكلاً تنظيمياً تتابعه قيادة الضفة هي مجموعة عادل عوض الله التي يعود تأسيسها إلى أواخر 1988 وبداية 1989.

وهناك مجموعات البراق التي تشكلت بإشراف قيادة حماس في الخليل، وقاد المجموعات ناجي سنقرط الذي تلقى تدريباته في الخارج، والذي قدم للضفة في ربيع 1990 وفقاً لتوجيهات تلقاها من قيادة الحركة في الأردن. وتمّ تجنيد عدد كبير من المجاهدين، وشراء كميات كبيرة من الأسلحة، وتمّ التدريب عليها في منتصف 1990. وبعد أن قامت إحدى المجموعات بإلقاء قنابل يدوية على دورية عسكرية صهيونية قرب الحرم الإبراهيمي، تمّ ضرب التشكيل واعتقل قادته، وعدد من المجموعات، غير أنه ظلت مجموعات أخرى لم تنكشف، وانضمت لاحقاً للخلايا التأسيسية لكتائب القسام 1992.[116]

كما سعى الشيخ محمد أبو طير بعد الإفراج عنه في آذار/ مارس 1991 بالتعاون مع عادل عوض الله، إلى تأسيس عمل عسكري منظم، بالتنسيق مع القيادة في الخارج، غير أن الشيخ أبو طير وعادل عوض الله ورفاقهما اعتقلوا بعد انكشاف صفقة الأسلحة التي سعوا لشرائها.[117]

ويعود اتخاذ كتائب القسام شكلاً مستقراً في الضفة، إلى التقاء صالح العاروري أمير الكتلة الإسلامية بجامعة الخليل في السجن مع عادل عوض الله أمير الكتلة الإسلامية في جامعة بيت لحم، وإبراهيم حامد أمير الكتلة الإسلامية بجامعة بيرزيت. حيث قرروا إطلاق العمل العسكري بعد خروجهم من السجن وإعادة تشكيل المكتب الإداري للكتلة الإسلامية في مدينة رام الله وقُراها برئاسة العاروري وعضويتهما سنة 1991. حيث استخدموا مواقعهم لترشيح أعضاء في العمل العسكري، على أن يقود العاروري الجهاز ويكون نائبه عوض الله، ويتولى حامد التواصل مع الخارج لجلب الدعم للجهاز.[118] وقام العاروري بتجنيد موسى دودين وعباس شبانة من الخليل. واستقبل عدداً من مطاردي القسام من غزة، وتولى إيواءهم وتسليحهم. ونسَّق العمل في شمال الضفة مع زاهر جبارين وعدنان مرعي، كما نسَّق مع قطاع غزة. ونسَّقت قيادة الحركة في الخارج العمل مع صالح العاروري ورفاقه، بإشراف موسى أبو مرزوق، وأرسلت محمد صلاح بمبالغ مالية لتمويل العمل العسكري في الضفة. وتمّ تثبيت اسم كتائب القسام في الضفة بالتوافق مع الخارج وغزة سنة 1992. ونفذت أولى العمليات باسم القسام في الضفة على يد محمد بشارات الذي قَتَل جندياً صهيونياً في 1992/9/22. ثم تواصل العمل، بالرغم من اعتقال العاروري في تشرين الأول/ أكتوبر 1992 وحبسه إدارياً.[119]

ومنذ ذلك الوقت، شقّ العمل العسكري عمله بثبات في ظروف بالغة الصعوبة. وليس ثمة مجال في هذه الدراسة للمتابعة التفصيلية للبنى العسكرية وعمليات المقاومة؛ غير أننا سنتتبع أبرز المحطات، محاولين رسم المسارات العامة وأبرز الملامح المرتبطة بالعمل المقاوم في كل مرحلة.

ففي الذكرى الثالثة لانطلاقة حماس في 1990/12/14، قامت حماس بقتل ثلاثة إسرائيليين، مما فجَّر أكبر عملية اعتقال شاملة تتعرض لها الحركة، وجرى مجدداً ضرب أجهزة الحركة. وكان من أبرز الظواهر التي رافقت هذه الضربة انكشاف علاقة الحركة في الخارج، ودورها فيما يجري بالداخل.

وفي 1992/12/13 قامت حماس باختطاف الجندي نسيم توليدانو Nissim Toledano والمطالبة في مقابل الإفراج عنه بالإفراج عن الشيخ أحمد ياسين، وعلى إثر رفض رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين Yitzhak Rabin التجاوب مع مطالبها قامت الحركة بتصفية الجندي، وهو ما دفع رابين للإعلان في الكنيست Knesset عن الحرب الشاملة على حركة حماس؛ فتم اعتقال 1,300 من أنصار حماس، كما أقدمت السلطات الإسرائيلية على أكبر عملية تهجير وإبعاد بعد حرب 1967، عندما قامت بإبعاد 415 شخصاً غالبيتهم الساحقة (نحو 380) من القيادات الإسلامية المدنية المحسوبة على حماس، وكان معهم أيضاً عدد من المحسوبين على حركة الجهاد الإسلامي، ونفذ هذا القرار مساء الخميس 1992/12/17، حيث قُذف بالمبعدين خارج الحدود الفلسطينية الشمالية مع لبنان، غير أن رفض المبعدين للإبعاد وصمودهم في مرج الزهور على الحدود مع لبنان، أكسبهم المعركة الإعلامية الدولية ضدّ الاحتلال، ووسَّع دائرة الاهتمام بحركة حماس، وزاد من شعبيتها، مما اضطر السلطات الإسرائيلية إلى الموافقة على العودة التدريجية للمبعدين، والتي اكتملت بعد عام من الإبعاد.[120]

وحسب دراسة لغسان دوعر، فقد نفَّذت حماس سنة 1993 ما مجموعه 138 عملية خسر الكيان الإسرائيلي، حسبما أعلن بنفسه، 79 قتيلاً و220 جريحاً.[121]

***

من ناحية أخرى، قدمت حركة الجهاد الإسلامي نماذج جهادية مميزة، وعانى أفرادها من السجن والمطاردة والإبعاد، واستشهد العديد من أفرادها في عمليات عسكرية

جريئة. وكان أربعة من مجاهدي الحركة (اثنان منهم كانا قد هربا من سجن غزة المركزي في أيار/ مايو 1987) قد قاموا بعدد من العمليات الجهادية إلى أن استشهدوا في عملية الشجاعية في 1987/10/6 في اشتباك مسلح مع القوات الإسرائيلية. وترى الجهاد الإسلامي أن ذلك اليوم (1987/10/6) هو اليوم الأول للانتفاضة المباركة، وقد استمرت طيلة سنوات الانتفاضة تدعو إلى الإضراب الشهري لذكرى بدء الانتفاضة في هذا اليوم من كل شهر.[122] وكانت تستجيب لإضرابها، الذي تدعو إليه في اليوم السادس من كل شهر، قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع.

وقد تأثرت الجهاد الإسلامي كثيراً باستشهاد أبو حسن قاسم وحمدي ومروان كيالي في قبرص في عملية نفذتها المخابرات الإسرائيلية في 1988/2/14؛ حيث كانوا يقودون النواة العسكرية الصلبة للحركة. وقد كان من العمليات التي نفَّذتها حركة الجهاد في الانتفاضة المباركة عملية الطعن التي قام بها طلال الأعرج بحي الدرج بغزة في 1989/3/19 حيث جرح ثلاث جنود صهاينة، وعملية معسكر جلعاد في 1992/2/14 التي أدت لمقتل ثلاثة صهاينة، وعملية متتياهو في 1992/10/17 التي أدت لمقتل مستوطنة صهيونية، وعملية أنور عزيز في 1993/8/2 الذي اصطدم بباص يقوده بعدد من مركبات العدو فقتل واحداً وجرح خمسة آخرين.[123]

رابعاً: الأداء العسكري للتيار الإسلامي 1994-2000:

تعدُّ هذه الفترة من أقسى الفترات التي عانت منها المقاومة الإسلامية في فلسطين. إذ اجتمع عليها البطش الصهيوني مع بطش السلطة الفلسطينية التي تأسست سنة 1994، إثر دخول منظمة التحرير الفلسطينية في تسوية مع الكيان الصهيوني، وتوليها إنشاء الحكم الذاتي في المناطق السكانية في الضفة والقطاع. فقد تطلعت قيادة السلطة (قيادة فتح) إلى إنشاء دولة فلسطينية خلال خمسة أعوام من اتفاق أوسلو؛ ورأت في العمل المقاوم المسلح ضدّ الكيان الصهيوني تعطيلاً لمسار التسوية، وإفشالاً لحلم الدولة الفلسطينية؛ خصوصاً وأنها التزمت في اتفاقات أوسلو بالتوقف عن المقاومة المسلحة، وبمنع العمل المقاوم من مناطق سيطرتها. ونجح الطرف الصهيوني في ربط أي تطور في توسيع صلاحيات الحكم الذاتي بمدى السيطرة الأمنية للسلطة على أبناء شعبها. ولذلك، تضخم الجانب الأمني في السلطة حتى تكونت ثمانية أجهزة أمنية، وحظيت بالنصيب الأكبر في ميزانية السلطة مقارنة بغيرها. وقامت بإجراءات

وحملات أمنية قاسية، خصوصاً بعد العمليات العسكرية التي كانت تنفذها في الغالب حماس والجهاد الإسلامي. وعلى سبيل المثال شنّت السلطة الفلسطينية منذ أيار/ مايو 1994 وحتى آب/ أغسطس 1995 ما مجموعه 12 حملة اعتقال شملت أكثر من ألف فلسطيني.[124] وخلال شهر واحد فقط (19/4–1995/5/19) داهمت السلطة 57 مسجداً 138 مرة، حيث تعرضت للتفتيش والعبث والتخريب. كما أنشأت في 1995/2/7 "محكمة أمن الدولة" وهي محاكم عسكرية قضاتها من ضباط الأمن، استهدفت أساساً كوادر التيار الإسلامي، وكانت محاكمتها تعقد ليلاً وبشكل سرّي. وقد دانت منظمة العفو الدولية هذه المحاكم وطالبت بوقفها فوراً.[125]

وكان من أكثر الأحداث المؤسفة دموية ما يعرف بـ"مجزرة الجمعة الأسود" التي ارتكبتها أجهزة أمن السلطة ضدّ المصلين الذين كانوا ينوون الخروج بمسيرة سلمية بعد صلاة الجمعة من مسجد فلسطين بغزة في 1994/11/18 مما أدى لاستشهاد 13 مصلياً، وجرح 200 آخرين. وقد اتهمت حماس السلطة بتدبير المذبحة "النوايا مبيتة والمجزرة مدبرة".[126] وفي أواخر حزيران/ يونيو 1995 قامت السلطة باعتقال عدد من قادة حماس بينهم محمود الزهار وأحمد بحر وتعرضوا للتعذيب والإهانة. غير أن أشد حملات الاعتقال تمت في آذار/ مارس – نيسان/ أبريل 1996 بعد سلسلة من العمليات الاستشهادية التي هزت الكيان الصهيوني، حيث مسّت أكثر من ألف من نشطاء حماس والجهاد الإسلامي، واستهدفت تدمير وتفكيك البنى التنظيمية والتحتية للتيار الإسلامي، فأغلقت المدارس والجمعيات الخيرية ولجان الزكاة ورعاية الأيتام التي يديرها أنصار حماس والجهاد الإسلامي. ونجحت السلطة إلى حدّ كبير في ضرب وتهميش وإضعاف العمل المقاوم إلى أن تبدلت الأوضاع باندلاع انتفاضة الأقصى سنة 2000.[127]

أما التيار الإسلامي فقد وجد نفسه في ظروف صعبة ومعقدة، إذ إن رفاق النضال في الماضي تحولوا إلى أدوات منع وقمع للمقاومة والجهاد. غير أن هذا التيار وعلى رأسه حماس وضع لنفسه أسساً وضوابط للتعامل مع هذه الأوضاع المستجدة، أبرزها الإصرار على متابعة المقاومة والجهاد ضدّ العدو الصهيوني، والمحافظة على الوحدة الوطنية، وتجنب الاصطدام مع السلطة، وتبني المعارضة ضدّ اتفاقات التسوية؛ مع الإصرار على حقوق الشعب الفلسطيني الكاملة في أرضه ومقدساته، والتأكيد على الحريات السياسية وحقّ التعبير وحرية الصحافة.

كان على التيار الإسلامي المقاوم أن يسير عكس التيار وفي حقل ألغام مليء بالتحديات، في بيئة "رسمية" فلسطينية مخاصمة، أو حتى معادية، وبيئة شعبية فلسطينية لم تتعرف بعد على السلطة وحقيقة دورها الوظيفي والأمني، وما يزال قطاع لا بأس منها يأمل بأن يُحقّق مسار التسوية بعض آماله بدولة فلسطينية في الضفة والقطاع.

كل ذلك جعل العمل الجهادي أمراً يكاد يكون مستحيلاً، إلا أن الفترة 1994–1996 شهدت تطوراً نوعياً في العمليات وخصوصاً الاستشهادية منها، ومن ذلك ردُّ حماس على مذبحة الحرم الإبراهيمي في 1994/2/25 بخمس عمليات عنيفة، أدت إلى قتل ما مجموعه 39 إسرائيلياً وجرح 158 آخرين، وردُّ حماس على استشهاد يحيى عياش، الذي اغتيل في 1996/1/5، والذي كان مهندساً لعمليات أدت لقتل 70 إسرائيلياً وجرح 340 آخرين، بأربع عمليات في الفترة 2/25–1996/3/3 مما أسفر عن قتل 45 إسرائيلياً وجرح 113 آخرين حسب المصادر الإسرائيلية؛ فيما نفذت الجهاد الإسلامي عملية خامسة في تل أبيب، يظهر أنها كانت بالتعاون مع حماس، في 1996/3/4، مما أدى لمقتل 14 إسرائيلياً، وإصابة 125 آخرين.[128] وقد هزت العملياتُ الكيان الصهيوني، وهو ما دفع إلى عقد مؤتمر دولي في شرم الشيخ بمصر في 1996/3/13 بمشاركة الدول الكبرى لما أسموه "محاربة الإرهاب" أو ما أطلقوا عليه "قمة صانعي السلام". وشعرت الجهات المعنية بالتسوية أن مشروعها السلمي أصبح في "مهب الريح" على حدّ تعبير القيادي الفلسطيني صائب عريقات. ومنذ ذلك الوقت وحتى سنة 2000، قام الصهاينة والسلطة الفلسطينية، بالتعاون المباشر مع أمريكا وباستخدام كافة التقنيات الأمنية، بحملة شعواء استهدفت اجتثاث كل ما له صلة بالتيار الإسلامي الحركي المقاوم في فلسطين. ومرّت حماس والجهاد الإسلامي، بمرحلة من أقسى المراحل، وعانت من ضربات قاسية. وتمكنت السلطة من تفكيك معظم خلايا المقاومة. ومع ذلك فقد بذلت حماس جهداً استثنائياً لمتابعة المقاومة، حيث عادت العمليات العسكرية للظهور سنة 1997، وبرز في القيادة العسكرية محيي الدين الشريف، وعادل عوض الله، وعماد عوض الله الذين استشهدوا سنة 1998. وفي تلك الظروف، لم تتمكن حماس إلاّ من تنفيذ عمليتين استشهاديتين سنتي 1997–1998، بالإضافة إلى عدد من العمليات التي لم تؤثر على المسار العام للتسوية والمفاوضات.

ومن جهة أخرى، فإن حركة الجهاد الإسلامي قامت بعدد من العمليات النوعية والاستشهادية مثل عمليات نتساريم Netzarim في 1994/11/11،[129] وبيت ليد في 1995/1/22،[130] وتل أبيب في 1996/3/4 (المشار إليها سابقاً). وقد تعرضت لما تعرضت له حماس من ضغوط ومطاردة، واستشهد قائدها فتحي الشقاقي رحمه الله في عملية نفذها الموساد الإسرائيلي في 1995/10/26 وخلفه رمضان عبد الله شلح، الذي استمر في قيادة الحركة إلى أن أقعده المرض في ربيع 2018؛ فقامت حركة الجهاد بانتخاب زياد النخالة خلفاً له في 2018/9/28. وقد توفي رمضان شلح رحمه الله في بيروت في 2020/6/6.

وعلى الصعيد السياسي، توطدت العلاقات بين حركتَي حماس والجهاد الإسلامي. وذكر الشقاقي في كانون الثاني/ يناير 1995 أن العلاقة مع حماس "ممتازة، علاقة ودية وأخوية، ونحن نسعى إلى زيادة التعاون على الأرض".[131] وأكد رمضان شلح هذه المعاني عندما قال: إن هناك تفاهماً ولقاء في خندق المواجهة مع العدو بيننا وبين الإخوة في حماس، ونحن حريصون على تطوير العلاقة وتمتينها لترتقي إلى مستوى الحرب الشرسة التي تستهدف المشروع الإسلامي في فلسطين والمنطقة.[132]

تحرير جنوب لبنان:[133]

شهدت فترة التسعينيات تصاعد العمل المقاوم بقيادة حزب الله ضدّ الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان وضدّ جيش لبنان الجنوبي، وهو ميليشيا عميلة نشأت بدعم الاحتلال وسيطرت على الشريط الحدودي مع فلسطين المحتلة. وقد كان المعدل السنوي للقتلى الإسرائيليين نحو 22 قتيلاً، وأعداد أكبر من ذلك بكثير من جيش لبنان الجنوبي العميل. وقد حاولت "إسرائيل" وعملاؤها قمع المقاومة وإخضاع أبناء الجنوب، غير أنها فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً، بالرغم من أنها استخدمت وسائل وحشية كان من أبرزها عملية "تصفية الحساب" في 1993 حيث تعرض الجنوب لقصف شديد في محاولة لبث الرعب في أهله وتهجيره، وعملية "عناقيد الغضب" في 1996، التي ارتكب الطيران الإسرائيلي خلالها مجزرة قانا وراح ضحيتها نحو 100 من المدنيين الذين لجؤوا إلى مقر الأمم المتحدة هناك.

وقد طوّرت المقاومة بقيادة حزب الله أساليبها وأداءها النوعي في الفترة 1995–2000 خصوصاً باستخدام العُبوات الناسفة عن بُعد، مما أدّى لقتل عدد من قادة الاحتلال والعملاء في الحزام الأمني؛ وكان من أبرزهم مسؤول الجيش الإسرائيلي في الحزام

إيرز غرنشتاين Erez Gerstein في 1999/2/28، ونائب قائد جيش لبنان الجنوبي العميل عقل هاشم في 2000/1/30. وبحسب إحصائيات القيادة الشمالية للجيش الإسرائيلي فقد نفذ حزب الله 670 عملية سنة 1997، و1,200 عملية سنة 1998.

وتحت ضربات المقاومة قررت حكومة إيهود باراك الانسحاب من جنوب لبنان، بعد أن تحول بقاؤها إلى عبءٍ كبير، وتخلّت عن عملائها في الشريط الحدودي الذين أصيبوا بحالة من الإحباط والغضب واضطروا للهرب. واكتمل الانسحاب الإسرائيلي في 2000/5/25.

خامساً: الأداء العسكري للتيار الإسلامي: انتفاضة الأقصى 2000-2005:

"أرادوا جرّنا للمساومة، فجررناهم للمقاومة"!! بهذه الجملة اختصر الشيخ أحمد ياسين جوهر الخلاف بين السلطة الفلسطينية ومن خلفها حركة فتح، وبين حماس والقوى المعارضة للتسوية السلمية، كما اختصر طبيعة النجاح الذي حقّقته حماس من خلال انتفاضة الأقصى.

كانت حماس ومعارضو التسوية يرون أن اتفاقية أوسلو تحمل بذور فشلها في ذاتها، وأن ذلك سينكشف إن عاجلاً أو آجلاً، خصوصاً عند الاصطدام بصخرة الاتفاقيات النهائية، ومستقبل القدس، واللاجئين، والمستعمرات، والدولة وسيادتها. وهو ما تحقق بالفعل إثر انهيار مفاوضات كامب ديفيد الثانية في تموز/ يوليو 2000. ولذلك جاءت انتفاضة الأقصى لتعيد الشعب الفلسطيني إلى مربع المقاومة، بعد أن سئم المفاوضات والمماطلات الإسرائيلية، وعمليات تهويد القدس والاستيطان، بالإضافة إلى غضبه من أداء السلطة وتفشي الفساد في مؤسساتها.

اندلعت انتفاضة الأقصى في 2000/9/29، إثر اقتحام أريل شارون Ariel Sharon زعيم حزب الليكود Likud حرم المسجد الأقصى في 2000/9/28. وصمَّم المسلمون على الدفاع عن الأقصى، حيث سقط في المواجهات الأولى خمسة شهداء، وجرح أكثر من مئة. ثم تتابعت الانتفاضة لتستمر لنحو خمسة أعوام.

وأفرزت الانتفاضة عدداً من الحقائق والمؤشرات أهمها:

1. أن الأمة الإسلامية ما تزال حية، بالرغم من الجراح التي أثخنتها، وأن روح المقاومة والصمود والاستعداد للبذل والتضحية لم تخمد. فقد خرجت المظاهرات بعشرات الآلاف بل بمئات الآلاف في بلدان العالم الإسلامي، من الرباط في أقصى المغرب وحتى جاكرتا في أقصى المشرق الإسلامي، كلها تهتف للأقصى والقدس وفلسطين، وتطالب بالجهاد، وتقدم ما لديها من تبرعات ودعم. فكانت لحظات رائعة من أخوة الإسلام ووحدة الأمة. وظهرت تجليات الإمكانات الكبرى لهذه الأمة لتحقيق النصر لو سلكت طريق الجهاد.

2. أن قضية فلسطين قضية تجمع المسلمين وتوحدهم، بل وتكون سبباً في تجاوز خلافاتهم والتركيز على العدو الصهيوني المشترك. وأن هذه القضية غدت القضية المركزية للعالم الإسلامي، فلا قضية تجمعهم كهذه القضية، ولا عدو يجتمعون ضده كهذا العدو.

3. وجَّهت الانتفاضة ضربة قاسية لمشروع التسوية السلمية والتطبيع مع العدو، وبرز الخيار الجهادي كخيار أمثل.

4. إن هذه الانتفاضة انعكست على طريقة تفكير الناس وأسلوب حياتهم اليومي، فاشتد العداء للمشروع الصهيوني، واشتد العداء ضدّ أمريكا، وتكرست الروح الجهادية وروح التكافل، وتجاوبت الجماهير مع دعوات مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، حتى غيّر الملايين من أسلوب طعامهم وشرابهم اليومي، ومن لباسهم ووسائل تنقلهم واتصالاتهم وترفيههم، فكانت مدرسة تربوية اجتماعية شعبية، ربما احتاجت حركات الإصلاح سنوات للوصول إلى مثل نتائجها. بل واضطرت الشركات الأجنبية الأمريكية لإنزال إعلانات عدم العلاقة بالكيان الصهيوني، بل والتبرع لضحايا الانتفاضة، كما حدث مع مطاعم مكدونالدز التي تبرعت بريال سعودي لكل وجبة طعام، لعلاج جرحى الانتفاضة.[134]

ومن جهة أخرى، فقد تميزت هذه الانتفاضة بالمشاركة الشعبية الواسعة في كل أرجاء فلسطين المحتلة، وبمشاركة كافة التيارات الفلسطينية. كما تميزت في الوقت نفسه، بشدة القمع الصهيوني الذي تمادى في قتل الأطفال والأبرياء واستخدام الأسلحة المحرمة دولياً، وانكشفت سوءات أدعياء "السلام" الصهاينة الذين تباروا في سحق الانتفاضة المباركة.

وقد شهدت سنة 2005 خُفوت موجة انتفاضة الأقصى، وكان ذلك نتيجة الأوضاع التي تلَت وفاة ياسر عرفات، وانتخاب محمود عباس رئيساً للسلطة، وبسبب انشغال الفلسطينيين في الضفة والقطاع في الانتخابات البلدية وفي التحضير للانتخابات التشريعية.

وخلال الفترة 2000/9/28–2005/12/31، بلغ عدد الشهداء 4,242 شهيداً، بينهم 793 طفلاً، و270 شهيدة. وقامت السلطات بعمليات اغتيال وتصفية جسدية ميدانية لـ 376 مواطناً. وبلغ عدد الجرحى 46,068 جريحاً.[135] وارتفع عدد السجناء في نهاية 2005 إلى نحو 9,200 سجيناً.[136] وكان يقبع في السجون الإسرائيلية في نهاية سنة 2005 نحو 4 آلاف من أعضاء ومؤيدي حماس، ومعظمهم من أبناء الضفة الغربية، ويشمل الاعتقال معظم قيادات الصف الأول، والثاني، والثالث لحماس في الضفة.

وفي انتفاضة الأقصى وُضع ياسر عرفات تحت حصار قاسٍ في مقره في رام الله لنحو سنتين ونصف، وتوفي في ظروف مريبة في 2004/11/11. كما استشهد عدد من قادة حماس الكبار أمثال جمال سليم وجمال منصور في 2001/7/31، وصلاح شحادة في 2002/7/22، وإسماعيل أبو شنب في 2003/8/21. وتلقت حماس إحدى أقسى الضربات باستشهاد زعيمها ومؤسسها في قطاع غزة الشيخ أحمد ياسين في 2004/3/22، ثم تبعه استشهاد عبد العزيز الرنتيسي في 2004/4/17. وبلغ عدد شهداء كتائب القسام 604 شهداء خلال انتفاضة الأقصى (2000/9/28–نهاية 2005) وهذا بخلاف أعداد أخرى من شهداء حماس غير العسكريين ومن أنصارها.[137] كما اغتال الصهاينة أبو علي مصطفى الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في 2001/8/27.

وقد شاركت الفصائل الفلسطينية كافة في العمليات العسكرية. وحسب التقديرات الإسرائيلية فقد نفذّت المقاومة الفلسطينية 22,406 عملية خلال الفترة 2000/9/29–2005/7/24.[138] وتميزت حركة حماس بدورها البارز وبعملياتها الاستشهادية التي أحدثت دوياً هائلاً، وزعزعت الأمن في الكيان الإسرائيلي حيث نُفِّذ معظمها في فلسطين المحتلة سنة 1948. وحتى 2005/12/1 حدثت 135 عملية استشهادية، نفَّذت حماس منها 61 عملية، بالإضافة إلى عمليات كثيرة نفذتها كتائب شهداء الأقصى والجهاد الإسلامي.[139]

وخلال انتفاضة الأقصى، شكَّلت الجهاد الإسلامي ذراعها العسكري "سرايا القدس"، ونفذت عدداً من العمليات الاستشهادية مثل عملية مفرق برديس حنا في 2001/11/29، وعملية مفرق كركور في 2002/10/21، وعملية رأفت أبو دياك في 2002/3/20، وعملية راغب جرادات في 2002/4/10، وعملية مفرق مجدو في 2002/6/5. كما نفَّذت عمليات اقتحام واشتباك مع الصهاينة مثل عملية زقاق الموت في الخليل في 2002/11/15 وغيرها.[140]

ومن العمليات التي تستحق الإشارة؛ عملية اغتيال وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي Rehavam Ze'evi في 2001/10/17، وهو جنرال سابق في الجيش، ومن أشد الصهاينة تطرفاً. وقد نفَّذت الجبهة الشعبية هذه العملية انتقاماً لاغتيال أمينها العام أبو علي مصطفى.

ويشير تقرير جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك) Israel Security Agency—ISA (Shabak) إلى مقتل 1,513 إسرائيلياً وجرح 3,380 آخرين منذ بدء الانتفاضة وحتى تموز/ يوليو 2005.[141]

وحسب تقرير رسمي صادر عن دائرة الإحصاء المركزية Central Bureau of Statistics (CBS) الإسرائيلية، فإن سنة 2002 كانت الأسوأ من الناحية الاقتصادية في تاريخ الكيان الصهيوني منذ خمسين عاماً (1953–2003).[142] وانخفض المعدل السنوي لمعدل ناتج الفرد بنحو 3 آلاف دولار (من 18,600 دولار سنة 2000 إلى 15,600 دولار سنة 2002). وحسب بعض التقديرات، فإن مجموع الخسائر الاقتصادية الإسرائيلية خلال السنتين الأوليين للانتفاضة بلغت نحو 8 مليارات دولار أي نحو 11 مليون دولار يومياً.

وكان من أبرز نتائج هذه الانتفاضة أن التيار الإسلامي تصدَّر بشكل قوي العمل العسكري المقاوم، وفرض نفسه في المعادلة الفلسطينية، وهو وإن لم يصبح جزءاً من المؤسسة "الرسمية" الفلسطينية، إلا أنه لم يعد بالإمكان تجاهله أو تجاوزه؛ حيث إن فعله المقاوم على الأرض، جعله قادراً إلى حدٍّ كبير على تعطيل أو تعويق مسيرة التسوية السلمية، والمسارات التي اختطتها لنفسها قيادة فتح التي تقود المنظمة والسلطة. وهو ما دفع فتح للدخول في مفاوضات مع حماس في أثناء الانتفاضة، من أجل الوصول إلى

هدنة، وترتيب البيت الفلسطيني، انتهت بإعلان القاهرة في 2005/3/17 الذي توافقت فيه الفصائل الفلسطينية على إصلاح البيت الفلسطيني، وإجراء انتخابات بلدية وتشريعية للسلطة الفلسطينية، وإعادة بناء منظمة التحرير.

الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة 2005:

قامت "إسرائيل" بتنفيذ انسحاب أحادي الجانب من قطاع غزة في النصف الثاني من سنة 2005. وبغض النظر عن العوامل السياسية والاستراتيجية التي دفعت "إسرائيل" للانسحاب، فإنه قد كان للمقاومة الفلسطينية دور كبير في دفعها إلى ذلك. وقد برزت حماس كأكثر الفصائل فعالية في المقاومة في قطاع غزة. وحسب دراسة إحصائية أعدتها كتائب القسام، فقد اعترف الإسرائيليون بوقوع 400 عملية في قطاع غزة أدت إلى إصابات في الجانب الإسرائيلي منذ بداية انتفاضة الأقصى وحتى 2005/8/15، وقد نفَّذت كتائب القسام 217 عملية، أدت إلى مقتل 79 إسرائيلياً، من أصل 167 اعترف بمقتلهم، وإلى جرح 646 إسرائيلياً، من أصل 1,084 إسرائيلياً اعترف بإصابتهم بجراح. بينما قتلت سرايا القدس (الجهاد الإسلامي) 12 إسرائيلياً وجرحت 104 آخرين، وقتلت كتائب الأقصى (فتح) ثمانية إسرائيليين وجرحت 43 آخرين؛ أما العمليات المشتركة التي كان يقوم بها فصيلان أو أكثر، فقد أدت إلى مقتل 51 إسرائيلياً وجرح 130 آخرين. وبغض النظر عن مدى القبول بهذه الإحصائيات لدى الجهات المختلفة، فإنه مما لا شكّ فيه أن حماس اكتسبت أكثر المواقع تقدماً في المقاومة المسلحة خلال انتفاضة الأقصى.[143]

سادساً: الأداء العسكري للتيار الإسلامي 2006–2022:

تابعت "إسرائيل" عدوانها في الفترة 2006–2022، كما تابعت الفصائل الفلسطينية مقاومتها، وإن بوتيرة وأشكال مختلفة. وكان من أبرز ملامحها:

- تجذر العمل الإسلامي المقاوم، واستمرار تصدره للمقاومة المسلحة، واستعصاءه على الضرب والتهميش؛ وانتزاعه لـ"الشرعية الشعبية" من خلال فوزه الساحق في انتخابات المجلس التشريعي للسلطة الفلسطينية سنة 2006، ودخوله في "شراكة مشاكسة" مع فتح في قيادة الشعب الفلسطيني. فمع إصرار فتح على الاستئثار بقيادة منظمة التحرير والسلطة، ومع حدوث ما يعرف بالانقسام الفلسطيني أصبح ثمة

"شرعيتان" فلسطينيتان؛ نتيجة سيطرة فتح على السلطة في الضفة الغربية، وسيطرة حماس على السلطة في قطاع غزة سنة 2007.

- تابعت السلطة في رام الله التزامها بمسار التسوية، وتابعت سلوكها الأمني القمعي (بالتنسيق مع الجانب الإسرائيلي) تجاه قوى المقاومة في الضفة، ليكون ذلك مبرراً أساسياً لبقائها لدى الصهاينة والأمريكان والقوى الغربية، كما استندت في استمرار هيمنتها على منظمة التحرير والتمثيل الرسمي الفلسطيني إلى البيئة العربية والدولية، المتوافقة مع مسارها السياسي (التسوية وحلّ الدولتين) والمعارضة في أغلبها لتصدر العمل الإسلامي المقاوم للمشهد الرسمي الفلسطيني مهما كانت شعبيته. ولذلك، فإن التيار الإسلامي المقاوم بالرغم من اتساع شعبيته وفرصه الأقوى في الفوز بأي انتخابات شفافة ونزيهة، وبالرغم من تأييد الغالبية الفلسطينية لمسار العمل المقاوم، فإن هذا التيار عانى من محاولات التهميش الرسمي الفلسطيني والعربي والدولي، وعانى من الحصار الخانق خصوصاً في قطاع غزة، كما عانى من تجفيف ينابيع الدعم في البلدان العربية، ومن الاتهام بـ"الإرهاب" في العالم الغربي. ومع ذلك، فما زال هذا التيار قادراً على فرض نفسه بقوة في المعادلة الفلسطينية.

- بلغ التنسيق الأمني في الضفة الغربية مراحل متقدمة، وأعلنت الأجهزة الأمنية الإسرائيلية عن إحباط الكثير من عمليات المقاومة الفلسطينية خلال تلك الفترة، والكشف عن خلايا للمقاومة، بالتنسيق مع الأجهزة الأمنية الفلسطينية. وأشارت مصادر أمنية وعسكرية إسرائيلية عديدة، كان من أبرزها رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي غادي آيزنكوت Gadi Eisenkot، إلى أن التنسيق الأمني يحول دون عودة حركة حماس لعملياتها بالضفة.[144] وعلى سبيل المثال، فقد قال رئيس جهاز الشاباك نداف أرغمان Nadav Argaman، أمام لجنة الخارجية والدفاع في الكنيست في 2018/11/6، أنّه تمّ إحباط 480 هجوماً منذ بداية سنة 2018، واعتقال أعضاء 219 خلية تابعة لحماس، وإحباط 590 عملية كان سينفذها أفراد.[145] وبشكل عام، فإن الأجهزة الأمنية الفلسطينية تحبط ما معدله 40% من عمليات المقاومة في الضفة الغربية.[146]

- تمّ ضرب المقاومة الفلسطينية وتفكيك معظم خلاياها في الضفة الغربية، بسبب التعاون الشامل والمنهجي بين السلطة الفلسطينية في رام الله وبين الاحتلال الإسرائيلي. غير أن ذلك لم يمنع من استمرار العمل المقاوم، ولو بدرجات متفاوتة،

كما في انتفاضة القدس 2015–2017، وهبّة باب الأسباط، وهبّة باب الرحمة، وصولاً إلى تصاعد العمليات الفردية وتشكيل بؤر للمقاومة في جنين ونابلس سنة 2022.

- تصاعد قوة حماس والمقاومة الفلسطينية في قطاع غزة، برعاية الحكومة التي تقودها حماس، وتمكّنها من تجنيد عشرات الآلاف من عناصر المقاومة، ونجاحها في تطوير قدراتها القتالية، وفي تطوير أداء غرفة العمليات المشتركة، وفي خوض أربع معارك بطولية كبيرة في 2012 و2014 و2021 ضدّ العدو الصهيوني، ووضع كافة مناطق الاحتلال الصهيوني في مرمى صواريخ المقاومة.
- الاعتماد بشكل كبير على إطلاق الصواريخ في عمليات المقاومة، خصوصاً من قطاع غزة، وخفوت ظاهرة العمليات الاستشهادية التي طبعت انتفاضة الأقصى.
- بلغ عدد الشهداء الفلسطينيين في الفترة 2006–2021 ما مجموعه 7,258 شهيداً، كما بلغ عدد الجرحى 105,888 جريحاً. وبلغ عدد قتلى الصهاينة 342 قتيلاً، والجرحى 3,324 جريحاً بحسب ما اعترفوا به. وكان المعدل السنوي للشهداء الفلسطينيين نحو 454 شهيداً وللجرحى 6,618 جريحاً.[147] وهو ما يشير إلى استمرار العدوان الصهيوني وشراسته ضدّ الشعب الفلسطيني وضدّ مقاومته، كما يشير إلى أن مقاومة الشعب الفلسطيني استمرت ولم تتوقف في مواجهة الاحتلال. غير أن ثمة تبايناً شاسعاً بين الإمكانات العسكرية الصهيونية الضخمة، والتي عادة ما تلجأ لقتل الأبرياء والمدنيين في محاولة تركيع وتطويع الشعب الفلسطيني؛ وبين الإمكانات المحدودة للمقاومة في بيئة فلسطينية تحت الاحتلال والحصار. كما أن توقف المقاومة عن العمليات الاستشهادية في هذه الفترة، والاعتماد أكثر على الصواريخ والاحتكاك عن بعد (كما في المعارك مع المقاومة في غزة)، قلّل من خسائر الصهاينة في الأرواح مقارنة بانتفاضة الأقصى.
- شهدت السنوات التي خاضت فيها المقاومة في غزة معاركها البطولية مع الاحتلال أكبر عدد من الشهداء، وبلغت ذروتها سنة 2014 عندما استشهد 2,240 فلسطينياً. أما أكبر عدد للجرحى فكان في سنة 2018، معظمهم في مسيرات العودة التي نظَّمتها القوى الشعبية المقاومة في قطاع غزة حيث بلغ عددهم 31,603 جريحاً. وبالطبع، فإن معظم الشهداء والجرحى الفلسطينيين كانوا من المدنيين.[148]

• في صيف 2006، شنّ العدو الصهيوني عدواناً واسعاً على جنوب لبنان، تصدّت له قوى المقاومة بقيادة حزب الله، وأوقعت فيه خسائر جسيمة، اضطرته للاندحار وفشل في تحقيق أهدافه، بالرغم من الحرب التي استمرت 33 يوماً. وقدَّرت مصادر عربية خسائر الجانب الإسرائيلي بـ 400 قتيل معظمهم من الجنود؛ بينما اعترف الصهاينة بمقتل 83 جندياً و39 مستوطناً. وأعلن حزب الله تدميره لـ 120 دبابة ميركافا، و30 مدرعة، وبارجتين حربيتين، وخمس مروحيات؛ كما أَطلق حزبُ الله أكثر من 3,200 صاروخٍ على التجمعات الصهيونية في فلسطين المحتلة. وبلغت تكاليف الحرب بالنسبة للجانب الإسرائيلي نحو 5,227 مليون دولار أمريكي.[149]

وفيما يلي نتابع مسارات العدوان الصهيوني والعمل الإسلامي المقاوم في فلسطين:

في الفترة 2006–2008 تركَّزت الحملات العسكرية الإسرائيلية على قطاع غزة، بهدف إسقاط حكومة حماس، وضرب المقاومة، وإسكات صواريخها. وكان من أبرز الحملات عملية "أمطار الصيف" التي استمرت في الفترة 6/26–2006/10/31، والتي جاءت بعد قيام حماس، بالتعاون مع لجان المقاومة الشعبية وجيش الإسلام، بعملية "الوهم المتبدد"، التي أدت إلى أسر الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط Gilad Shalit. وقد أدت عملية "أمطار الصيف" إلى استشهاد 400 فلسطيني وجرح 1,852 آخرين. كما نفَّذت "إسرائيل" حملة "غيوم الخريف" في تشرين الثاني/ نوفمبر 2006، التي أدت إلى استشهاد 105 فلسطينيين وجرح 353 آخرين؛ وحملة "الشتاء الساخن" في 2/27–2008/3/3، والتي أدت لاستشهاد 107 فلسطينيين. وبالتأكيد فإن مثل هذه الحملات كانت تُواجه بمقاومة بطولية، وإن كانت غير متكافئة، من المقاومة الفلسطينية.[150]

العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: "معركة الفرقان" 2009/2008:

كان العدوان الإسرائيلي الشامل على قطاع غزة خلال الفترة 2008/12/27–2009/1/18 من أشدُّ الحملات الإسرائيلية شراسة واتساعاً، والتي عُرفت باسم "الرصاص المصبوب"، وسمتها المقاومة "معركة الفرقان". وقد واجهت آلة الحرب الإسرائيلية المدمرة صموداً بطولياً ومقاومة عنيفة من قبل حماس وباقي قوى المقاومة، ففشلت القوات الإسرائيلية في النهاية في احتلال القطاع، وفي كسر قوى المقاومة، وفي إسقاط الحكومة التي تقودها حماس، فاضطرت إلى الانسحاب غير

المشروط من قطاع غزة. وقد أعطى ذلك دفعاً معنوياً كبيراً لقوى المقاومة، ومساندة فلسطينية وعربية وإسلامية ودولية واسعة لها. وقد استشهد في العدوان الإسرائيلي 1,334 فلسطينياً، بينهم 417 طفلاً و108 نساء، وجرح 5,450 آخرين، كما تمّ تدمير 5,350 منزل وتضرر أكثر من 16 ألف منزل آخر بشكل جزئي. أما "إسرائيل" فلم تعترف إلا بمقتل 13 إسرائيلياً، ونحو 185 جريحاً؛ بينما قدَّرت قوى المقاومة أنها قتلت نحو 80 إسرائيلياً خلال هذا العدوان.[151]

معركة "حجارة السجيل" 2012:[152]

هاجم الجيش الإسرائيلي قطاع غزة في العملية التي أطلق عليها "عمود السحاب"، بينما أطلقت عليها المقاومة الفلسطينية "حجارة السجيل" خلال الفترة 14–2012/11/21، وهو ما أدى إلى 191 شهيداً و1,526 جريحاً، غالبيتهم من الأطفال والنساء والمسنين. وهاجم الجيش الإسرائيلي خلال أيام العدوان نحو 1,500 هدف في القطاع، من بينها مقرات حكومية، وأنفاقاً، ومنصات صواريخ، ومنازل، وناشطين بارزين، ومخازن أسلحة.

وقد أدت عملية حجارة السجيل، حسب معطيات الشاباك، إلى مقتل 6 إسرائيليين، من بينهم جنديان، بينما بلغ عدد الجرحى 232 إسرائيلياً. كما سقط على التجمعات الصهيونية في فلسطين المحتلة 1948 نحو 1,731 صاروخاً من قطاع غزة، استهدف مستعمرات الجنوب المحيطة بالقطاع، بالإضافة إلى تل أبيب والقدس. ووفقاً لحسابات شركة العلوم الاقتصادية والتي أجرتها في 2012/11/17، فإن تكلفة عملية حجارة السجيل وصلت إلى 1.1 مليار شيكل (278.3 مليون دولار) في أسبوع.

معركة "العصف المأكول" 2014:[153]

تعرض قطاع غزة إلى عدوان إسرائيلي واسع خلال الفترة 2014/7/7–2014/8/26، استمر 51 يوماً. أطلقت "إسرائيل" على هذا العدوان عملية "الجرف الصامد" وأطلقت عليه المقاومة الفلسطينية حرب "العصف المأكول". وكان واضحاً أن الجيش الإسرائيلي مارس سياسة الانتقام من المدنيين في قطاع غزة بشكل كبير؛ وتمثَّلت الصورة الأبرز لذلك في عمليات قتل جماعي لسكانٍ عزّل في بيوتهم.

وقد أظهر الأداء البطولي للمقاومة خلال 51 يوماً من الحرب، قدرتها (وتحديداً حماس) على تطوير أنظمة صواريخها، فازداد مداها إلى نحو 120 كم، لتصل في هذه

المعركة إلى معظم التجمعات الصهيونية في فلسطين المحتلة. كما تمكنت المقاومة من اختراق الجانب الإسرائيلي براً وبحراً وجواً، وقدّمت المقاومة مفاجآت جديدة متميزة كالطائرات من دون طيار...؛ وحافظت قيادة العمل في قطاع غزة على منظومة القيادة والسيطرة، ولم تتعرض للضرب أو التعطيل. ووَقَعَ الطرف الإسرائيلي في حالة "عمى استخباري" على الأرض، مما أضعف بنك أهداف الإسرائيليين المحتملة. كما حققت المقاومة حالة التفاف وإجماع شعبي واسع، بالرغم من الضربات العنيفة البشعة التي وجهتها القوات الإسرائيلية للمناطق المدنية.

وتشير الإحصائية التي أعدها المرصد الأورومتوسطي إلى أن عدد الضحايا الإجمالي بلغ 2,147 شهيداً، منهم 530 طفلاً، و302 امرأة. وبلغ عدد الجرحى 10,870 جريحاً، منهم 3,303 أطفال، و2,101 امرأة. وهاجم الجيش الإسرائيلي خلال أيام العدوان نحو 5,263 هدفاً في القطاع. كما أدى العدوان إلى تدمير 17,123 منزلاً، منها 2,465 منزلاً دُمِّرت بشكل كلي، و14,667 منزلاً دُمِّرت بشكل جزئي، إضافة إلى 39,500 من المنازل لحقت بها أضرار.

وقدَّر وكيل وزارة الاقتصاد الفلسطينية تيسير عمرو في 2014/8/28 أن إجمالي الخسائر التي تعرَّض لها قطاع غزة خلال أيام العدوان تتراوح بين 7.5 و8 مليارات دولار "شاملة الخسائر المباشرة وغير المباشرة".

وقد أدت عملية العصف المأكول، حسب معطيات الشاباك، إلى مقتل 73 إسرائيلياً، من بينهم 67 جندياً، بينما بلغ عدد الجرحى 312 إسرائيلياً. كما سقط على التجمعات الصهيونية في فلسطين المحتلة 1948 نحو 4,692 صاروخاً من قطاع غزة، استهدفت مستعمرات الجنوب المحيطة بالقطاع، بالإضافة إلى تل أبيب، والقدس، وحيفا، والخضيرة وغيرها. وقدّرت مصادر إسرائيلية الأضرار الاقتصادية المباشرة وغير المباشرة للحرب بـ 12 مليار شيكل (نحو 3.07 مليارات دولار).

انتفاضة القدس 2015–2017:[154]

شكّلت انتفاضة القدس واحدة من أهم التطورات التي أقلقت الاحتلال منذ اندلاعها في تشرين الأول/ أكتوبر 2015؛ والتي هبّ فيها الشعب الفلسطيني خصوصاً في منطقة القدس، ليوجِّه للمحتل رسالة بأن المسجد الأقصى والمقدسات خطّ أحمر لا يمكن تخطيه.

واتَّسمت انتفاضة القدس بعمليات المقاومة المبنية على المبادرة الفردية، لا سيّما عمليات الطعن والدعس، التي أبدع الفلسطيني في إيجاد وسائلها، وبالدور البارز للشباب. وقد أسفرت عمليات المقاومة عن مقتل 57 إسرائيلياً، وإصابة 416 آخرين، وذلك حسب معطيات جهاز الشاباك الإسرائيلي.

وقد قامت سلطات الاحتلال بانتهاكات جسيمة شملت كافة مناحي الحياة للمواطن الفلسطيني، بالإضافة إلى ارتكاب إعدامات ميدانية بحقّ الشبان والأطفال والفتيات على الحواجز، وعمليات الاعتقال وترويع المواطنين، ومصادرة الأراضي، وهدم المنازل، وتشريد مئات المواطنين. وذكرت دراسة إحصائية أعدها مركز عبد الله الحوراني للدراسات والتوثيق، بمناسبة مرور عامين على انطلاق الانتفاضة في تشرين الأول/ أكتوبر 2015، أن مجمل عدد شهداء انتفاضة القدس بلغ 347 شهيداً، بينهم 79 طفلاً و17 امرأة.

هبَّة باب الأسباط 2017:[155]

إثر عملية فدائية في 2017/7/14، عند باب الأسباط بالمسجد الأقصى المبارك أدت إلى قتل اثنين من جنود الاحتلال المتمركزين عند الباب، واستشهاد المنفذين؛ قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي بوضع بوابات إلكترونية كاشفة للمعادن على مداخل المسجد الأقصى، وبتثبيت كاميرات خارجه لمراقبة الوضع فيه، وسيطرت على مفاتيح الغرف والمكاتب التي كانت تشغلها الأوقاف؛ وقامت بتشديد القيود على الطرق المؤدية إلى الأقصى.

أدرك الشعب الفلسطيني وقياداته من العلماء في القدس، خطورة الإجراءات الإسرائيلية التي هدفت لفرض إدارتها الأمنية المباشرة على الأقصى، وتقليص دور الأوقاف بشكل واسع، فرفضوا الدخول من تلك البوابات، ورفضوا الصلاة في الأقصى إلا بعد عودة الوضع إلى ما كان عليه قبل 14 تموز/ يوليو تماماً، وتابعوا هبَّتهم الشعبية التي لقيت تضامناً شعبياً فلسطينياً وعربياً وإسلامياً واسعاً. وبعد عشرة أيام، اضطرت سلطات الاحتلال الإسرائيلي إلى تفكيك البوابات الإلكترونية، وفي 2017/7/27، اضطرت إلى إزالة الممرات والجسور الحديدية، ثم سمحت بفتح باب المطهرة لتكون جميع أبواب المسجد الأقصى قد عادت إلى ما كانت عليه قبل 2017/7/14.

من جهة أخرى، أظهر تقرير صادر عن مركز عبد الله الحوراني للدراسات والتوثيق التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، ارتقاء عشرين شهيداً، خلال تموز/ يوليو 2017، من بينهم 15 بسبب أحداث المسجد الأقصى، وإصابة وجرح أكثر من 1,400 فلسطيني. وفي المقابل، سجَّل الشاباك 222 عملية مقاومة في تموز/ يوليو 2017 في الضفة الغربية بما فيها شرقي القدس، وقطاع غزة، وداخل الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة 1948، وأسفرت عمليات المقاومة عن مقتل 5 إسرائيليين، وإصابة 7 آخرين، وذلك حسب معطيات جهاز الشاباك الإسرائيلي.

هبَّة باب الرحمة 2019:[156]

في سنة 2003، أغلقت سلطات الاحتلال باب الرحمة. وقد بدأت الهبّة بعدما اكتشف المصلون في المسجد الأقصى أن شرطة الاحتلال وضعت قفلاً على البوابة مساء 2019/2/17، إثر اجتماع مجلس الأوقاف الجديد في المبنى، وأداء صلاة الظّهر فيه. في اليوم التالي، أدّت جماهير القدس صلاة الظهر في منطقة باب الرحمة، وخلع الشّبان البوابة واشتبكوا مع قوات الاحتلال، وتحوّلت المنطقة إلى نقطة تجمّع ورباط وصلاة، مما حوّلها إلى ميدان مواجهة. وتوّج المشهد بفتح باب الرحمة ودخول أبناء القدس منه في 2019/2/22، لأوّل مرة منذ أغلقته شرطة الاحتلال سنة 2003.

معركة صيحة الفجر:[157]

خاضت هذه المعركة سرايا القدس التابعة للجهاد الإسلامي وفصائل فلسطينية في الفترة 12–2019/11/15، رداً على اغتيال قائد أركان المقاومة في سرايا القدس بهاء أبو العطا، على مدى ثلاثة أيام، حيث قصفت التجمعات الصهيونية في فلسطين المحتلة 1948، واستشهد 16 شهيداً من سرايا القدس. وأسفر العدوان الصهيوني وغاراته الجوية على قطاع غزة عن استشهاد 34 فلسطينياً وجرح أكثر من مئة آخرين.

مسيرات العودة وكسر الحصار 2018–2019:[158]

في إبداع جديد في أساليب مقاومة الاحتلال، طرحت مجموعات فلسطينية على وسائل التواصل الاجتماعي في كانون الثاني/ يناير 2018، فكرة تنظيم مسيرات جماهرية في قطاع غزة والضفة الغربية والشتات الفلسطيني بشكل متزامن، تهدف إلى تحقيق عودة اللاجئين الفلسطينيين فعلياً، وبشكل سلمي، وتحت العلم الفلسطيني، إلى أرضهم

وبيوتهم التي أُخرجوا منها في حرب 1948، وحدّدوا يوم الأرض تاريخاً لانطلاق هذه المسيرات.

وتشكلت اللجنة التنسيقية العليا لمسيرة العودة الكبرى؛ وأكدت على أنها حالة جماهيرية غير فصائلية، تستهدف التحشيد الواسع للاجئين، والتقدم التدريجي باتجاه الحدود. غير أن انضمام الفصائل الفلسطينية في قطاع غزة لمشروع المسيرة في 2018/3/17 أعطاها بُعداً مقاوماً، وتمّ بعد ذلك تشكيل إطار جديد هو "الهيئة الوطنية العليا لمسيرة العودة وكسر الحصار"؛ ليضيف بُعداً محلياً بإضافة هدف كسر الحصار إلى اسمها. وكانت البداية يوم الجمعة في 2018/3/30، حيث لقيت تجاوباً واسعاً. وشكّلت مسيرات العودة واحدة من أهم التطورات التي أقلقت الاحتلال؛ وبدت سلطات الاحتلال عاجزة أمامها، على الرغم من الإجراءات والسياسات التي تتبعها. وفي قطاع غزة اتخذت الفكرة شكلاً عملياً، حيث البيئة الحاضنة للمقاومة، وحيث المعاناة من الحصار، وحيث إن معظم أبناء القطاع هم من اللاجئين.

وحتى نهاية 2019 تمّ تنفيذ 86 مسيرة عودة. وقدَّم الشعب الفلسطيني نموذجاً بطولياً في مسيراته، ومواجهته للعدو، واقتحام مواقعه، وإرساله طائراته الورقية وبالوناته الحارقة للمستعمرات. وتوالت أيام الجُمَع، لتصل ذروتها في 2018/5/14، يوم الاحتفال الأمريكي بنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، حيث قدَّم قطاع غزة في ذلك اليوم 58 شهيداً، و2,771 جريحاً. وأفاد مركز الميزان لحقوق الإنسان، في 2019/12/20، أن قوات الاحتلال قتلت 364 فلسطينياً في قطاع غزة منذ انطلاق مسيرات العودة الكبرى. وأشار المركز إلى أن 19,173 فلسطينياً؛ بينهم 4,987 طفلاً و864 سيدة، أصيبوا خلال مشاركتهم في فعاليات مسيرات العودة، بالإضافة إلى إصابة الآلاف بالاختناق.

تميَّزت مسيرات العودة بالإقبال الجماهيري الواسع، خصوصاً في قطاع غزة، وتفاعل كافة الشرائح الاجتماعية. وعبَّرت بشكل صادق وقوي عن تمسك الشعب الفلسطيني بحقّ العودة، وتجلت فيها الوحدة الوطنية في المسيرات، وتميَّزت بالإبداع، إذ ترافقت معها فعاليات إبداعية، كالطائرات الورقية والبالونات والإرباك الليلي؛ ونجحت في إجبار الأطراف المشاركة في حصار قطاع غزة على تخفيفه.

معركة سيف القدس 2021:[159]

هبَّ أهل القدس في مواجهة محاولات الصهاينة مصادرة حي الشيخ جراح، والسعي الصهيوني الدؤوب لتهويد المسجد الأقصى والقدس، وتصاعدت المواجهات في العشر الأواخر من رمضان 1442هـ (أوائل أيار/ مايو 2021). وقد قررت قيادة حماس في غزة الانتصار للقدس وأهلها، فأطلقت صواريخها على الكيان الصهيوني بعد أن رفض التراجع عن إجراءاته في الشيخ جراح والأقصى. واتسعت دائرة المعركة، التي سمتها المقاومة "سيف القدس" وأسماها الصهاينة "حارس الأسوار"، لتستمر على مدى 11 يوماً 10–2021/5/21.

ولأول مرة فرضت حماس وقوى المقاومة في غزة معادلة جديدة تربط بينها وبين القدس، ونابت عن الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية في الدفاع عن الأقصى والمقدسات، بالرغم مما تعانيه غزة من حصار ومن شُحٍّ في الإمكانات. وبالرغم من العدوان الصهيوني الشرس المدمر على قطاع غزة، فإن المقاومة نجحت في مواجهة العدوان، وفي تطوير أدائها العسكري الرادع، وغطى مدى صواريخها الذي وصل إلى 250 كم، كلَّ الأماكن التي يسيطر عليها الكيان، وتمكنت الصواريخ التي بلغ عددها نحو 4,400 صاروخ، والتي اتسمت بمزيد من الدقة والقدرة التفجيرية من اختراق القبة الحديدية Iron Dome، وضرب المدن والتجمعات الصهيونية، مما اضطر ملايين الإسرائيليين للذهاب إلى الملاجئ، كما توقفت حركة القطارات بين وسط الكيان وجنوبه، وتّم تعليق الطيران بمطار بن جوريون Ben Gurion.

واتَّسمت هذه المعركة بتصعيد الانتفاضة الشعبية في القدس وباقي الضفة الغربية وفلسطين المحتلة 1948، كما اتسمت بتفاعل شعبي كبير في الخارج فلسطينياً وعربياً وإسلامياً ودولياً؛ وخرجت المظاهرات الضخمة في كافة أرجاء العالم بما في ذلك أوروبا وأمريكا منددة بالعدوان الصهيوني. وتوحَّد الشعب الفلسطيني خلف المقاومة، في الوقت الذي انعزلت فيه قيادة السلطة والمنظمة سياسياً وشعبياً، وثبت فشل مسار التسوية السلمية. وقد اعترف سياسيون وعسكريون وأمنيون وإعلاميون صهاينة كبار بأن حماس وقوى المقاومة فازت في هذه المواجهة، وبأن "إسرائيل" خرجت خاسرة.

أدى العدوان الصهيوني الذي تركز على المدنيين والمباني السكنية والمنشآت العامة، إلى استشهاد 260 شهيداً في قطاع غزة، بينهم 66 طفلاً، و40 امرأة، و17 مُسنّاً، وإصابة 1,948 بجراح؛ بينما استشهد في الضفة الغربية 29 شهيداً، وأصيب نحو 6,300 بجراح؛ واستشهد اثنان من فلسطينيي 1948 وجرح كثيرون. ودمَّر الصهاينة نحو 1,800 وحدة سكنية في قطاع غزة، بالإضافة إلى إصابة آلاف الوحدات الأخرى بأضرار. وفي الطرف الإسرائيلي قُتل 13 وجرح نحو 330 آخرين، كما أصيبت الكثير من المباني بأضرار، وقدَّم إسرائيليون 3,424 طلب تعويض عن أضرار لحقت بممتلكاتهم ومساكنهم ووسائل تنقلهم. وخسر الاقتصاد الإسرائيلي نحو 2,140 مليون دولار.

معركة وحدة الساحات:[160]

خاضت حركة الجهاد الإسلامي هذه المعركة في الفترة 5–2022/8/7 في مواجهة العدوان الإسرائيلي على القطاع، حيث أطلقت الحركة نحو 950 صاروخاً على التجمعات الصهيونية في فلسطين المحتلة 1948؛ واستشهد من حركة الجهاد 12 شهيداً كان من أبرزهم تيسير الجعبري قائد المنطقة الشمالية بقطاع غزة، وخالد منصور قائد المنطقة الجنوبية، وبلغ العدد الكلي للشهداء 49 والجرحى 360.

خلاصة:

نضع هنا أبرز الخلاصات المتعلقة بمسار التيار الإسلامي المقاوم:

- أثبتت التجربة أن الإسلام هو الأقدر على تعبئة الجماهير، وبثّ روح الصمود والثبات والتضحية، وتصعيد المقاومة والثورة. ولذلك، فإن التيار الإسلامي سرعان ما تصدّر المقاومة المسلحة والالتفاف الشعبي عندما استعاد زمام المبادرة. بل إن التيارات الوطنية والقومية استخدمت وتستخدم لغة تعبوية إسلامية عندما يتعلق الأمر بالمقاومة ومواجهة الاحتلال.

- البركة في الجهاد ومقارعة العدو المحتل، وليس ثمة خوف على الرزق ولا على الأجل فهي بيد الخالق سبحانه، وليست بيد المخلوق. وليس ثمة خوف على التنظيم وعلى درجة الشعبية وعلى توفير التمويل؛ فبالرغم من قسوة الضربات التي تعرَّضت لها المقاومة، إلا أنها في كل مرة كانت تخرج أصلب عوداً، وأكثر شعبية؛ وكان واضحاً

أن صعود خط المقاومة وزيادة تأثيره مرتبط باستمرار فعله على الأرض وبتصعيده، وليس بانتقال محور أدائه من العسكري إلى السياسي. على أنه يجب أن يُفهم أن من حق قوى المقاومة المخلصة أن تحدد أوقات التصعيد والتهدئة ووسائل المقاومة وأدواتها، ما دامت رسالتها وبوصلتها ثابتة لا تتبدّل.

- إن التقسيمات الاستعمارية لبلداننا، وخصوصاً سايكس – بيكو، لا ينبغي أن تنعكس على تفكيرنا ومشاعرنا وإيماننا بوحدة أمتنا. ولا يجوز أن يتحول العمل في الإطار الوطني إلى انكفاء قطري أو شعور عنصري. وقدسية فلسطين وبركتها ليست مرتبطة بالحدود التي حددها المستعمر البريطاني. وأبناء فلسطين هم جزء من أهل الشام الذين هم جزء من الأمة، وهم يتقدمون الصفوف باعتبارهم أهل الثَّغر. ومشروع التحرير هو مشروع نهضوي وحدوي تشترك فيه الأمة وخصوصاً في البيئة الاستراتيجية المحيطة بفلسطين.

- برزت مركزية القدس والأقصى في الثورات والانتفاضات الفلسطينية، وظهر واضحاً ما لهما من قدرة على التعبئة والتحشيد للشعب الفلسطيني، وللأمة الإسلامية، وأصبحا عنواناً للوحدة الإسلامية الجامعة، وموحداً للبوصلة في مواجهة العدو. كما برزت القيمة الهائلة للمساجد كمراكز للإعداد الإيماني والتربوي، وفي تعميق الصمود، وكمنطلقات للمظاهرات ومواجهة الاحتلال. حتى إن انتفاضة 1987–1993 عُرفت بانتفاضة المساجد، كما أن أقوى انتفاضة معاصرة 2000–2005 عُرفت بانتفاضة الأقصى. ويمكن استذكار مواجهات الدفاع عن النفق أسفل المسجد الأقصى 25–1996/9/27، وانتفاضة القدس 2015–2017، وهبتي باب الأسباط 2017 وباب الرحمة 2019، ومعركة سيف القدس 2021 وغيرها.

- أثبتت التجربة قدرة المقاومة وخصوصاً الإسلامية على تعبئة وتحشيد العالم العربي والإسلامي، وعلى تعطيل مسار التسوية السلمية، وعلى تعويق مسارات التطبيع وكشف الوجه القبيح للأنظمة المُطبِّعة مع العدو. كما أن الدفاع عن القدس والمقدسات وفلسطين وفَّر أداة قياس معيارية لدى الشعوب تجاه أنظمتها ورموزها، فمن انتصر لفلسطين ارتفع في عيونها، ومن خذل فلسطين سقطت مكانته وانفضّ عنه الناس.

- كان للتيار الإسلامي (تحديداً جماعة الإخوان) دور ريادي في إطلاق العمل العسكري المقاوم بعد كارثة حرب 1948، وخصوصاً في قطاع غزة وعبر الحدود المصرية. غير

أن هذا العمل الجهادي عانى من التعطُّل بسبب الحرب الشرسة التي شنها نظام عبد الناصر (وعدد من الأنظمة العربية) على الإخوان وعلى التيار الإسلامي بشكل عام. وقد لجأ الإخوان إلى حفظ النفس والانكفاء على الذات، بانتظار نضج ظروف أفضل. ونشأت في هذه الأجواء بعض البيئات الداخلية التي تعاظمت في داخلها الرغبة في حفظ النفس والعمل التربوي على حساب روح المبادرة والمغامرة ومقارعة الظروف والتدافع، كما ظلت هناك بيئات داخلية تتطلع إلى التطبيق العملي للإسلام دعوة وجهاداً وريادة سياسية واجتماعية وتفاعلاً مع الواقع. وبالتالي، فقد عاشت أوساط التيار الإسلامي لنحو عقدين من الزمن بين الواقعية المُتكيِّفة مع الظروف وبين التطلع للتغيير. وكانت تجربة معسكرات الشيوخ 1968–1970 إحدى الفرص التي تعاملت معها بإيجابية قطاعات من الإخوان، بينما كان ما يزال إخوان آخرون يميلون للتريث وللمزيد من الاستعداد.

- شكّلت جماعة الإخوان الحاضنة التي نشأت فيها حركة فتح، والتي اتجهت بعد ذلك اتجاهاً علمانياً. وتُبرز تجربة فتح أهميةَ التأسيس الإيماني والتربوي العميق للجيل القيادي المؤسس، وأهمية وضوح الرؤية والرسالة لضبط المسار والبوصلة؛ حتى لا يجد الشباب الإسلامي المتحمس نفسه وقد أضاع الرؤية وفقد البوصلة بعد أن خسر الجوهر، فتم ملء القالب "الوطني" بمضمون "علماني"، وأصبح الغطاء والشكل هو الحاكم على الأداء. كما أصبح البقاء في مواقع النفوذ والهيمنة السياسية مقدماً على الثوابت، وعلى البناء المؤسسي الفعّال لمؤسسات التمثيل الرسمية الفلسطينية؛ فكان اتفاق أوسلو 1993 الذي فرَّط بمعظم فلسطين التاريخية وتعهَّد بوقف العمل المقاوم؛ بينما تكرست عقلية الهيمنة والاستحواذ في قيادة منظمة التحرير والسلطة، ولو على حساب تدهور المؤسسات وانهيارها وفقدان الشرعية الشعبية.

- أظهرت التجربة أهمية المبادرة المصحوبة بقدر من الجرأة أو "المغامرة" المحسوبة، أو بعبارة أدق بحسن التوكل على الله، في تحقيق قفزات نوعية في العمل الجهادي المقاوم لتحرير فلسطين. كما ظهرت في معسكرات الشيوخ وفي روح المبادرة لدى خيري الأغا وسليمان حمد في توحيد التنظيم الفلسطيني للإخوان مع التنظيم الأردني وإنشاء تنظيم بلاد الشام، وفي مبادرة الشيخ أحمد ياسين بإطلاق العمل الجهادي في قطاع غزة، وفي مبادرة إنشاء جهاز فلسطين وتوفير الغطاء للعمل الجهادي، وفي قرار إطلاق حماس وتفجير الانتفاضة... وغيرها.

- أظهرت التجربة مدى أهمية التأسيس الإيماني الحركي القوي للعمل الشبابي، ثم إعطائه الصلاحيات والفرص الكاملة لأخذ دوره، وهو ما برز واضحاً في تجربتي خيري الأغا وسليمان حمد في الخارج، وفي تجربة الشيخ أحمد ياسين في قطاع غزة، وتجربة حسن القيق في الضفة الغربية... وهو ما وفَّر للإخوان ولحماس في حينه قدرة عالية على توريث الأجيال واستمرار العمل قوة وتوسعاً وإبداعاً.

- إنّ صعود حماس وقوى المقاومة الإسلامية وفرض نفسها في المعادلة الفلسطينية، لم يرتبط بدخول المؤسسة الرسمية الفلسطينية (منظمة التحرير)؛ بل ارتبط بالفعل المقاوم على الأرض وبالقدرة على تحشيد الجماهير والأمة حول برنامجها خصوصاً في الفترة 1987–2005. وبالرغم من أهمية الحصول على "الشرعية الرسمية" والتمكن من قيادة المؤسسات التمثيلية الفلسطينية وتوجيهها، باعتبارها مظلة مساحة نضالية للتعبير عن إرادة الشعب الفلسطيني، ولتحشيد قواه في معركة التحرير؛ إلا أنّ بيئة العمل الرسمي الفلسطيني (إن لم يتم التعامل معها بالشكل المناسب) يمكن أن تتحول إلى أثقال وقيود؛ تُضيّق الخناق على العمل المقاوم، بحجة استرضاء البيئات السياسية العربية والدولية، بينما تعيش هاجس الخوف من نزع الشرعية، وتضبط إيقاع العمل المقاوم وفق مسارات لا تُغضب الآخرين، وتحوّل المقاومة إلى أداة سياسية قبل أن تكون للمقاومة قوة سياسية تفرض نفسها فرضاً على الواقع العربي والدولي.

- في المقابل، تمّ استخدام "الشرعية الرسمية" الفلسطينية، خصوصاً بعد اتفاق أوسلو كأداة لشرعنة الاحتلال والتنازل عن الثوابت، وفي محاربة المقاومة ومحاصرتها وتهميشها، ونزع شرعيتها ورفع الغطاء عنها؛ كما استُخدمت في محاولة تطويع المقاومة وتدجينها وفق ما يسمى "الشرعية الدولية" وشروط الرباعية الدولية. كما استُخدمت هذه الشرعية في إعطاء إيحاء غير صحيح عن التوجهات الحقيقية للشعب الفلسطيني، ومحاولة فرض مسار التسوية بعكس إرادته وبعكس إرادة الأمة. وقد دفع الشعب الفلسطيني أثمان كبيرة نتيجة تردي المؤسسات الرسمية الفلسطينية وانعدام فاعليتها النضالية، وعدم تعبيرها عن "شرعية شعبية" حقيقية، وإغلاقها الأبواب في وجه إصلاحها وتفعيلها، واستيعاب قوى المقاومة (وخصوصاً الإسلامية) وفق أوزانها الحقيقية... وهو ما تسبّب بما يعرف بـ"الانقسام" الفلسطيني. ولذلك، فلا بدّ من السعي للوصول إلى "شرعية رسمية" فلسطينية، تعبّر عن إرادة الشعب الفلسطيني وأمته، وتكون طليعة مشروع التحرير.

- من ناحية أخرى، استفادت حماس جزئياً من "الشرعية" الفلسطينية إثر فوزها في الانتخابات في 2006، واعتراف العديد من الدول بشرعيتها السياسية، وتوفير الغطاء الرسمي لسيطرتها على قطاع غزة، وفي "شرعنة" خط المقاومة؛ وظلت متمسكة بالثوابت وبخطها الإسلامي المقاوم بالرغم من شدة الضغوط وقسوتها.

- إن طبيعة العمل المقاوم ومشاريع التحرير، تحتاج إلى روح إيمانية رسالية، وإلى روح جهادية ثورية، كما تحتاج إلى ديناميية عمل عالية، وإلى التخفّف من الأعباء البيروقرطية، والتركيز على "الرواحل" الذين يحملون المقاومة، ولا يثقلونها بالتكاليف والرسميات والشكليات. وعلى المقاومة الإسلامية أن تَحْذَر من "فخ" الاسترخاء والتكيّف والتموضع في بيئات الهدوء والاستقرار؛ وأن تحذر من "فخ" توفر المال والتمويل "خصوصاً الرسمي" في مراحل معينة فتُكيّف نفسها على أساسها، حتى لا تجد نفسها أسيرة بأيّ حال لأي من مصادر التمويل. وعليها أن تبذل الغالي والنفيس في الحفاظ على استقلال قرارها وألاّ تساوم على هويتها ورسالتها وأدائها الجهادي، وعلى حاضنتها الشعبية وانتمائها للأمة.

- كان من أسباب نجاح حماس وحفاظها على قوتها وتماسكها طوال الفترة الماضية، وجود نواة رسالية صلبة، ووجودُ بناء شُوري مؤسسي، وانتخابات دورية منتظمة، والقدرة على النقد الذاتي الداخلي، وعدم تقديس الأشخاص، والقدرة على التوريث القيادي. وأسهم في قوتها أيضاً التصاقها بالجماهير وهموم الناس، وكذلك الديناميية العالية التي تمتعت بها قيادة الحركة، وقدرتها على التكيف والتعامل مع البيئات الصعبة. وهي مزايا يجب المحافظة عليها في ضوء التوسع الكبير للحركة، وامتداداتها في الضفة والقطاع والخارج، واضطرارها للعمل تحت النار والحصار، وفي ظروف المطاردة والإبعاد، وفي ضوء صعوبات المواءمة بين العمل المسلح وبين العلاقات السياسية وبين توفير سبل الدعم والتمويل.

- استفاد التيار الإسلامي المقاوم من الحاضنة الأصيلة والدعم القوي والفعال الذي وفّرته الحركة الإسلامية، وخصوصاً الإخوان في الأردن، فعملوا بكل جهودهم لتوفير بيئات النجاح المناسبة لإطلاق حماس وتقويتها وتوسعها. وهذا ينطبق على جماعة الإخوان في البلاد العربية والإسلامية (بقيادة ورعاية الإخوان في مصر)،

ومعهم القوى الإسلامية، التي وفَّرت بيئات دعم شعبي ديني وتعبوي وسياسي وإعلامي ومالي واسع لفلسطين، وأسهمت في نشر الوعي وفي مواجهة التطبيع مع العدو. وهو ما يعني ضرورة تكريس البُعد الإسلامي للصراع مع العدو. هذا مع عدم إغفال أن عدداً من القوى الوطنية والقومية والعالمية الصادقة أسهمت في دعم المقاومة.

- بالرغم من أنّ ما أنجزته المقاومة الإسلامية هو محل تقدير، إلا أنه ما زال أمام المشروع الإسلامي لتحرير فلسطين خطوات كبيرة وتحديات عظيمة لتحقيق أهدافه. إذ إن جوهر عملها تركَّز على "مشاغلة" العدو وإضعافه ومنع تمدده، وتعزيز الصمود الشعبي (والرسمي إلى حدّ ما) في مواجهته، كما نجحت في إيجاد قاعدة مقاومة صلبة في قطاع غزة. غير أن الانتقال من منع التمدد إلى فرض الاندحار، ومن "المشاغلة" إلى "التحرير" يحتاج قفزات نوعية تشمل توسيع دائرة الوعي والإيمان بالحل الإسلامي للتحرير، ووجود بيئة استراتيجية رافعة للمقاومة، وتحشيد الأمة وتعبئتها وإعدادها للمشاركة في المشروع كل بحسب ظروفه وقدراته وإمكاناته، وتحقيق نهوض حضاري وحدوي للوصول إلى امتلاك أسباب القوة لتحقيق التفوق الاستراتيجي على العدو؛ وتطوير البنى المؤسسية الرسمية والشعبية الفلسطينية لتمارس دورها الفعال في مشروع التحرير؛ ودعم صمود الشعب الفلسطيني على أرضه ومواجهته للعدو؛ وتوريث القضية للأجيال، وتوسيع دائرة المناصرة العالمية لمشروع التحرير؛ وإفشال مسارات التطبيع ومسارات التسوية التي تؤدي للتنازل عن أي جزء من فلسطين.

هوامش الفصل الخامس

[1] حول المقاومة المسلحة للإخوان المسلمين خصوصاً في قطاع غزة، انظر الفصل الرابع من كتاب: محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني - قطاع غزة 1949–1967** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2020)، ص 159–221.

[2] مقابلة مع كامل الشريف، 2006/8/3.

[3] كامل الشريف، **المقاومة السرية في قناة السويس**، ط 2 (الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، 1984)، ص 57، و71.

[4] فوزي جبر، مقابلة مع المؤلف، الكويت، 1999/11/20. فوزي جبر هو أحد قدماء الإخوان، كان مساعداً لخليل الوزير في العمل العسكري الخاص، من أبرز العاملين بصمت ونشاط، خصوصاً في الجوانب المالية والخيرية ودعم المقاومة الفلسطينية.

[5] كامل الشريف، **المقاومة السرية في قناة السويس**، ص 48–50، و54، و57؛ ومها كامل الشريف (محرر)، صفحات مختارة من أوراق كامل الشريف، ص 49، و102 (قامت السيدة مها كامل الشريف مشكورة بإهداء نسخة من هذه الأوراق للمؤلف، عمّان، الأردن، 2006)؛ ومقابلة مع كامل الشريف، 2006/8/3.

[6] ولد محمد أحمد أبو سيدو في مدينة غزة في 1931/1/15. شارك مع كتائب الإخوان في حرب 1948. كان من أبرز قادة العمل الإخواني العسكري في قطاع غزة في النصف الأول من الخمسينيات.

[7] مقابلات أجراها المؤلف مع: محمد الخضري، جدة، السعودية، 13–1998/9/14، ومحمد صيام، كوالالمبور، ماليزيا، 4–2000/6/5، وخيري الآغا، جدة، السعودية، 1998/9/16، وكامل الشريف، 2006/8/3، وفوزي جبر.

محمد الخضري: كان مساعداً لخليل الوزير في العمل العسكري الخاص، وممثلاً رسمياً لحماس لنحو عشرين عاماً، تولى رئاسة مجلس الشورى العام (المركزي) لحركة حماس لدورتين 2004–2013، وعضو الأمانة العامة للمؤتمر الشعبي لفلسطينيي الخارج.

محمد صيام: من أعضاء العمل العسكري الخاص، ومن رموز حركة حماس.

خيري الأغا: من قادة العمل العسكري للإخوان في قطاع غزة 1952–1956، أحد مؤسسي تنظيم الإخوان الفلسطينيين وعضو مجلس الشورى المركزي منذ إنشائه. نائب المراقب العام في الفترة 1973–1975، والمراقب العام لتنظيم الإخوان الفلسطينيين في الفترة 1975–1978. رئيس جهاز فلسطين، ومن أبرز مؤسسي حماس، وأول رئيس لها حتى استقالته في سنة 1993.

[8] مقابلتان مع: محمد الخضري، وخيري الأغا.

[9] مقابلة مع فوزي جبر. ويرى فوزي جبر أن المعسكرات الوسطى (النصيرات، والبريج، والمغازي) كانت تمثل منطقة رابعة، بقيادة شوقي الخراز.

[10] مقابلات أجراها المؤلف مع: منير عجور، الكويت، 1999/11/24، وسليمان حمد، عدة مقابلات مع المؤلف، أبرزها في الكويت، 22–1999/11/27، وعبد الله أبو عزة، أبو ظبي، الإمارات، 1998/6/29، وكامل الشريف، 2006/8/3، وفوزي جبر، ومحمد الخضري.

منير عجور: من قدماء الإخوان المسلمين في غزة، شارك في قيادة "جبهة المقاومة الشعبية" لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزة، وكان من رواد حركة فتح في الكويت.

سليمان حمد: عضو في جماعة الإخوان المسلمين منذ سنة 1950، من جيل التأسيس في حركة فتح، عضو مجلس شورى تنظيم الإخوان الفلسطينيين، وعضو لجنته التنفيذية سنة 1973، ونائب المراقب العام 1975–1978، وعضو مؤسس في جهاز فلسطين (الذي سبق إنشاء حماس)، من مؤسسي حركة حماس وقادتها الأوائل، ورئيس لجنة "التخطيط الاستراتيجي" فيها 1988–1990.

عبد الله أبو عزة: من قيادات الإخوان الرئيسية في قطاع غزة 1955–1962، تولى منصب نائب رئيس الإخوان الفلسطينيين في النصف الثاني من الستينيات، ثم صار رئيساً للتنظيم سنة 1970، بعد أن استعفى رئيسه عبد البديع صابر عن متابعة القيادة، مفكر ومؤرخ وكاتب إسلامي نشرت له العديد من الدراسات والكتب.

[11] مقابلة مع كامل الشريف، 2006/8/3.

[12] عبد العزيز علي، مقابلة مع المؤلف، الكويت، 1985/9/27. عبد العزيز علي من الإخوان المسلمين المصريين، شارك في حرب فلسطين 1948، من أبرز المدربين العسكريين للإخوان.

[13] مها كامل الشريف، صفحات مختارة من أوراق كامل الشريف، ص 88–89.

[14] المرجع نفسه، ص 99.

[15] مقابلة أجرتها سلوى العمد مع خليل الوزير، جريدة **السفير**، بيروت، 1988/4/25.

[16] يتحدث عدد من ملفات الخارجية البريطانية المحفوظة في الأرشيف الوطني البريطاني عن هذه العملية، وأهمها ملف F.O. 371/111077 الذي يحوي نحو 200 صفحة. وكذلك الملفات F.O. 371/111098، وF.O. 371/111099، وF.O. 371/111100، وF.O. 371/111101. انظر:

Letter, British Embassy, Tel Aviv, to A.D.Ross, Eastern Department F.O., London, confidential, 14/4/1953, F.O. 371/104779.

غطى ملف الخارجية البريطانية F.O. 371/115896 عملية الباص (معاليه عقرابيم) في 200 صفحة من الوثائق المحتوية على مراسلات وتقارير مختلفة بشأنها.

[17] مقابلة أجرتها سلوى العمد مع خليل الوزير، **السفير**، 1988/4/25. وانظر أيضاً: خليل الوزير، "حركة فتح: البدايات،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد 104، خريف 2015، ص 61–62.

[18] عبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية** (الكويت: دار القلم، 1985)، ص 48–50.

[19] انظر: محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون**، ص 201–204.

[20] بحسب إيلان بابيه فإن ضم الأردن للضفة الغربية أضاف 670 ألف فلسطيني إلى 300 ألف شرق أردني، وبعض الشرق أردنيين هم من أصول فلسطينية، وأنه حتى 1967 كان 75% من سكان الأردن فلسطينيون. وبحسب أسعد عبد الرحمن فإن سكان الضفة الغربية كانوا 425 ألفاً التجأ إليهم 360 ألفاً من أبناء فلسطين المحتلة 1948، كما التجأ لشرق الأردن 110 آلاف لاجئين آخرين. انظر: أسعد عبد الرحمن، **منظمة التحرير الفلسطينية** (نيقوسيا: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، 1985)، ص 25؛ وانظر:

Ilan Pappe, "Jordan Between Hashemite and Palestinian Identity," in Joseph Nevo and Ilan Pappe (eds.), *Jordan in the Middle East 1948–1988: The Making of a Pivotal State* (London: Routledge, 2016), p. 63.

[21] انظر: فاروق بدران وسعود أبو محفوظ، "محطات في تاريخ الحركة الإسلامية في الأردن (الإخوان المسلمين) 1946–1996،" مقدمة إلى مؤتمر تاريخ الجماعة، عمّان، الأردن، 1996؛ وانظر أيضاً:

Abd al-Fattah El-Awaisi, *The Muslim Brothers and the Palestine Question*, p. 162; and Amnon Cohen, *Political Parties in the West Bank under the Jordanian Regime: 1949–1967* (London: Cornell University Press, n.d.), pp. 144–145.

[22] Benny Morris, *Israelis Border Wars: 1949–1956* (New York, US: Oxford University Press, 1993), p. 7.

[23] انظر: جريدة **فلسطين**، 1950/8/23؛ وجريدة **الدفاع**، 1953/10/18 و1956/3/15؛ وانظر:

Amnon Cohen, *Political Parties*, p. 169.

[24] بالرغم من قرار عقد المؤتمر سنوياً إلا أن السلطات الأردنية منعت قيادته بمن فيهم سعيد رمضان من دخول الأردن في أوائل 1954، ومنعت انعقاد المؤتمر سنة 1955، واضطر لعقد مؤتمره الثاني في دمشق 1956؛ ثم رفعت الحظر عنه وسمحت له بالعمل بعد طرد جلوب باشا 1956، غير أنها لم تسمح له بالانعقاد فيها إلا لسنة 1959 حيث عقد مؤتمره الثالث في القدس؛ لكنه كان قد تم إفراغه من الكثير من محتواه الذي نشأ لأجله.

انظر: فاروق بدران وسعود أبو محفوظ، "محطات في تاريخ الحركة الإسلامية في الأردن (الإخوان المسلمين) 1946–1996،" ص 21–23؛ وجريدة **فلسطين**، 1954/8/26؛ وانظر:

Amnon Cohen, *Political Parties*, pp. 176–177.

[25] جريدة **الدفاع**، 1954/4/7.

[26] Amnon Cohen, *Political Parties*, pp. 169, 176–177.

وانظر: جريدة **الدفاع**، 1958/7/8؛ وفاروق بدران وسعود أبو محفوظ، "محطات في تاريخ الحركة الإسلامية في الأردن (الإخوان المسلمين) 1946–1996،" ص 22.

[27] مقابلتان مع: عبد العزيز علي، وكامل الشريف، 2006/8/3؛ وكتيب تعريفي بـ **المؤتمر الإسلامي العام** (القدس: المكتب للمؤتمر الإسلامي العام، د.ت)؛ ص 13. وسبق للمؤلف في أثناء تحضيره للماجستير أن قابل عبد العزيز علي، حيث أكد له ما ورد أعلاه. ولعل الشريف قصد حافظ عبد الغني عبد النبي النتشة، وهاشم صادق عبد النبي النتشة، عندما أشار إلى أبناء عبد النبي النتشة، وكلاهما كانا من الإخوان المسلمين.

[28] توافق طردهما مع الضربة الأقسى للإخوان في مصر، انظر: مقابلة مع عبد العزيز علي.

[29] مقابلتان مع: عبد العزيز علي، وكامل الشريف، 2006/8/3.

[30] انظر: كُتيب من إصدار المكتب التنفيذي لمؤتمر قادة الإخوان في البلاد العربية، 1957 (نسخة مصورة محفوظة لدى المؤلف)؛ وجريدة **الدفاع**، 1956/8/15.

[31] فاروق بدران وسعود أبو محفوظ، "محطات في تاريخ الحركة الإسلامية في الأردن (الإخوان المسلمين) 1946–1996،" ص 25؛ وانظر:

Amnon Cohen, *Political Parties*, p. 169.

[32] Amnon Cohen, *Political Parties*, p. 168.

[33] محمد عبد الهادي، مقابلة مع المؤلف، صيدا، لبنان، 1998/9/2. شارك محمد عبد الهادي في عضوية جماعة عباد الرحمن منذ الخمسينيات، انضم لحركة فتح وكان من مسؤوليها في منطقة صيدا ثم تركها لاحقاً، التحق بالجماعة الإسلامية في لبنان منذ 1965.

[34] انظر: يزيد صايغ، **الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، 1949–1993**، ترجمة باسم سرحان (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2002)، ص 151.

[35] انظر: غسان دوعر، **قواعد الشيوخ: مقاومة الإخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني 1968–1970** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2018)، ص 39–40؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 2–3.

[36] حول تفصيلات علاقة الإخوان المسلمين بنشأة حركة فتح، انظر الفصل الخامس من كتاب: محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون**، ص 223–297.

[37] Helena Cobban, *The Palestinian Liberation Organization: People, Power and Politics* (US: Cambridge University Press, 1988), p. 24.

[38] مقابلات مع: محمد الخضري، وخيري الأغا، وسليمان حمد.

[39] مقابلتان مع: محمد الخضري، وفوزي جبر.

[40] انظر مثلاً: مقابلات مع سليمان حمد، ومحمد الخضري، ومحمد صيام، وعبد الله أبو عزة، وغيرهم.

[41] عبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**، ص 71–72.

[42] المرجع نفسه، ص 73–86.

[43] انظر: رسالة، سليمان حمد، الكويت، إلى محسن محمد صالح، ماليزيا، 1998/2/10.

[44] عبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**، ص 76–77؛ ومقابلة مع عبد الله أبو عزة.

[45] محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون**، ص 240–242.

[46] هاشم عزام، مقابلة مع المؤلف، عمّان، الأردن، 1998/8/14. انضم هاشم عزام إلى جماعة الإخوان المسلمين في منتصف الخمسينيات، ومن أوائل المنتظمين في فتح في الضفة الغربية، عضو مؤسس في مجلس المنظمات الإسلامية في الأردن وأمين صندوقه، وعضو جمعية العروة الوثقى وأمين سرّها 1970–2008.

[47] حول نشأة حركة فتح في الأردن انظر مثلاً: محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون**، ص 245–249.

[48] انظر: المرجع نفسه، ص 249–254.

[49] يزيد صايغ، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، ص 151.

[50] انظر: سليم الزعنون، **السيرة والمسيرة: مذكرات سليم الزعنون أبو الأديب** (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2013)، ص 97.

[51] سعود المولى، **من فتح إلى حماس: البدايات الإخوانية والنهايات الوطنية** (جديدة المتن، لبنان: دار سائر المشرق، 2018)، ص 108–109. صار عاشور لاحقاً معتمد فتح في إقليم لبنان سنة 1969، ونائباً لمفوض التعبئة والتنظيم سنة 1972، وتولى منصب أمين سر المجلس الثوري لحركة فتح في الفترة 1989–2009، توفي في 2016/3/22.

[52] خليل الوزير، "حركة فتح: البدايات،" ص 63–64.

[53] أبو جهاد ويوسف عميرة، وعادل عبد الكريم الذي أشار يزيد صايغ إلى خلفيته الإخوانية، انظر: يزيد صايغ، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، ص 151.

[54] انظر: محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون**، ص 311–317.

[55] عبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**، ص 77–96؛ ومقابلتان مع: عبد الله أبو عزة، وسليمان حمد.

[56] عبد الرحمن بارود، مقابلة مع المؤلف، جدة، السعودية، 1998/9/14. انتظم عبد الرحمن بارود في جماعة الإخوان المسلمين في مطلع الخمسينيات، من مؤسسي تنظيم الإخوان الفلسطينيين، وكان نائباً للمراقب العام هاني بسيسو، من رموز الإخوان في السعودية، ومن مؤسسي حركة حماس ورموزها.

[57] حول الإخوان المسلمين في قطاع غزة، انظر الفصل الثاني من كتاب: محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون**، ص 41–99.

[58] المرجع نفسه، ص 57–64.

[59] مقابلة مع خيري الأغا؛ وعبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**، ص 94–96؛ وإسماعيل الخالدي، **60 عاماً في جماعة الإخوان المسلمين** (غزة: مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني، 2010)، ص 68. انظر مناقشة الروايات حول تاريخ انعقاد هذ المجلس، في: محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون**، ص 109–111.

[60] محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون**، ص 115–116.

[61] مقابلة مع سليمان حمد؛ وانظر: عبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**، ص 225.

[62] مقابلة مع سليمان حمد.

[63] السياق العام للنص مأخوذ أساساً من مقابلة للمؤلف مع سليمان حمد، غير أن المعلومات نفسها أو جزء منها تكرر في روايات عدد من الإخوان مثل خيري الأغا. وكذلك: يحيى شقره، مقابلة مع المؤلف، عمّان، الأردن، 1998/8/24. برز يحيى شقره في قيادة الإخوان الفلسطينيين (ثم بلاد الشام) بالكويت منذ أواخر السبعينيات وحتى 1990، وكان نائباً للرئيس في الفترة 1986–1989، شارك في تأسيس جهاز فلسطين، وفي تأسيس حماس، وأصبح أمين سر المكتب التنفيذي للجماعة.

[64] نص مقررات المؤتمر وثيقة محفوظة لدى المؤلف.

[65] انظر: محسن محمد صالح، **فلسطين: دراسات منهجية في القضية الفلسطينية** (كوالالمبور: فجر أولونج، 2003)، ص 408–409؛ وانظر أيضاً: مهيب النواتي، **حماس من الداخل** (غزة، فلسطين: دار الشروق، 2002)، ص 49–57 وص 67–72؛ وانظر حول خلفيات ظهور حماس:

Azzam Tamimi, *Hamas: Unwritten Chapters* (London: Hurst & Co Publishers Ltd., 2006), pp. 10–51.

[66] بلال محمد (محرر)، **إلى المواجهة: ذكريات د. عدنان مسودي عن الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وتأسيس حماس** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2013)، ص 97–98. رمز عدنان مسودي إلى محمود مصلح، وفضل صالح، في نص الكتاب بـ م.م، وف.ص، لدواعٍ أمنية في ذلك الوقت.

[67] انظر: غسان دوعر، **قواعد الشيوخ**، ص 34–37.

[68] انظر: المرجع نفسه، ص 42–47؛ وعبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**، ص 127–144.

[69] غسان دوعر، **قواعد الشيوخ**، ص 53–55.

[70] مقابلتان مع: عبد الله أبو عزة، وسليمان حمد؛ وعبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**، ص 129–133.

[71] مقابلة مع عبد العزيز علي؛ وانظر: غسان دوعر، **قواعد الشيوخ**، ص 54–55، وعبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**، ص 127–144.

[72] مقابلة مع عبد العزيز علي.

[73] انظر: عبد الله عزام، **حماس: حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين: الجذور التاريخية والميثاق** (بيشاور، باكستان: مكتب خدمات المجاهدين، 1989)؛ وغسان دوعر، **قواعد الشيوخ**، ص 91–97؛ ومحمد الحسن، **موقف الإسلاميين من قضية فلسطين** (قطر: مكتبة الفتح ومكتبة الغزالي، 1995)، ص 139.

[74] انظر: عبد الله عزام، **حماس: حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين: الجذور التاريخية والميثاق**، ص 73–74؛ وانظر أيضاً: غسان دوعر، **قواعد الشيوخ**، ص 100–102.

[75] مقابلة مع عبد العزيز علي.

[76] عبد الله عزام، **حماس: حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين: الجذور التاريخية والميثاق**، ص 76.

[77] انظر: زياد محمود علي، **عداء اليهود للحركة الإسلامية** (عمّان: دار الفرقان، 1982)، ص 100–114؛ وفايز سارة، "الحركة الإسلامية في فلسطين: وحدة الأيديولوجيا وانقسام السياسة،" مجلة **المستقبل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 124، حزيران/ يونيو 1989، ص 55.

[78] خالد مشعل، عدة مقابلات مع المؤلف، أبرزها في عمّان، الأردن، 1998/8/28، والدوحة، 2016/12/15.

[79] مقابلة مع خالد مشعل.

[80] مقابلة مع خالد مشعل.

[81] حول العمل العسكري والأمني في قطاع غزة قبل إطلاق حماس، انظر: نهاد الشيخ خليل، **حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة 1967–1987** (غزة: مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني، 2011)، ص 348–364؛ ورجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987–1994" (رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، غزة، فلسطين، 2010)، ص 32–47؛ وربعي المدهون، "الحركة الإسلامية في فلسطين 1928–1987،" في مجلة **شؤون فلسطينية**، مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، رام الله، عدد 187، تشرين الأول/ أكتوبر 1988، ص 27. وحول المعلومة المتعلقة بقيام الإخوان المعنيون بالعمل لفلسطين في الكويت بالدعم المالي، انظر: مقابلة مع خالد مشعل.

[82] انظر: رجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987-1994"، ص 40.

[83] انظر: نهاد الشيخ خليل، **حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة**، ص 354؛ ورجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987-1994"، ص 77-78.

[84] رجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987-1994"، ص 46-47.

[85] نهاد الشيخ خليل، **حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة**، ص 356-357؛ ورجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987-1994"، ص 43-45.

[86] انظر: مقابلة مع الدكتور فتحي الشقاقي، مجلة **الوسط**، لندن، 1995/11/6.

[87] المرجع نفسه.

[88] انظر: حمد سعيد الموعد، "المصادر الفكرية لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين،" جريدة **الحياة**، لندن، 1995/1/27.

[89] **الوسط**، 1995/1/30.

[90] **الوسط**، 1995/11/6.

[91] المرجع نفسه؛ وانظر أيضاً: جريدة **الأسواق**، عمّان، الأردن، 1995/10/30.

[92] **الوسط**، 1995/1/30.

[93] بلال محمد، إلى المواجهة: **ذكريات د. عدنان مسودي عن الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وتأسيس حماس**، ص 97-98.

[94] انظر: غسان حمدان، **الانتفاضة المباركة: وقائع وأبعاد** (الكويت: دار الفلاح، 1989)، ص 36-38.

[95] انظر نصّ البيان في: **وثائق حركة المقاومة الإسلامية**، سلسلة بيانات الحركة، رقم 1، إعداد المكتب الإعلامي لحماس (د.م: المكتب الإعلامي لحماس، د.ت)، ص 17-18.

[96] بلال محمد، **إلى المواجهة: ذكريات د. عدنان مسودي عن الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وتأسيس حماس**، ص 99.

[97] المرجع نفسه، ص 101.

[98] **ميثاق حركة المقاومة الإسلامية (حماس)**، آب/ أغسطس 1988، المادة 1 و2.

[99] **ميثاق حماس**، المادة 9.

[100] **ميثاق حماس**، المادة 11، و13-15.

[101] **ميثاق حماس**، المادة 16.

[102] **ميثاق حماس**، المادة 23، و25-27.

[103] **ميثاق حماس**، المادة 31.

[104] وثيقة المبادئ والسياسات العامة لحركة حماس، موقع الجزيرة.نت، 2017/5/1، انظر: https://www.aljazeera.net

[105] المرجع نفسه.



[106] حول عمليات حماس في الفترة 1989–1993، انظر: غسان دوعر، **موعد مع الشاباك: دراسة في النشاط العسكري لحركة حماس وكتائب عز الدين القسام خلال عام 1993** (لندن: فلسطين المسلمة، 1995)؛ وغسان دوعر، **عماد عقل** (عمّان: فلسطين المسلمة، 1995)؛ وغسان دوعر، **حرب الأيام السبعة: أسود حماس** (عمّان: فلسطين المسلمة، 1993)؛ ومهيب النواتي، **حماس من الداخل**، ص 71–90.

[107] صحيفة **صوت الشعب**، عمّان، 1993/12/8. ذكرت وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) أن معطيات مؤسسة رعاية أسر الشهداء والأسرى تشير إلى استشهاد 1,550 فلسطينياً، وأنه تمّ اعتقال 100 ألف فلسطيني خلال الانتفاضة، انظر: الانتفاضة حقائق ومعطيات، موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني – وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية (وفا)، في: https://info.wafa.ps/ar_page.aspx?id=3479؛ و يوم الجريح الفلسطيني، مركز المعلومات الوطني الفلسطيني – وفا، في:
https://info.wafa.ps/ar_page.aspx?id=fCJqTua27460929309afCJqTu

[108] انظر: موسى الكيلاني، "الرقم الأصعب في المعادلة،" جريدة **الدستور**، عمّان، الأردن، 1995/2/1.

[109] انظر: نهاد الشيخ خليل، **حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة**، ص 348–355؛ ورجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987–1994"، ص 46.

[110] انظر: شاكر الجوهري، **د. موسى أبو مرزوق: مشوار حياة... ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2019)، ص 143؛ ورجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987–1994"، ص 83.

[111] انظر: رجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987–1994"، ص 100.

[112] موسى أبو مرزوق، رسالة إلى المؤلف، 2022/12/11.

[113] رجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987–1994"، ص 87.

[114] فَرِح حامد، "العمل العسكري لكتائب الشهيد عز الدين القسام في وسط الضفة الغربية (1992–2006م)" (رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، غزة، فلسطين، 2020)، ص 26.

[115] انظر: رجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987–1994"، ص 88–89.

[116] انظر: فَرِح حامد، "العمل العسكري لكتائب الشهيد عز الدين القسام في وسط الضفة الغربية (1992–2006م)"، ص 33؛ ورجب حسن البابا، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987–1994"، ص 88.

[117] فَرِح حامد، "العمل العسكري لكتائب الشهيد عز الدين القسام في وسط الضفة الغربية (1992–2006م)"، ص 29–30.

[118] المرجع نفسه، ص 34–35.

[119] المرجع نفسه، ص 35–43؛ وانظر أيضاً: شاكر الجوهري، **د. موسى أبو مرزوق: مشوار حياة**، ص 144.

[120] انظر: غسان دوعر، **أسود حماس**، ص 47، وقد غطى الإعلام بوسائله المرئية والمسموعة والمقروءة تفاصيل الإبعاد وأحوال المبعدين وعودتهم منذ إبعادهم وطوال سنة 1993. انظر مثلاً: أعداد مجلة **فلسطين المسلمة**، لندن، التي غطت عملية الإبعاد وأخبار المبعدين بالتفصيل طوال سنة 1993.

[121] انظر: غسان دوعر، **موعد مع الشاباك**.

[122] المرجع نفسه؛ وانظر أيضاً حول حركة الجهاد الإسلامي: زياد أبو عمرو، **الحركة الإسلامية في الضفة وقطاع غزة** (عكا، فلسطين المحتلة: دار الأسوار، 1989)، ص 111-148.

[123] العمليات الجهادية، موقع سرايا القدس، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، انظر: https://saraya.ps/

[124] جريدة **الرأي**، عمّان، الأردن، 1995/8/25.

[125] داود سليمان، **السلطة الوطنية الفلسطينية في عام 1994-1995** (عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1995)، ص 75-83، و135؛ وانظر: تقرير منظمة العفو الدولية، محاكمة منتصف الليل: المحاكمات السرية والفورية والجائرة في غزة، حزيران/ يونيو 1995، رقم الوثيقة MDE 15/15/95.

[126] انظر: **فلسطين المسلمة**، تشرين الثاني/ نوفمبر، وكانون الأول/ ديسمبر 1994، وكانون الثاني/ يناير 1995.

[127] انظر: جريدة **الشرق الأوسط**، لندن، 1995/6/27؛ و**الرأي**، 1995/7/2؛ و**فلسطين المسلمة**، آب/ أغسطس 1995؛ ومجلة **المجتمع**، الكويت، 1996/6/29.

[128] انظر: **الرأي**، 1996/1/7، والأعداد الصادرة في 2/26-1996/3/5؛ و**الحياة**، 1996/3/9؛ و**فلسطين المسلمة**، نيسان/ أبريل 1996.

[129] **فلسطين المسلمة**، نيسان/ أبريل 1994.

[130] انظر: **الرأي**، 23-1995/1/25.

[131] **الوسط**، 1995/1/30.

[132] **الوسط**، 1996/4/1.

[133] حول تحرير جنوب لبنان، انظر مثلاً: رندة حيدر، إسرائيل.. ما بعد الانسحاب من جنوب لبنان، الجزيرة.نت، 2004/10/3.

[134] يمكن مراجعة التقارير المنشورة في الإنترنت في أشهر تشرين الأول/ أكتوبر وكانون الأول/ ديسمبر 2000 في موقع المركز الفلسطيني للإعلام وموقع إسلام أون لاين، لقراءة العديد من النماذج والتقارير.

[135] موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، 2005/2/9، انظر: http://www.pnic.gov.ps/arabic/quds/arabic/viol/quds_viol_12-2005.html

[136] تقرير وزارة شؤون الأسرى والمحررين لعام 2005، مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، انظر: www.pnic.gov.ps/arabic/social/prisoners/2005.html

[137] انظر: "القسام حقائق وأرقام،" مجلة **قساميون**، وحدة الإعلام المقاوم - كتائب الشهيد عز الدين القسام، العدد الخاص 5، كانون الأول/ ديسمبر 2007.

[138] موقع الجيش الإسرائيلي، انظر: http://www1.idf.il/SIP_STORAGE/DOVER/files/9/21829.doc

[139] موقع الجيش الإسرائيلي، انظر: http://www1.idf.il/SIP_STORAGE/DOVER/files/6/31646.doc

[140] العمليات الجهادية، موقع سرايا القدس، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

[141] نشرت التقرير جريدة **معاريف** ونشرت ترجمته **السفير**، 2005/7/15.

[142] موقع دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية، انظر: www.cbs.gov.il؛ وانظر: نشرة بانوراما، وكالة قدس برس إنترناشيونال للأنباء، 2003/1/2.

[143] المكتب الإعلامي، موقع كتائب الشهيد عز الدين القسام، 2005/8/16، في: http://www.alqassam.ps/ensihab/ehsaeiat/ehsaeiat4.htm؛ وانظر أيضاً: **فلسطين المسلمة**، 2006/3/1، في: http://www.fm-m.com/2006/Mar2006/story15.htm

[144] للمزيد انظر: وكالة شهاب للأنباء، 2018/1/27، انظر: https://shehabnews.com؛ وجريدة **الشرق الأوسط**، لندن، 2018/1/28؛ وموقع عرب 48، 2018/9/2؛ وموقع مكان – هيئة البث الإسرائيلي، 2018/12/17. كما يمكن مشاهدة فيديو لعباس عن التنسيق الأمني على موقع فيسبوك، انظر: https://www.facebook.com/ShehabAgency.MainPage/videos/293870234669332
وانظر أيضاً: site of Ynetnews, 2/9/2018.

[145] *The Jerusalem Post* newspaper, 6/11/2018, https://www.jpost.com/Arab–Israeli–Conflict/Shin–Bet–head–We–thwarted–480–terror–attacks–in–past–year–571165

[146] قدس برس، 2018/5/3.

[147] انظر الفصول المتعلقة بالمقاومة الفلسطينية في سلسلة **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني** للفترة 2006–2021، التي صدرت عن مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، في: https://www.alzaytouna.net/%d8%a7%d9%84%d8%aa%d9%82%d8%b1%d9%8a%d8%b1-%d8%a7%d9%84%d8%a7%d8%b3%d8%aa%d8%b1%d8%a7%d8%aa%d9%8a%d8%ac%d9%8a/#.Y5rb3HZBwdU

[148] انظر: محسن محمد صالح (محرر)، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2016–2017** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2018)، ص 216؛ ومحسن محمد صالح (محرر)، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2018–2019** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2020)، ص 207.

[149] انظر حول العدوان الصهيوني على لبنان 2006، محسن محمد صالح (محرر)، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2006** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2007)، ص 113–136.

[150] حول هذه الحملات، انظر: محسن محمد صالح، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2006**، ص 91؛ ومحسن محمد صالح (محرر)، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009)، ص 100.

[151] حول العدوان على غزة، انظر: محسن محمد صالح، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008**، ص 100–102؛ ومحسن محمد صالح (محرر)، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2009** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2010)، ص 105؛ وعبد الحميد الكيالي (محرر)، **دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009).

[152] حول معركة حجارة السجيل، انظر: محسن محمد صالح (محرر)، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2012–2013** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014)، ص 100.

[153] حول معركة العصف المأكول، انظر: محسن محمد صالح (محرر)، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2014–2015** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارت، 2016)، ص 116–117.

[154] حول انتفاضة القدس 2015–2017، انظر: محسن محمد صالح، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2016–2017**، ص 209–211.

[155] حول هبَّة باب الأسباط، انظر: المرجع نفسه، ص 211–214.

[156] حول هبَّة باب الرحمة، انظر: محسن محمد صالح، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2018–2019**، ص 136–138.

[157] بالفيديو.. 3 أعوام على معركة "صيحة الفجر" واستشهاد القائد بهاء أبو العطا، موقع سرايا القدس، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، 2022/11/12؛ وموقع وزارة الصحة الفلسطينية، 2019/11/14، انظر:

https://www.moh.gov.ps/portal/phic-moh-gaza-infograf-of-israelian-occupation-aggression-against-gaza-strip-the-3th-day-cumulative/

[158] حول مسيرات العودة وكسر الحصار، انظر: محسن محمد صالح، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2018–2019**، ص 199–200.

[159] حول معركة سيف القدس 2021، انظر: محسن محمد صالح وباسم جلال القاسم (محرران)، **معركة "سيف القدس" وتداعياتها فلسطينياً وإسرائيلياً وعربياً ودولياً 10–21 أيار/ مايو 2021**، ملف معلومات 28 (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2021).

[160] كيف عمّقت معركة "وحدة الساحات" قلق الاحتلال؟، موقع قناة الميادين، 2022/8/8، انظر: https://www.almayadeen.net؛ وسرايا القدس تعلن "استشهاد" 12 من عناصرها بغزة خلال التصعيد الأخير، موقع وكالة الأناضول، 2022/8/8، انظر: https://www.aa.com.tr/ar؛ وارتفاع عدد شهداء العدوان الإسرائيلي الأخير على قطاع غزة، موقع قناة الميادين، 2022/8/13.

خلاصات
في الطريق إلى القدس[*]

1. الإسلام منهج حياة وصانع حضارة: الإسلام دين شامل، ونظام متكامل للحياة، وبه عزٌّ هذه الأمة وكرامتها وتقدُّمها، وبه فلاح البشرية في الدنيا والآخرة، ويتميز بـ"المثالية الواقعية" أي أنه أفضل ما يصلح للبشر، وهو صالح لكل زمان ومكان. وعلى أسسه وقواعده قامت خير أُمّةٍ أخرجت للناس: أمّةُ التوحيد، وأمّةُ الرسالة الخاتمة، وأمّةُ الوسطية والاعتدال، والأمة الشاهدة على الناس؛ ونشأت حضارة إسلامية انتشرت في أرجاء الأرض، واستوعبت الناس على اختلاف قومياتهم وأجناسهم وألوانهم وطبقاتهم وطوائفهم، وشكّلت محضناً للتعايش والتسامح والإبداع الإنساني. وعلى أسسه وقواعده تنهض الأمة من ضعفها وتخلفها وتمزقها، وتستعيد مجدها، وتهزم أعداءها.

2. شرعية ميراث الأنبياء: هذا الدّين العظيم هو دين التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء والرسل، ويؤمن المسلمون أنهم الورثة الحقيقيون الجديرون بميراث داود وسليمان وأنبياء بني إسرائيل وصالحيهم، ممن حكموا فلسطين ردحاً من الزمن تحت راية التوحيد، وأن شرعية حكمها تحولّت إلى المسلمين لأنهم رافعو راية التوحيد من بعد هؤلاء الرسل، والسائرون على درب الأنبياء.

3. المكان والمكانة والتمكين: إن هذه الثلاثية هي ثلاثية تميز فلسطين ورسالتها الحضارية ودورها عبر التاريخ. فالمكان أو الموقع بما فيه من جاذبية للعيش ومن مواصفات استراتيجية في النقطة الفاصلة الواصلة بين آسيا وإفريقيا وفي قلب العالم العربي، وفي قلب العالم الإسلامي؛ والمكانة الكبرى كأرض مقدسة مباركة...؛ ودورها عبر التاريخ في أنها ارتبطت بالتمكين لدين الله، باعتبارها مركزاً للصراع بين الحق

---

[*] نضع هذه الخلاصات كخلاصات عامة لهذا الكتاب. ولأننا مشغولون على مدى عقود بالتعريف بفلسطين وقضيتها وعوامل تحريرها، فثمة تداخلات وتقاطعات مع دراسات وكتابات نشرناها سابقاً، حيث تمّ الاستفادة من بعض نصوصها التي تتطابق مع خلاصات هذا الكتاب، مثل كُتيِّب **حقائق وثوابت في القضية الفلسطينية**، وكتيّب **أوهام في العمل الفلسطيني**.

والباطل، وحيث جعلها الله سبحانه مقر الطائفة المنصورة الثابتة على الحق...؛ كلّ ذلك جعلها محطّ أنظار العالم، ومقبرة للغزاة الظالمين عبر التاريخ...، وكذلك سيكون فيها شرف القضاء على علو بني إسرائيل وإفسادهم (كما في فواتح سورة الإسراء)، ومقتل المسيح الدجال، ونهاية يأجوج ومأجوج.

4. تخلّف الأمة وتراجعها: عانت الأمة الإسلامية ونُظمها السياسية من التّخلف والتّراجع الحضاري، ومن مظاهر الضعف والتفرّق، ومن الجمود الفكري والفقهي وتراجع القدرة على الإبداع والتجديد، ومن التنازع الداخلي، والركون إلى الدنيا، وفشلت في الارتقاء بنظم الدولة القادرة على مواكبة التطور، وبناء منظومات فعّالة (نابعة من ديننا وتراثنا) قادرة على مواجهة التحديات المعاصرة، ومنافسة القوى العالمية الصاعدة؛ مما جعل عالمنا الإسلامي بما فيه فلسطين منطقة مكشوفة، يسهل على القوى الاستعمارية وأعداء الأمة استباحتها واحتلالها وتمزيقها، ونشر الأيديولوجيات الغربية في أوساطها.

5. طبيعة المشروع الصهيوني: إن المشروع الصهيوني هو مشروع عدواني استيطاني إحلالي توسّعي، وهو ليس معادٍ فقط للشعب الفلسطيني وإنما للأمة، وخصوصاً البيئة العربية الإسلامية المحيطة به، والتي انغرس في قلبها؛ وهو متحالف مع القوى الاستعمارية الغربية في عملية استخدام وظيفي متبادل. وإن فكرة إنشاء الكيان اليهودي الصهيوني ليقوم بدور "الدولة الحاجزة" والقلعة المتقدمة للاستعمار، والتي دعمها الاستعمار الغربي، وخصوصاً بريطانيا، تمثل ذروة الخطر الاستعماري الغربي – الصهيوني في قلب العالم الإسلامي. إذ تهدف إلى شطر جناحي العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا إلى شطرين منفصلين. وهي بذلك تسعى إلى إضعافه ومنع وحدته، وإبقائه مفككاً عاجزاً عن النهضة، قابعاً في دائرة التبعية، منتجاً للمواد الأولية وسوقاً استهلاكيةً للمنتجات الغربية. كما تهدف إلى منع ظهور قوة إسلامية كبرى، تحل مكان الدولة العثمانية التي كانت في طور الانهيار. إن معادلة بقاء الكيان اليهودي الصهيوني واستقراره ونموه، في وسطٍ معادٍ، مرتبطةٌ بضمان ضعف ما حوله من أقطار المسلمين وتفككها وتخلفها. وكذلك فإن معادلة نهضة الأمة ووحدتها وقوتها مرتبطةٌ بالقضاء على المشروع الصهيوني الجاثم على قلبها.

6. تقسيم المنطقة وعزل فلسطين: أدت الهيمنة الاستعمارية، التي استفادت من حالة التخلف والانقسام وتطلع القوى المحلية إلى السلطة، إلى انتشار فكرة الدولة القطرية، وتسهيل تقسيم المنطقة إلى دول ودويلات. وكان من أخطر التقسيمات ما عُرف باتفاقية سايكس – بيكو وما تلاها من ترتيبات قسَّمت بلاد الشام والعراق؛ وهيأت بيئة أنسب لإنشاء الكيان اليهودي الصهيوني في فلسطين، من خلال الاستفراد بها ومحاولة عزلها عن محيطها العربي والإسلامي.

7. إسلامية مشروع التحرير: إذا كانت أرض فلسطين أرضاً إسلامية، وشعبها شعبٌ مسلم، وانتماؤها الحضاري والثقافي انتماء إسلامياً، وحاضنتها الشعبية مسلمة، وبيئتها الاستراتيجية مسلمة، فمن الطبيعي أن تكون هوية مشروع التحرير هوية إسلامية. وأولئك الذين يريدون إبعاد الإسلام عن مشروع التحرير يقعون في وهم كبير، لأنهم يكونون كمن يفصل الروح عن الجسد، وكمن ينزع عناصر الطاقة ومحركات العمل من القوى الفاعلة على الأرض.

وإذا كانت صفة "عربية" تنطبق أيضاً على ما سبق، فإن هذه الصفة تؤكد مقولتنا، فهي صفة ارتبطت بالإسلام فتحاً وانتشاراً ولغة وتعريباً وحضارة، والفاتحون "العرب" حملوا رسالة الإسلام وانتموا إليها، فاستظلت بظلها الشعوب والقوميات الأخرى، في انفتاح وتفاعل حضاري يستوعب الجميع في أمة واحدة تحت راية الإسلام العظيم. وكانت وما زالت هوية فلسطين العربية جزءاً طبيعياً منسجماً ومتناغماً مع هويتها الإسلامية الأوسع.

8. ضبط الثوابت والمسارات: أرض فلسطين أرض وقف إسلامي على جميع أجيال المسلمين في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم إلى يوم القيامة. ولا يجوز لأحد كائناً من كان أن يتنازل عن أي جزء منها مهما كان صغيراً؛ لأنها ليست للفلسطينيين أو العرب فحسب؛ بل هي ملك للمسلمين جميعاً... وعلى المسلمين في كل مكان أن يقدموا أموالهم ودماءهم لتحريرها، بعد أن أصبح ذلك من فروض العين.

وهوية فلسطين الإسلامية تضبط الثوابت، كما تضبط البوصلة والمسارات؛ وتضبط أسقف ومساحات العمل الوطني، ومجالات المناورة والبرامج المرحلية؛ فلا مجال للعبث بالحق الكامل في فلسطين الكاملة من نهرها إلى بحرها؛ ولا مجال للاعتراف للمحتلين الغاصبين بأي شرعية أو حقّ لهم على أي جزء من فلسطين.

9. القضية المركزية للأمة: عندما يتعلق الأمر بقضايا التَّحرر والصراع مع أعداء الأمة والاستعمار، فإن قضية فلسطين هي القضية المركزية للأمة الإسلامية؛ ليس فقط لمكانتها الدينية والاستراتيجية؛ وإنما أيضاً لأنّ المشروع الصهيوني مشروعٌ عالميٌّ عدوانيٌّ، يستهدف الأمة ونهضتها. وبالتالي، تكون فلسطين والقدس والأقصى القضية الجامعة للأمة، والموحدة لبوصلتها ضدّ عدوها المركزي المشترك، وتكون الرافعة لنهضة الأمة وقوتها، لأن تحرير فلسطين لا يتم دون ذلك؛ كما أنها الفاضحة الخافضة لمن يخذلها ويتخلى عنها.

10. القدس مؤشر قوة الأمة وضعفها: كانت القدس عبر التاريخ مؤشراً على قوة الأمة أو ضعفها. فعندما تكون الأمة قوية تكون القدس حرة عزيزة، وعندما تكون الأمة ضعيفة متخلفة ممزقة، تتعرض القدس للعدوان واحتلال الأعداء. ذلك أن القدس وفلسطين هي محطّ أنظار العالم دينياً واستراتيجياً. وتحرير القدس هو مؤشر لاستعادة الأمة عافيتها وقوّتها.

11. الإسلام هو الأقدر على حشد الجماهير: إن الإسلام هو الأقدر على حشد الجماهير وتعبئتها وتفجير طاقاتها، وتقديمها للتضحيات. وإن انسجام الفلسطيني (والعربي والمسلم) مع نفسه وعقيدته وثقافته وتراثه، مكوّنٌ أساس في استنهاض الهمم والتضحية بالروح والمال. فهو عندما يؤمن أن النصر من عند الله، وأن الله تكفل بالنصر لعباده الصادقين، وأن فلسطين بقدسيتها وبركتها وأقصاها ومسراها جزء من دينه، وأنه مؤتمن عليها باعتبارها وقفاً للأمة ولأجيال المسلمين، وأن صموده ومعاناته تتحول إلى أجر وحسنات، وأن انتصاره عز للأمة وكرامتها، وأن استشهاده يرفعه إلى الفردوس الأعلى... فعند ذلك لن تجد أيديولوجية لها من الطاقة والحيوية ما لهذا الإسلام العظيم من قدرة وتأثير.

12. رصيد التجربة التاريخية: أثبتت التجربة التاريخية أن تحرير فلسطين ارتبط بالإسلام، منذ الفتح العمري مروراً بالحروب الصليبية ومواجهة التتار إلى وقتنا المعاصر. لقد فشلت الأيديولوجيات المختلفة التي هيمنت على البيئة العربية والفلسطينية في تاريخنا الحديث، سواء كانت يسارية أم قومية أم قُطرية، في أن تقود مشروعاً حقيقياً للتحرير؛ وما زلنا ندفع أثمان مُرَّة للهيمنة الرسمية لهذه الأيديولوجيات.

وبالرغم من أنَّ الاتجاه الإسلامي حُورب بشراسة في المنطقة، وحُرم من وسائل النهضة والتمكين، خصوصاً في البيئة الاستراتيجية المحيطة بفلسطين، فإن الإسلام ظلّ المُحرِّض الرئيسي (أو محرضاً رئيسياً على الأقل) في ثورات الشعب الفلسطيني ومقاومته وانتفاضاته طوال المئة عام الماضية. ومنذ أكثر من عقدين، فإن المقاومة الإسلامية الفلسطينية تمثل العمود الفقري لقوى المقاومة المسلحة في فلسطين.

13. نهوض يسبقه ضعف وانكسار: إن مشاريع الوحدة والتحرير والنهضة سبقتها عبر تاريخنا حالات من التمزّق والتّفتُّت والضعف وتسلط الأعداء، إذ إن هذه الحالات كانت دافعاً جوهرياً للمفكرين والعلماء والقوى الحية في الأمة لإطلاق هذه المشاريع وتحريك عجلة التغيير والإبداع. والحالة البائسة التي عاشتها وتعيشها الأمة أدت إلى ظهور العديد من مشاريع النهضة على مدى القرنين الماضيين، وستستمر حالة التدافع إلى أن تكتمل عناصر النجاح والتمكين والنهوض لمشروع يستند إلى الإسلام ويفجر طاقات الأمة ويوحدها ويهزم أعداءها.

14. نحو إصلاحٍ جذري: تعرّضت الأمة طوال تاريخها الحديث والمعاصر للكثير من الضربات والنكبات واستنزفت طاقاتها ومواردها البشرية والمادية، وهُجّرت كفاءاتها وأدمغتها، وقادت دولَها أنظمةٌ فاسدة مستبدة تدور في فلك قوى كبرى معادية للأمة وإرادتها. وكان من آخر مظاهر معاناتها ما حدث من انتكاسة لما يعرف بـ"الربيع العربي" ومن اضطرابات ومآسٍ وكوارث لعدد من شعوب المنطقة.

غير أن هذه النكسات في المقابل، عزّزت التيارات التي تميل إلى التغيير الجذري، وليس إلى مجرد الإصلاح تحت سقف الأنظمة، وكشفت سوءات وعورات الأنظمة العربية والإقليمية، وفضحت دعاوى الديموقراطية والحرية لدى القوى الدولية، وأظهرت استعدادها للتحالف مع الأنظمة الفاسدة في سبيل منع صعود حالة نهضوية إسلامية فعّالة، كما كشفت فشل الأنظمة في برامجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنهضوية. وقد صاحبت الحالة المأساوية للأمة اتساعُ ظاهرة "الإخشوشان" بظهور مئات الآلاف أو الملايين الذين واجهوا الظالمين والطغاة بوسائل ناعمة وخشنة؛ وهو ما يشكل رصيداً استراتيجياً في مشاريع الاستنهاض والمقاومة والتحرير.

15. نحو بديل إسلامي حضاري مستقل: إن المنظومة التي يستند إليها المشروع النهضوي، يجب أن تشكّل بديلاً إسلامياً حضارياً مستقلاً يستند إلى الإسلام عقيدة وسلوكاً وقيماً ومنهج حياة، ويقدّم رؤى وحلولاً شاملة، وليس مجرد حلولٍ جزئية أو حالات تكيُّف في بيئات حضارية مختلفة أو تحت أسقفها، وليس برامج محكومة بشروط وأدوات وسلطات الآخرين، وتحديداً الحضارة الغربية.

إن الأمة المسلمة قادرة (ما دامت متمسكة بكتاب ربها وسنة نبيها) على تحقيق "الشهود الحضاري" وريادة البشرية. وهي الأقدر على صناعة بيئة تنسجم فيها المحركات الإنسانية الكبرى الساعية لتحقيق العدالة والحق والحرية، وعلى تحقيق التوازن بين الإنسان والخالق (الله سبحانه) والكون. ولذلك، فإن استرداد الأمة لمكانتها ممكن وواجب وضرورة. وإن أمام القوى الحية في الأمة مهام كبرى في إنجاز النموذج الحضاري المنشود، الذي لا يعالج بعض إفرازات العلمانية هنا أو هناك، وإنما يقدم حلولاً وبدائل للنهوض الحضاري وريادة البشرية، مستفيداً من أفضل ما توصلت إليه الحضارة الإنسانية.

16. الرؤية الإسلامية لتحرير فلسطين: إن أبرز معالم الرؤية الإسلامية لتحرير فلسطين تتمثل في:

أ. تبني الإسلام عقيدة وسلوكاً ومنهج حياة، والحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى.

ب. لا بدّ من قيادة مؤمنة كفؤة صادقة، تكون مؤهلة لمواجهة المشروع الصهيوني وهزيمته.

ج. توسيع دائرة الصراع مع العدو الصهيوني ليكون (بالإضافة إلى كونه مسؤولية كل فلسطيني وعربي) مسؤولية كل مسلم، بل وكل إنسان يدافع عن الحق والعدل والحرية.

د. دعم شعب فلسطين ومساندته وتأهيله بكافة الوسائل، باعتبار أنه خطّ الدفاع الأول عن الأمة الإسلامية، حتى يَثْبُتَ على أرضه، ويستمر في صموده وجهاده.

هـ. السعي لتحقيق نهضة حضارية تكون مدخلاً للتغيير والارتقاء الإيجابي الشامل في مجتمعاتنا المسلمة سياسياً واقتصادياً وعلمياً وعسكرياً، ومدخلاً للوحدة خصوصاً في البيئة الاستراتيجية المحيطة بفلسطين؛ حتى يكون المسلمون قادرين ذاتياً على

حَمْل تكاليف الجهاد وأعباء التحرير، وعلى تحقيق شروط التمكين والاستخلاف في الأرض وريادة الإنسانية.

17. خطوط عمل متوازية: إن الجهاد لتحرير فلسطين، والعمل للنهوض الحضاري للأمة وإقامة دولة الإسلام هما عملان متوازيان متكاملان، يمكن أن يسيرا جنباً إلى جنب، ويكون أحدهما رافعة للآخر، دون أن ينتظر أحدهما الآخر أو يُعطّله. وكما أن النهضة والوحدة طريق للتحرير، فإن الجهاد ومواجهة العدو الصهيوني وإضعافه ومشاغلته وهزيمته هو طريق للنهضة والوحدة.

18. تحقيق التفوّق الاستراتيجي: إن دور شعب فلسطين هو دور حيويٌّ أساسيٌّ، وتقع على عاتقه مسؤولية كبرى، فأبناء فلسطين هم أصحاب الثغر وأهل الرباط، والأثقل في المسؤولية وأداء الواجب، وهم رأس الرمح وهم الصف الأول. غير أن فلسطين لا تُحرّر من داخلها، ولا يستطيع الشعب الفلسطيني وحده أن يقوم بتحرير فلسطين كلّها. وإنّ إنجاز مشروع التحرير الكامل ومواجهة مشروعٍ صهيونيٍ عالمي ترعاه قوى عظمى، لا يكون إلاّ من خلال مشروع إسلامي نهضوي، خصوصاً في البيئة الاستراتيجية المحيطة بفلسطين، يُحقق تفوقاً استراتيجياً يُمكّنه من "تتبير" المشروع اليهودي الصهيوني.

19. عناصر لنجاح مشروع النهضة والتحرير: إنّ وضوح الرؤية والرسالة، والقيادة المؤمنة الكفؤة، والنواة الصلبة من "الرواحل" والكفاءات القادرة على الانتقال من تفعيل الجماهير إلى قيادة الدولة ومشروع النهضة، والمنظومة المؤسسية الشورية الفعالة، والبرنامج العملي الشامل الواقعي الطّموح، والإرادة القوية المصحوبة بالاستعداد لدفع الأثمان والاستحقاقات؛ هي عناصر ستة أساسية في بنية أي مشروع نهضوي وأي مشروع تحرير.

20. العلاقة الجوهرية بين النهضة والتحرير: إنه لا تغيير في واقعنا المتخلّف إلا من خلال مشروع إسلامي نهضوي،

ولا مشروع نهضوي إلاّ إذا كان مستقلاً شاملاً، ومستكملاً لشروط النجاح الذاتية والموضوعية،

ولا مشروع نهضوي دون "التمكين" له على الأرض،

ولا مشروع نهضوي دون مشروع وحدوي،

ولا مجال للتمكين والوحدة دون مواجهة النفوذ والتدخل الخارجي،

كما لا مجال للتمكين والوحدة دون مواجهة المشروع الصهيوني؛

وبالتالي فمشروع النهوض والوحدة والتمكين مرتبط جوهرياً بمشروع التحرير.

21. معركة أجيال: معركة تحرير فلسطين معركة مستمرة لا تتوقف إلا بتحريرها كاملة، واندحار المشروع الصهيوني، وهي معركة تحملها الأجيال، جيلاً بعد جيل حتى يأذن الله بالنصر والتحرير.

ولا ينبغي أن تكون الهزائم والانتكاسات والإحباطات، وخذلان القريب والبعيد وفساد الأنظمة وحكامها أسباباً للتنازل عن أي جزءٍ من الأرض المباركة؛ بل يجب أن تُشكل دوافع ومحفزات للمخلصين لعمل المراجعات، واستخلاص العبر، ومضاعفة الجهود والإبداع، واستكمال الأسباب.

22. لا تعارض مع الأبعاد الوطنية والعربية: لا تتناقض الرؤية الإسلامية للتحرير مع الأبعاد الوطنية والقومية؛ فالمسلمون أشد إخلاصاً لأوطانهم؛ فهم مع وطنية الحب والشوق والحنين للأرض، ومع وطنية العزة والكرامة والتحرير، ومع وطنية المجتمع القائم على التعاون والتكافل والتراحم؛ وفوق ذلك، فإن الحفاظ على الأرض وبذل الدماء والأموال في سبيل تحريرها من الأعداء جزء من عقيدتهم ودينهم.

ولا ينبغي أن يكون ثمة تعارض بين الدائرة العربية والدائرة الإسلامية، فالعرب هم مادة الإسلام، وهم في واقعهم المعاصر وبأغلبيتهم الساحقة مسلمون (بنحو 95%). وأكثر ما يجمع العرب هو دينهم، ولغتهم التي حفظها القرآن والتراث الإسلامي. ومشاريع الوحدة العربية يمكن أن ينظر لها بإيجابية باعتبارها خطوة باتجاه الوحدة الإسلامية، ما دامت تعبّر عن إرادة الشعوب، ومنفتحة لا تقوم على العصبيات والعقليات الإقصائية، ولا على دكتاتورية الأقليات أو الانقلابات العسكرية. ولذلك، فإن دوائر العمل لفلسطين سواء كانت وطنية أم عربية أم إسلامية أم إنسانية هي دوائر متكاملة؛ وينبغي أن يتم تفعيل عناصرها الإيجابية في مشاريع النهضة والتحرير.

23. مشروع نهضوي مستوعب للأقليات والطوائف: إن المشروع الإسلامي ليس مشروعاً طائفياً ولا عنصرياً ولا انعزالياً. وهو لا يعني ظلماً أو تهميشاً للأقليات، ولا يعني إكراهاً في الدّين؛ بل هو مشروع حضاري نهضوي يتسم بالانفتاح والمرونة،

واستيعاب كافة الشرائح والقوى الساعية للإسهام في مشروع التحرير، والتي ستأخذ مواقعها بحسب إخلاصها وكفاءتها.

وما دام الإسلام هو الجامع الأساس للشعب الفلسطيني وللعرب وشعوب الأمة المسلمة، وهو القاسم المشترك الأكبر بين الجميع؛ فلا يجوز استبعاده لصالح أيديولوجيات لا تجمع أنصاف أو أرباع أو أعشار ما يجمعه الإسلام؟!

وباستخدام القياس ذاته، لماذا (وفق المنظور القومي) يتم تجاوز أبناء القوميات الأخرى في المنطقة العربية كالأكراد والأمازيغ والأفارقة والتركمان، وكلهم مسلمون (ولسانهم عربي)، ونسبتهم أعلى من نسبة أبناء الطوائف والأقليات الأخرى؟

كما لا ينبغي الاستغناء عن أكبر قوة دافعة ومحرضة ومُوحّدة للتحرير؛ لصالح أيديولوجيات فشلت أن تستخرج هذا المخزون الهائل من الطاقة والحيوية في الأمة على مدى السبعين عاماً الماضية؟

ثم إن مسيحيي فلسطين (منذ العهدة العُمرية) ومسيحيي الشرق، اندمجوا في الحضارة الإسلامية وشاركوا في بنائها، وعاشوا أجواء الحرية والتسامح على مدى التاريخ الإسلامي. وأسهموا بقوة في مواجهة الحركة الصهيونية بالكلمة والقلم والبندقية. وعملوا دونما حساسية تحت قيادة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وقاتلوا ضمن تشكيلات "الجهاد المقدّس". وكانوا وما يزالون جزءاً أساسياً من الحركة الوطنية الفلسطينية.

24. قتال الغاصبين المعتدين: إن المسلمين لا يقاتلون اليهود لمجرَّد كونهم يهوداً، فالأصل في علاقة المسلمين بأهل الكتاب أو أهل الذمة هو العدل والإحسان وإعطاء كافة الحريات والحقوق الدينية وحقوق المواطنة لهم في ظلّ الإسلام. إن المسلمين يقاتلون اليهود الصهاينة المعتدين، الذين اغتصبوا أرض فلسطين، وشردوا شعبها، وانتهكوا مقدساتها، وسيقاتل المسلمون أيّ فئة أو جماعة تحاول احتلال أرضهم، مهما كان دينها أو قوميتها.

25. طبيعة الحركات الجهادية: السير في كثير من الأحيان عكس التيار، والخروج عن النمط، وعدم التموضع والتكيف داخل المنظومات الرتيبة، أو تحت أسقف وحسابات الأنظمة، هو من طبيعة الحركات الجهادية الثورية التغييرية؛ ولا ينبغي الإحباط من

"قلة السالكين" وكثر "الغثاء" والمُدَجّنين. فالمهم هو حسن العلاقة بالله سبحانه وصحة المنهج، وحسن التوكل على الله سبحانه بعد بذل الأسباب.

26. شبكات أمان عابرة للأقطار: في طريق مواجهة المشروع الصهيوني وتحرير فلسطين، فإن على القوى المخلصة والفاعلة في المنطقة أن تُشكِّل شبكة أمان (شعبية ورسمية ما أمكن):

أ. شبكة أمان وطني عربي إسلامي بحيث تتساند في عملية التنمية والنهوض.

ب. شبكة أمان ضدّ الصراعات الطائفية والعرقية، وضدّ كل ما يمنع وحدتها وكل ما يحرف الأمة عن بوصلة صراعها مع أعدائها الحقيقيين.

ج. شبكة أمان ضد التدخل الخارجي، وضد القوى التي تسعى لإضعاف الأمة وشرذمتها.

وبذلك تستطيع الأمة أن توفر طاقتها للنهوض الحضاري وتحرير الأرض والمقدسات.

27. دَعوا الميدان يتكلّم: في الطريق لتحرير القدس وفلسطين، وبعد اتضاح الرؤية والمسار والمنهج، تَثبُتُ المصداقيةُ والجدية من خلال العمل على الأرض، والصبر والصمود، والبذل والتضحية، والمرابطة على الثغور، ودعم المجاهدين، والتنافس على النكاية في العدو، واحترام اجتهادات أصحاب الثغور الصادقين.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الوثائق:

1. **عن ثورة فلسطين سنة 1936: وصف وأخبار ووقائع ووثائق**، إعداد مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي بمصر. القاهرة: اللجنة الفلسطينية العربية، كانون الأول/ ديسمبر 1936.
2. **فتوى علماء المسلمين بتحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين**. الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، 1990.
3. **ملف وثائق فلسطين**، الجزء الأول: 1937–1949، إعداد وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات. القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، 1969.
4. منظمة العفو الدولية، محاكمة منتصف الليل: المحاكمات السرية والفورية والجائرة في غزة، حزيران/ يونيو 1995. رقم الوثيقة MDE 15/15/95.
5. **ميثاق حركة المقاومة الإسلامية "حماس"**، آب/ أغسطس 1988.
6. **وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني**، إعداد سمير أيوب. بيروت: دار الحداثة، 1984.
7. **وثائق حركة المقاومة الإسلامية**، سلسلة بيانات الحركة، رقم 1، إعداد المكتب الإعلامي لحماس. د.م: المكتب الإعلامي لحماس، د.ت.
8. **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918–1939: من أوراق أكرم زعيتر**، أعدتها للنشر بيان الحوت، ط 2. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1984.
9. **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية 1918–1939**، جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1968.

ثالثاً: المذكرات واليوميات:

1. أبو عزة، عبد الله، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**. الكويت: دار القلم، 1985.
2. البنا، حسن، **مذكرات الدعوة والداعية**، ط 5. بيروت – دمشق: المكتب الإسلامي، 1983.
3. زعيتر، أكرم، **الحركة الوطنية الفلسطينية 1935–1939: يوميات أكرم زعيتر**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1980.

4. السكاكيني، خليل، **كذا أنا يا دنيا**. د.م: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1982.
5. الشقيري، أحمد، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**. بيروت: دار النهار، 1969.
6. المارديني، زهير، **ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني**. د.م: دون ناشر، 1980.
7. **مذكرات السلطان عبد الحميد**، ترجمة حرب عبد الحميد. القاهرة: دار الأنصار، 1978.
8. مها كامل الشريف، محرر، صفحات مختارة من أوراق كامل الشريف (قامت السيدة مها كامل الشريف مشكورة بإهداء نسخة من هذه الأوراق للمؤلف، عمّان، الأردن، 2006).

رابعاً: المقابلات الشخصية:

1. عدة مقابلات مع خالد مشعل، أبرزها في عمّان، الأردن، 1998/8/28، والدوحة، 2016/12/15.
2. خيري الأغا، جدة، السعودية، 1998/9/16.
3. عدة مقابلات مع سليمان حمد، أبرزها في الكويت، 22–1999/11/27.
4. عبد الله أبو عزة، أبو ظبي، الإمارات، 1998/6/29.
5. عبد الرحمن بارود، جدة، السعودية، 1998/9/14.
6. عبد العزيز علي، الكويت، 1985/9/27.
7. فوزي جبر، الكويت، 1999/11/20.
8. كامل الشريف، عمّان، 1985/10/28، و2006/8/3.
9. محمد الخضري، جدة، السعودية، 13–1998/9/14.
10. محمد صيام، كوالالمبور، ماليزيا، 4–2000/6/5.
11. محمد عبد الهادي، صيدا، لبنان، 1998/9/2.
12. منير عجور، الكويت، 1999/11/24.
13. هاشم عزام، عمّان، الأردن، 1998/8/14.
14. يحيى شقره، عمّان، الأردن، 1998/8/24.
15. يوسف عميرة، الكويت، 1985/11/6.

خامساً: رسائل علمية:

1. البابا، رجب حسن، "جهود حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتفاضة الفلسطينية 1987–1994" (رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، غزة، فلسطين، 2010).
2. حامد، فَرِح، "العمل العسكري لكتائب الشهيد عز الدين القسام في وسط الضفة الغربية (1992–2006م)" (رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، غزة، فلسطين، 2020).

سادساً: الكتب:

1. ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني، **الكامل في التاريخ**. بيروت: دار صادر للطباعة – دار بيروت للطباعة والنشر، 1965.
2. ابن كثير، إسماعيل، **البداية والنهاية**. بيروت: مكتبة دار المعارف، 1983.
3. ابن كثير، إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1969.
4. أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1956.
5. أبو عمرو، زياد، **الحركة الإسلامية في الضفة وقطاع غزة**. عكا، فلسطين المحتلة: دار الأسوار، 1989.
6. أبو يصير، صالح مسعود، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**. بيروت: دار الفتح، 1970.
7. الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر. القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1970.
8. الأشقر، عمر سليمان، **العقيدة في الله**. الكويت: مكتبة الفلاح، 1984.
9. الأصفهاني، العماد، **الفتح القسي في الفتح القدسي**.
10. الألباني، محمد ناصر الدين، **تخريج أحاديث "فضائل الشام ودمشق" للربعي**. دمشق: المكتب الإسلامي، د.ت.
11. باركر، أرنست، **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني. بيروت: دار النهضة العربية، د.ت.
12. بدران، فاروق، وأبو محفوظ، سعود، "محطات في تاريخ الحركة الإسلامية في الأردن (الإخوان المسلمين) 1946—1996،" مقدمة إلى مؤتمر تاريخ الجماعة، عمّان، الأردن، 1996.
13. البلاذري، **فتوح البلدان**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1983.
14. بن شداد، بهاء الدين، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**. مصر: شركة طبع الكتاب العربية، 1317هـ.
15. البنا، حسن، **مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا**. القاهرة: دار الشهاب، د.ت.
16. التبريزي، محمد عبد الله الخطيب، **مشكاة المصابيح**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. بيروت: المكتب الإسلامي، 1985.
17. الجوهري، شاكر، **د. موسى أبو مرزوق: مشوار حياة... ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2019.
18. حتّي، فيليب، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة كمال اليازجي. بيروت: دار الثقافة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، 1959.

19. **حرب فلسطين 1947–1948 (الرواية الإسرائيلية الرسمية)**، ترجمه عن العبرية أحمد خليفة. قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1984.

20. الحسن، محمد، **موقف الإسلاميين من قضية فلسطين**. قطر: مكتبة الفتح ومكتبة الغزالي، 1995.

21. الحسيني، محمد أمين، **حقائق عن قضية فلسطين**، ط 2. القاهرة: مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين، 1957.

22. حلاق، حسان علي، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية** 1897–1909، ط 2. بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر، 1980.

23. الحمد، جواد، **عملية السلام في الشرق الأوسط: وتطبيقاتها على المسارين الفلسطيني والأردني**. عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1996.

24. الحمد، جواد، محرر، **انتخابات الحكم الذاتي الفلسطيني**. عمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1994.

25. حمدان، غسان، **الانتفاضة المباركة: وقائع وأبعاد**. الكويت: مكتبة الفلاح، 1989.

26. حمودة، سميح، **الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القاسم 1882–1935**، ط 2. عمّان: دار الشروق، 1986.

27. الحنبلي، مجير الدين، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**. عمّان: مكتبة المحتسب، 1973.

28. الحوت، بيان نويهض، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917–1948**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981.

29. الخالدي، إسماعيل، **60 عاماً في جماعة الإخوان المسلمين**. غزة: مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني، 2010.

30. خان، ظفر الإسلام، **تاريخ فلسطين القديم: 1220ق.م.–1359م منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي**. بيروت: دار النفائس، 1984.

31. خطاب، محمود شيت، **بين العقيدة والقيادة**.

32. الخطيب، محمد نمر، **من أثر النكبة**. دمشق: المطبعة العمومية، 1951.

33. خلف، علي حسين، **تجربة الشيخ عز الدين القسام**. عمّان: دار ابن رشد، 1984.

34. خلة، كامل، **فلسطين والانتداب البريطاني 1922—1939**. طرابلس، ليبيا: المنشأة العامة للنشر، 1982.

35. خليل، عماد الدين، **نور الدين محمود: الرجل والتجربة**. دمشق – بيروت: دار القلم، 1980.

36. الخولي، لطفي، **الانتفاضة والدولة الفلسطينية**. القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1988.

37. الدباغ، مصطفى مراد، **بلادنا فلسطين**. بيروت: دار الطليعة، 1975.
38. الدباغ، مصطفى مراد، **القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين**. بيروت: دار الطليعة، 1979.
39. الدباغ، مصطفى مراد، **من هنا وهناك**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986.
40. دروزة، محمد عزة، **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها**. بيروت: دار الكلمة، 1980.
41. دروزة، محمد عزة، **فلسطين وجهاد الفلسطينيين: في معركة الحياة والموت ضدّ بريطانيا والصهيونية العالمية 1917–1948**. القاهرة: دار الكتاب العربي، 1959.
42. دروزة، محمد عزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة: انبعاثها ومظاهرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى**. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، د.ت.
43. دوعر، غسان، **حرب الأيام السبعة: أسود حماس**. عمّان: منشورات فلسطين المسلمة، 1993.
44. دوعر، غسان، **عماد عقل**. عمّان: منشورات فلسطين المسلمة، 1994.
45. دوعر، غسان، **قواعد الشيوخ: مقاومة الإخوان المسلمين ضدّ المشروع الصهيوني 1968–1970**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2018.
46. دوعر، غسان، **موعد مع الشاباك: دراسة في النشاط العسكري لحركة حماس وكتائب عز الدين القسام خلال عام 1993**. لندن: منشورات فلسطين المسلمة، 1995.
47. الزعبي، محمد علي، **دفائن النفسية اليهودية**. بيروت: د.ن، 1968.
48. الزعنون، سليم، **السيرة والمسيرة: مذكرات سليم الزعنون أبو الأديب**. عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2013.
49. السباعي، مصطفى، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين**. د.م: دار النذير، 1985.
50. سليم، محمد عبد الرؤوف، **نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين: منذ إنشائها وحتى قيام دولة إسرائيل 1922–1948**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982.
51. سليمان، داود، **السلطة الوطنية الفلسطينية في عام 1994–1995**. عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1995.
52. شبير، محمد عثمان، **بيت المقدس وما حوله**. الكويت: مكتبة الفلاح، 1989.
53. الشريف، كامل، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين**. الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، 1984.
54. الشريف، كامل، **المقاومة السرية في قناة السويس**، ط 2. الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، 1984.
55. الشيخ خليل، نهاد، **حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة 1967–1987**. غزة: مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني، 2011.

56. الصابوني، محمد علي، **صفوة التفاسير**. بيروت: دار القرآن الكريم، 1981.
57. صالح، محسن محمد، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني – قطاع غزة 1949–1967**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2020.
58. صالح، محسن محمد، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد 1917–1948**. الكويت: مكتبة الفلاح، 1989.
59. صالح، محسن محمد، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2006**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2007.
60. صالح، محسن محمد، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009.
61. صالح، محسن محمد، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2009**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2010.
62. صالح، محسن محمد، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2012–2013**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014.
63. صالح، محسن محمد، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2014–2015**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2016.
64. صالح، محسن محمد، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2016–2017**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2018.
65. صالح، محسن محمد، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2018–2019**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2020.
66. صالح، محسن محمد، **دراسات منهجية في القضية الفلسطينية**. كوالالمبور: فجر أولونج، 2003.
67. صالح، محسن محمد، والقاسم، باسم جلال، محرران، **معركة "سيف القدس" وتداعياتها فلسطينياً وإسرائيلياً وعربياً ودولياً 10—21 أيار/ مايو 2021**، ملف معلومات 28. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2021.
68. صايغ، يزيد، **الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، 1949–1993**، ترجمة باسم سرحان. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2002.
69. الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، 1969.
70. العارف، عارف، **المفصل في تاريخ القدس**. القدس: فوزي يوسف، 1961.
71. العارف، عارف، **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود 1947–1952**. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1954.



72. عاشور، سعيد عبد الفتاح، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**. القاهرة: دار النهضة العربية، 1990.

73. عاشور، سعيد عبد الفتاح، **الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1986.

74. عاشور، فايد حماد، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي**. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988.

75. العامري، محمد أديب، **عروبة فلسطين في التاريخ**. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1972.

76. عبد الرحمن، أسعد، **منظمة التحرير الفلسطينية**. نيقوسيا: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، 1985.

77. عبد الرحمن، أسعد، والزرو، نواف، **الانتفاضة: مقدمات ونتائج، تفاعلات وآفاق**. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1989.

78. العبيدي، عوني، **ثورة الشهيد عز الدين القسام وأثرها في الكفاح الفلسطيني**. الزرقاء، (الأردن): مكتبة المنار، د.ت.

79. العبيدي، عوني، **حزب التحرير الإسلامي**. عمّان: دار اللواء، 1993.

80. العريني، السيد الباز، **الشرق الأدنى في العصور الوسطى (1) الأيوبيون**. د.م: دار النهضة العربية، د.ت.

81. العريني، السيد الباز، **المماليك**. بيروت: دار النهضة العربية، د.ت.

82. عزام، عبد الله، **حماس: حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين: الجذور التاريخية والميثاق**. بيشاور، باكستان: مكتب خدمات المجاهدين، 1989.

83. العسلي، بسام، **صلاح الدين الأيوبي**. بيروت: دار النفائس، 1983.

84. العسلي، جميل، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس: دراسة تاريخية لمقابر القدس وتربها وإثبات بأسماء الأعيان المدفونين فيها**. عمّان: مؤسسة آل البيت: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، 1981.

85. عطية، علي سعود، "الزعامة السياسية للمفتي الحاج أمين الحسيني بين عهدين: ثورة 1936 وما قبلها،" في **المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام "فلسطين"، المجلد الثالث: تاريخ فلسطين**. عمَّان: الجمعية العلمية الملكية، 1983.

86. علي، زياد محمود، **عداء اليهود للحركة الإسلامية**. عمّان: دار الفرقان، 1982.

87. علي، فلاح خالد، **فلسطين والانتداب البريطاني 1939–1948**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980.

88. عمران، محمود سعيد، **معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية**. بيروت: دار النهضة العربية، 1981.

89. عوض، عبد العزيز محمد، **مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث 1831–1914**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر – مكتبة المحتسب، 1983.

90. الغوري، أميل، **فلسطين عبر ستين عاماً**. بيروت: دار النهار، 1972.

91. فهمي، وليم، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين**. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.

92. قاسم، عبد الستار، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام**. بيروت: دار الأمة للنشر، 1984.

93. قاسمية، خيرية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908–1918**، سلسلة كتب فلسطينية، رقم 41. بيروت: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، 1973.

94. قطب، سيد، **الجهاد في سبيل الله**.

95. قطب، سيد، **في ظلال القرآن**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1971.

96. كمال، أحمد عادل، **الطريق إلى دمشق**. بيروت: دار النفائس، 1980.

97. كمال، أحمد عادل، **الطريق إلى المدائن**. بيروت: دار النفائس، 1986.

98. الكيالي، عبد الحميد، محرر، **دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009.

99. الكيالي، عبد الوهاب، **تاريخ فلسطين الحديث**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1985.

100. لوتسكي، فلاديمير، **تاريخ الأقطار العربية الحديثة**، ترجمة عفيفة البستاني. موسكو: دار التقدم، 1971.

101. **المؤتمر الإسلامي العام** (كتيب تعريفي). القدس: المكتب للمؤتمر الإسلامي العام، د.ت.

102. محمد، بلال، محرر، **إلى المواجهة: ذكريات د. عدنان مسودي عن الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وتأسيس حماس**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2013.

103. محمود، شفيق جاسر أحمد، **تاريخ القدس: العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية**. عمّان: دار البشير، 1984.

104. مسعد، بولس حنا، **همجية التعاليم الصهيونية**. بيروت: دار الكتاب العربي، 1969.

105. المسعودي، علي بن الحسين، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محيي الدين عبد الحميد. مصر: مطبعة السعادة، 1948.

106. المقدسي، ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد، **فضائل بيت المقدس**، تحقيق محمد مطيع حافظ، سلسلة فضائل الشام، رقم 2. دمشق: دار الفكر، 1985.

107. المناوي، **فيض القدير: شرح الجامع الصغير**. د.م: دار الفكر، 1972.

108.موسى، سليمان، **أيام لا تنسى: الأردن في حرب 1948**. الأردن: مطبعة القوات المسلحة الأردنية، 1982.

109.**الموسوعة الفلسطينية**، إشراف أحمد المرعشلي. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984.

110.المولى، سعود، **من فتح إلى حماس: البدايات الإخوانية والنهايات الوطنية**. جديدة المتن، لبنان: دار سائر المشرق، 2018.

111.النحال، محمد سلامة، **سياسة الانتداب البريطاني حول أراضي فلسطين العربية**. بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1981.

112.النواتي، مهيب، **حماس من الداخل**. غزة، فلسطين: دار الشروق، 2002.

113.نويهض، عجاج، **رجال من فلسطين**. بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1981.

114.هارون، عبد السلام، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ط 2. بيروت – الكويت: مؤسسة الرسالة – دار البحوث العلمية، 1979.

115.الهمذاني، رشيد الدين فضل الله، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج 1، نقله للعربية محمد صادق نشأت، ومحمد موسى هنداوي، وفؤاد عبد المعطي الصياد. الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة – دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

116.الواقدي، محمد بن عمر، **فتوح الشام**. بيروت: دار الجيل، د.ت.

117.ياسين، صبحي، **الثورة العربية الكبرى في فلسطين: 1936–1939**. القاهرة: وزارة الثقافة – دار الكتاب العربي، 1967.

118.ياسين، صبحي، **حرب العصابات في فلسطين**. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر – دار الكتاب العربي، د.ت.

119.ياسين، عبد القادر، **مجتمع الانتفاضة الفلسطينية**، سلسلة كتاب الأهالي، رقم 41. القاهرة، 1992.

120.يوسف، أحمد، **أحمد ياسين: الظاهرة المعجزة وأسطورة التحدي**. عمّان: دار الفرقان، 1990.

121.يوسف، جوزيف نسيم، **تاريخ الدولة البيزنطية**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د.ت.

122.يوسف، عماد، **الانعكاسات السياسية لاتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني**. عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1994.

سابعاً: مجلات ودوريات:

1. جريدة **الأردن**، عمّان.
2. جريدة **الأسبوع العربي**، باريس.
3. جريدة **الأسواق**، عمّان.
4. جريدة **البلاد**، عمّان.
5. جريدة **الحياة**، لندن.
6. جريدة **الدستور**، عمّان.
7. جريدة **الدفاع**.
8. جريدة **الرأي**، عمّان.
9. جريدة **السبيل**، عمّان.
10. جريدة **السفير**، بيروت.
11. جريدة **السياسة**، الكويت.
12. جريدة **الشرق الأوسط**، لندن.
13. جريدة **صوت الشعب**، عمّان.
14. جريدة **فلسطين**.
15. جريدة **القدس العربي**، لندن.
16. جريدة **المحرر**، باريس.
17. سارة، فايز، "الحركة الإسلامية في فلسطين: وحدة الأيديولوجيا وانقسام السياسية،" مجلة **المستقبل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 124، حزيران/ يونيو 1989.
18. الشيخ خليل، إبراهيم، "رسالة من مجاهد قديم: ذكريات مع القسام،" مجلة **شؤون فلسطينية**، العدد 7، آذار/ مارس 1972.
19. صالح، محسن محمد، "أضواء وثائقية على جماعة الإخوان المسلمين في القدس سنة 1946،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لبنان، المجلد 15، العدد 58، ربيع 2004.
20. مجلة **الدعوة**.
21. مجلة **فلسطين المسلمة**، لندن.
22. مجلة **قساميون**، وحدة الإعلام المقاوم — كتائب الشهيد عز الدين القسام.
23. مجلة **المجتمع**، الكويت.
24. مجلة **الوسط**، لندن.

25. المدهون، ربعي، "الحركة الإسلامية في فلسطين 1928–1987،" مجلة **شؤون فلسطينية**، مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، رام الله، العدد 187، تشرين الأول/ أكتوبر 1988.

26. الوزير، خليل، "حركة فتح: البدايات،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد 104، خريف 2015.

ثامناً: مواقع انترنت:

1. موقع الجزيرة.نت، انظر: https://www.aljazeera.net
2. موقع الجيش الإسرائيلي، انظر: http://www1.idf.il
3. موقع دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية، انظر: www.cbs.gov.il
4. موقع سرايا القدس، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، انظر: https://saraya.ps
5. موقع عرب 48، انظر: https://www.arab48.com
6. موقع قناة الميادين، انظر: https://www.almayadeen.net
7. موقع كتائب الشهيد عز الدين القسام، انظر: http://www.alqassam.ps
8. موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، انظر: http://www.pnic.gov.ps
9. موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني – وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية (وفا)، انظر: https://info.wafa.ps
10. موقع مكان – هيئة البث الإسرائيلي، انظر: https://www.makan.org.il
11. موقع وزارة الصحة الفلسطينية، انظر: https://www.moh.gov.ps
12. موقع وكالة الأناضول، انظر: https://www.aa.com.tr/ar
13. وكالة شهاب للأنباء، انظر: https://shehabnews.com
14. وكالة قدس برس إنترناشيونال للأنباء، انظر: https://www.qudspress.com

المراجع الأجنبية:

First: Unpublished Documents:

1. Despach, High Comissioner of Palestine to Secretary of State for the Colonies, 7/12/1935, Secret, C.O. (Colonial Office-London), 733/297/1.
2. Letter, British Embassy, Tel Aviv, to A.D.Ross, Eastern Department F.O., London, confidential, 14/4/1953, F.O. 371/104779.

3. Report on the Arab Movement & Zionism, by J. Camp, 12/8/1919, The National Archives (Public Record Office), London, Foreign Office, F.O. 371/4182.

Second: Official Report:

Issued by Government of Palestine:

1. The Palestine Police Force, *Annual Administrative Report 1935*. Jerusalem: Government Printing Press, n.d.

Third: Books:

1. Brynen, *Rex, Echoes of Intifada: Regional Reburcusions of Palestinian Israeli Conflict*. US: Westview Press, 1991.
2. Cobban, Helena, *The Palestinian Liberation Organization: People, Power & Politics*. US: Cambridge University Press, 1988.
3. Cohen, Amnon, *Political Parties in the West Bank under the Jordanian Regime 1949–1967*. London: Cornell University Press, n.d.
4. El-Awaisi, Abd al-Fattah M., *The Muslim Brothers and the Palestine Question 1928–1947*. London, New York: Tauris Academic Studies, 1998.
5. Hadas, Moses, *A History of Rome: from its Origin to 529 A.D.* US: Peter Smith, 1976.
6. Hart, Alan, *Arafat: A Political Biography*. Bloomington & Indianapolis (US): Indiana University Press, 1989.
7. Jones, A.H.M., *The Later Roman Empire 284–602*. Baltimore, US: Johns Hopkins University Press, 1986.
8. Marlowe, John, *Rebellion in Palestine*. London: The Cresset Press, 1946.
9. Morris, Benny, *Israelis Border Wars: 1949–1956*. New York, US: Oxford University Press, 1993.
10. Nevo, Joseph and Pappe, Ilan, eds., *Jordan in the Middle East 1948–1988: The Making of a Pivotal State*. London: Routledge, 2016.
11. Porath, Yehoshua, *The Emergence of Palestine of National Movement: 1918–1929*. London: Frank Cass Company Ltd., 1974.
12. Sykes, Christopher, *Cross Roads to Israel*. London: The New English Library, 1967.
13. Tamimi, Azzam, *Hamas: Unwritten Chapters*. London: Hurst & Co Publishers Ltd., 2006.

Fourth: Articles:

1. Schleifer, S. Abdullah, "The Life and Thought of Izziddin Al-Qassam," *The Islamic Quarterly*, vol. 23, no. 2, 1979.

Fifth: Websites and Newspapers:

1. Site of Ynetnews, https://www.ynetnews.com
2. *The Jerusalem Post* newspaper, https://www.jpost.com

فهرست

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

إصدارات مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

الإصدارات باللغة العربية:

أولاً: سلاسل الكتب (96 مجلداً وكتاباً):

1. **سلسلة التقرير الاستراتيجي الفلسطيني**، صدر من هذه السلسلة 12 مجلداً، تغطي الفترة 2005–2021.
2. **سلسلة الوثائق الفلسطينية**، صدر من هذه السلسلة 7 مجلدات، تغطي الفترة 2005–2011.
3. **سلسلة اليوميات الفلسطينية**، صدر من هذه السلسلة 9 مجلدات، تغطي الفترة 2014–2022.
4. **سلسلة أولست إنساناً**، صدر من هذه السلسلة 13 كتاباً.
5. **سلسلة تقرير معلومات**، صدر من هذه السلسلة 29 كتاباً.
6. **سلسلة ملف معلومات**، صدر من هذه السلسلة 11 كتب.
7. **سلسلة دراسات علميَّة محكَّمة**، صدر من هذه السلسلة 15 كتاباً.

ثانياً: كتب عامة (94 كتاباً):

1. وائل سعد، **الحصار: دراسة حول حصار الشعب الفلسطيني ومحاولات إسقاط حكومة حماس**، 2006.
2. محمد عارف زكاء الله، **الدين والسياسة في أميركا: صعود المسيحيين الإنجيليين وأثرهم**، ترجمة أمل عيتاني، 2007.
3. أحمد سعيد نوفل، **دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي**، 2007، ط 2، 2010.
4. محسن محمد صالح، محرر، **منظمة التحرير الفلسطينية: تقييم التجربة وإعادة البناء**، 2007.
5. محسن محمد صالح، محرر، **قراءات نقدية في تجربة حماس وحكومتها 2006–2007**، 2007.
6. خالد وليد محمود، **آفاق الأمن الإسرائيلي: الواقع والمستقبل**، 2007.
7. حسن ابحيص ووائل سعد، **التطورات الأمنية في السلطة الفلسطينية 2006–2007**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (1)، 2008.
8. محسن محمد صالح، محرر، **صراع الإرادات: السلوك الأمني لفتح وحماس والأطراف المعنية 2006–2007**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (2)، 2008.
9. مريم عيتاني، **صراع الصلاحيات بين فتح وحماس في إدارة السلطة الفلسطينية 2006–2007**، 2008.

10. نجوى حساوي، **حقوق اللاجئين الفلسطينيين بين الشرعية الدولية والمفاوضات الفلسطينية-الإسرائيلية**، 2008.
11. محسن محمد صالح، محرر، **أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان**، 2008، ط 2، 2012.
12. إبراهيم غوشة، **المئذنة الحمراء**، 2008، ط 2، 2015.
13. عدنان أبو عامر، مترجم، **دروس مستخلصة من حرب لبنان الثانية (تموز 2006): تقرير لجنة الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلي**، 2008.
14. عدنان أبو عامر، **ثغرات في جدار الجيش الإسرائيلي**، 2009.
15. قصي أحمد حامد، **الولايات المتحدة والتحول الديموقراطي في فلسطين**، 2009.
16. أمل عيتاني وعبد القادر علي ومعين منّاع، **الجماعة الإسلامية في لبنان منذ النشأة حتى 1975**، 2009.
17. سمر جودت البرغوثي، **سمات النخبة السياسية الفلسطينية قبل وبعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية**، 2009.
18. عبد الحميد الكيالي، محرر، **دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان**، 2009.
19. عدنان أبو عامر، مترجم، **قراءات إسرائيلية استراتيجية: التقدير الاستراتيجي الصادر عن معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي**، 2009.
20. سامح خليل الوادية، **المسؤولية الدولية عن جرائم الحرب الإسرائيلية**، 2009.
21. محمد عيسى صالحية، **مدينة القدس: السكان والأرض (العرب واليهود) 1275-1368هـ/ 1858-1948م**، 2009.
22. رأفت فهد مرة، **الحركات والقوى الإسلامية في المجتمع الفلسطيني في لبنان: النشأة - الأهداف - الإنجازات**، 2010.
23. سامي الصلاحات، **فلسطين: دراسات من منظور مقاصد الشريعة الإسلامية**، ط 2 (تمّ النشر بالتعاون مع مؤسسة فلسطين للثقافة)، 2010.
24. محسن محمد صالح، محرر، **دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس**، 2010.
25. مأمون كيوان، **فلسطينيون في وطنهم لا دولتهم**، 2010.
26. محسن محمد صالح، **حقائق وثوابت في القضية الفلسطينية: رؤية إسلامية**، 2010، طبعة مزيدة ومنقحة ومصورة، 2020.
27. عبد الرحمن محمد علي، محرر، **إسرائيل والقانون الدولي**، 2011.
28. كريم الجندي، **صناعة القرار الإسرائيلي: الآليات والعناصر المؤثرة**، ترجمة أمل عيتاني، 2011.
29. وسام أبي عيسى، **الموقف الروسي تجاه حركة حماس: 2006-2010**، 2011.

30. سامي محمد الصلاحات، **الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي**، 2011.
31. نادية سعد الدين، **حق عودة اللاجئين الفلسطينيين بين حل الدولتين ويهودية الدولة**، 2011.
32. عامر خليل أحمد عامر، **السياسة الخارجية الإسرائيلية تجاه إفريقيا: السودان نموذجاً**، 2011.
33. إبراهيم أبو جابر وآخرون، **الداخل الفلسطيني ويهودية الدولة**، 2011.
34. عبد الرحمن محمد علي، **الجرائم الإسرائيلية خلال العدوان على قطاع غزة: دراسة قانونية**، 2011.
35. نائل إسماعيل رمضان، **أحكام الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي: دراسة فقهية مقارنة**، 2012.
36. حسني محمد البوريني، **مرج الزهور: محطة في تاريخ الحركة الإسلامية في فلسطين**، 2012.
37. غسان محمد دوعر، **المستوطنون الصهاينة في الضفة الغربية: الاعتداء على الأرض والإنسان**، 2012.
38. دلال باجس، **الحركة الطلابية الإسلامية في فلسطين: الكتلة الإسلامية نموذجاً**، 2012.
39. وائل عبد الحميد المبحوح، **المعارضة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) 1994–2006: دراسة تحليلية**، 2012.
40. محسن محمد صالح، محرر، **أزمة المشروع الوطني الفلسطيني والآفاق المحتملة**، 2013.
41. بلال محمد، محرر، **إلى المواجهة: ذكريات د. عدنان مسودي عن الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وتأسيس حماس**، 2013.
42. أحمد جواد الوادية، **السياسة الخارجية الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية 2001–2011**، 2013.
43. ناصر عبد الله عبد الجواد، **الديموقراطية الزائفة والحصانة المسلوبة: زفرات نائب عن الضفة الغربية في المجلس التشريعي الفلسطيني**، 2013.
44. عبد الله عياش، **جيش التحرير الفلسطيني وقوات التحرير الشعبية ودورهما في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي 1964–1973**، 2014.
45. محسن محمد صالح، **مدخل إلى قضية اللاجئين الفلسطينيين** (تمّ النشر بالتعاون مع أكاديمية دراسات اللاجئين)، 2014.
46. محسن محمد صالح، محرر، **حركة المقاومة الإسلامية (حماس): دراسات في الفكر والتجربة**، 2014، ط 2، 2015.

47. محسن محمد صالح، محرر، **منظمة التحرير الفلسطينية والمجلس الوطني الفلسطيني: تعريف – وثائق – قرارات**، 2007، ط 2، 2014.

48. ماهر ربحي نمر عبيد، **البناء التنظيمي والفصائلي للأسرى الفلسطينيين في سجن النقب**، 2014.

49. محسن محمد صالح، محرر، **قطاع غزة: التنمية والإعمار في مواجهة الحصار والدمار**، 2014.

50. محسن محمد صالح، محرر، **السلطة الوطنية الفلسطينية: دراسات في التجربة والأداء 1994–2013**، 2015.

51. عطا محمد زهرة، **البرنامج النووي الإيراني**، 2015.

52. باسم القاسم، **صواريخ المقاومة في غزة: سلاح الردع الفلسطيني**، 2015.

53. رائد نعيرات وسليمان بشارات، **النظام السياسي الفلسطيني: إشكاليات الإصلاح وآليات التفعيل**، 2016.

54. رامي محمود خريس، **الخطاب الصحفي الفلسطيني تجاه المقاومة الفلسطينية: دراسة تحليلية وميدانية مقارنة**، 2016.

55. فرحان موسى علقم، **النزاع على السيادة في فلسطين في ظلّ اتفاقيات أوسلو: المخزون المائي في الضفة الغربية نموذجاً**، 2016.

56. خلود رشاد المصري، **النسوية الإسلامية ودورها في التنمية السياسية في فلسطين**، 2016.

57. باسم القاسم وربيع الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (1) التغيرات الدستورية والانتخابات**، 2016.

58. باسم القاسم وربيع الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (2) الأحزاب والقوى السياسية**، 2016.

59. باسم جلال القاسم، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (3) الأداء الاقتصادي**، 2016.

60. باسم جلال القاسم، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (4) الأداء الأمني والقضائي**، 2016.

61. ربيع محمد الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (5) الأداء الإعلامي**، 2016.

62. ربيع محمد الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (6) السياسة الخارجية**، 2016.

- **ملاحظة:** تمّ جمع الكتب الستة السابقة في مجلد بعنوان **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة**، وصدر عن المركز في 2016.

63. أحمد حامد البيتاوي، **العملاء والجواسيس الفلسطينيون: عين إسرائيل الثالثة**، 2016.
64. عدنان أبو عامر، **منظومة الأمن الإسرائيلي والثورات العربية**، 2016.
65. أشرف عثمان بدر، **إسرائيل وحماس: جدلية التدافع والتواصل والتفاوض 1987–2014**، 2016.
66. أمل عيتاني ورنا سعادة وفاطمة عيتاني، معدّون، محسن محمد صالح، محرر، **الجماعة الإسلامية في لبنان 1975–2000**، 2017.
67. بلال محمد شلش، محرر، **سيدي عمر: ذكريات الشيخ محمد أبو طير في المقاومة وثلاثة وثلاثين عاماً من الاعتقال**، 2017.
68. أحمد خالد الزعتري، **العلاقات التركية الإسرائيلية 2002–2016**، 2017.
69. خالد إبراهيم أبو عرفة، **المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي في بيت المقدس 1987–2015**، 2017.
70. سعيد طلال الدهشان، **كيف نقاضي إسرائيل؟: المقاضاة الدولية لإسرائيل وقادتها على جرائمهم بحق الفلسطينيين**، 2017.
71. قتيبة وليد غانم، **الأصولية الدينية في الجيش الإسرائيلي: الأسباب والتداعيات على "الديموقراطية في إسرائيل" 1995–2014**، 2018.
72. وائل خالد أبو هلال، **حوارات في تاريخ الحركة الإسلامية في فلسطين المحتلة سنة 1948 مع الشيخ رائد صلاح**، 2018.
73. عبد الحكيم حنيني، **منهجية حركة حماس في العلاقات الخارجية: سورية نموذجاً 2000–2015**، 2018.
74. غسان محمد دوعر، **قواعد الشيوخ: مقاومة الإخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني 1968–1970**، 2018.
75. محمد أكرم بلعاوي وحسان عمران، **تفكيك الخطاب الموالي لإسرائيل: الهند نموذجاً**، 2019.
76. عزام عبد الستار شعث، **توجهات النخبة السياسية الفلسطينية نحو الصراع العربي – الإسرائيلي (دراسة تحليلية ميدانية)**، 2019.
77. شاكر الجوهري، **د. موسى أبو مرزوق: مشوار حياة: ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال**، 2019.
78. أحمد مبارك الخالدي وأنيس فوزي قاسم، **رأي استشاري في حل المجلس التشريعي الفلسطيني**، 2019.
79. شادي سمير عويضة، **استغلال الغاز الطبيعي في حوض شرق البحر المتوسط وعلاقته بالنفوذ الإسرائيلي في المنطقة**، 2019.

80. محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني – قطاع غزة 1949–1967**، 2020.
81. إيمان أبو الخير، **اعتداءات الاحتلال الإسرائيلي على المرأة في الأراضي الفلسطينية المحتلة 1967 (1967–2019)**، 2020.
82. بلال ياسين، **د. موسى أبو مرزوق: في العمق: قراءة في الفكر الحركي والسياسي لأول رئيس مكتب سياسي لحركة حماس 1997–2017**، 2020.
83. سعيد محمد بشارات، **دور تيارات الصهيونية الدينية في الحياة السياسية في إسرائيل 2000–2019**، 2021.
84. شيرين طارق عيساوي، **المسؤولية الجنائية الفردية عن الانتهاكات الجسيمة بحق الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين بموجب القانون الدولي العام**، 2021.
85. محسن محمد صالح، **القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة**، 2012، طبعة مزيدة ومنقحة، 2022.
86. محمد بلعيشة، **الصفقات الفاوستية: التغلغل الإسرائيلي في جمهوريات آسيا الوسطى**، 2022.
87. محسن محمد صالح، **أوهام في العمل الفلسطيني**، 2022.
88. محسن محمد صالح، محرر، **دراسات في التطبيع مع الكيان الصهيوني: الدراسات الفائزة في المسابقة البحثية الدولية "لا للتطبيع"**، 2022.
89. عبد اللطيف خضر سده، **الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية من منظور القانون الدولي**، 2022.
90. محمد عبد ربه مطر، **الطريق إلى صفقة وفاء الأحرار: "صفقة شاليط" 2006–2011**، 2022.
91. **خمسة آلاف يوم في عالم البرزخ: مذكرات الأسير حسن عبد الرحمن سلامة في العزل الانفرادي داخل السجون الإسرائيلية**، 2022.
92. وليد عبد الحي، **دراسات مستقبلية في العلاقات الدولية: نماذج تطبيقية**، 2023.
93. إسلام شحدة العالول، **التطهير العرقي ضدّ الشعب الفلسطيني: فعل استعماري استيطاني صهيوني محوري ومستمر**، 2023.
94. محسن محمد صالح، **الطريق إلى القدس: دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى القرن الحادي والعشرين**، ط 5، 2014، ط 6، 2023.

الإصدارات باللغة الإنجليزية:

First: Serial Publications (24 Volumes and Books):

1. **The Palestine Strategic Report Series**, 12 Volumes (2005–2021).
2. **Am I Not a Human? Book Series**, 12 Books.

Second: Non-Serial Publications (14 Books):

1. Muhammad Arif Zakaullah, *Religion and Politics in America: The Rise of Christian Evangelists and Their Impact*, 2007.
2. Mohsen Mohammad Saleh and Ziad al-Hasan, *The Political Views of the Palestinian Refugees in Lebanon as Reflected in May 2006*, 2009.
3. Ishtiaq Hossain and Mohsen Mohammad Saleh, *American Foreign Policy & the Muslim World*, 2009.
4. Ibrahim Ghusheh, *The Red Minaret: Memoirs of Ibrahim Ghusheh (Ex-Spokesman of Hamas)*, 2013.
5. Mohsen Mohammad Saleh, editor, *Gaza Strip*: *Development and Construction in the Face of Siege and Destruction*, 2014. (electronic book)
6. Muslim Imran Abu Umar, *Egypt, Syria and the War on Gaza: A Study on the Egyptian and Syrian Foreign Policy Responses to the 2008/2009 Gaza War*, 2015.
7. Mohsen Mohammad Saleh, editor, *Islamic Resistance Movement (Hamas): Studies of Thought & Experience*, 2017.
8. Karim El-Gendy, *The Process of Israeli Decision Making: Mechanisms, Forces and Influences*, 2nd ed., 2019.
9. Mohsen Mohammad Saleh, *Introduction to the Issue of Palestinian Refugees*, 2019.
10. Mohsen Mohammad Saleh, editor, *The Palestinian National Authority: Studies of the Experience and Performance 1994–2013*, 2019.
11. Mohsen Mohammad Saleh, *Basic Facts on The Palestine Issue*, 2021. (Updated and Illustrated Version)
12. Mohsen Mohammad Saleh, *The Palestinian Muslim Brothers: Al-Tanzim al-Filastini – Gaza Strip 1949–1967*, 2021.
13. Mohsen Mohammad Saleh, *The Palestine Issue: Historical Background and Contemporary Developments*, 2014, revised and updated version, 2022.
14. Mohsen Mohammad Saleh, *Illusions in the Palestinian Politics*, 2022.

The Road to Jerusalem

A Historical Study of the Islamic Experience in the Land of Palestine From the Time of the Prophets to the Twenty First Century

هذا الكتاب

فلسطين... الأرض المباركة، ساحة الصراع الدائم بين الحق والباطل، منذ أن رفع إبراهيم عليه السلام راية الحق والتوحيد فيها وأجيال الأنبياء والصالحين والشهداء تتوارثها وتتداولها، تحافظ على هويتها وأصالتها. كلما أَنَّت الأرض المقدسة من وطأة الغاصبين، كلما جاء من أهل الحق من يجلو عنها الظلام، لتشرق من جديد بنور التوحيد.

هذا الكتاب... يستعرض التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء إلى عصرنا (حتى سنة 2022)، يدرس الفتح الإسلامي لفلسطين، وتجربة تحريرها من أيدي الصليبيين والتتار، ويستقرئ واقعها الحديث والمعاصر منذ أواخر الدولة العثمانية؛ ويسلّط الضوء على دور التيار الإسلامي في الانتفاضات والثورات والعمل المقاوم، ضد الاحتلال البريطاني والكيان الصهيوني، بما في ذلك أدوار الحاج أمين الحسيني، وحركة القسام "الجهادية" والإخوان المسلمين وحماس والجهاد الإسلامي...

إنه دعوة لاحتفاظ الأمة بأصالتها والإصرار على حقها، وتأكيد على أن الكيان الصهيوني الغاصب إنما هو مرحلة من تاريخ الصراع وحلقة من سلسلته، وسيزول كما زال من سبقه من أهل الباطل، عندما تثوب الأمة المسلمة إلى رشدها وتستجمع عوامل قوتها ووحدتها ونهضتها.

هذا الكتاب... يستجيب لرغبة الكثير من القراء في التعرف على مجمل تاريخ فلسطين وقضيتها من وجهة نظر إسلامية، وهو كتاب أكاديمي موثّق من الناحية العلمية، حافل بالمعلومات، ولكنه جاء سهلاً بعيداً عن الجفاف والجمود، كما سعى لأن يستلهم مواطن العبرة والعظة، دونما حاجة لخطابة عاطفية أو إنشاء.


ISBN 978-614-494-036-5



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 5034-14 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net





مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت